وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الملاك الأبيض

رواية

تأليف: خوسيه لويس سامبيدرو
ترجمة: غزوان الزّركلي

روايات مختارة ٩

الملاك الأبيض

الملاك الأبيض

رواية في ستين فصلاً

تأليف: خوسيه لويس سامبيدرو
ترجمة: غزوان الزّركلي

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٣

تمّت الترجمة العربية عن الترجمة الألمانية للأصل الإسباني:
اسم الكاتب José Luis Sampedro
العنوان الأصلي (Das Etruskische Lächeln) الابتسامة الإتروسكية(*)
المترجم Roberto de Hollanda
دار النشر Wilhelm Goldmann Verlag Münchem
مكان وتاريخ الطبعة الألمانية Münchem 2004 (الطبعة الثانية عشرة)
مكان وتاريخ الطبعة الإسبانية Ediciones Alfaguara, Madrid 1985
إهداء الكاتب A Miguel y Pita Paflo (إلى ميغيل وبيتا بافلو)
صورة الغلاف من الإنترنت. تصوّر التمثال الذي تتحدث الرواية عنه.

(*) نشأت الحضارة الإتروسكية في وسط إيطالية وأخذت اسمها من الاسم اللاتيني للمنطقة الجغرافية. سبقت الحضارة الرومانية مباشرة.

الملاك الأبيض : رواية في ستين فصلاً / تأليف خوسيه لـــويس سامبيدرو؛ ترجمة غزوان الزركلي .- دمـــشق: الهيئـــة العامـــة السورية للكتاب، ٢٠١٣ .- ٣٦٠ ص؛ ٢٤ سم.

(روايات مختارة؛ ٩)

١ - ٨٦٣ س ا م م ٢- العنوان ٣- سامبيدرو
٤ - الزركلي ٥- السلسلة
مكتبة الأسد

روايات مختارة

«٩»

وضعنا في آخر الكتاب خريطة لإيطالية تبيّن التسميات الجغرافية الواردة في هذه الرواية، وكذلك المنطقة التي أقام عليها الإتروسكيون حضارتهم .

جميع هوامش الكتاب بقلم المترجم .

جميع الإضافات بين قوسين حادَّيْن [ ] بقلم المترجم .

جرتْ مراجعة هذه الرواية من الناحية الأدبية من قبل الدكتورة سنا درّوس، طبيبة التخدير في المشفى الفرنسي بدمشق .

الكاتب

ولد خوسيه لويس سامبيدرو [سان بيدرو: القديس بطرس] في مدينة برشلونة عام ١٩١٧ لأب كوبيّ وأم جزائرية وقضى معظم طفولته ومراهقته في مدينة طنجة المغربية، وقادته الدراسة –مع انقطاع سببته الحرب الأهلية [الإسبانية]– إلى مدريد، حيث عمل أيضاً في الجامعة وفي الاقتصاد وفي السياسة.

أصبح سامبيدرو بدءاً من عام ١٩٩٠ عضواً في الأكاديمية الملكية الاسبانية، ويكتب إلى جانب الروايات نصوصاً مسرحية. يعتبر خوسيه لويس سامبيدرو واحداً من أهم الكتاب باللغة الاسبانية ومن أكثرهم نجاحاً في عصرنا الحالي.

المترجم

عازف بيانو عربي محترف، مؤلف وكاتب موسيقي، ولد في دمشق عام ١٩٥٤. تدرّج في سلك التعليم الجامعي ليصبح أستاذاً في كل من فايمار/ألمانيا (١٩٨٨) ودمشق (٢٠٠١) وخبيراً (القاهرة ٢٠٠٣).

فاز في عدة مسابقات دولية في العزف على البيانو وحصل على عدة جوائز محلية ودولية. محكّم دولي في مسابقات العزف على البيانو، مثّل سورية عازفاً منفرداً على البيانو في ٢٦ بلداً ويحمل الجنسية الألمانية.

له أسطوانات ليزرية (عزف منفرد – موسيقى حجرة – تأليف) وكتب هي: معارك قيس وليلى (ترجمة)، دار كنعان، دمشق ٢٠٠٤. "الجميل" في فن النغم (ترجمة)، الهيئة العامة للكتاب، دمشق ٢٠٠٩. الصوت والزمن (تأليف)، الهيئة العامة للكتاب ودار البعث، دمشق ٢٠١٠ (ضمن سلسلة كتب للناشئة). عن الموسيقى والموسيقيين (تأليف)، الهيئة العامة للكتاب، دمشق ٢٠١١ (الكتاب الإلكتروني).

كلمة المترجم

في حياة كل منّا وُجدت كتب قليلة أدخلت "النور" إلى قلوبنا وهدتنا إلى ما نبحث عنه وما كنّا نعرف من قبل أننا نبحث عنه. وهذا الكتاب هو برأيي واحد منها. وإنها لرسالة نبيلة أن نُشرك الآخرين من حولنا بهذا "الفتح" وأن نحيطهم بهذا "العرفان"؛ ومن هم أولى بالمعروف أكثر من ذوي القربى الناطقين بالضاد؟

قرأتُ هذه الرواية منذ سنوات طويلة، وظلت باقية وحاضرة في وجداني حالماً بترجمتها ولو بعد حين. وقد يكون شَبَهُ البطل سالفاتوره رونكونه، الفلاّح الإيطالي المرتبط بالأرض، المدافع عن الموطن، بالغ الذكورية، المحب لإقرار العدل ولو عن طريق الحميّة والأخذ بالثأر، قد يكون شَبه هذا البطل بالرجل العربي هو أوّل ما دفعني للتفكير بنقل هذه التجربة الإنسانية إلى اللغة العربية.

ولا شك أن الفن المحترف في النهاية، وعبر خصوصية العصر والجغرافية والمجتمع، يبغي الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الناس معمماً التجربة البشرية. وهنا نتعرف إلى قصة حبّ مميزة قد تكون أجمل ما يمكن أن يعيشه إنسان، ونتذوّق فناً عالياً يهتمّ بالتفاصيل، ويحرص على تعددية الشخصيات وصراعها، ويخلق بناءً أدبياً درامياً متوازناً، متدرّجاً وتصاعدياً في ربطه ما بين المقدمات والنتائج وبين الافتتاحية والقفلة الفنيّتين لهذه الرواية العميقة والمؤثرة.

أخيراً أقدم شكري الجزيل لصديقي النحّات عاصم الباشا الذي قارن هذا النص العربي المترجم من الألمانية مع النص الأصلي الإسباني، وصديقي الأستاذ ياسر المالح الذي نقّح النص من شوائب الزلاّت اللغوية.

عسى أن تساعد الشواهد الكثيرة في وضع القارئ في جوّ أحداث الرواية الجارية في إيطالية، وعسى أن أكون قد تمكنت من نقل هذا الصرح الأدبي بكل أمانة.

دمشق في شتاء ٢٠١٢

غزوان الزركلي

عازف بيانو

أ.د. في الموسيقى

إهداء المترجم

أهدي هذا الكتاب لولديّ ممدوح ومالك، راجياً أن يعيشا عمرهما بأفضل مما عشته أنا. وأهدي هذا الكتاب إلى تيسير السعدي، فنّان الشعب السوري، شاكراً له ما علّمني إيّاه من حبّ للحياة واحترام للإنسان.

غزوان

١

في متحف جوليا[١] للمعروضات الإتروسكية[٢] يقوم الحارس بجولته المعتادة في القسم رقم ٥. انقضى الصيف وانحسرت أمواج السياح: لقد رجع الإيقاع العادي الرتيب. ولكن زائراً معيناً يثير انتباه الحارس الذي يعود إلى ذات الصالة الصغيرة بفضول زائد. هي الصالة التي تعرض "تمثال الزوجين". فهل هذا الزائر هناك الآن في هذه اللحظة؟ ويحث الحارس الخطى لكي يتأكد ملقياً بنظراته الفاحصة.

ها هو هناك. إنه جالس على المقعد الذي يمكن من موقعه تأمّل المدفن الإتروسكي المصنوع من الآجر والذي يتوسط مشهد المقابر الأثرية. إنه فخر القطع المعروضة في المتحف. يبرز هذا المدفن في جوٍ بني مائلٍ إلى الصفرة – يهدف إلى الإيحاء بالمشهد الأصلي– ، يبرز وكأنه موضوع فيٍ قفصٍ زجاجي استثنائي.

نعم، الزائر هناك بالفعل ويجلس منذ نصف ساعة دون حراك، وكأنه كالشخصين المعروضَين "مشوي" من النار والزمن. إن قبعته البنية وبشرة وجهه الملوّحة بالشمس تذكّران بتمثال نصفي مصنوع من الطين، رأس ينهض مرتفعاً من ياقة قميص أبيض لا تحدّها ربطة عنق. هكذا هي العادة عند المسنين من أهل جبال "أبوليا"[٣] هناك في الجنوب أو من منطقة "كالابريا"[٤].

'ماذا يرى بحق الرب في هذا النصب؟' يتساءل الحارس. ولأنه لا يمكنه الوصول إلى جواب شاف يبقى الحارس متحسباً، غير جازم، يقف ليحسم أمر هذا الصباح،

١. Villa Giulia

٢. نشأت الحضاة الإتروسكية في وسط إيطالية وأخذت اسمها من الاسم اللاتيني للمنطقة الجغرافية. سبقت هذه الحضارة الحضارة الرومانية مباشرة.

٣. Apulia

٤. Calabria

لعله يأتي بمفاجأة لا ككل الأصباح المعتادة، ولعله يبدأ عادياً وينتهي في العادة على خير. ولكن الحارس رغم كل شيء لا يتجرأ على عبور الصالة المعنية، يمنعه حذرٌ لا يمكنه تبريره. وهكذا، يقف الحارس على عتبة الصالة يتابع الزائر المسنّ بنظره. ولكن الزائر الشيخ لا يحسّ بوجوده ويتابع تأمّله لتمثال الرجل والمرأة المنحوت فوق التابوت[1]. تضطجع المرأة متكئة على مرفقها الأيسر ويتدلى شعرها المعقود بضفيرتين على صدرها. وباتجاه وجهها ذي الشفتين الممتلئتين تتحرك يدها اليمنى اللعوب. أما الرجل الذي يرتاح خلفها ويأخذ الوضع ذاته فيمتلك لحية مدببة تكشف عن فم يعرف ملذّات الحياة وينشر ساعده الأيمن حول كتف المرأة.

إن التمثالين الآجريّين ذوي اللون المائل إلى الاحمرار يبرزان من خلفية تاريخية سحيقة مظلمة، دون أن تستطيع السنون النيل منهما. وتحت العيون اللوزية المتباعدة تتألق في كلا الوجهين ذات الابتسامة التي تفوق الوصف، المليئة بالأسرار والحكمة والرقة والفتنة. الإضاءة المخفية تظهر بفنية عالية أطراف التمثالين، وتوهم لعبة الضوء والظل بشكل مثير للعجب أنهما من لحم ودم.

في الوقت ذاته وتحت الضوء الخافت تظهر للحارس هيئة الشيخ المتجمدة في مكانها وكأنها تمثال. 'هل هو مسحور؟'، يتساءل الحارس بعفوية ثم يقنع نفسه بأن كل شيء على ما يرام. أما لسان حال المسنّ فيقول، كما هو الحال عند أهل الريف، إنه الآن يشعر فقط بالتعب، ويحقّ له أن يجلس ما دام قد دفع ثمن تذكرة الدخول. وهكذا يستمر الحارس في جولته بعد انتظار لم يحدث فيه أي شيء. يمر الوقت، وتبرز في الجو أكثر فأكثر ثلاثة أشكال موجودة في المدفن: الشيخ والرجل والمرأة، إلى أن يفك السحر رجل شاب يقترب من الشيخ.

"أخيراً، أبتاه! لنمضِ! إنني أعتذر عن ترككم تنتظرونني،[2] ولكن هذا المدير، ..." ينظر الأب إلى الابن ويفكر 'الصبي المسكين، دائماً في عجلة ودائماً في اعتذار!

١. كما في حضارة تدمر (الهلنستية) تُنحت تماثيل الأشخاص المتوفين فوق التابوت الحجري.

٢. يتحدث الابن إلى أبيه بصيغة الجمع، الشيء الذي يظهر طريقة تربيته الريفية في منطقة كالابريا.

أهذا هو ابني حقاً؟'
"انتظر! قل لي، ما هذا؟" سأل الأب ابنه.
"هذا هنا؟ '"الزوجان" تمثالا التابوت الإتروسكي."
"تابوت؟ صندوق يوضع فيه الأموات!"
"نعم. ولكننا الآن يجب أن نرحل فعلاً."
"هل دفنوهما في الحقيقة على هذا الشكل، الذي يظهران فيه على الأرائك متكئين؟"
"هذا يسمى تريكلينيوم[١]. كان الإتروسكيون يأكلون وهم متكئون، كما عند الرومان أيضاً. وفي الواقع لم يكونوا يوارون الثرى. لقد كانت التوابيت توضع في مدفن وكان المدفن يزيَّن من الداخل كما تُرسم حيطان المنزل."
"كمدفن الأمير مالفاتي[٢] في روكاّسيرا.[٣]"
"تماماً. وستستطيع أندريا[٤] بالتأكيد أن تشرحه لكم بشكل أفضل. فأنا لست آثارياً."
ويرمقه الأب بنظرة مستغربة "زوجتك؟ حسناً، سأسألها."
"أتهتمون بذلك بهذا القدر؟" ويرنو مجدداً إلى ساعته.
"طريقنا إلى ميلانو لم يزل طويلاً. أرجوك يا أبتاه!"
وببطء ينهض الشيخ من جلسته على المقعد دون أن يرفع نظره عن "الزوجين".
"كانوا يدفنوهم وهم منهمكون في طعامهم!" هكذا كان يتمتم تعجباً ويتبع ابنه دون أن تكون له رغبة في ذلك.
وعند المخرَج يغيّر الشيخ الموضوع.
"لم تكن الأمور حسنة عند المدير، أليس كذلك؟"
وتتقلب سحنة الابن.

---

١. Triclinium عند قدماء الرومان، وهو مربع مفتوح يوضع الطعام في داخله (كما في الجلسة البدوية).
٢. Malfatti
٣. Roccasera: اسم قرية قريبة من مدينة كاتانزارو، لم نجدها على الخرائط المتوافرة عندنا. وقد تكون التسمية مخترعة من قبل الكاتب.
٤. Andrea

"يعني. المعتاد كما تعرفون. وعود كبيرة في البداية ثم. . . لقد امتدح أندريا كثيراً، هذا شيء يجب علي قوله. حتى إنه كان قد قرأ مقالها الأخير."

وهنا تذكر المسنّ كيف أنه بعد انتهاء الحرب بقليل جاء إلى روما مع أمبروزيو[١] ومع فدائيّ آخر، (هذا الألباني الذي كان ماهراً في الرماية، ما كان اسمه؟ تبّاً لهذه الذاكرة)، جاؤوا ليقنعوا أحد موظفي الحزب بضرورة الإصلاح الزراعي لمنطقة السيلا [٢] الصغيرة.

"هل رافقك إلى الباب وربّت مودّعاً على كتفيك؟"

"نعم، بالطبع. لقد كان فعلاً لطيفاً جداً."

وابتسم الابن في حين قطّب الأب حاجبيه وقال في نفسه، كما في الماضي تماماً.

'لم يتحرك السياسيون في روما ليفعلوا شيئاً ما إلاّ بعدما سقط ثلاثة قتلى في مسيرة الاحتجاج في ميليسّا[٣] قرب سانتا سيفيرينا[٤].'

يصل الاثنان إلى مرآب السيارات ويصعدان إلى سيارتهما. يضع الشيخ حزام الأمان حول جسمه.

"كل شيء في سبيل المال" يدمدم الشيخ بينه وبين نفسه بصوت خفيض.

"لا يستطيع الإنسان اليوم حتى أن يموت كما يشتهي!"

ويتركان روما مسافرين على أوتوستراد ديل سوله[٥]. وبعد أن دفعا رسوم الأوتوستراد بقليل، يلفّ الأب لنفسه سيجارة بكل تروٍ ويعود إلى موضوعه.

"هل دفنوهما معاً فعلاً؟"

"من يا أبتاه؟"

"الزوجان، الإتروسكيان."

---

١. Ambrosio

٢. Sila

٣. Melissa

٤. Santa Severina

٥. Autostrada del Sole

"لا أعرف، ربما."
"كيف؟ إنهما لم يموتا في وقت واحد، أليس كذلك؟"
"لا. يبدو الأمر كذلك. لا أعرف. إذا ضغطتم على الزر، ستخرج لكم المِشعَل. لماذا لا يعمل النابض؟"

يشعل المسن في تجويف يده وبشكل محترف عود ثقاب، ويسحب ببطء أول سحبة بعد أن يلقي بالعود من النافذة. هدوء لا يشوّشه إلاّ صوت محرك السيارة وأزيز الدواليب، ومن وقت لآخر صوت لزمّور ثقيل الدم. وتستيقظ عند الابن من خلال رائحة التبغ الأسود ذكريات عن الطفولة. وبشكل غير ملحوظ ينزل زجاج النافذة قليلاً. أما الأب فيتفرّس في ملامح وجه ابنه الدقيقة، التي لم يتعود عليها أبداً. وراثة عن الأمّ تزداد مع مرور السنين وضوحاً. إن ابنه قائد سيارة يُعوّل عليه، إذ يركز باستمرار على الطريق. نعم، لقد كان دائماً صاحب مسؤولية.

"لماذا كانا هكذا... يعني، لماذا كانا يزمّان شفتيهما بهذا الشكل المضحك؟ وهل من المعقول أن يحصل هذا على حافة قبريهما؟"
"من؟"
"من برأيك! الإتروسكيان يا بنيّ، اللذان كانا في المدفن! من ظننت إذاً؟"
"نعم! يا إلهي الإتروسكيان! ... من أين لي أن أعرف هذا! وبالمناسبة فإنهما لم يكونا يضحكان."
"بلى! وكأنهما يسخران من شيء ما. ألم تلاحظ ذلك؟ كانا يضحكان في سرّهما بطريقة غريبة ... شفتاهما مزمومتان ولكنهما يضحكان. يا إلهي يالهما من ثغرين! وخاصة ثغر المرأة، كثغر ..."

يتردد الشيخ قليلاً ليمسك عن ذكر الاسم الذي هبط فجأة إلى وعيه، سالفينيا[١].

وبأعصاب مشدودة فكر الابن 'ما هذا الوهم الذي يسيطر عليه؟ وكأن المرض قد بدأ

---

١. Salvinia

يؤثر في عقله؟'

"لم يضحكا يا أبتاه، لقد ابتسما فقط. ابتسما بروحانية."

"روحانية؟ ماذا يعني هذا؟"

"كما هو الحال في أيقونات القديسين الذين يرفعون نظرهم إلى الله."

هنا يقهقه المسنّ.

"قديسون. يرفعون نظرهم إلى الخالق؟ الإتروسكيون؟ هراء!"

إن قناعته فيما يقول لا تحتمل المعارضة. تمر سيارة كبيرة مسرعة يقودها سائق يرتدي زياً رسمياً ويتجاوزهما، حيث يظهر على المقعد الخلفي جانب وجه امرأة أنيقة.

'متى سيصبح ابني بالغاً راشداً'، يفكر الأب في سرّه.

"لقد ضحكا فعلاً، صدّقني، إنهما يلهوان على غطاء تابوتهما. ألم تلاحظ ذلك؟ يا لهما من مارقَين!"

ويسحب نفساً عميقاً من سيجارته [ويستطرد:]

"وماذا حلّ بالإتروسكيين؟"

"لقد هزمهم الرومان."

"الرومان! إنهم يدسّون أنفهم في كل حدث."[١]

ما زالا يسافران باتجاه الشمال. ويستغرق الشيخ في أفكاره عن ذكريات الزمن الماضي، زمن الديكتاتورية والحرب والساسة الذين جاؤوا بعد ذلك.

تتوسط الشمس الأفق وتغمر بدفئها الحقول الخريفية. وعلى مرتفع ما زال قطاف العنب مستمراً، بينما يتخمّر العصير منذ زمن في روكا سيرا. وتلفت انتباه الشيخ أثلام الحقول المحروثة على غير انتظام. 'لو كان عمالي هم من فعلوا ذلك لكنت قد طردتهم شرّ طردة'، ويؤثر فيه كل تفصيل مهما كان صغيراً في هذه الطبيعة الشمالية الغريبة عنه، والتي تختلف عن طبيعة الديار بوفرة خضرتها ورقة مظهرها.

---

١. لعل هذا تلاعب بالألفاظ بين كلمتي الرومان وأهل روما.

"لقد كانت هذه المنطقة ملكاً للإتروسكيين"، يضيف الابن وكأنه يريد بذلك إرضاء والده.

وبهذا يتهيأ للأب أن هذه الأرض أصبحت فجأة أكثر خصوبة مما هي عليه حقيقة. ويقول بعد صمت قصير: "هل تستطيع أن تتوقف قليلاً يا بني، في أقرب فرصة ممكنة؟ علي أن أقضي حاجة. إن الأفعى في داخلي تطلب ذلك."
يفكر الابن مهموماً بمرض والده العضال. وبسبب هذا المرض يأتي به إلى ميلانو لعرضه على الأطباء هناك. يلوم نفسه لأنه في خضم همومه الشخصية نسي لوهلة مرض والده. لا شك أنه من الأهمية بمكان بحث زوجته عن عمل تنتقل من أجله إلى العاصمة روما؛ ولكن أباه يعيش أيامه الأخيرة من جهة ثانية. ويتجه بكل عاطفته إلى أبيه.
"طبعاً، سأقف في أول فرصة. إن فنجاناً من القهوة يساعدني على البقاء متيقظاً على طريق السفر."
"افعل ذلك وخذ وقتك."

وينظر الابن بطرف عينه إلى والده فيرى خيال وجه نسر، وعنقاً تبرز منه الحنجرة على هيئة حجر صغير عالق فيها، ومقلتين غائرتين في تجاويف وجهه. كم من الوقت سأتمكن من تأمل هذا الوجه الأبيّ، الذي يعطيني الشعور بالطمأنينة؟ لقد فرقتهما الحياة وبعثرتهما في عوالم مختلفة، ولكنه سيظل يشتاق إلى فيء والده الذي يشبه فيء شجرة بلوط وارفة. اعتراه خوف يحزّ ألماً في النفس. وما كان من الممكن أن يتحدث إلى أبيه في هذه اللحظة لئلا يحس أبوه بذلك الخوف فيتأذى.

يتوقفان عند محطة وقود. يركن الابن سيارته ويتبع والده إلى البار، فيتفاجأ بوجود الأخير جالساً وأمامه فنجان من القهوة يتصاعد منه البخار.
"أبتاه! ألم يمنعك الأطباء عن شرب القهوة؟"
"وماذا في ذلك! أليس لنا الحق في الحياة."
"معك حق!"
يبتسم المسن ويرشف قهوته صامتاً سعيداً بها ويلف سيجارة جديدة.

وبعد انطلاقهما بقليل تصادفهما لوحة كُتب عليها : مخرج أريتزو[1] .

"لقد كانت هذه مدينة اتروسكية شهيرة" ، يضيف الابن موضحاً بعد تجاوز اللوحة.

"أريتزو"، سيحفظ الشيخ هذه التسمية.

---

١. Arezzo

٢

يأكلان شيئاً خفيفاً في محطة تالية ويتابعان السفر على الاوتوستراد . وكمرسال للّيل القادم ينخفض الغيم على مجرى نهر البو[١] ويلف صفوف الحور المستقيمة بضباب كثيف. يغطّ الشيخ تدريجياً بالنوم. إنه فعل هذه الطبيعة الرقيقة الرتيبة وإيقاع تلك الحقول الممل.

'أبي المسكين، إنه تعب تماماً . هل يأمل في أن يستعيد صحته؟ وإذا لم يكن كذلك، لماذا يأتي إذاً؟ لم أكن أصدّق أبداً أنه سيترك أرضه -روكا سيرا- الحبيبة.'

هبط الليل حينما صحا المسن من غفوته. الساعة الآن هي العاشرة وعشر دقائق، تظهر على شاشة السيارة ذات الضوء الأخضر. يغلق المسن عينيه من جديد وكأنه لا يريد أن يعلم شيئاً عن الوقت. إنه غير راض على زيارة ميلانو[٢] مرة أخرى. ففي المرّة الماضية وبعد وفاة زوجته بقليل، لم يستطع البقاء أكثر من أسبوعين، بالرغم من أن ابنه وكنّته كانا يخططان لبقائه معهما لمدة أشهر. كل شيء لا يمكن احتماله. المدينة، سكان ميلانو، الشقة الضيقة، كنّته ذاتها . والآن، مرة أخرى! 'كان بودّي أن أموت في بيتي، اللعنة عليك يا كانتانوتّه[٣]! لماذا لم يختَرك المرض؟'
"هل نمتم يا أبي!" يسأل الابن أباه حالما يراه يتحرك.
"لم يعد المكان بعيداً، سنصل حالاً."

حقاً، ستطبق المصيدة عليه قريباً . بالنسبة للشيخ كانت المدن دائماً مصائد لبسطاء البشر : البيروقراطيون، رجال الشرطة، الطفيليون، أصحاب المصالح والمنتفعون

---

١. Po

٢. Milano

٣. Cantanotte اسم غريم الشيخ رانكونه الذي سيأتي ذكره في الرواية لاحقاً.

يتربصون بالناس المساكين. تبدأ المصيدة بالإطباق عليهم عند نقطة انتهاء الاوتوستراد وتسديد رسوم العبور.

ينظر الشيخ بازدراء إلى منظر الضواحي التي يمران بها. جدران، باحات مصانع، ورشات مغلقة، أبنية سكن مهملة، قطع أرض خالية، برك مياه راكدة ... دخان وغمام، أوساخ وركام، مصابيح متفرقة شاحبة الإضاءة. كل هذا قذِر ومنفّر ولا يبعث على الطمأنينة. وحالما يشق زجاج النافذة قليلاً، تصل إلى أنفه الروائح العطنة للقمامة ونفايات المصانع. يفك الشيخ حزام الأمان متحرراً.[١] إنه الآن على الأقل ليس مقيداً ويستطيع أن يتصرّف على حريته ضد الأخطار.

'من حظي أن الروسكا[٢] تقبع اليوم هادئة'، يواسي الشيخ نفسه. لقد أطلق على المرض الذي ينهش جسده اسم روسكا، تيمناً بأنثى نمس، كان صديقه أمبروزيو قد أهداها له بعد الحرب [العالمية الثانية]. لم يوجد في كُل القرية صياد أرانب بلغ مقدرتها. 'ألا ترأفين بحالي يا روسكا؟ أنت تفهمين طبعاً أن مصائب ميلانو تكفيني. إِنك تصدقينني عندما أقول بأنني كنت أفضل البقاء معك على قطعة أرضنا، لو لم أُجبر على غير ذلك.'

إنه يتذكر أنف روسكا الطري الذي يخفي وراءه أنياباً قاطعة كحدّ السكين، لقد قتلها كلب من كلاب كانتانوتّه. هنا تطرف عينا الشيخ لهذه الذكرى. لقد انتقم لها بقص ذنب ذلك الكلب، واضطر كانتانوتّه ان يسكت عن هذه الإهانة. وبعد هذه الحادثة بقليل وفوق ذلك فضّ رانكونه بكارة ابنة أخ خصمه العتيد، كونشيتّا[٣].

في هذه الأثناء تتتابع مشاهد البيوت والجدران المتلاصقة، وكأنها تستجرّ السيارة أكثر فأكثر إلى فكي المصيدة.

---

١. يبدو أن وضع حزام الأمان كان إجبارياً على الطرق السريعة فقط. ونذكر أن أحداث هذه الرواية تجري في ثمانينيات القرن الماضي (حوالي ٤٠ عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية).

٢. Rusca

٣. Concetta

تضبط الإشارات الضوئية نظام السير بشكل صارم. تومض الإعلانات الضوئية بشكل آلي وكأنها تسخر من الناس. من حين لآخر تظهر مفاجآت غير سارّة: دوي جرس قوي، لا يثير انتباه أحد. هدير عجلات القطار المفاجئ على جسر حديدي يمران من تحته في تلك اللحظة، خوار بقرة أو روائح روث لا تفسير لوجودها – هنا وسط المدينة الكبيرة.

"هذا هو المسلخ البلدي."، قالها الابن مشيراً إلى الجدران الواقعة على يمينهم. "من هنا يشتري مصنعنا أحشاء الذبائح".
أها، إنها إذاً مصيدة للحيوانات أيضاً.

ينعطفان إلى شارع عريض. ما هذا الضوء الساطع؟ وماذا تفعل هذه النسوة في محيطه؟ إنهنّ يبدون كساحرات حول المحرقة.

تتوقف العربة أمام إشارة المرور الحمراء. تتقدم إحدى النسوة قرب السيارة وتفتح سترتها مظهرة ثدييها العاريين.
"ماذا تنتظران أيها الشابان؟ هل لديكما رغبة؟ إنهما يكفيان لاثنين!"

تنتقل الإشارة إلى اللون الأخضر ويتابعان سفرهما.
"يا للعار!"، يدمدم الابن وكأنه مذنب فيما يحصل.
'ليست سيئة'، يفكر الشيخ لاوياً شفتيه بخبث 'على الأقل، ان الطعم هنا طعم مصيدة مناسب.'

وتزداد الشوارع كثافة حولهما، وبعد قليل يركن الابن سيارته حاشراً إياها بين السيارات الأخرى النائمة على طرف الرصيف. ويتعجّب الشيخ مما هو مكتوب على اللافتة المنصوبة على زاوية الطريق: فياله بيافه [زقاق بيافه][1].

"هل البيت هنا؟"، "لا أتذكر هذا المكان أبداً."

---

١. Viale Piave

"لقد أصبحت الشقة السابقة صغيرة علينا نحن الثلاثة"، يوضح الابن ويفتح صندوق الأمتعة. "إن الحي هنا أفضل من سابقه. ولقد استطعنا استئجار مثل هذه الشقة فقط لأنها تطل على الشارع الخلفي، على شارع نينوبيكسيو[1]. إن أندريا معجبة بها."

'بالطبع، الطفل'، يفكر المسنّ ويخجل لأنه لم ينتبه إلى هذا الواقع الجديد من ذات نفسه. ولكن منذ وفاة زوجته وإصابته بالمرض شغلتْ باله أفكار كثيرة ...!

يمرّان عبر بهو البناء حيث توجد زاوية للجلوس مع مرآة، ويقفان أمام المصعد. يكره الشيخ المصاعد ولكنه يستغني عن فكرة التسلّق على السلالم عندما عرف بأن الشقة تقع في الطابق الثامن. 'لن يعجب هذا روسكا على الإطلاق.'

يغلق الابن باب الشقة عليهما برفق ويشعل نوراً خافتاً ويطلب من أبيه أن يبقى هادئاً لأن الصغير نائم. وفي نهاية المدخل يظهر خيال إنسان.

"ريناتو؟"

"نعم يا حبيبتي. لقد وصلنا."

يتعرف الشيخ على كنّته. على الفم الحازم ذي الشفاه الرفيعة، على الخدود البارزة، وعلى النظرة القاتمة.

'ألم تكن تضع نظارات طبية في السابق؟'

"أهلاً بكم في المنزل، يا بابا."

"أهلاً أندريا."

يعانقها الشيخ وتلمس شفتاها خده برفق. نعم إنها هي. إنه ما يزال يتذكر كتفيها الناتئتين وصدرها المنبسط.

'وما زالت تلقبني بـ"بابا" بلهجتها المفتعلة'، قال المسنّ في نفسه وهو غير راض. لكنه لا يعرف كم كلّفها لفظ صيغة الترحيب هذه من مشقّة إرضاءً لريناتو الذي توسل إليها أن تفعل ذلك. فهي ما تزال تذكر الأسبوعين الفظيعين اللذين قضتهما في أدغال

١. Via Nino Bixio

كالابريا ، بعد زواجهما بقليل ، حيث وُضعت تحت المكبّر من قبل السكان هناك وكأنها حشرة من الحشرات. حتى إن النساء كن يختلقن الأعذار كي يلجن الفناء الداخلي ، حيث تعلّق ملابسها الداخلية الأنيقة. كن يعاينَّ الملابس الداخلية المنشورة على حبل الغسيل ، لهذه المرأة القادمة من ميلانو !

"لمَ هذا الوقت الطويل في السفر؟"

يتعرّف الشيخ مجدداً إلى صوتها ذي النبرة الحادة. يحمّل ريناتو الضباب سبب التأخير ، لكنها في هذه الأثناء لم تعد تصغي إليه إنما تسير مبتعدة نحو الداخل ، مفترضة أنهما سيلحقان بها . تشعل أندريا الضوء وتُدخل الشيخ قبلها لتدلّه إلى مكان الأغطية النظيفة الموجودة في الخزانة والتي ستُستعمل في تحضير مكان نومه.

"لم أجد الوقت الكافي لتحضير السرير لأن الصغير لم يُرد الخلود إلى النوم. لا تؤاخذني يا بابا ، يجب علي أن أكون في محاضرتي في ساعة مبكرة من صباح الغد . تصبحون على خير."

يشكرها الشيخ وتذهب أندريا مبتعدةً.

ويجول الشيخ بنظره في أرجاء الغرفة الضيقة، بينما يفتح ريناتو الخزانة. يرى الشيخ ستائر معرّقة تتدلى أمام النافذة، ومصباحاً موضوعاً على طاولة صغيرة، ولوحة تجريدية معلقة على الحائط تمثل على الأغلب طائراً ما ، وكرسياً . . . لا يلفت نظره أي من هذه الأشياء ، ولا يستغرب في نفس الوقت وجودها . يرفع كتفيه ويسقطهما في سرّه. إنه ليس في بيته ، فالأمر بالنسبة له سيّان.

٣

لا تريد الأريكة القابلة للطي أن تُفتح. يحاول ابنه أن يفعل ذلك قسراً ولا يدري الشيخ كيف يمكنه أن يساعد في هذا. ولا يريد أصلاً أن تكون له علاقة مع هذه التقنية التي تبدو مختلفة تماماً عن السرير الضخم المرتفع الذي كان ينام عليه منذ ليلة زفافه، والذي يسيطر على غرفة النوم قابعاً كالجبل. يمثّل قمة هذا الجبل مكان الرأس المصنوع من خشب الكستناء المطلي، أما الفراش المكون من قطعتين مصنوعتين من الصوف الطري الرابضتين على قاعدة من شعر الحصان فيجسّد سفوحَه. كان ذلك السرير كياناً واضحاً يستعمل لممارسة العلاقة الزوجية، للولادة، للنوم وللموت! هنا يفكر الشيخ بأمكنة أخرى قضى الليالي بها أثناء مسيرة حياته الغنية بالأحداث: الأرض الصلبة لكوخ راع، أكياس التبن في الثكنة، القش الجاف في الحظائر، صخر المغارات المفروش بالعشب. وما زال يتذكر -عندما كان يعيش مع الفدائيين- الفراش الريفي المحشو بقش الذرة، والذي يصدر صريراً فاضحاً أثناء ممارسة الحب. إنه عالمٌ مختلف تماماً عن عالم هذه الزنزانة وعالم هذه الأريكة الخنثى، التي تذكّر نوابضها بأفخاخ الذئاب.

أخيراً تستسلم التقنية وتنفتح الأريكة بغلظة. يفرش الابن الأغطية ويغطي السرير ببطانية واحدة – لأن للشقة تدفئة مركزية. هكذا يشرح الابن لأبيه الذي لا يأبه لذلك لأنه قد أحضر بطانيته الخاصة البالية البالغة من العمر حوالي نصف قرن من الاستعمال. لم يستطع أن يتركها في البيت لأنها بمثابة جلده الثاني. لقد حمته من المطر والثلج وتبللت عرقاً معه في أسعد لحظات حياته وأتعسها. حتى إنها قد أصيبت بطلق ناري في إحدى المرات وستكون ذات يوم كفنه عند وفاته.

"أينقصكم شيء بعد؟" يسأل ريناتو أخيراً.

هل تحتاج، هل تحتاج . . .؟ أحتاج كل شيء ولا أحتاج شيئاً ! إن الذي يراه أمامه لا يحتاجه ، ورغم ذلك هناك عدة أشياء يتمناها لنفسه ! قبل كل شيء يشتاق إلى جرعة غنية من النبيذ الأحمر ، ولكنه يجب أن يكون خمراً قوياً مزاً وجنوبياً ، مخصصاً لحناجر الرجال. خمر ميلانو مليء لا شك بالكيماويات.

كيف يمكنه أن يغسل هذا الطعم السيّئ في فمه؟ إنه بحاجة لشيء طبيعي. وخطرت فكرة بباله.
"هل عندك فواكه في البيت؟"
"كمثرى رائعة من يوغوسلافيا."

يغادر الابن الغرفة ليعود حاملاً حبتي كمثرى ملفتتين للنظر وسكيناً وصحناً يضعها على الطاولة الصغيرة قرب السرير. ويشير بيده لأبيه دالاً إلى مكان المطبخ في نهاية الممر –"كل شيء موجود في الثلاجة"– وإلى غرفة الحمام المجاورة للمطبخ.

"حاولوا أن تكونوا هادئين عندما تسيرون لأن الصغير نائم في الغرفة المجاورة. يمكنكم أن تشاهدوا الصغير غداً ، ولا يمكننا أن نوقظه الآن : إنه طفل ظريف، متين البنية ويشبهكم كثيراً."

"نعم، الأفضل أن نفعل هذا غداً." ، يقول الأب وينزعج في داخله من نفاق ابنه. 'هراء ! لا يشبه الوليد أحداً ، إنه مجرد رضيع ، كومة لحم تصدر أصواتاً غير مفهومة.'
"تصبحون على خير أبي. تصرّفوا وكأنكم في بيتكم."

يفتح الشيخ الستائر بمجرد أن أصبح وحده في الغرفة. إنه يكره الستائر المبالغ برسومها. يطلّ بنظره إلى الفناء الداخلي وإلى النوافذ المغلقة على الجدران المقابلة. يفتح النافذة ويتدلى إلى الخارج. تجثم فوقه سماء منخفضة، إنها سماء ليالي ميلانو الرائعة: فضاء مليء بالضباب والدخان تنعكس فيه ألوان نيون الشارع البنفسجية الباردة، وتقبع تحته فجوة سوداء تصعد منها روائح الأكل البارد والغسيل الرطب ومواسير المجاري وغازات العوادم.

وعندما يغلق النافذة يعي أنه قد تصرّف برد فعل غير إرادي، كما كان يفعل أثناء الحرب باحثاً عن مخرج للهروب. النتيجة سلبية [لا مفرّ من الطابق الثامن]. 'كما في مخفر الغستابو[١] في مدينة ريميني[٢] ... عندما كانوا قاب قوسين أو أدنى من وضعي على الجدار وإعدامي لو لم أخدعهم وأضطرهم إلى إطلاق سبيلي. الحمد لله أن بترونه[٣] صمَدَ ولم يشِ بي بكلمة واحدة رغم تعذيبه! بترونه التعيس!'

على كل حال لم تكن في سجن ريميني حبّات كمثرى بجانب السرير. يأخذ حبة منهما ويسحب موسه القلاّب من جيبه متناسياً السكين الموجودة أصلاً ويبدأ في تقشيرها. 'لا شيء، لا رائحة!' يبدأ في تذوقها. ثمرة الكمثرى الجميلة باردة تماماً ولا طعم لها على الإطلاق. 'إن البرادات تفسد الطعم.' يقشر الثمرة الثانية دون أن يجرّب مذاقها، فقط لكي يرى ريناتو القشر في صباح اليوم التالي. هنا يفتح النافذة ويرمي بالحبتين إلى الأسفل. يسمع كيف تسقط الحبة تلو الأخرى وتصدر صوتاً قوياً على السطح المعدني في العمق.

'شيء لا يُصَدّق أن هذه الكمثرى آتية من يوغوسلافيا!'، يستغرب المسنّ ويغلق النافذة. وعند ذكر يوغوسلافيا عليه أن يتذكر دونكا[٤]. 'دونكا! التي تفوح من جسمها رائحة زكية كرائحة ثمرة ناضجة!' لم يكن جلدها بارداً أبداً، ولكن حارٌ ومليء بالحياة. رفيقة الكفاح والحب التي لا تُنسى ... 'آه دونكا، دونكا' في الفترة الاخيرة بَهتت ذكريات الشيخ عن جسد دونكا التي تحتل الآن، كما في السابق، مكاناً مميزاً في قلبه الذي يدق بسرعة أكبر كلما استحضر صورتها من الماضي.

يخلع ثيابه ويتلمّس، كما في كل مساء، كيس التمائم الصغير المعلق في رقبته، التمائم التي يفترض أنها تحرسه من العين. ثم يفرد بطانيته ويصعد إلى السرير. يطفئ الضوء

---

١. Gestapo مخابرات أمن الدولة الألمانية في الزمن النازي.

٢. Rimini

٣. Petrone

٤. Dunka

ويلف الغطاء حول عنقه ليبدو وكأنه ينام ضمن كيس النوم.

'ما زلتُ على قيد الحياة يا دونكا ... حي أُرزق!'، يعيد ويكرر هذه الكلمات، ثم يتذكر حادثة هذا الصباح. 'حيّ كـ "الزوجين" في المتحف. إنها لفكرة رائعة أن يعمل المرء تابوتاً من الطين المشوي بدلاً من خشب مصيره الفناء! شيء قابل للبقاء كالزيت في خوابي بيتي.' يستسلم لذكرى دونكا بشكل كامل ويسبح على بحر من الصور.

'لقد تناولنا العشاء معاً على سرير حقيقي، وليس على أريكة كهذه، كما "الزوجان" في هذا الصباح. هي وأنا والقمر، المصدر الوحيد للضوء، خائفين من الطائرات ومن دوريات الغستابو. كان ضوء القمر جاثماً على صفحة البحر، مادّاً طريقاً مستقيماً إلى حيث نجلس. لم نحتج إلى ضوء أكثر من هذا كي نتبادل العناق والقبل! ويا لها من قُبل يا دونكا!'

غارقاً في ذكرياته ومبتسماً يستسلم لنوم لذيذ.

٤

مثل العادة، يستيقظ الشيخ قبل أن ينبلج الصبح. في بيته هناك ينهض من سريره ويباشر جولته الصباحية. يمشي على الأرض المشبعة بالندى، يستنشق برودة الهواء، يراقب شروق الشمس، ويستمع إلى زقزقة العصافير. هذا في البيت، أما هنا . . .

'أظن روزيتا[١] مستيقظة الآن. لقد ذرفت دمعاً غزيراً عند وداعي، ولكن زوجها يعرف كيف يواسيها، عديم الفائدة هذا. القاصر المسمى نينو[٢]، المزيف كذهب الغجر! كيف أقدمتْ ابنتي أنا على حب رجل لا أمل منه؟ النساء، النساء! شكراً لله أنهما لم ينجبا أطفالاً، لأنهما كانا سيسيئان تربيتهم. زوجتي روزا[٣] لم تهبني إلا قليلاً من الأولاد. تنحدر روزا من أسرة غنية، الشيء الذي لم يجعلها بالضرورة على قدر عال من الخصوبة، فلقد أسقطت عدة مرات. كانت تحمل كل عام ولكنها لم تنجب إلا ثلاثة أطفال صحيحي الجسم. مع أنه لا يمكنني إدخال فرانشيسكو[٤] في حسابي لأنه فُقد مذ هاجر إلى نيويورك. عندي فقط ابن ريناتو، ما الاسم الذي اختاروه له؟ لقد أرسلوا إلي بطاقة دعوة لحضور حفل عماده ولكن لم يكن لدي الوقت عندئذ، ونسيت هذا لأنني كنت مشغولاً تماماً بالقضية المرفوعة ضد كانتانوتّه المتعلّقة بأرض سوتو غرانده[٥]. لقد سمّوه على الأغلب ماوريتسيو[٦] أو جيان كارلو[٧]، اسم ذو وقع رنان

١. Rosetta ابنته التي تسكن معه في الجنوب.

٢. Nino

٣. Rosa

٤. Francesco

٥. Soto Grande

٦. Maurizio

٧. Giancarlo

يُعجب أندريا . على الأقل أهدتني حفيداً ، بينما نينو . . . '

يسمع الشيخ عبر الممر بكاء طفل، وكأن أفكاره هي التي أيقظته. لا يبدو بكاؤه غاضباً أو شاكياً ، كان أقرب لبكاء إيقاعي رتيب رتابة الحياة. 'هذا يعجبني' ، فكر الشيخ في نفسه. 'لو كنت في مكانه، لبكيت بالطريقة ذاتها' .

وهذه الخطوات؟ أندريا ؟ لا ، لا تملك أندريا مثل هذا الصوت الرقيق، إنه ريناتو . . . هذا مضحك ! عادة يصبح المرء في الشيخوخة أصمَّ لكن سمعي يغدو على الدوام أكثر دقة . إنني أسمع أفضل من ذي قبل، عندما كنت عند الفدائيين في دورية الاستطلاع . وريناتو ، إنه يأخذ دور الحاضنة، يا للعار ! لا يوجد رجال حقيقيون في ميلانو ، والآن جعلت أندريا من ابني عنّيناً . '

تتحرك "الحية" في أحشائه فيهمد .

'نعم يا روسكا ، أنت محقة، لأن الحال سيّان. أنت جائعة، أليس كذلك، صبراً ! كم كانت عضّة روسكا ، صيادة الأرانب الميتة، قوية ! عندما سيذهب ريناتو إلى غرفته سأحضر لنا شيئاً للأكل. ربما يبكي الطفل لأنه جائع ألم يَحِن الوقت لكي تستيقظ أندريا وتحضر للطفل زجاجة الحليب؟ لن يكون عند مثل هذه المرأة شيء آخر [حليبها الخاص] لتقدمه.'

يتوقف البكاء ، ويسمع المسن ريناتو عائدا إلى سريره، ينهض، يرتدي بنطاله ويذهب إلى المطبخ. لا يريد ان يلفت الانتباه، لذلك يكتفي بضوء الشارع الخافت. انه يفتح الخزانة. هنا تصطف أوعية الأكل الجاهز الزجاجية، وعلب الكونسروة، وأكياس طعام لصقت عليها "إتيكيتات" ملونة، بعضها مكتوبة باللغة الانكليزية. في المقابل وعندما يفتح باب غرفة المؤونة في بيته، تهفّ موجة روائح زكية، روائح البصل والسلامي والزيت والثوم. يأخذ كيساً من الأكياس. العنوان الواعد هو "أرز"، لكن الكيس يحتوي حبوباً محمصة قليلاً لا طعم لها على الإطلاق. الجبن الأصفر الموجود في البراد هو كذلك بلا نكهة. لحسن الحظ يمكنه أن يدعم طعم الجبن ببضع بصيلات وجدها في كيس بلاستيكي مغلق مفرّغ من الهواء . النبيذ الموجود توسكاني وبارد

فوق ذلك. والخبز آت من المعمل: "بانيتو"[1] ... كم كان بودّه لو حصل الآن على رغيف طازج خارج تواً من فرن ماريو![2] عوضاً من خبز المعمل هذا الذي يشبه طعمه طعم هريس الأطفال! المسحوق الأسود في الوعاء الأسطواني الشفاف لا بد أن يكون بُناً. ولكن كيف يمكن تحضيره؟

فجأة وفي إحدى الغرف يرنّ صوت المنبه. يستيقظ البيت. يأتي ريناتو إلى المطبخ ويقول "صباح الخير". يشغّل آلة صنع القهوة ويسحب من الخزانة شيئاً غريباً آخر يوصله بالكهرباء، يلقي في داخله بقطعتي بانيتو ويختفي في الحمام. يُسمع جريان الماء. أخيراً تظهر أندريا وتسأل بشكل غير ودّي:

"ولكن يا بابا لماذا استيقظتم في هذا الوقت الباكر؟"
وبدون أن تنتظر جواباً تترك أندريا المطبخ وتصادف زوجها في الممر. يتهامسان.

تتداخل الأصوات بعضها مع بعض: خرير مياه الصنابير، قرقعة المجاري، طرطقة الزجاج، أزيز آلة الحلاقة، الدوش. بعد ذلك يأتي الزوجان إلى المطبخ، مضايقَين أحدهما الآخر أثناء إعداد طعام الافطار. يقدمان للشيخ فنجان قهوة خفيفة يشربه ثم يتجه إلى الحمام ليغتسل. وبعد وهلة قصيرة يلحق به ريناتو.

"ولكن يا أبي، الماء الساخن موجود!"
"لا أريد ماء ساخناً. لا يشعرني بالانتعاش."
هو لا يفسر لابنه بأن الماء البارد يحكي له عن الجداول الجبلية، عن رائحة احتراق الأخشاب في أول اشتعالها، عن الماعز التي تمضغ العشب المغطى بالصقيع. يروح الزوجان ذهاباً وإياباً بين المطبخ وغرفة النوم، مرتديَين في هذه الأثناء ثيابهما وملتهمَين خبزهما.

"تعالوا يا أبي وانظروا إلى الصغير. نحن الآن نغيّر له ثيابه ونطعمه."

---

١. Panetto تصغير "بانه" (الخبز).
٢. Mario

'هل يمكن لثديي أندريا أن ينضحا بالحليب؟' يتساءل المسنّ لأنه لم يلحظهما يحضّران زجاجة حليب الأطفال. لذلك يتبع ابنه إلى الغرفة الصغيرة حيث أتمت أندريا إلباس الطفل على طاولة طرية مخصصة لذلك. يتبع ابنه ويملؤه فضول وشك.

يقف الشيخ مشدوهاً متجمداً من الاستغراب. ليس هذا رضيعاً، إنه صبي حقيقي بإمكانه الجلوس. وبدوره يلاحظ الطفل الرجل الذي يدخل الآن إلى الغرفة بإعجاب. يبعد بيديه الاثنتين الملعقة المليئة بالطعام الليّن التي تمسكها له أمه ويحدق ملياً بعينيه المدورتين القاتمتين بالشيخ. وأخيراً يُسبل الطفل يديه ويفتح فمه مجدداً لاستقبال الطعام بعد قيامه بحركات عصبية بيديه وإصداره لأصوات بكاء معترضة.

"أهو كبير لهذه الدرجة!"، يقول الشيخ أخيراً.

"أليس هذا صحيحاً يا بابا!"، ترد عليه كنّته بكل فخر. "وعمره فقط ثلاثة عشر شهراً!"

'ثلاثة عشر شهراً قد مضت'، يفكر المسنّ الذي لم يصحُ بعد من شدة المفاجأة. 'حفيدي، دمي، هكذا بشكل مباغت. لماذا لم أعلم مسبقاً بهذا؟ صبي رائع. ولكن لماذا ينظر إلي بهذه الجدية محركاً يديه بتلك الحيوية؟ ماذا يريد أن يخبرني به؟ هل كان أبنائي ايضاً، ريناتو والآخرون، كذلك؟ إنه يبتسم الآن. يا له من ماكر!'

"انظر يا برونيتّينو[1] إلى جدك الذي جاء ليتعرف إليك."

"برونيتينو!"، يسأل الشيخ وهو في حالة دهشة أشد من ذي قبل ويتلمّس بيده الكيس الصغير المربوط في عنقه. هذا الكيس ذو التمائم هو الإيضاح الوحيد لهذه المعجزة.

"كيف عمّدتماه بهذا الاسم؟ لماذا؟"

ينظر الزوجان إليه باستغراب مشوب بالاستنكار، بينما يواصل الطفل الابتسام. يعتذر ريناتو من أبيه.

"عذراً أبتاه! أعرف أن العادة جرت بتسمية الابن الأول على اسم جده. لقد نويت ذلك

---

١. Brunettino تصغير Bruno

فعلاً وكدت أن أسميه سالفادوره[1] على اسمكم. ولكن أندريا جاءت بهذه الفكرة التي دعمها الإشبين، رفيقي رنتسو[2]، ولم يُرد أن يتخلى عنها ولا بشكل من الأشكال. برأيه أن برونو ذو وقع أقوى وأكثر رصانة [من سلفاتوره] ... إنني أستميحكم عذراً، سامحوني!"

تأثر الشيخ كثيراً وقال بصوت متهدّج "لا يوجد شيء لأسامحك عليه! إنني أجد هذا عظيماً. لقد سميتماه فعلاً على اسمي!"

ترنو أندريا إليه متعجبة. [يتابع الشيخ:]

"ريناتو، لا بد أنك تعلم بأن الفدائيين قد سمّوني برونو، ألم يخبرك أمبروزيو ذلك آلاف المرات؟"

"بلى ولكن اسمكم الحقيقي هو سلفاتوره."

"هراء! لقد أعطاني الآخرون اسم سلفاتوره ولكن اسم برونو قد انتقيته بنفسي. إنه هو اسمي ... برونيتينو!"، يهمس الشيخ ويستمتع بلفظ التصغير كاستمتاعه بطعم السكر الذائب على اللسان. يا لحسن الطالع الذي وجّه أندريا لهذه الفكرة. وعندما يشهد التعبير الفطن لوجه الطفل يحس وكأن الطفل يفهم كل ما يجري. وكيف غير ذلك! كل شيء ممكن عندما يكون الحظ وفياً للإنسان!

وبخجل يداعب الشيخ بإصبعه خد الصغير.

لا يتذكر أنه تلمس جلد كائن صغير كهذا. عندما كان يحمل صغاره على ساعديه، كان هذا فقط ليتباهى بهم أمام أصدقائه وهم يظهرون بأجمل حلّة.

كفرخ نسر قابع في العش تقبض اليد الصغيرة على إصبع الشيخ الخشن بكل توقٍ وشراهة وتدخلها في الفم الغضّ. بكل سعادة يبتسم الشيخ. يا لقوة هذا المحتال الصغير! تصيب المسن الدهشة عندما يكتشف قوة أعصاب وعضلات الطفل. 'إن هذا العالم مليء بالمفاجآت.'

---

١. Salvatore

٢. Renzo

يترك الصغير الإصبع. يرفض الطفل إكمال طعامه من شدة انجذابه إلى الشيخ. "هيا يا عزيزي، بضع لقيمات أخرى"، تتوسّل إليه أمه وتنظر في الوقت ذاته إلى ساعتها. "هذه اللقمة من أجل جدّك."

هذا الصباح مفعمٌ فعلاً بالمفاجآت. حتى إن صوت أندريا يكتسب رقة! رغم ذلك يشيح الطفل بوجهه عن الطعام بكل إصرار وفجأة يخرج من فمه سائلاً أبيض.
"هل هو مريض؟" يسأل الشيخ قلقاً.
"ولكن يا أبي"، يضحك ريناتو، "هذا مجرد هواء. إنه يتجشأ ألا ترون؟ إنه يتابع الطعام الآن. ألم تربّوا أطفالاً من قبل؟"
'لا، لم يكن عندي أطفال'، يخاطب الشيخ نفسه إذ يتضح له أنه لم يشاهد أبداً في حياته ما يشاهده الآن. 'في الريف لا يوجد أطفال للرجال. عندنا فقط رُضّع، نتباهى بهم عند تعميدهم، وبشكل خاص عندما يكونون ذكوراً. بعد ذلك يختفون عند النساء، إذ تقع مسؤوليتهم على الأم فقط، علماً أنهم ينامون ويبكون في غرفتنا المشتركة. لاحقاً يصبحون مزعجين، عندما يبدؤون بالزحف في أرجاء المنزل. ولا نشعر بوجودهم إلا حينما يبدؤون بالعمل: يمسكون بحبل الحمار ذاهبين إلى الساقية، يطعمون الدجاج في الفناء. بعدها نبدأ بحبهم، وفقط عندما يتجاوزون خوفهم من تلك الحيوانات. أما مع الإناث فالوضع أصعب: إنهن يبدأن بالحياة عندما تأتيهن الدورة الشهرية ونبدأ نحن بالحفاظ على شرفهن ومتابعتهن بعيون يقظة كعيون السنّور[1]. وأنت يا برونيتينو بكر العائلة وتقف في مركز الأحداث، حتى إن أهلك ينسون معك عجالتهم.' "هل تريدون أن تمسكوه؟"
"الآن حالاً؟"

وقبل أن يعي ما يحدث، يجد الشيخ بين ذراعيه حملاً خفيفاً بوزن الريشة، صعباً على الإمساك. 'أيتها العذراء، كيف لي أن أحمله؟'

---

١. السنور / الوشق: حيوان حاد النظر.

"ارفعوه إلى الأعلى قليلاً، هكذا." يريانه كيف عليه أن يمسك بالطفل بين ساعديه. "ليس هكذا، دعوا أيديكم مسترخية!" يشعر الشيخ بنفسه كالأخرق. "ضعوا الرأس الصغير على كتفكم." 'خداً على خدّ كما في المراقصة.' "بهذا الشكل يمكن للطفل أن يتجشأ، وهاكم منشفة تضعونها على سترتكم كي تحميها من البقع. لا تبكي يا كنزي. هذا هو جدك الذي يحبك. هدهده أيها الأب. هل ترون كيف يهدأ الآن؟"

يتأرجح الشيخ بحذر ويتمايل. لقد اختفت أندريا وخرج ريناتو من الغرفة – وتحكم العجالة الجو مرة أخرى – ، بينما يقف الشيخ مأخوذاً بالكامل.

ما هذه الأحاسيس الغريبة التي تعتريه. لحسن الحظ لا يوجد أحد هنا من قريته يمكن أن يضحك عليه. كيف يتصرّف الرجل المتروك وحيداً في مثل هذه الحالة؟

يقرّب الشيخ خده من خد الصغير ولكن الصغير يرتد خائفاً. إن جلد هذا الطفل أنعم من جلد أية امرأة، هذا ما اكتشفه الشيخ من خلال تلك الملامسة القصيرة. وما هذه الرائحة العصيّة على الوصف التي تحيط بالشيخ: طرية، حليبية، دافئة، ذات عبق حلو حامض يذكر بالرائحة الحقيقية لتخمير النبيذ المنبعثة من المعصرة عن بعد. رائحة حياتية فيها نعومة وحلاوة، رغم ذلك تُسكر، لا بل تخلب الألباب.

مستغرباً مما يجري معه، يجذب الشيخ الجسم الصغير الدافئ إليه، ثم يرتعب فيخفف الضغط عليه خوفاً من أن يخنقه ويعيد تقريبه من صدره مرة أخرى. حذارِ أن يقع على الأرض. يرقد الجَديُ الضعيف بين يديه، ولكنه ثقيل الحمل كثقل الطفل يسوع على كتف كريستوفر[1] . إن هذا القديس هو من القديسين القلائل الذين يبهرونه لأنه يستطيع المضي عبر الأنهار.

فجأة تتحرك أرجل الصغير وتركله بلطف في معدته. هنا يعتري الشيخ رعب غامض.

---

١. كريستوفر. قديس كاثوليكي من القرن الثالث ارتبط اسمه بعدة معجزات، يُعتبر شفيع المسافرين. وكانت عجيبته أنه نقل طفلا على كتفيه عابراً به نهراً، إذ يُعتقد بأن هذا الطفل قد جسّد السيد المسيح. يُحتفل بعيده في ٢٥/٧. المترجم

هذا المكان بالذات هو موطن الحية التي تنهشه. هل يعلم الصغير ذلك؟ يلتفت بسرعة إلى وجه الطفل ليستطلع الأمر ويلامس وجهه خد صغيره مجدداً. يبدأ الطفل بالبكاء ليكتمل ارتباك الجد بالكامل.

"إنها لحيتكم سنيوره[1]"، يسمع المسن صوتاً غريباً ويشعر في الوقت نفسه بمساعدة قادمة تحرره من حمله الخفيف. "أنا أنونزياتا[2] مدبرة المنزل. لقد غادر السادة المنزل على التو."

تأخذ المرأة الطفل وتضعه بمهارة في سريره الصغير.

"إنه متعب. سيخلد إلى النوم فوراً. إذا سمحتم لي سأكمل الآن أعمالي المنزلية."
هناك شيء غير عادي. أها. كيف لم يخطر له هذا مسبقاً؟
"هل ينام الصغير هنا؟" تهز المرأة رأسها إيجاباً. "وفي الليل؟"، يسأل متوفزاً ويُكمل.
"هل ينام الأطفال في ميلانو وحدهم، لا مع أهلهم؟ من ينتبه لهم عندئذٍ؟"
"لقد كان هذا في الماضي، عندما كنت مربية أطفال. أطباء اليوم ينصحون بأن يُترك الأطفال ينامون وحدهم."
"ما هذه القسوة! وماذا يحصل إن بكوا أو أصابهم مكروه؟"
"ليس في هذا العمر... بصراحة، لا يوجد أم ترعى أطفالها كالسنيورة. تقيس طول طفلها ووزنه وتأخذه إلى أحسن الأطباء. وعدا ذلك لديها كتاب مليء بالصور يجيب عن كل الأسئلة!"
'كتاب، كتاب'، يفكر المسن باحتقار، وتذهب المرأة في هذه الأثناء خارج الغرفة.
'إذا كان المرء يحتاج فعلاً إلى الكتب، فكيف تقوم النسوة اللواتي لا تعرفن القراءة بتربية أطفالهن؟ إن جهلهن بالقراءة لا يجعلهن أمهات مهملات.' يأخذه الأسف إذ يرى الوجه الناعس الصغير واليد التي تتمسك بطرف الملاءة وتتحرك بنزق. 'كيف يرقد هنا دون أية حماية!'

---

١. Signore السيد.

٢. Anonziata

يتلمّس المسن وجهه ويدرك أنها خشنة شائكة.
'يا للطفل المسكين، يجب عليه أن يقضي الليالي وحيداً. إنه لا يقدر بعد على الكلام! ماذا لو لم يستطيعا سماع بكائه؟ ماذا لو آلمه بطنه ولا أحد بجانبه، أو سترت البطانية وجهه مانعة عنه الهواء؟ ماذا لو لدغته حية أو عضه جرذ؟ كما حصل مع بيكوليتي[١] الكبير؟ طيب، لا توجد هنا أفاع، ولا يمكنها العيش في ميلانو، ولكن توجد أشياء كثيرة أخرى. على الأغلب المكانً هنا مليء بالساحرات اللواتي يُصِبن بالعين! يا للطفل المسكين اليتيم.'
يركّز بصره على هذا السر المدهش الذي ينام في السرير. إنه الطفل الأول الذي يحسّ به الشيخ رغم إنجابه ثلاثة أطفال مؤكّدين في القرية مع إمكان وجود إخوة لهم في أمكنة أخرى لا يعلم هو بهم.
وماذا الآن؟
ويفاجئه برونيتّينو بفتح عينيه والنظر إليه بكل انتباه. 'هل يستطيع قراءة أفكاري؟ هراء. إنما هذا الصغير بالذات...' العينان الصغيرتان الباديتان كزرّين مدوّرين قاتمَين تنظران إليه وتقولان: حذار أن تتهرّب من تهديد يد القدر. هنا تنغلق عينا الطفل ببطء وتعلو وجهه ابتسامة. يمتلئ بالثقة ويستسلم لنوم هادئ. يشعر الشيخ وكأن ثقلاً قد انزاح عن صدره. ما يزال متفاجئاً بأن أندريا اختارت حصراً هذا الاسم [برونو] بالرغم من أنها لم تعرف شيئاً عن علاقته بهذه التسمية.
"أنت إذاً برونيتينو"، يهمس. "وقريباً ستصبح برونو."

١. Piccolitti

٥

في اليوم التالي يخرج الشيخ من البيت.

"هل ستعرفون طريق العودة يا بابا؟ انتبهوا إلى الآتي: حارة بيافه ٨٢." لم يحر الشيخ جواباً. هل تعتبره غبياً؟ هي التي ستضيع لو وجدت في الجبال!

يصل في نهاية الشارع إلى ساحة مكتظة بالناس ومزدحمة السير. في الجهة المقابلة تقع حديقة كبيرة. لن يجد هنا ما يبحث عنه. يعود أدراجه عبر أزقة ضيقة ملتوية تعده أكثر بأن يجد ذلك. كراعي القرية يطبع في مخيّلته المعالم والتفاصيل الدقيقة التي يصادفها أثناء سيره: واجهات المخازن، البوابات، اللافتات، ليحفظ طريق العودة. لا يستطيع المرء في ميلانو أن يستعين بالشمس في توجهاته، لأنه لا يراها. أخيراً يجد محلّ حلاقة في إحدى الأزقة. شارع روسيني[١]. طالع سعيد. بدأت خطته بالنجاح. أهكذا يكون حسن الحظ؟ العكس تماماً هو الذي حصل. كل شيء يأتي بالضد: يجفل بدايةً من البذخ في المحل، من اللطف الزائد في المعاملة، من كثرة الجيئة والإياب والضجة المستمرة ومن كثرة الأسئلة التي ستحمّله نفقات إضافية: كولونيا.. مثبت شعر.. ورغم رفضه لكل هذه العروض ترتّب عليه مبلغ ستة آلاف ليرة ايطالية مقابل قصّة شعر تافهة.

ستة آلاف ليرة! هيهات أن نقارنها مع قصة ألدو[٢] في روكا سيرا الذي يحلق له أيام الأربعاء والسبت مقابل ربع هذه القيمة وبمهارة وحسٍّ عاليَين يبلغان أضعاف ما وجده في هذه التسريحة. إضافة لذلك فإن ألدو يستخدم الشبّة في معالجة وجهه الذي يصبح ناعماً كحجر مصقول. "هاكم خمسة آلاف ليرة، هم أكثر مما تستحقون"، يقول

---

١. Rossini [قد يعني هذا ربط اسم روسيني /المؤلف الموسيقي/ بأوبراه حلاق اشبيلية].
٢. Aldu

بجلف ويرمي بورقة النقود على المنضدة المصفوف عليها أنواع المراهم والكريمات.
"احتفظوا بالباقي لنفسكم. لا أنشد البقاء هنا ولا لحظة واحدة أكثر من اللزوم مع محتالين أمثالكم، حتى لو كانت تسميتكم فرا ديافولو[١] [وليس روسيني]. إن فرا ديافولو على الأقل قد عرّض حياته للخطر. هل لديكم اعتراض؟"
"اسمع يا سيّد"، يبدأ صاحب المحل بالكلام ثم يحجم عندما يرى الشيخ متحفزاً، واضعاً يده في جيب بنطاله.
"دعه يا معلّمي"، يهمس بانفعال موظف شاب، يلبس رداء أخضر اللون، في أذن صاحب المحل.

تتوجه النظرات من كل حدب وصوب إلى الشيخ وتتكسر على قامته المتحجّرة. يسود صمت كامل ثم يغادر المسنّ المكان ببطء.

في طريق العودة إلى البيت يشتري الشيخ آلة حلاقة عادية وشفرات. لقد عرض عليه ريناتو آلة حلاقته الكهربائية، ولكن الشيخ يعرف بوجود حوادث في غرفة الحمام مات فيها أشخاص من جرّاء ماسّ كهربائي قاتل. أضف إلى ذلك فإن آلته البسيطة هذه لا تُصدر ضجيجاً، وهو يريد أن يحلق ذقنه يومياً دون أن يوقظ أحداً.
'كانت هذه الحادثة مع الحلاّق مقلباً ساخناً! ' لا عجب، لقد بدأ النهار بداية سيئة.

بينما كانت أندريا واقفة تحت الدوش يسأل الأب ابنه أثناء تناول الإفطار، عن سبب عدم نوم الطفل مع أهله، كما اعتاد ريناتو ذاته عند أهله أن يفعل. يبتسم ريناتو مراعياً.
"إن المرء اليوم يبدأ مبكراً بعملية التربية. في هذه المرحلة العمرية يجب على الأطفال أن يناموا وحدهم يا أبي، لكي يتجنبوا العقد النفسية."
"عقد نفسية؟ ما معنى هذا؟ هل هي عدوى تنتقل إليهم من الكبار؟" منع ريناتو نفسه من الضحك حرصاً على أبيه وشرح بكلمات واضحة، يمكن أن يفهمها حتى ابن

---

١. Fra Diavolo (الأخ الشيطان): عنوان أوبرا للمؤلف الفرنسي دانييل أوبير بطلها قاطع الطريق ميشيله بَيتزا (Daniel Auber, Michele Pezza). تقع أحداثها في جنوب ايطالية، في الفترة الواقعة ما بين ١٨٠٠–١٨٠٦.

الريف، معنى هذا الكلام. النتيجة : على المرء أن يحرص على تربية أطفال لا يتبعون كلياً لأهلهم. هنا يرمقه الأب بنظرة ثابتة.

"لمن غير أهلهم يجب أن يكونوا تابعين؟ إنهم لا يستطيعون لا المشي ولا الكلام ولا مساعدة أنفسهم بأنفسهم."

"طبعاً للأهل ولكن يجب عدم المبالغة. لا تشغلوا بالكم يا أبي. طفلنا يحظى برعاية ممتازة. أندريا وأنا درسنا الموضوع دراسة وافية."

"نعم أعرف ذلك، من خلال تلك الكتب."

"بالطبع. نحن ننفذ تعاليم الطبيب بكل دقة. بكل بساطة يا أبي، يجب ألاّ نبالغ في إيقاظ حاجة الحب لدى الطفل."

يسكت الشيخ. 'هذا الكلام لا يُعقل. ما هذا الحب الذي يعنونه؟ حب بالتقسيط؟' لم يضف أية كلمة، إنهما في الآخر والداه، والنهار قد بدأ بداية غير حسنة. لقد كان مزاجه منذ الصباح سيئاً وكاد أن ينفجر بسبب تلك الحادثة مع الحلاق المرابي.

لحسن الحظ استطاع محلّ آخر في نفس الحيّ أن يعدّل مزاجه في أثناء تجواله في شارع سالفيني[1]، وهو واحد من الأزقة الكثيرة الضيقة. لقد اكتشف مدخلاً متواضعاً لمحل بيع مواد غذائية. دخلت في هذه اللحظة امرأة تبدو أنها خبيرة في الشراء. هذا كله يبشّر بدكّان عليه القيمة. تكتنف أنفه روائح ريفية مذ ولج إلى الداخل : جبن حاد الرائحة، زيتون محضّر بأشكال مختلفة، توابل وأعشاب، فواكه غير مغلّفة بالبلاستيك أو الورق المقوّى تزيدان في وزنها. وفوق كل هذه الخيرات هناك امرأة ناضجة تقف خلف الحاجز. يا لها من أنثى! عمرها في حدود الأربعين، وهو عمر جيد. طازجة كالتفاحات المعروضة في محلها. كانت تعتذر من زبونة لها وهي تخدمها، وفي الوقت ذاته نظرت إلى القادم الجديد بأعين تحكي، وبفم يعرف معنى الحياة.

"ماذا يتمنى السيد؟"

---

١. Via Salvini

يا له من صوت! يشبه صوت مهرة[١] صغيرة جميلة انسيابية البنية.

"كل شيء إذا أمكن!" يرد عليها بغمزة وبحركة مسرحية.

إن اكتشافه هذا المخزن لهو كنز حقيقي. فهو يحتوي على كل شيء يتمناه، وحتى أكثر من ذلك، الشيء الذي لم يره من قبل ولا في أي واجهة. يوجد خبز أصلي: مدور، طويل، حلقي الشكل، وحتى الخبز الخاص الذي يوضع في داخله رب البندورة المتبّل، تلك الحشوة التي تسيل منها عند قرضه. يقول في هذا الخبز[٢] مثل شعبي من كاتانزارو: "يمكّنك هذا الخبز من أن تأكل وتشرب وتمسح وجهك [في آنٍ معاً]".
تخرج المرأة من خلف الحاجز بغية خدمته.
ردفان مدوران، لكنها ليست سمينة. فخذان مكتنزان، كعبان رشيقان. ولكنة لا يستطيع إلا أن يستفهم عن أصلها:
"لا شك أنكم من الجنوب، هل أنا محقٌّ سنيوره؟"
"مثلكم تماماً. من تارنتو[٣]."
"أنا آتٍ من قرب كاتانزارو. من روكاّسيرا في الجبال."
"الشيء ذاته!"، تضحك. "أبوليا[٤] وكالابريا، منطقتان متشابهتان، أليس كذلك؟"
تضع البائعة سبابتيها واحدة إلى جانب الأخرى وترمش بعينيها رمشة بسيطة، وكأنها تريد بهذه الإشارة أن تقول إن التشابه بين المنطقتين يربط الاثنين في حلفٍ واحد.

بهدوء يجول المسنّ في أنحاء المخزن مختاراً بعض السلع الغذائية ومتحدثاً عن مدى جودتها وعن أسعارها. تضحك صاحبة المحل من دعاباته دون أن ترفع الكلفة المطلوبة بين البائعة والزبون. لكنها لم تستطع أخيراً أن تكبح فضولها.

"لماذا تقومون بالتسوق؟ هل تعيشون وحدكم؟"

---

١. Stacca

٢. Morzellhu

٣. Tarento

٤. Apulia

"لا، إنني أسكن عند حفيدي! طبعاً وعند أهله."
لقد أضاف الجملة الثانية بسرعة، ولكنه يفكر الآن بمعناها. "أسكن عند حفيدي". لم يلفظها من قبل. 'صحيح'، يصل إلى النتيجة المفاجئة التالية. 'إنه حفيدي وأنا جده[1].'

"إن حفيدكم بالتأكيد صبي جميل"، تتملّقه وتراقب ردة فعله.

'جميل؟ هل برونيتينو جميل المحيّا؟ لا تفكر بهذه الطريقة إلا المرأة! برونيتينو مختلف. برونيتينو هو ... ولد ذكر وكفى.'

"حسناً..."، يقول متجنباً الرد عليها ويفكر: 'إنها تعرف كيف تبيع. يجب أن أكون متيقظاً كيلا تفرض عليّ البضاعة التي تريدها هي. لست من الذين ينخدعون بسرعة. في النهاية هذا مصدر رزقها، إنها تعيش من زبائنها.' وتبرق في رأسه ذكرى زوجة بيّبو[2] ذات الصدر العامر والتي تعمل في بار زوجها. "أنت تتاجر بأثداء زوجتك"، يستفزه أصدقاؤه المقرّبون بلطف. ويشترك بيبو في هذه اللعبة ويمثل دور الزوج المُهان؛ جوليتا[3] امرأة على خلق عظيم والكل يعرف ذلك. كل هذا لا يتعدى المزاح، والحقيقة أن ما قالوه صحيح. اختار الحظ بيبو في امرأته كما يختار الآخرين بأشكال مختلفة. ولكن صاحبة المحل أكثر رقة من زوجة بيبو، ناعمة، ذات يدَين تظهران رشاقتها عندما تلفّ السلع وتعيد بقية النقود.

'هل هي فعلاً على خلق مثل جوليتا؟' إنه يشكّ في ذلك فلديه حدس عالٍ لمثل هذه الأمور. إن المرء يعيش في المدينة بشكل مختلف. ويقفز إلى ذاكرته سؤال مباغت لطالما أراد أن يسأله.

"عذراً أيتها السيدة. عندي سؤال يتعلّق بحفيدي. إلى أي سن احتفظتم بأطفالكم في غرفة نومكم؟"

---

١. جدّو nono، بالعامية الكالابريّة nonnu

٢. Beppo

٣. Giulietta

"آه، لا يوجد عندنا أطفال! لم يرزقنا الله بهم."

'أين كان عقل الإله عندما خلق هذه الأنثى؟' يسأل المسنّ نفسه ويعتذر من المرأة متحرجاً. ولكسر حاجز الصمت تغيّر البائعة الموضوع بشعور مرهف.

"لا أستطيع آسفة أن أرسل من يوصل لكم مشترياتكم إلى البيت. إن العامل الذي يقوم عادة بذلك مريض اليوم. وزوجي ليس في المحل لأنه يشتري بضاعة جديدة." إنها امرأة ذات إحساس عالٍ. إنها تعلم أنه من غير اللائق أن يمشي الرجل في الشارع مثقلاً بالأحمال. يغادر الشيخ المخزن مودعاً.

"إلى اللقاء أيتها السيدة. مدام ....؟"

"مادالينا[1]، في خدمتكم دائماً. ولكن ليس "وداعاً"، دائماً إلى اللقاء! ستعودون مرة أخرى، أليس كذلك؟ إنكم ستجدون هنا كل شيء."

"من الذي يرفض أن يراكم مرة أخرى؟ سآتي بالتأكيد. آر ريفيدير– تشي.[2]"

إنه ما زال يبتسم وقد أصبح في الشارع. 'كيف ذلك؟ هل من الممكن لمثل هذه المرأة ألّا تنجب وهي بمثل هذا القوام وذات أصول جنوبية؟ ليس هذا شأني. في هذا المخزن أجد مُرادي وأتمتع فوق ذلك برفقتها. لديها كل شيء وبأسعار معقولة. منذ الآن ستحرص على راحتي كما يفرضه الواجب.'

عندما رأته أندريا يتناول إفطاره المكوّن من جبن الماعز والبصل علّقت قائلة: "يا إلهي يا بابا، كم هي مزعجة هذه الروائح المنتشرة في أنحاء المكان." وأخذت أشياءه من الخزانة وحفظتها في أكياس مفرغة من الهواء لتضعها في الثلاجة، كما تُدفن التوابيت في المقبرة. عندها حَسَم أمره. سيحتفظ بمؤونته الخاصة خافياً إياها بين شبكة قضبان الأريكة التي ينام عليها. سيغلق عليها بأكياس البلاستيك لكيلا تفوح الرائحة منها وسيتمكن في الوقت نفسه أن يخبئ تبغه.

---

١. Maddalena

٢. Arrivederci إلى اللقاء.

إن أندريا قد قبلت على مضض فكرة كونه مدخناً ، ولكن فقط في الغرف التي لا يتواجد فيها الطفل. من حظه أن حاسة الشم عند أندريا وعند مدبرة المنزل متواضعة. هذا ليس مستغرباً فالحياة في ميلانو تقتل الحواس. من الآن فصاعداً سيتناول إفطار رجل حقيقي، إفطاراً له رائحة ومذاق مميزين. سيستعمل موسه الخاص ويأكل خبزاً شهياً ويشرب جرعة خمر قوي يجعل طعامه هنيئاً مريئاً. لم تجد أندريا إلى الآن حجة تجعلها تعترض على وجود خمره في المطبخ.

'سأشارك أندريا على الأقل فطورها الصباحي: سأتناول معها البانيتو، المعكرونة الجاهزة المسخنة، المعلبات والأطعمة المثلّجة. وسنتمكن يا روسكا، أنت وأنا، أن نأكل طعامنا، ولو لمرة واحدة في اليوم، على هوانا'

يجلس على مقعد في الساحة الكبيرة ويلفّ سيجارة ليدخّنها في الهواء الطلق. يراقبه أحد المارّة. وفي اللحظة التي يمرر لسانه فيها على الحافة المصمّغة لورق اللف يخطر شيء بباله فيحجم فجأة عن المتابعة.

'وماذا لو أن أندريا على حق، وأن التدخين يضرّ بالصغير مثلاً...؟ ما رأيك يا روسكا؟ أعرف أن التدخين يهدئك، ولكن الطبيب يقول إنه ضار. والآن أريد البقاء على قيد الحياة ليس فقط من أجل كانتانوتّه، ولكن من أجل برونيتينو أيضاً. عليك أن تقبلي بذلك يا روسكا، فالتدخين سيء للطفل حتى لو اقتصرنا عليه في غرفتي.'

يرطب ورقة السيجارة الشفافة بلسانه ويلفّها ويشعلها بعود ثقاب.

يسحب نفساً وهو شارد الذهن ولا يستمتع بطعم لفافته كما اعتاد على ذلك. إنه يشعر بالذنب. كأنه يخون حفيده في هذه اللحظة.

٦

كم هو شاق الحدّ من التدخين. ولكن الإفطار في السر ممتع فعلاً، وخاصة بعد ثلاثة أيام خلت، عندما طُلب إليه أن يمتنع عن الأكل. في تمام الساعة التاسعة صباحاً ستؤخذ منه عينة الدم. في اليوم السابق جرّته أندريا إلى طبيب مشهور طلب منه إجراء هذه الفحوص. في الحقيقة لم يطلب الفحص الطبيب بذاته إنما مساعدته –أو ما شابه ذلك– . إنها مفرطة في البدانة كإفراط أندريا في النحافة. وتشتركان في حبهما للثرثرة فقط، فكلتاهما لم تستطيعا الوصول إلى غرفة الطبيب، إلى قدس الأقداس. ولم يشفع له انتظاره الطويل ولا الأسئلة التي لا تنتهي ولا رواح المستخدمين جيئة وذهاباً ولا تعقيدات مكتب الاستقبال في الدخول إلى عيادته. يضحك الشيخ في سرّه : إنه يتصوّر أندريا داخلة إلى المطبخ فاحصة الطعام مرتاحةً لأن الشيخ لم يمسّ شيئاً منه.

'هراء أن يُطلب من المرء أن يكون خاوي المعدة قبل إجراء الفحوص'، فكّر وتمتّع بمذاق الجبن والبصل والزيتون. 'إن هذه خدعة من الأطباء لتحقيق الربح فقط. فحص مخبري، لمَ؟ ستكون نتائجه سيئة على كل الأحوال أليس كذلك يا روسكا؟ إنك حريصةٌ على هذا.'

إن عينة دمه لم تكن جديرة بأن تُسحب في عيادة ذلك الطبيب الشهير وإنما في المشفى المركزي الذي أخذه إليه ابنه ريناتو. يقع المشفى على خط سير ريناتو إلى مكان عمله في منطقة بوفيزا[١] الصناعية. ويمتلك الوقت لمرافقته إلى هناك. لقد صفّ السيارة وقاد والده عبر الدهاليز الطويلة ماراً بالمكاتب الإدارية وصولاً إلى غرفة الانتظار، إذ سيمكنه أن يأخذ غفوة قصيرة من جديد بعد أن أوصاه ريناتو :

١. Bovisa

"أذكّركم يا أبي. خذوا سيارة أجرة من مدخل المشفى إلى المنزل مباشرة."

يتظاهر الشيخ أنه ينصت بانتباه. ولكن ما إن غادر ريناتو حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة. 'أريد أن أرى كيف يتصرّف شباب اليوم في الحرب. أريد أن أرى إن كانوا يستطيعون التخفي من الألمان في مدينة كبيرة غريبة. يطلب إلي أن آخذ سيارة أجرة! وكأنه لا يوجد لدي شيء أفضل أفعله! سيكلفني ذلك عشرة آلاف ليرا على الأقل!'

السيدة مادالينا –حلاّلة المشاكل– أوضحت له البارحة مساء أن خط الباص رقم "٥١" يمر مباشرة من هذا المشفى ويقف في ساحة بيانكامانو[١]. وما عليه من هناك إلا أن يمشي متخطياً شارع موسكوفا[٢]، ثم يعبر الحديقة، ليصل مباشرة إلى البيت. لذلك لن يسمع ما يقوله ريناتو.

ويدرك النظرة المتفهمة التي يرمقه بها مريض في سنّه يجلس بجانبه ويتابع ما يجري بين الأب وابنه.

وإذا ما تُرك على هواه، فإن الأب كان ليترك المكان دون أن يكمل أي فحص متجهاً إلى المنزل. ولكن طبيب المشاهير يصرّ على فحص الدم ولو من أجل الروتين.

'إن هذا الروتين وهذه الجلبة لتفعلان فعل السم في جسمي، هل يظنون بأنني أصبحت خَرِفاً؟ هل هم مقتنعون فعلاً بأنني قد أتيت إلى ميلانو بقصد الشفاء. هؤلاء الأغبياء! لقد كنت مستعداً لمغادرة القرية فقط لأن هذا الكلب الملعون ما زال يتنفس. هل كنت لأستغني عن سريري المريح وعن الموت محاطاً بأصدقائي ناظراً إلى جبل فيمّينا مورتا[٣]، متمتّعاً برؤيته يرتدي الغيوم، مسترخياً تحت قبة الشمس؟

فقط لأن كانتانوتّه ما زال يتنفس، بالرغم من أنه لا يتمكن الآن حتى من الوقوف على

---

١. Piazzale Biancamano

٢. Moskova

٣. Femmina morta

قدميه، منذ أن أصبح نصفه السفليّ مشلولاً. لا زال له أنف يضع عليه نظاراته الشمسية الفاشستية، التي حملها طيلة حياته. كان على الشيخ أن يتحمّل نظرة ابن الكلب هذا إليه عندما غادر مع ريناتو القرية.

قبل شروق الشمس كان كانتانوتّه يجلس على طرف ساحة القرية ليكون شاهداً على رحيل الشيخ. لقد طلب من ولديه أن يحملاه إلى هناك، عند باب الكازينو، وجمع أزلامه حوله ليسامروه ويستعرضوا معه مشهد الرحيل.

يعيش الشيخ هذه الذكريات مرة أخرى بينما ينتظر الممرضة كي تناديه عندما يحين دوره.
كصورة مصفرّة يمر مشهد الساحة أمام عينيه، حيث تقف في منتصفها سيارة ريناتو يحيط بها أطفال القرية. حول الساحة تصطف منازل غير منتظمة تشكل كتلة بناء مستطيل، ذات واجهات يسكنها الفضول. تبدو الأبواب والنوافذ مغلقة، لكن خلفها تقع نقاط مراقبة، أبراج ترصد الحياة الاجتماعية في أدق تفاصيلها. واليوم يكمنون للشيخ سلفاتوره، فهو موعد رحيله النهائي عن القرية. يصطف الخصوم على الساحة في مواجهة بعضهم بعضاً. على أحد ضلعي المستطيل تقع الكنيسة ويقع الكازينو، ويحكم كليهما كانتانوتّه. على الضلع المقابل تقع قهوة بيبّو ودار البلدية، معقل الشيخ ورفاقه. بجانب القهوة مباشرة يقف المنزل الذي ورثه سالفاتوره عن والد زوجته.

يظهر الشفق في السماء ويبدأ الصباح.

عبثاً حاول سلفاتوره أن يمضي وقته على أمل كاذب في أن يصعد شلل عدوّه اللدود من نصفه السفلي إلى القلب، كما تفور فقاعات المياه الغازية نحو الأعلى، فيقضي عليه. وعبثاً تضرّع إلى كيسه ذي التمائم الموجود تحت قميصه منتظراً المعجزة.

لقد حزم بطانيته العتيدة ووضع المطواة في جيبه وخرج برفقة ابنته إلى الفناء. هل عليه أن يأخذ أيضاً سلاحه القديم المهترئ "لوبارا"[1] معه، أول سلاح حصل عليه وجعل

---

١. Lupara بندقية.

منه رجلاً؟

يقلق ريناتو لأنه يفكر بالمهمة التي سينجزها من أجل أندريا في روما وستأخذ منه وقتاً إضافياً. بدأ ريناتو يفقد صبره قبل اكتمال شروق الشمس.
"أبتاه، هل انتهينا؟ هل أُحضر السيارة لننطلق من البوابة الخلفية للفناء؟"

أثار اقتراح ريناتو غير المشرّف غضب الأب فرماه بنظرة جليدية، ولكنه تحرّك. وضع البندقية جانباً وقبّل ابنته روزيتا. لوّح بإشارة مبهمة من يده باتجاه صهره نينو وبتّ في الأمر قائلاً بصوت قوي:

"لنذهب، ولكن من البوابة الأمامية حصراً! حذارِ يا روزيتا أن تقفي على الشرفة وتبدئي بالنحيب وإلاّ لأعودنّ وأصعدنّ خصيصاً إلى الشرفة لأعاقبك. إذا كنت لا تستطيعين السيطرة على مشاعرك فلا تحاولي أن تظهري للناس."

بخيلاء وبصخب يميزان أصحاب الشأن عن غيرهم نزل المسنّ، منتصب القامة أكثر من العادة، الدرج الحجري المفضي إلى المدخل الظليل واختفى فيه.

خرج أصدقاؤه من حانة بيبو وانتشروا ليودّعوه كما يُودع الرجال. إنهم يبتسمون وينسجون الخطط التي تخص يوم رجوع سلفاتوره مجدداً إلى القرية منتصراً على المرض. في هذه الأثناء يجلس ريناتو في سيارته أمام المقود منتظراً نافذ الصبر.

أخيراً استطاع سلفاتوره أن يتحرر من أصدقائه ويتجه وحيداً إلى العربة. لقد مرّ من أمام الكازينو ناظراً بتحدٍ باتجاه عدوّه الجالس على مقعده، وولديه الاثنين اللذين يحيطان به، ومجموعة الطواويس التي تشكل أفراد عصابته.

"الوداع يا سلفاتوره!"، تلفّظ بها فم أرخاه المرض من تحت النظارة السوداء إياها.

توقف الشيخ ضارباً جذوراً في الأرض، منتصباً، مباعداً قليلاً ما بين ساقيه شاداً عضلات ساعديه.

"ماذا؟ أما زالت لديك القدرة على الكلام يا دومينكو[1]؟"، يرد سلفاتوره بصوت حازم. "لقد مرّ وقت طويل على آخر مرة سمعت فيها تفاهاتك."
"ها أنت ترى! من يبقى على قيد الحياة يستطيع أيضاً الكلام."
"إذاً، هل كنتَ ميتاً عندما قطعت ذنب كلبك نوستيرو[2]؟ لم يصدر عنك عندها أي صوت!"
"آآ، لقد تجاوزت ذلك قبل أن أقتل نمسك روسكا. يعلم الرب أنها كانت صيادة أرانب مميزة!"، يجيبه المشلول وسط قهقهات عالية صدرت عن طواويسه.
"وعندما فُضّت بكارة ابنة أخيك كونتشيتّا[3]، هل كنت أيضاً ميتاً؟ منتهياً وعفناً كما أنت عليه الآن!" صرخ الشيخ في وجهه وبصق على الأرض وفتح سكينه القلاّب ضمن جيبه مستعداً.

في هذه اللحظة كان على قيد أنملة من وضع نهاية لكل شيء: أن يموت ويسحب معه كانتانوتّه إلى الموت.

وخيّم على الساحة صمتٌ مباغت قاطعٌ كحدّ السكين. وما كان من كانتانوتّه إلا أن أمسك بسرعة بساعدي ابنيه الواقفين إلى جانبه، اللذين توثبا بعصبية، وأشار إلى سلفاتوره بحركة مهينة من يده المكتنزة المليئة بالخواتم قائلاً:

"لقد رمّم الزمان نفسه بأفضل مما قد يستطيع الأطباء ترميمه في جسمك. وأخيراً امشِ الآن، ولتكن رحلتك طيبة!"

'لقد قيل كل شيء'، هذا ما اخترق عقله بلمح البصر. 'لقد أصبح كل شيء هنا واضحاً: واضح أن كونشيتا لم تستطع الزواج بأحد أغنياء الحرب ولم تكن لتصبح سيدة راقية في مدينة كاتانزارو إلا كونها تملك الكثير من المال؛ وأن رحلتي ستقود إلى المقبرة؛ وأن كانتانوتّه سيلحق بي عاجلاً. إنني ما زلت أملك وقتاً أستطيع فيه أن

١. Domenico
٢. Nostero
٣. Concetta

أغمد سكيني في قلبه وأنظر إليه كيف يفطس وأنتظر أن يغتالني ابناه. ولكن لماذا كل ذلك؟ لقد قيل كل شيء.'

وفي النهاية، وبعد أن رفض خصمه تحديَه، استطاع أن يمشي بخيلاء وبطء قاصداً السيارة التي أثار انطلاقها غيمة من الغبار غطّت جماعة كانتانوتّه.

"لقد أحسنت بهذا التصرّف يا ريناتو"، أثنى الشيخ على ابنه وهو راض. "ولأنك لم تبقَ داخل السيارة إنما خرجتَ مستعداً لدعمي. رغم أنني كنت سأنجز المهمة مع هذه الحثالة وحدي."

رغم ذلك حدث شيء أصابه بالغم. لم يتمكن أن يشرح لنفسه غياب أمبروزيو الذي لم يودّعه كما فعل الآخرون. لم يدرِ أحد مكان أمبروزيو، أخيه في العمل الفدائي. لقد أنقذه أمبروزيو من موتٍ محقق عندما خلّصه من أمواج نهر كراتي[1] في جبل كازيليو[2]، بعد غارة شنّها الفدائيون على الألمان وأصيب فيها سلفاتوره بجراح بالغة.

ولكن أمبروزيو كان متمركزاً في نقطة مراقبته كما يجب أن نتوقع. بعد المنعطف الأول خارج القرية كان أمبروزيو واقفاً تحت شجرة الدردار قرب الكنيسة، واضعاً بين شفتيه عشبة جافة يعبث بها. أوقف سلفاتوره العربة وترجّل منها.

"أخي وصديقي أمبروزيو" صاح الشيخ بفرح. "هل تريد أيضاً أن تعرف سبب مغادرتي البلدة؟"

"هل تستغبيني يا سلفاتوره؟" قال له أمبروزيو مصطنعاً الانزعاج. "الأمر واضح! لا تريد أن يأتي كانتانوتّه إلى جنازتك إذا ما تغلّب عليك الموت!" قال أمبروزيو ذلك وهو يقوم بحركة بيده اليسار ألّا قدّر الله.

ويقهقه الصديقان بصوت عالٍ.

---

١. Crati

٢. Monte Casiglio

"أريدك أن تبقى صامداً"، يتابع أمبروزيو كلامه بجدّية ، "لكي تستطيع أن تذهب أنت إلى جنازته. وبعد ذلك أدعوك لحضور جنازتي الشخصية."

ولبس أمبروزيو وجه مهرّج – دور يتقمّصه حالما تصبح الأمور ساخنة – وقال :

"عليك أن تتحمّل يا برونو[١] كما كنت تفعل في السابق. أنت تعرف عما أتحدث."
"سأفعل ما بوسعي"، وعده الشيخ، "كما في العهد السابق" .

يتعانق الصديقان مرة بعد أخرى في نشوة عارمة : يضمّان صدريهما أحدهما للآخر حتى ليلثم قلب أحدهما قلب الآخر وليشعر بنبضاته. ينفكان أحدهما عن الآخر ويتجه سلفاتوره نحو السيارة دون أن ينبس ببنت شفة. تتعانق فقط النظرات عبر زجاج نافذة العربة المنطلقة.

رفع أمبروزيو قبضته إلى الأعلى محيياً وصدحت حنجرته بأغنية الفدائيين، وتلاشت قامته مع ابتعاد المركبة وعندما اختفت، بقيت أصداء كلمات النصر التي تتحدث عن الكفاح والأمل، ترنّ طويلاً في أذن الشيخ وفي صدره.

١. Bruno برونو : الاسم الحركي لسلفاتوره عند الفدائيين.

٧

يتساقط الثلج !

يقفز المسنّ من سريره كالطفل السعيد . إن سقوط الثلج في موطنه هو معجزة وفرصة تعِد بمروجٍ غضة ومواشٍ سمينة. يرى ندف الثلج فيذهب إلى النافذة ويطلّ منها : إن الفناء ليس مغطى به. المدينة تفسد كل شيء ، حتى الثلج يتحول إلى بُرك وحلية مزعجة. لقد قرر أولاً أن يبقى في البيت ثم غيّر رأيه، إذ أن الحديقة ربما تكون ما زالت مغطاة بالثلج. ومن ناحية أخرى سيتجنب أنونزياتا التي ستأتي اليوم قبل موعدها بسبب ذهاب أندريا إلى الجامعة مبكرة.

ليس لأنه لا يتفاهم معها . فقط لأن لديها وسواس النظافة ولأنها تذكّره بالألمان عندما تجوب الشقة بمكنستها الكهربائية ماشية كالعسكر ، سائرة كالدبّابة. حينئذٍ يُفرض عليه الهروب من غرفة إلى أخرى وحتى أخذ مؤونته المخبأة تحت الأريكة معه حين توضّب حجرته. وكأن هذا غير كاف : لا تترك أنونزياتا شيئاً على حاله إلاّ وتغير مكانه بحسب مزاجها . شكراً لله أنها لا تُكثر من الكلام، بل تفضل الإنصات إلى مذياعها الصغير الذي تجرّه معها أينما حلّت.

'ما هذه السخافات التي تصدرها هذه العلبة!' يفكر الشيخ ويراقب من خلال نافذة غرفة الطفل النائم مشهد الثلج. 'لغط غير مفهوم ولغة بيروقراطية لا يمكن إدراكها . ذات الشيء يصدر من التلفاز الموجود في بار بيبّو. مع فارق أن الناظر يرى الصورة ويشاهد شفتَي المذيع، مما يساعد على الفهم.'

إنما أسوأ ما في أنونزياتا هو أنها تحاول بخبث أن تُبعد الصغير عن جدّه.

ويظن الشيخ أنها أوامر أندريا التي تخاف على ابنها من مرض الجد وتخشى أذى دخان لفائفه. 'ولكنني أقلّ من التدخين يوماً بعد يوم'، يستدرك شاعراً بالغضب. 'أفهم أن

علي عدم إيقاظ الطفل، وهذا شيء طبيعي، ولكنه يبدأ الآن بالحركة من ذات نفسه ويفتح عينيه الصغيرتين الخبيثتين.

"يا سيد رونكونه!، لا تحاولوا حمل الطفل!" تطل أونزياتا بوجهها إلى داخل الغرفة عن غير توقع. "هذه تعليمات السنيورة."

"لم لا؟ التقدم في السن غير معدٍ!"

"لا حاجة يا سيدي لقول ذلك. إن حمل الأطفال غير مستحَبّ لأنهم سيتعودون ذلك. أليس هذا صحيحاً؟ إن كتب تربية الأطفال تقول ذلك."

"ماذا سيعتادون؟ على ألاّ يلمسهم أحد؟ كتب! هل تعرفون ماذا سأفعل بها لو وقعت في يدي؟ . . . يبدو أنكم تفهمون قصدي أيتها السيدة! تقولين كتب! حتى الجداء الصغيرة التي تجد بنفسها حلمة ثدي أمها، تحظى بالدفء –وهذا في عالم الحيوان – إذ تقوم الأم بلعقها طوال اليوم!"

"إنني أقول فقط ما أمروني به"، ترد عليه أونزياتا بخيلاء وتستدير مبتعدة. [يرفع الجد حفيده]. يلعب الطفل بين ساعدي جدّه متحسّساً جسمه، ضاحكاً، محاولاً الوصول إلى خصلات شعره الشائبة. يجذب الشيخ إلى صدره جسداً غضاً ينبض بالحياة.

في الأيام السابقة كان يخشى من ضمّه إليه بقوة لئلا ينكسر كما تنكسر البيضة النيئة. أما الآن فيعرف أن الصغير لا يشبه البيضة. نعم، بالغ في الصغر ويحتاج أيضاً إلى الحماية، ولكنه مسيطر يصرّ على طلباته. ما هذه الطاقة التي يتمتع بها عندما يبدأ بالصراخ ويضرب بيديه ورجليه! ما هذه الإرادة الحديدية والتصميم القوي! يا لها من كتلة حياة ساحرة.

بهذا الشكل تماماً ضم الراعي الشاب سلفاتوره جَدْيَهُ لامبرينو[1]. ولكن سلوك ذلك الخروف الصغير المحبب إلى نفسه كان متوقعاً. في حين أن الطفل يفاجئه مرة بعد أخرى، إنه لغز أبدي. لماذا يلاحظ اليوم مثلاً أشياء لم يلقِ إليها البارحة بالاً؟ لماذا

---

١. Lambrino (جَدِي).

يهمّه فجأة أمرٌ كان بالنسبة إليه من قبل شيئاً مملاً؟ إنه يراقب كل شيء بفضول: يتحسّسه، يمسك به بيديه الصغيرتين، يأخذه بفمه، يفحص مدى مقاومته، يدسّ أنفه فيه. إنه يتشمّم كصغير الكلب. كم يستمتع بكل ذلك!

إنه في حالة بحثٍ مستمر، ولا بد أنه يشعر بالضياع وتخلّي مَن حوله عنه إن لم يكن نفسه مادةً للبحث! لهذا، يضمّه الشيخ بلطفٍ، يقبّله، يستقبل عبقَ رائحته بنفس السعادة التي تتملّك الطفل، وكأن الجد يضع نفسه في مكان حفيده. 'هل نحتاج إلى الكتب كي نربّي أطفالنا! لن تفيدنا في تعلّم الحياة، كما تفعل الأيدي والقُبل والأجساد والصوت البشري..! وماذا عن اللمس؟ انظر أيها الصغير: كما تأخذ تعطي. لقد داعبت لامبرينو خاصتي كما داعبتني أمي، وتعلّمت أن أضرب عندما ضُرِبْتُ - وكم كان علي أن أتحمّل!' يبتسم الشيخ عندما يتذكر درساً آخر من دروس الحياة. 'ولكنني فيما بعد أحببت مثلما أُحببنني. لقد كان عندي أحسن المعلّمات! وأنت أيضاً عليك أن تتعلّم الحب. سأفعل ما بوسعي لتنجح في ذلك.'

وبغتة يمسك الصغير متعمّداً شعر الشيخ ويشدّه بقوة. ويضحك الشيخ من كل قلبه سعيداً رغم شعوره بالألم.

'إن الصبي يفهم لعبة الحياة ويعيشها.' لا يمكنه التفكير ولا الكلام، لكنه يحسّ بهذه اللحظة بكل عمقٍ وكأن جسده وجسد جدّه أصبحا جسماً واحداً. إنها مبادلة سرية يلعب فيها الجد دور جذع شجرة تعطي الأمان لفرعٍ نديٍّ أخضر يريد استقبال الحياة بين أحضان الشجرة المتجذرة في الأرض الأبدية.

٨

لديه رغبة مجنونة بأن يصنع من الصبي، الذي لا يلقى برأيه الرعاية الكافية، رجلاً حتى إنه نسي روسكا. لا يريد أن يُصبح الطفل كرجال ميلانو عديمي الثقة في النفس، الذين –وبشكل دائم– يتملكهم الخوف من كل شيء ومن كل شخص وحريصون على أن يظهروا خلاف ذلك: يخافون أن يصلوا متأخرين إلى عملهم، أن يفوّتوا فرصةً رابحةً، أن يمتلك جارهم سيارة ليس بوسعهم امتلاكها، أن تكون نساؤهم مغرقات في الشبق، أو يكونوا هم باردين عندما تكون نساؤهم متطلّبات.

ويستمر الشيخ في النظر إلى الأمور على طريقته. 'هم أقرب إلى الوهم منهم إلى الحقيقة. ليسوا رجالاً حقيقيين ولا نساء حقيقيات، ليسوا بالغين راشدين ولا أطفالاً'، يفكر الشيخ مقارناً إياهم بأصدقائه في الريف. ' تجدون عندنا أيضاً رجالاً أعنّاء ولكن الغالبية تثبت رجولتها. إنني أعرف تماماً عمّا أتحدّث.'

وعندما لا يأكل المرء الطعام المناسب، لا يمكنه بالتأكيد أن يصبح رجلاً حقيقياً، كل تلك الأغذية المحفوظة التي يجلبونها من الصيدليات هي دواء أكثر منها غذاء للطفل، حتى لو كتب عليها "لحم عجل" أو "لحم دجاج"! والحليب لديهم خالٍ من القشدة. وهكذا دواليك... وعندما سأل المسن أندريا إن كانت تعطي الطفل من حين لآخر مستحلب الكستناء مع قطرات من عرق التوت – لأن هذا ينظف الأمعاء ويقوي المناعة – كادت أن تنفجر. لقد تجمّدت عيناها الرماديتان في محاجرهما وارتبط لسانها.

'في هذا الصدد يعرف كل إنسان أنه من الواجب إعطاء الرضيع بضع قطرات من عرق التوت الأصلي، وليس ذلك المعروض في الصيدليات، كيلا يمرض.'

‘عندما سمعت أندريا هذا، أصبحت عاجزة عن الكلام وهي التي لا تنقصها الكلمات. بل بالعكس، فهي تمطر الصغير بشلاّل من المفردات التي يستعملونها عادة في لغة الإذاعة. لا يفيد هذا الرجولة في شيء.’ وفي هذا الصدد يتذكّر المسنّ أيام المدرسة، حين جاءهم معلّمٌ جديد شابٌ ليستبدل الدون بييرو[1] الذي فارق الحياة. لم يكن مستغرباً ألاّ يفهمه الأطفال: فماذا سيفعلون بكل هذه القصص عن الملوك والبلاد التي لن يروها على كل حال؟ علم الحساب، نعم هذا ما يجب أن يتقنه الإنسان، كي يقي نفسه من خداع سيّده له أو من الضحك عليه في السوق. وفقط حينما كان الأطفال يثيرون المشاكل – وسلفاتوره على رأسهم، عندما كان يستطيع زيارة المدرسة أثناء فصل الشتاء – كان المعلم الجديد يشتم باللهجة العامية. وهي لغة يفهمها الأطفال [لا اللغة الايطالية المستخدمة في الإذاعة]. ومسقط رأس المعلم هو تريتزيو بالقرب من مدينة ريجيو[2]، رغم أن هذا الغبي فعل أقصى ما بوسعه لإخفاء ذلك.

من الطبيعي أن يستسلم حفيدي للنوم فوراً وهو يسمع أمه ترطن بمفردات الراديو، كما هو الآن. وتذهب أندريا منعمةً بالسعادة مختفيةً وراء طاولتها، مختبئةً خلف كتبها، مضيئةً نور المصباح لتكتب وتكتب وتكتب. لا تستعمل الآن نظاراتها، ولم يخفَ عن الشيخ أنها استبدلت نظاراتها بعدسات لاصقة.

يستغل المسن هذه الفرصة ويجلس قرب السرير الصغير شارداً وسارداً مع أفكاره. بعد قليل يأتي ريناتو، يقبّل ابنه النائم ويذهب إلى غرفته ليبدل ملابسه. يتبعه الجدّ دائم التفكير بموضوع مكان نوم الطفل، مع العلم أنه تجنّب قبلاً دخول غرفة نومهما. لن يتسامح في هذا الأمر ويشعر أن من واجبه إقناع الأهل. سيفهمه ابنه لا محالة. يُفاجأ ريناتو وهو يرتدي لباس المنزل بدخول أبيه إلى غرفة النوم..

“هل تريدون مني شيئاً يا أبي؟”

---

١. Don Piero

٢. Trizzio بالقرب من Reggio

"لا، لا، لاشيء ... ولكن انظر، ألا ترى أن الغرفة تتسع بعد لسرير أطفال؟"

يبتسم ريناتو برفق، وأيضاً بنزق.

"ليس الموضوع موضوع مكانٍ يا أبي، الموضوع هو مصلحته."
"مصلحة من؟"
"مصلحة الصغير طبعاً ... لقد أوضحت لكم ذلك منذ فترة قريبة: بهذا الشكل يجتنب الإنسان العُقد النفسية. هو موضوع سيكولوجي، يتعلّق بالوعي. يجب ألّا نقيدهم بدلالنا، تفهموني؟ يجب ألا نأسرهم بل نحررهم. هو موضوع معقد بعض الشيء يا أبي، ولكن صدقني: الأطباء يعلمون ما يفعلون."

كل كلمة من تلك الكلمات تلقى عند المسنّ مجرّد الرفض. 'أين التعقيد في هذا؟ إنه بالغ السهولة: على المرء فقط أن يحبّهم! أين الأسر؟ إن شعب ميلانو هو نفسه غريب الأطوار! أين العلم؟ ما هذه المعرفة التي تقصي حب الأهل؟ من يجب علينا أن نحب إذا لم نحب أطفالنا؟ قد يكون الأهل هم من يرفضون الحب؟'

لا يسعه الآن أن يقنع ابنه رغم أنه منزعج من الحديث [ويرغب في إكماله]. إنه وقت الحمام فالصغير قد أفاق توّاً. وقت الحمام: سعادة نهاره!

عندما نظر إلى الطفل للمرة الأولى أثناء حمامه شعر بالخجل، وكأنه قد استباح عورة الآخرين. بعد ذلك فهم أن الطفل لا يشعر فقط بارتياح في الماء، إنما يعجبه أن يكون مركز اهتمام. ومنذ أن بدأ الشيخ بحلاقة ذقنه يومياً وقلل من التدخين، أصبح الصغير يستمتع بتدليل جدّه ويسعَد بقبلاته، هذا حينما يتشجّع الجد على فعل ذلك بغياب والدته. لقد اكتشف من خلال مشاهدة حفيده أثناء الاستحمام أن برونيتينو مشروع رجل كامل الفحولة: في الماء الساخن كان الطفل ينقل إصبعه بين ذكره وأنفه ويضحك من كل قلبه. 'برافو يا برونيتينو!'، يبتهج الشيخ في داخله عندما يسجّل هذا الاكتشاف. 'أنت رجل كامل، رجل كامل كجدك!'

لهذا كله ينمو خوفه من الكتب ومن الأطباء الذين قد يضرّونه وذلك لأنهم يتركون الطفل

في الليل دون حماية تردّ عنه الكوابيس والحوادث العارضة والقوى السوداء . 'إذا استمروا في هذا النهج فإنهم ربما سيطلبون في المستقبل فصل الرجال عن النساء في غرف النوم كيلا يستمروا في محبة بعضهم بعضاً .'

برونيتينو ! إنك تحتاج لامرأة من عندنا من الجنوب ، تفهم الرجال ، كأمي أو كتورتوريللا[١] التي ربّت أحد عشر ولداً ، أو الخالة بانغاناتا[٢] التي تزوجت ثلاثاً . لا عليك ، فأنا موجود معك. سأساعدك ! إن في الحياة صعوبات كثيرة سأعبر بك نحوها . هي من جهة قاسية جارحة كصخور الجبال ، ومن جهة أخرى ستملأ قلبك بالسعادة عندما تجتازها !'

---

١. Tortorella

٢. Zia Panganata (Zia تعني الخالة أو العمة) .

٩

"هل رأيتم؟ سنيور رونكونه، هل رأيتم!"

في هذه الأثناء كان المسن يساعد الطفل على الجلوس بجانب السرير على الأرضية المكسوة بالموكيت. يلتفت إلى أنونزياتا ليراها عند الباب يملؤها الانتصار.

"العم رونكونه إذا سمحتِ! وماذا علي أن أرى؟"

"إن السيدة على حق. علينا الحرص على عدم حمل الطفل. لقد شاهدته بأمّ عيني يطلب مغادرة السرير!"

وبالفعل، فقد أشار الصغير، وهو في حضن جده، بإصبعه إلى الأرض بحركة وكأنها من يد إمبراطور روماني: آآ، آآ، آآ. كان يصرخ ويضرب بأيديه وأرجله يريد تحرير نفسه.

"أو لم أساعده في ذلك؟"

"هذا ما ينقصنا. إن جوابك لهو تأكيد على أن كلام السينيورة صحيح!"

"كلا. هذا يعني أن الأب نيكولا[١] محق في كلامه. إنه الكاهن الوحيد الذي كان على خُلُق من أصل الكهنة الذين مروا على روكاّسيرا. ومن غير المستغرب أنه لم يبقَ بها طويلاً."

"هل عُيّن في أبرشية أخرى أحسن؟ إن أي مكان آخر سيكون حتماً أفضل من روكاّسيرا."

يسدّ الشيخ أذنيه عن هذه المشاكسة.

---

١. Don Nicola

"لا . لقد ترك دون نيكولا الكهنوت إلى غير رجعة لأنه لم يعد يفهم البابا ولأن الكيل قد طفح. هو الآن يعمل مدرساً في نابولي."

يجلس الصغير على السجادة وينصت بإعجاب إلى السجال الدائر بين الصوتين المحتدمين، وكأنه يفهم هذا الحوار الصباحي الساخن.

"فهمت، فهمت، وما هي المعجزات الأخلاقية التي أتى بها الأب نيكولا، مَثَلُكم الأعلى؟"

"لقد طبّق معجزات من الإنجيل " فليرَ من له عينان وليسمع من له أذنان"، أو شيء من هذا القبيل. وهذا ينطبق على كنّتي وعليكِ، وعلى آخرين كثيرين كالأطباء الذين يجيئون ويروحون من دون فائدة!"

ارتبكت أنونزياتا وتلكأت بالإجابة. وقالت أخيراً بتهكم واضح :

"لا أحد يستطيع أن يتغلّب عليكم في النقاش أيها العم رونكونه!"

استدارت أنونزياتا وخرجت من الغرفة بكبرياء المنتصر.

في هذه الأثناء يقلب الطفل علبة ألعابه التي كانت بمتناول يده، ويركز اهتمامه عليها. هي ألعاب تربوية : ألعاب تركيبية، دمى محشوة، شخوص ذات أجراس وحصان خشبي هزاز كان جدّه قد أهداه له ولقي عنده حظوة كبيرة. بعدما أهمل الطفل هذا الحصان لفترة عادت هذه اللعبة مرة أخرى إلى احتلال المركز الأول في اهتماماته. وهذا ما أسعد الشيخ كثيراً.

جلس الجدّ إلى جانب حفيده وهمس :

"طبعاً لا يستطيع أحد أن يتغلّب عليّ! ماذا تظنان [أندريا وأنونزياتا] غير ذلك؟ إن أنونزياتا امرأة طيبة يا برونيتينو وهي تحبك كثيراً، ولكنها عانسٌ متقدمة في السن ولا خبرة لها، تماماً كوالديك. يحسبان أنني أريد حملك ولكن الحقيقة أنك أنت الذي تصرُّ على ذلك. لحسن الحظ أنني قد فهمتك، وأن ثقتك في نفسك تكبر منذ اللحظة

التي وصلت بها إلى هنا وبدأت بتدليلك. ستصبح إلى جانبي رجلاً. وإنه من الطبيعي أنك، يا ملاكي الصغير، تتجرأ على فعل أشياء لم تكن لتفعلها لو لم أكن إلى جانبك. لقد أصبحت الآن أكثر حركة، لا تترك مكاناً في المنزل إلا وتزحف إليه."

إن هذا ما يحصل بالفعل منذ أسبوعين. فبرونيتينو يظهر أكثر فأكثر رغبة في اكتشاف الأشياء. عندما ينتصب على سريره الصغير ويستلم لعبةً ما، يقذف بها ومن ثم يشير إليها لا لكي تُعاد إليه كما كان يقصد في السابق، إنما كي يؤخذ إلى جوارها.

يتسلّق الطفل في بعض الأحيان سياج سريره الصغير ويتدلّى من فوقه بقوة، بشكلٍ يخاف المرء عليه من أن يقع على رأسه.

"ستقول أمك في هذه الحالة إنك تريد صقل شخصيتك. المسكينة! ليس هذا بيت القصيد! إنها لا تعرف أنني أريك كيف تكون مستعداً، كما لا تنتبه إلى تقدمك التدريجي في تعلّم الأمر الأهم في الحياة. يجب أن تكون قوياً كيلا تداس. ولذلك أقول دائماً عندما آخذك في ساعدي: يجب أن تجعل الحياة تحت قدميك ولا تترك أحداً يستعبدك. إنه من الطبيعي أن تتدلّى للتدرّب على إلقاء نفسك في خضم الحياة. أقول لك: اجمع بين الصلابة واللين في آن معاً! تماماً كلامبرينو، الذي لم يكن يهتم إلا بالأكل والنطح. لقد كان جدياً لم يُقَدَّر له أن يكون بشراً قوياً، ولكنك أنت إنسان!"

وبالفعل فالصغير يتدرب باستمرار وبحيوية أكثر فأكثر. بعد محاولات عدة استطاع أن يزحف على أربع جائباً غرفتَي الأطفال والمعيشة. في هذه اللحظة ينطلق خلف بنطال جدّه. يرفع رأسه فجأةً ويستدير منتبهاً إلى صوت هدير مستمر.

'سمعه قوي كسمع جدّه'، يفكر المسنّ متعرفاً إلى صوت مكنسة أنونزياتا الكهربائية.

"ما هذا التعبير الذي يظهر على وجهك يا طفلي! تذكّرني بتيرّي[١]، الخبير العسكري الإنكليزي الذي هبط علينا بمظلّته. كما هو الحال عندك، ظهرت على جبهته تجاعيد حينما كان يفكر في الكيفية المثلى للاقتراب من المواقع الألمانية تحت جنح الظلام.

١. Terry

ما زلت أتذكر حاجبيه الكثيفين!"

يحبو الصغير بعزيمة باتجاه الباب ثم يمد رأسه إلى الممر وينظر يمنة ويسرة : لا شك أن هذا الممر يبدو له نفقاً لا نهائياً . ولكن ذلك لا يخيفه فيزحف قدماً باتجاه الصوت الذي يأسره. يتبعه الشيخ مبهوراً بهذه المغامرة التي يشارك هو نفسه فيها . يقترب الطفل من باب الغرفة فيرى ظهر أونزياتا وهي تنظف الأرضية.

"هكذا تماماً يا صغيري! فدائيٌ يتقدم كقطة تزحف دون أدنى صوت! إنه عنصر المفاجأة! فالعدو المفاجَأ هو عدو مهزوم لا محالة!، هذه كانت حكمة معلّمنا : هو لم يقل "مهزوم" إنما قال "ضائع"، بحسب تعابيره المدرسية. أما حياة الفدائيين فعلّمتنا بأن العدو لن يكون إلا مهزوماً . على كل حال اهجم يا صغيري!"

"آه!"

ضحك الشيخ ملء شدقيه عندما رأى أونزياتا تنتفض وسمعها تصرخ عندما لمسها الطفل في كاحلها . أفلتت من يدها خرطوم المكنسة الكهربائية الذي أخذ يتلوى على الأرض هادراً .

والآن، وبعدما سقطت دفاعات العدو الأمامية، انطلق الطفل باتجاه هدفه لا يلوي على شيء . وبابتسامة ملؤها السعادة يعانق الجهاز الكهربائي الرجّاج.

"حذارِ من أن يحرق نفسه، حذارِ من أن يتألم!"، تصيح أونزياتا وتطفئ من فورها الجهاز. حلّ سكون مفاجئ جعل قهقهة الشيخ تبدو أعلى من ذي قبل، وفوق كل ذلك بدأ بالضرب على جنبيه من شدة السرور مما زاد في غيظ المرأة.

وباستغراب راقب الطفل الجهاز الأبكم وارتسمت على وجهه خيبة الأمل، فبدأ يطرق بيديه الصغيرتين على جسم الآلة. وللحظة قصيرة بدا وكأنه سيباشر البكاء، ولكنه بدلاً من ذلك حام حول الآلة ذات الأضواء ثم ركب فوقها وبدأ يضرب عليها وكأنه يستحثها على المسير.

يمسك المسنّ بمقبس الكهرباء ويوصل التيار. وللحظة أخرى، وبعد أن عاد ضوضاء الآلة، شعر الطفل بعدم الثقة وكاد أن ينزل عنها، ولكنه بدأ يصدح بأصوات فرحةٍ ضاحكاً من وجود هذا الجمل الرجّاج ويد جده تثبته لئلا يقع من على السرج.

"كفى يا سيد رونكونه! لقد أُصبتم بالجنون!"، تصيح أنونزياتا الغاضبة طالبة استعادة مكنستها التي لن تستردها على الفور. وأخيراً ملّ برونيتينو من هذه اللعبة ليتزحلق إلى الأرض ويزحف متابعاً طريقه. كذلك يزحف الجد على أربعٍ ويقابل حفيده قائلاً:

"أنت فتى لا مثيل لك يا طفلي! لقد هزمت الدبابة وقطعت عليها الطريق! هل تعرف فعلاً مدى الانتصار الذي حققته؟ إنك تشبهُ تورلونيو[1] الذي صنع بنفسه المتفجرات وقنابل المولوتوف! إنك لبطل!"

وبينما ينتفخ الشيخ فخراً، تنصت أنونزياتا مذهولةً. يتوقف الطفل قليلاً عند ذي الأربع الذي يواجهه ثم يحبو من تحت جسمه، الشيء الذي يثير مجدداً ذكريات الجد: ...

"بلى، إنه دور الاحتماء ولكن دون أي صوت كما يفعل الجدي محتمياً تحت جسد أمه. الجدي الذي حدثتك عنه سابقاً، ذلك الذي لا يتقن إلا النطح والأكل." ويتابع الطفل زحفه دافعاً برجليه، منطلقاً نحو الحرية. ويفكر الشيخ مجدداً بأحداث الحرب، بينما يجلس الطفل أخيراً ليستريح سعيداً بمنجزاته البطولية.

"لقد كانت مناورة رائعة منك! لقد رأينا كيف اختفيت عن الأنظار كما كنا نتراجع مختبئين في الغابات! لقد تغلّبت على الحصار. إنك تتقن كل شيء! هكذا ننتصر على البشر وعلى الدبابات وعلى الطائرات! فدائي أنت، واحد منا في انقضاضك وفي تراجعك!"

وفي النهاية يصرخ:

"عاش برونيتينو!"

---

١. Torlonio

ثم تخطر له خاطرة.

"لقد كسبتَ جولة إضافية على صهوة الحصان!"

يرفع الجدّ الطفل فوق كتفيه ليمتطي ظهره، فيتمسّك بقوة فرحاً وخائفاً في آن معاً بخصلات شعر جدّه قابضاً عليها بيديه الصغيرتين. يقارب الجد بين ساقيه ويبدأ بالخبب متجهاً إلى خارج غرفة المعيشة بين صيحات أونزياتا المحمومة. وعندما وصل إلى عتبة الباب ثنى ركبتيه قليلاً لئلا يتأذى رأس الطفل بأعلى الباب، كما يفعلون بتمثال القديسة كيارا[١] عندما يخرجونه من باب الكنيسة المنخفض.

ثم يمشي المسنّ حاملاً الصغير على كتفيه مشية العسكري قاطعاً الممر جيئة وذهاباً مردداً كلمات نشيد النصر المعروف:

"برونيتينو، ريتورنا فينشيتور ... ريتورنا فينشيتور[٢]!"

---

١. القديسة Chiara : هي أولى أتباع القديس فرانسيس أسّيزي [الذي كان يفهم لغة العصافير] وهي ملهمته. تابعت مسيرته الروحية بعد وفاته. ولقد كتبت رسائل وضعت فيها قواعد للرهبانية.

٢. Ritorna vincitor: لقد عاد المنتصر.

١٠

يجلس الشيخ في الكرسي المائل قرب النافذة معطياً ظهره لأندريا. 'الكرسي الصلد'، كما تقول أنونزياتا. هي لا تفهم السبب الذي يجعل المسن متعلقاً بهذا الكرسي غير المنجّد، قطعة الأثاث الفلورنسية المصنوعة من خشب الجوز ذات الظهر والمساند القاسية. إنه لا يحب الأرائك الطرية –حيث "يغطس" بجسمه– التي لا تبدي أي مقاومة، والتي صنعت خصيصاً لأهل ميلانو المرفهين.

"أنتم معجبون بناطحات السحاب، أليس كذلك؟" تُعلّق أندريا، إذ تراه يجلس للمرة الأولى قرب النافذة.

"إنها مذهلة!"

تبدأ ذرات الإنارة المضيئة ترتعش في الشفق اللامتناهية لناطحة السحاب المشرفة على ساحة الجمهورية[١] وفي بناء بيريللي[٢] الشهير، المبني على شكل مقدمة سفينة. ولكن لا يمكن لهذه الابنية أن تلقى إعجاباً في نفسه! على الإطلاق! فلا مقارنة بين هذا المشهد وبين منظر سطح الجبل الجنوبي الذي يراه من نافدة بيته في روكاّسيرا. منظر ذو جلال، ظاهرة تجمع بين الأمومة والقسوة في ذات الوقت: جبله –فيمّينامورتا– الذي يبدّل ألوانه وجوّه بحسب تتابع فصول السنة.

يُفتح باب الشقة ويدخل ريناتو بهدوء، كيلا يوقظ الطفل. يحيي الابن أباه ويتجه إلى أندريا التي يقبّلها في عنقها. إضافة إلى الهمس الذي يصله من ناحية الزوجين، يسمع الشيخ صوت مغلّفٍ يفتح. لا شك أنها نتائج الفحوص التي أحضرها ريناتو من المشفى

١. Piazza della repubblica

٢. Pirelli : شركة ايطالية معروفة.

في طريق عودته إلى المنزل. وبدون أن يكلّف نفسه عناء الالتفات، يحسّ الشيخ تماماً بالنظرات المشفقة التي يرميانه بها. يبتسم في داخله مشفقاً بدوره عليهما.

يذهب ريناتو باتجاه أبيه متحدثاً معه بتفصيل عن حالة السير وذاكراً نتائج الفحوص الطبية بشكل عرضي بينما تذهب أندريا باتجاه الهاتف الموجود في الممر، بدلاً من استخدام الجهاز القريب الموجود على طاولة عملها والذي تتصل منه عادة. 'من الطريقة التي يحاولون بها إبعاد اهتمامي أعرف أنهما يشعران بالخوف. يا للسذاجة، كلاهماساذج بالفعل!'

تدخل أندريا مجدداً وتصرّح أنها أخذت موعداً من الطبيب يوم الخميس القادم. في يوم الخميس سيكون عندها الوقت كي ترافق حماها. ترتسم ابتسامة على الوجه الهادئ للشيخ، هي أقرب إلى السخرية من اضطرابهما. وينقذ بكاء الطفل في هذه اللحظة الموقف: تغادر أندريا الغرفة بعجلة كي تحضّر الحمام للصغير، ويلحق بها ريناتو بذات العجالة. خلفهما يحث الجد الخطى ليشهد تلك الطقوس اليومية المهمة التي تعد الآن بأحداث استثنائية.

شاهدهما ينشفان الطفل الذي، كعادته، يداعب ذكره الصغير؛ هذا الانتفاخ الوردي الذي يشبه برعم ثمرة الكستناء في أوائل الربيع. وهنا كانت المفاجأة! لقد غيّر عادته: فعوضاً عن أن يرفع إصبعه إلى أنفه بعد مداعبة عضوه، قدّم يده إلى جدّه أولاً ناظراً إليه بابتسامة ودودة بعينين سوداوين فاحمتين نفاذتين يصعب على المرء سبر عمقهما.

"توقف!" يقول ريناتو بخجل لعوب.

ولحسن الحظ تتدخل أمه. "دعه! إنه يتخطى الآن مرحلته الشرجية[1]". هذه الثرثرة لا تعني للشيخ أي شيء. إنه يفهم من فوره الرسالة التي بثتها هذه الحركة الطفولية: إنها تذكره بحكايات قطاع الطرق التي تروي عاداتهم في التآخي بالدم.

---

١. المرحلة الشرجية: هي مرحلة نفسية من عمر الرضيع يكون فيها مركّزاً اهتمامه على أعضائه التناسلية باعتزاز.

ينحني الجد ويشمّ الإصبع الممدود إليه متأثراً. لمعت عينا الصغير وقرّب إصبعه من أنفه ليشمه بدوره. وهنا قال الشيخ في سرّه 'لقد تمّ عقد الرباط السحري بيننا'.

بعد ذلك يستلقي الطفل في سريره ويغلب عليه النعاس وهو مبسوط ومسرور. لقد فهم الصغير الرسالة أيضاً، وقرر أن يثق بالشيخ.

انتهى الكلام وأصبح كل شيء على ما يرام.

وبناء عليه يستيقظ في اليوم التالي في وقت أبكر من المعتاد. لقد تمكن دائماً أن يصحو في الوقت الذي يحدده لنفسه: للحرب، للصيد، لحملة التهريب، لموعد الغرام.

أكدت له أجراس كاتدرائية "دوومو"[١] بأن الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً. لقد غسل آخر سقوطٍ للثلج الهواءَ؛ الآن أصبح بإمكان المرء أن يُرهف السمع. يلقي الشيخ نظرة خارج النافذة ويرى الحائط المقابل في الفناء وقد غطاه لون فضي كلون القمر. 'النور الآن غير ملائم للقيام بهجوم مباغت كما كنا نفعل، ولكنه مناسب تماماً للقيام بفنون قتال أخرى. كم كنت سريعاً يا برونيتينو في التعرف إلى رفيقك في الكفاح!'

يلبس المسنّ جواربه السميكة ويتأبط بطانيته. ليس بسبب البرد –لأن الشقة مُدفأة–، ولكن لأنه دونها لا يشعر بالأمان. لقد رافقته في أهم محطات حياته، وهذه واحدة منها: يجب عليه إنقاذ الطفل من وحدته.

كالقطة يتسلل عبر الممر ويتوقف أمام باب غرفة الطفل المفتوح قليلاً. يرى عبر الشق ضوء النوّاسة الليلية الأحمر. يضع يده على مسكة الباب ويسأل نفسه إن كانت ستصدر صريراً ما. كلا لا تعطي أي صوت، وكأنها تتآمر معه. يتجاوز الباب إلى الداخل ويغلقه خلفه بحذر.

نافذة الغرفة تبدو كقمر هائل الحجم، وتبدو أرضيتها كبحيرة فضية اللون في وسطها جزيرة هي سرير الطفل ودائرة ظلّه. وعلى المخدة الملساء يركن الوجه الصغير النائم

١. Duomo: الكاتدرائية الرئيسية في ميلانو.

وكأنه انعكاس مشرق لصورة القمر. تداعب أنفاس الطفل الدافئة وجه الشيخ. ينحني فوقه ليستنشق أنفُه عبير الطفل، ولتحسّ وجناته المترهّلة بالحرارة قربه.

"هل رأيت؟"، يهمس الشيخ. "برونو موجود معك. لن تتجه إلى المعركة متروكاً ووحيداً بعد الآن. إلى الأمام أيها الرفيق، إنني خبير بأرض المعركة!"

من هذا المهد يُحيي الطفل سكون الليل بدقات قلبه وبأنفاسه. يجلس الشيخ على أرض الغرفة مستنداً بظهره إلى الحائط ويظهر الزمن الحاضر أمامه كشجرة منتعشة بعد سقوط أول مطر: من خلال الصغير تتركز تجارب حياته الطويلة وتتفتح أمامه ذكريات الماضي منتشية بهذا الوقت الحالي. إنه بوتقة تنبثق منها شبكة من الذكريات والتجارب تنتشر كسماء متلألئة واسعة غير مرئية تحمي وتغطي هذا السرير الصغير.

في "مغزل" الحياة، يصدر لوح النول أصواته: كلاك-كلاك، لتتشابك خيوط الزمن وتدمج الحفيد بجدّه. فضاؤهما هو كوكب من قمر وظل يوجد من أجلهما فقط: كان الشيخ يراقب في الريف كيف أن الحيوانات، عند حلول فصل الربيع، تنشر عبقها على الأحجار وفي الأحراش. وعلى الشاكلة ذاتها ترك الطفل عبر إصبعه رائحته علامةً على جسم جدّه، كما تُعلّم الخنازير البرية مناطق نفوذها..

ماذا يجري في هذه اللحظات؟ ماذا ينشأ وما هو الذي يتكوّن؟ لا يعرف الشيخ ماهية ذلك ولا يحاول أن يفكّر فيها، إنما يشعر بها في أعماقه. ينصت إلى أنفاسهما: إنهما يتلاقيان كما تتلاقى الأنهر، تتداخلان كما تتداخل الأفاعي، تهمسان أحدهما للآخر كما تهمس الأوراق في الهواء. لقد انتابه هذا الشعور مرة قبل بضعة أيام، ولكن الآن ومن خلال هذا الطقس الغريزي أصبح ذلك الشعور مقدساً. يتلمس في هذه اللحظة التمائم بين شعيرات صدره ويتذكر شجرة الدردار اليابسة بجانب كنيسة القرية محاولاً أن يوجد تبريراً لتلك المشاعر التي تعتمره: يلف نبات اللبلاب الأخضر جذع الشجرة اليابس، لبلابٌ لم يكن له أن ينمو مرتفعاً باتجاه الشمس لولاه.

الخشب اليابس والنبات الأخضر، الجذر والدم، الشيخ واليافع يتهاديان جنباً إلى جنب

كرفاقٍ يوحّدهما السير على درب الزمان. كتفاً إلى كتف، حياة تبدأ وحياة تنتهي، يباركهما القمر الذي يسبح بعيداً بين النجوم اللامنتهية.

١١

تظهر الممرضة الشابة في مجال رؤيته.

"رونكونه، سالفاتوره؟ ... تفضل."

ينهض الشيخ الجالس في غرفة الانتظار الفخمة من على مقعده الوثير. تلمس أندريا يده برفق وتبتسم له مشجعة. 'هكذا النساء!'

تقوده ممرضة أخرى، ليست بشباب الأولى، إلى غرفة الفحص وتدعوه لخلع ثيابه بالكامل –ومعها كيسه الصغير بالطبع– ولبس الرداء الأخضر الخاص بالمرضى الذي يُغلق بسحّاب من الخلف. يكتشف الشيخ ذلك بعدما تعب من البحث عن الأزرار. 'أليس من الأفضل أن يرتدي الصغير ثياباً بسحاب كهذه!'

والآن تنطلق الجولة من غرفة مليئة بأجهزة مختلفة، إذ يطلب منه طبيب شاب أن يستلقي على سرير الفحص. في البدء تابع المسنّ تلك الإجراءات بفضول، ولكن ما فتئ أن ملّ وبدأ يجيب عن الأسئلة الموجهة إليه بعدم اهتمام: "نعم هنا موضع الألم. إلى الأسفل لا أشعر بشيء. إن الوجع عندي كالحيّة، تتلوّى في أحشائي وتنهش بها من وقت لآخر." يضحك الطبيب ويقول: "برافو يا صديقي!"، ويلقي بنظرة تآمرية إلى الممرضة الواقفة إلى جانبه.

يجّرونه من فحص إلى آخر، من طبيب إلى طبيب، من صالة مضيئة ذات نوافذ زجاجية حليبية اللون إلى غرفة التصوير الشعاعي المظلمة.

"يا الله! توجد هنا رصاصة! هل تؤلمكم؟"

"لا. إنها تذكار حربي من معركة استرجاع مدينة كوسنزا[١]."

١. Cosenza

لقد وجب عليه الاستلقاء ساكناً لمدة نصف ساعة كي يصوّروه بأوضاع مختلفة، أوشك أثناءها أن ينام. لا يفكر الآن بالتدخين ويشعر ببطنه فارغاً. رغم ذلك يتملكه إحساس بالشبع سببه المادة الظليلة اللزجة التي فرض عليه تناولها في الصباح. إنها تذكره بغذاء الأطفال الجاهز المكروه الذي يجبرون برونيتينو على تناوله.

لقد رفض الصغير في هذا اليوم بكل إصرار أن يتناول طعامه. وبعد أن فقدت أنونزياتا الأمل، تركته عائدة إلى أعمال التنظيف. وبهذا توافرت الفرصة للشيخ كي يعطي الصغير في السرّ قطعة خبز بانيتو مغموسة بالنبيذ. ولفرحته الغامرة ابتلعها الطفل بنهم.

أقلّته أندريا إلى مشفى البروفسور دالّانوتّه[١] معتنية أيّما اعتناء بلباسها ومتخلّية عن ارتداء البنطال. من المؤكد أن ذلك كلّه من أجل تلك الشخصية الشهيرة. أثناء قيادتها للسيارة ظهرت عظمتا ركبتيها الحادتان وأوتار ساقيها عندما كانت تضغط على الدواسات. وفكر الشيخ 'كان من الأفضل أن ترتدي البنطال.' لاحظت أندريا نظراته وأخطأت في تفسيرها، إذ بدأت بشد فستانها إلى الأسفل احتشاماً.

"كما قال لي ريناتو فإن "تابوت الزوجين" في روما قد ترك عندكم انطباعاً عميقاً. إنه عمل فني رائع، أليس كذلك؟"

"بلى. كانا وكأنهما حقيقيان!"

اندهشت أندريا من إعجابه، ولم يمنعها ذلك من أن تلقي عليه محاضرة مسهبةً، ولكن بكلمات بسيطة مفهومة. في البداية استمرأ الشيخ كلماتها، وسرعان ما قلّ اهتمامه عندما سمع لغتها الإيطالية المنمّقة. رغم ذلك كان سعيداً لأنها تحدّثت دون انقطاع، وأراحته من مبادلتها الحديث.

"انظروا إلى هناك!"، قاطعت أندريا نفسها لتشير إلى بناء "الجامعة الكاثوليكية"، "هنا أدرّس ومعي في نفس المكان يدرّس البروفسور داللانوته. لا تظنوا أنه يعالج أي مريض كان. إننا زملاء كما يُقال..."

١. Dallanotte

في اللحظة التي حرّره فيها الممرضون من قيده، بعد انتهاء عملية التصوير الشعاعي، كان يقرّ في نفسه بأن أندريا تصرّفت معه بلطف أثناء توصيله إلى مشفى الطبيب المشهور. استمرت الإجراءات المختلفة. وبعد المرور في غرف جدرانها من السيراميك الأبيض، وأجهزتها من الكروم المطلي، وبعد وصله بلصاقات التخطيط الكهربائي، وفحص قعر العين بالمنظار الضوئي، وبعد سؤال وجواب ودسّ وجسّ - سلّم الشيخ نفسه للأقدار، متماوجاً كقطعة فلّين تسبح على سطح الماء الرجراج، فاقداً الاهتمام بما يحصل معه وحوله.

ولما طلبوا منه خلع ثيابه مجدداً شاهد جسمه في المرآة وظن أنه ينظر إلى جسم غريب عنه. كومةٌ من الجلد والعظم ملوّحة بالسمرة وصدر مكسوٌ بالشعر، مؤخرة بيضاء اللون وأرداف شاحبة: هذا ليس سلفاتوره. إنه لشيء مهين أن يكون هذا المظهر الهرم صورة لذوّاق للحياة كان أمنيةً للكثير من النساء اللواتي حلمنَ به. مهين؟ بل أكثر من ذلك. إن البشر فقط يشعرون بالإهانة ولكن الإنسان في هذا المشفى كمن يوضع على شريط متحرك في مسلخ، يُشرَّح ويقطَّع إلى أجزاء: أحشاء، أعضاء، أنسجة وآذان. وفوق كل ذلك هذا النفاق: سلوك ممالق وتفاؤل كاذب.

'كم هي مختلفة فحوص السيد الجليل غايتانو!'[١] يفكر المسن أثناء ارتدائه ملابسه بطبيب مدينة كاتانزارو الذي كانت عيادته تقع على الشارع العام وكان علمه فوق كل شك. 'هناك يدخل المرء إنساناً ويخرج أكثر إنسانية.' إن الغضب الذي يعتريه بسبب مشفى ميلانو هذا يعطيه القوة ليستعيد ثقته بنفسه قبل أن يخرج من حجرة تبديل الملابس.

وكانت آخر محطة له لدى صاحب العظمة المتربّع خلف مكتبه الشبيه بمذبح الكنيسة والمستعد أخيراً لاستقباله. تجلس أندريا مقابل الطبيب وتبتسم بشكل آلي عند رؤيتها لحميها. ينهض الطبيب ويشير إليه بالتفضل بالجلوس.

---

١. Don Gaetano

”تشرفنا أيها البروفسو“ ، قال سالفاتوره وأضاف عن قصد : ”لقد تُقتُ لرؤياكم منذ فترة، وأنا سعيد بهذه اللحظة.“

”لقد تعارفنا أيها العزيز رونكونه، ولكنكم لم تستطيعوا تمييزي في غرفة التصوير المظلمة. لذا أنا أكثر سعادة بلقياكم.“

’الحمد لله‘ ، يفكر الشيخ. ’لقد ظننت أنه سيفحصني دون أن يعاينني ومن خلال نتائج الفحوص فقط.‘ وفعلاً كانت أوراق النتائج مبعثرة على طاولة البروفسور. يدخل مساعد الطبيب ويتبادل الاثنان بعض الكلمات. جملٌ ملغزة وايماءات مؤكدة وخافية، وفيما بينها همهمات مشككة تصدر عن رجال يفكرون.

وأخيراً تكتب الشخصية المهمة شيئاً على ورقة وتعطي إرشاداتها للمساعد الذي يترك الحجرة من فوره. ثم يعقد الطبيب ذراعيه أمام صدره وينظر باتجاه أندريا والشيخ مبتسماً.

”هكذا إذاً، أيها العزيز رونكونه. إن بنية جسمك بالغة القوة ووضعك الصحي نسبة إلى عمرك شيء تُحسد عليه. تبقى المشكلة التي ساقتكم إليّ. لن نصادف مفاجآت بشأنها، صدّقوني، أستطيع أن أضمن لكم هذا. وباختصار وبكلمات بسيطة تدلّ فحوص السيد رونكونه على ما يلي...“

وبما أن "الكلمات البسيطة" للبروفسور هي ككلمات لغة الراديو، يحاول الشيخ أن يتمالك نفسه رغم أنه لا يفهم سوى شذرات جمل متفرقة: "التشريح المرضي"، "الإمكانات الموجودة اليوم"، "تقدم علم الطب"، "العلاج البديل". في هذه الأثناء تقف أندريا مائلة بجسمها باتجاه البروفسور محاولة أن تتمثل جميع كلمات هذا العملاق بشراهة، ملقية السؤال تلو الآخر الذي يشجع الطبيب على الاستمرار في سرد التفاصيل.

’ماذا يعنيني كل هذا؟‘ يسأل الشيخ نفسه. ’إن نظرة إلى دون غايتانو كانت تكفي لكي يفهم المريض حالته.‘ أخيراً يبتسم البروفسور مزهواً.

”هل فهمتموني أيها العزيز رونكونه؟“

’هل يريد أن يسخر مني؟‘ ، يتساءل الشيخ ويبدّل موقفه متنقلاً فوراً إلى جهة الهجوم وكأنه في خضمّ الحرب.
”كلا ، لم أفهم شيئاً. ولا آبه بذلك كلياً.“

أحجم الشيخ قليلاً عن الكلام ، ليتمتع بالتغيّر المفاجئ الحاصل على سحنة البروفسور. وتابع :
”الشيء الوحيد الذي يجب علي معرفته أيها السيد البروفسور هو ، متى سأموت.“
وبهذا ينهار الأسلوب المنمّق في التعامل مع المريض المثبت ظاهرياً بالوقائع والحجج العلمية ، وينفجر كبالون هواء في الجو. تتبادل أندريا مع الهامة العلمية النظرات وتبدأ بالاضطراب.
”ما هذا الذي تقولونه يا بابا !“

في المقابل يرميها الشيخ بنظره منتشياً بوقع كلماته.

تبدأ ثقة البروفسور بنفسه بالانهيار ويتمتم بجملٍ تتحدث عن : اختلافات ممكنة ، تطوّرات غير وصفية ، احتمالات. يقاطعه الشيخ.
”أسابيع . . . أشهر؟ . . . عام مثلاً؟ . . . لا ، إن المطالبة بسنة كاملة هي غالباً قمة في التفاؤل.“
”أيها الصديق العزيز ، هذا ما لا أستطيع الإجابة عنه !“ ، يعترف البروفسور أخيراً.
”في مثل هذه الحالات يشابه التشخيص اللغز. أما بسبب بنيتكم القوية فمن الممكن جداً أن . . .“
”لا تتعبوا أنفسكم أيها البروفسور لقد فهمت. لا داعي للاستمرار في الحديث. في النهاية أفضّل الاحتفاظ بـ "روسكا" على أن أصبح مقيّداً إلى كرسي متحرك كما هو الحال مع أحد معارفي. إنه نصف مشلول ، وبمشيئة الله سيصعد الشلل قريباً إلى قلبه أيضاً ، وبذلك يصبح الأمر محتماً أليس كذلك؟ قل لي شيئاً واحداً أيها البروفسور. ماذا عن هذا النوع من الشلل ، ألا يتطوّر بسرعة من سيء إلى أسوأ؟ وعلى كل حال فإن الشخص المسكين المربوط إلى الكرسي سيكون من الأفضل له التخلّص من

الألم!"

"كيف لي أن أجاوب وأنا لا أعرف المريض؟ ما هذه الأسئلة التي تطرحونها!"، يتملّص البروفسور من الإجابة.

لقد أسقط الشيخ الطبيب من فوق سرجه العالي.

"إنها أسئلة تشغلني. إن موتي يخصني أيها البروفسور وكذلك موت ذاك المشلول! يجب أن يموت قبلي! انظروا، ساحاول أن أشرح لكم حالته الصحية وكأنها موجودة أمامكم: في حزيران الماضي كان بإمكانه المشي ولكن في شهر آب ..."

يروي سلفاتوره كل شيء يعرفه عن أعراض مرض كاتانوتّه. ينصت الطبيب هنيهة لكنه ما زال يرفض التدخّل. وأخيراً ينهض بتهذيب ويُصَرّح لأندريا وحميها أنه سيرسل بالبريد نتائج الفحوص بالإضافة لخطة العلاج والوصفات الطبية. ومع هذا المريض بالذات تتخلى الهامة العلمية عن محاضرة الوداع التشجيعية المعتادة. يودع زميلته أندريا بلطف زائد بينما يودع مريضه بمودة متحفظة موصلاً إياهما إلى الباب.

حين يخرجان لا تعرف أندريا كيف ستبدأ الكلام، ولكن حماها يسبقها:

"إنه لا يفهم شيئاً عن أعراض الشلل" يقول جملته هذه متنهداً. "من سوء حظي أن مارليتّا[1] قد توفيت في كانون الثاني الماضي! لقد كانت صديقة صدوقة! ساعدتني كثيراً فيما يخصّ كاتانوتّه. كدت أن أتمكّن منه ولكن ..."

"عمّن تتحدثون يا بابا؟"

"عن مارليتّا، عن ساحرة كامبودونه[2]. عن أفضل ساحرة[3] في كالابريا ... لا بل في إيطالية كلها! لقد تحققت جميع نبوءاتها، لتحفظها العذراء!"

---

١. Marletta

٢. Campodone

٣. Magàra

١٢

وأخيراً حصل عليه: وعاء التبوّل! وكما يقول المثقفون في ميلانو: وعاء الليل. من المؤكد أن أندريا قد وقفت ضد هذه الفكرة.

"في هذه الأيام يا بابا، توقف الناس عن استعمال مثل هذه الأدوات."
"ألا يتبوّل أهل ميلانو في الليل؟"
"بلى، ولكن في "التواليت". هنا ليست القرية حيث يجب على المرء المرور عبر الفناء."

لقد عايشت أندريا في روكاّسيرا ذكريات مريعة عن المرحاض. في كل مرة تضطر فيها إلى عبور الفناء تصادف ولداً شقياً أو فتاة يعدّان عليها الدقائق التي أمضتها في الداخل ويتخيلان ما تفعله هناك.

"إن "التواليت" لا تناسبني. أصحو تماماً ولا أستطيع بعدها العودة إلى النوم. أما مع وعاء التبوّل فلا أحتاج إلا أن أستدير قليلاً لأقضي حاجتي بكل راحة دون أن أفارق النوم."

لقد كانت أندريا ضد هذه الفكرة بشكل قاطع، ولكن في أحد الأيام سمحت لريناتو بشرائه. 'بالتأكيد' يقول الشيخ في نفسه، 'لقد قال لهم الطبيب بأن أيامي أصبحت معدودة وبذلك لا بأس من أن يحتملاني. لم تكن زيارة ذلك الطبيب إذاً دون فائدة. لكنها تخدع نفسها. سأستمر بالعيش أطول من كانتانوتّه. لن أترك هذا الخنزير يتمتع بالمشاركة في جنازتي.'

وهكذا حصل على وعائه. ولكن لماذا يخفونه؟

"سيدة أنونزياتا!"، ناداها وهو غاضب. "يا سيدة أنونزياتا!"

"لا تصيحوا هكذا"، تهرع إليه حانقة. "تريدون أيضاً إيقاظ الطفل؟"
"أين خبأتم وعاء التبول؟"، يسألها بكل هدوء، لأنه يخاف من أن يصحو برونيتينو.
"وأين يمكن أن يكون وعاؤكم العزيز؟ طبعاً تحت السرير!"
"بالله؟ فلتنظروا بنفسكم، لا يوجد شيء هنا."
"على الطرف الآخر يا سيدي. إلهي، يا له من رجل!"

لقد كانت المرأة على حق.

"في الطرف الأول، في الطرف الآخر...!" يبربر الشيخ غير راضٍ. "وتوقفي عن مناداتي "سيدي"، كم مرة يجب علي قول ذلك! اسمي العم[1] رونكونه!... ولِمَ على الطرف الآخر؟ أريده هنا بالذات؛ أمسكه دوماً بيدي اليسرى. وبيدي اليمنى أمسك... تفهمون ماذا أعني."

تقول السيدة أنه في الطرف الآخر سيكون بمنأى عن ملاحظة الداخل إلى الغرفة."

"ومن بحق الشيطان سيقترب من هذا الباب؟ إلاّكم، وأنتم على علم مسبق بالموضوع! لتذهب النساء إلى الجحيم!" تَعِده أونزياتا بأن تفعل ما يريد قبل أن تخرج من الغرفة مكفهرةً، ولكن المسن يعرف أنها لن تقوم بذلك. ستضع الوعاء في المكان الذي يعجبها، كما هي عادتها دائماً. إنها وأندريا تستفزانه إلى آخر درجة. لقد استطاع بالمصادفة أن ينقذ بطانيته. فأندريا أرادت بادئ ذي بدء أن ترمي بها خارجاً وتشتري بطانية جديدة. لم يثنِها عن ذلك إلا موجة الغضب التي اجتاحته، ولكنه سمعها تشتكي إلى زوجها بأن تلك البطانية البالية تعطن برائحة الماعز. 'وكان من الأفضل لأندريا أن تفوح هي ذاتها برائحة الحياة كما تفعل الأغنام.'

يمسك الشيخ بوعائه ويجلس على السرير. كان يودّ لو استطاع أن يلفّ لنفسه سيكارة، يهدئ بها روسكا التي أصبحت نزقةً وكأنها تعترض على توقفه التدريجي عن التدخين. وما كادت ورقة اللف الرقيقة تستقر في يده حتى أنقذه بكاء الطفل.

---

١. Zio : العم.

يقفز باتجاه غرفة الصبيّ وينسى كل شيء حتى الحيّة. يلقى أونزياتا وقد سبقته إلى هناك دون أن تنجح في إسكات الطفل. ترجو أونزياتا مساعدة الشيخ. حتى هي لاحظت أن صوته العميق يفلح في تهدئة برونيتينو. وربما تفعل ذلك كي تعود إلى مكنستها الكهربائية المفضلة بأسرع وقت ممكن. ينغّم الجد لحفيده لحناً ريفياً عذباً. ويا للعجب، فبرونيتينو لا يتوقف في هذه المرة عن البكاء، بل يشد قبضتيه الصغيرتين ويصبح أحمر اللون من شدة الانفعال حتى إنه يخلع جوربيه حاكّاً بعصبيّة مقدمة قدمه ببطن الأخرى حتى يتخلص منهما: خدعة تعلّمها منذ وقت قريب. وتظن أمه بأن هذه الظاهرة تعني ممارسةً للشخصية الطفولية وسلطة تُجبر الآخرين على الالتفات إليه، والآن يرمي برونيتينو بالجورب إلى الأرض كما يرمي الفارس بكفّه إلى خصمه مستدرجاً إياه إلى المبارزة.

"على الأغلب نحتاج إلى تبديل حفاضه"، تقول أونزياتا وتخرج من الغرفة. وتعود بعد قليل بوعاء مملوء بماء فاتر، وبإسفنجة، وبتلك الأكياس البلاستيكية المحشوة بالقطن والشاش، التي يُلبِسها أهل ميلانو للأطفال. وهي كتيمة تماماً وضيقة على الجسم. 'كيف يمكن لذكورته أن تنمو مع هذا الضغط؟'

من الطبيعي أن يغيروا للأطفال. ولكن أليس من الممكن أن يكون الصغير غاضباً لسبب آخر؟

"ألا توقدون الشموع اليوم في ميلانو؟ إنه سبت الأموات[١]"، يسأل الشيخ.

"إنها من العادات القديمة التي أكل الزمن عليها وشرب."

"آه! إذاً فالأطفال أيضاً لا يتلقّون الهدايا في هذا اليوم؟"

"في سبت الأموات؟ ومن له أن يخطر هذا بباله؟"

"نحن، من تسموننا بأهل العصور الوسطى. نعم يأتي الأموات بهدايا لأطفالنا."

"هذا مضحك. هنا يحصل الأطفال على هداياهم من بابانويل أو من ملوك البشارة الثلاثة."

١. عيد كاثوليكي يستذكر فيه الناس موتاهم.

"مضحك؟ إن الذي يُضحك هو هؤلاء الملوك الثلاثة ومعهم بابانويل. وما علاقتهم بالأطفال؟ وعدا عن ذلك فهم مجرد ابتكارات. أما الأموات بالمقابل، فهم ينتمون إلينا. ألا تفهمون هذا؟ إن الأموات حقيقيون. هم أجداد الأطفال وجداتهم الذين يحبونهم، لأنهم من دمهم ومن لحمهم."

'هم حقيقيون'، يردد الشيخ لنفسه سعيداً، لأنه في هذا اليوم يدافع عن الأموات معطياً لهم حقهم. 'لا شك أنهم يتقاولون فيما بينهم عن الشخص الذي تذكّرهم بالفعل في هذه السنة في مدينة ميلانو. نعم، هو طبعاً برونو من مدينة روكّاسيرا!' لذلك سيشعل شمعة لهم في غرفته. إنه يحمل واحدة معه دائماً، لأنه من الممكن للتيار الكهربائي أن ينقطع فجأةً، في الوقت الذي نكون فيه في أمسّ الحاجة للكهرباء. في هذه الليلة يجب علينا أن ننير لهم الطريق، فكيف لهم أن يزوروا أحياءهم ويجدوهم في العتمة؟

الآن يستلقي الطفل على طاولة الغيار وتبدأ أونزياتا بخلع ملابسه. 'إنها لا تستطيع أن تبدل له وهو في حضنها، كما كانت النسوة يفعلن في السابق'، يفكر الشيخ مستنكراً.

نعم، لقد كان الصغير يحتاج لغيارٍ نظيف. إنه يعاود الابتسام منتعشاً بالنظافة، بينما تدهنه أونزياتا بالمرهم المضاد للاحمرار. 'إنها تشبه وجه بنت صغيرة!'، يفكر الشيخ عند مشاهدة مؤخرة الطفل وينزعج من المرأة لأنها تدخل أصابعها المغموسة بالمرهم بين إليتيه. 'يجب عدم لمس الرجل في هذا المكان!' ولحسن الحظ فإن الطفل يثبت صحة نظرية جده. إن هذه المداعبات لم تكن مسيئة لذكورته، إذ أن ذكره قد انتصب كوتدٍ قاسٍ. 'إنه حفيدي لا شك في ذلك! وكم هي صحيحة مقولة أن الحفداء أشبه بأجدادهم من شبههم بوالديهم...'

'يا للفظاعة' لقد قطع الحفاض البلاستيكي الذي لا يرحم مخيلة الشيخ، وتوقف المشهد الجميل.

تدخل أونزياتا الفخذين الغضّين في فتحات السروال الصغير وتقلب الطفل على بطنه كي تُحكِمَ الأزرار. وبينما يحاول الشيخ جاهداً وبكل إصرارر مساعدتها في إحكام

الزر الأعلى، كانت أونزياتا قد انتهت من ربط كافة الأزرار. "أستطيع أن أفعل هذا بنفسي"، تقول أونزياتا. ولكن الشيخ أصرّ على إتمام عمله معتبراً ذلك قضية شرف. ويهرب الزر المدور الصغير من بين أصابعه الخشنة المرة تلو الأخرى. يبدأ برونيتينو بالتململ. يعترف الشيخ بالفشل وينسحب خلسة مبتعداً.

تكمل أونزياتا بسرعة إحكام الزر وتضع الصغير في سريره مجدداً.

يجلس الشيخ جانباً غير بعيد ويرنّم لحناً بينه وبين نفسه كان يغنيه قبل نصف قرنٍ لغنماته. إنه لحن حزين، يتماشى مع حالة الإخفاق التي يشعر بها لعدم نجاحه في إلباس الطفل.

'سيشعر حتماً بالبرد لأنني لن أستطيع القيام بمهمة إلباسه لو كنا نعيش أحدنا مع الآخر وحيدَين. ولكن وضعه معي سيكون أفضل، إذ كنت سأخلصه من تلك الأكياس البلاستيكية.'

وهكذا يسترسل الشيخ مشغولاً بأفكاره ولا يلاحظ قدوم أندريا للمنزل. الآن تتحدث المرأتان في إحدى الزوايا.

"إن الجد يا سيدتي قادر على جعل الطفل ينام هادئاً. لا شك أنه غريب الأطوار ولكن يمكن الاعتماد عليه إذا ما تُرِكَ الطفل وحيداً معه. إنه يجلس بجانب السرير وينتبه إلى الصغير ككلب حراسة."

هذا الكلام لن يمنع أندريا من أن تقترب من الباب وتستطلع الأمر، فلن تستغرب من حماها أن يدخن حتى داخل غرفة الأطفال. ليس لأنه سيء، ولكن لأنه لا يفقه شيئاً في قواعد الصحة العامة ولا في تربية الأطفال. إنها لا تشم شيئاً. الحمد لله. كم هو صعب الصبر على هذا الشيخ الذي يحتاج إلى صبر أيوب!

توقف الشيخ في هذه الأثناء عن الغناء، لأن الصغير قد استسلم للنوم. وينعكس على يديه ضوء ضعيف آتٍ من شق طرفي الستارة المغلقة. وكالمشدوه ينظر إليهما: إلى

ظاهرهما وباطنهما. إنها أيادٍ عريضةٍ، قوية، ذات عروق زرقاء وأصابع قصيرة ذات أظفار قصيرة قاسية تبرز مفاصلها كعقد خشب. وها هي اللطخ البنية التي تنتشر عند المتقدمين في السن على الجلد تظهر من تحت شعر يده الكثيف. إنه يراقبهما: كفّان ضخمان خُلقا للقتل وللجنس. لقد جلبا إلى العالم نعاجاً رضيعة وروّضا خيولاً برية، وألقيا بالديناميت، وزرعا الأشجار، وأنقذا جرحى وطوّعا نساءً جامحات... يدان ذكوريتان، يدان لكل شيء: للإنقاذ وللإبادة.

لكل شيء فعلاً؟ إنه الآن ليس واثقاً من ذلك. وإحكام الأزرار؟ والطفل؟ هل تصلح يداه لهذا؟ إن إخفاقه ما زال مسيطراً عليه. هذه هي أصابعه التي يحركها أمام ناظريه... مليئة بالعقد وفظة. إنها لا تناسب أبداً ذلك الجلد الحريري.

هل هذا بالإمكان؟ لأول مرة في حياته لا يكون فخوراً بيديه! ’إن برونيتينو يحتاج إلى يدَين مختلفتَين؛ يدا أنونزياتا تناسبه أكثر. ما هذا الذي أقوله؟ هل من المفترض أن أحسد امرأةً وأصبح كواحد من أهل ميلانو؟ لا، لا. يداي هما كما هما عليه: هاتان اليدان تخصاني أنا!‘

يحتاج إلى هنيهة ليسترجع أثناءها رباطة جأشه وليسامح نفسه على هذه الزلّة. ولكنه رغم ذلك لا يتوقف عن التحليل. ’هل القوة شيء سيء؟ لا بد أن لها منافع! ولكن ماذا عن إحكام الأزرار، تغيير الحفاض وأشياء أخرى؟ فلتذهب النساء إلى الجحيم! برونيتينو وأنا ولا أحد غيرنا، ليصبح رجلاً حقيقياً!‘

برونو وبرونيتينو وحدةً واحدة: هذه الفكرة تروقه. بهذا لن يستطيعوا أن يسيئوا تربيته ولكن... هل أنا مربية أطفال ذكر؟ وفجأة يشعر بنقص الهواء فيضع إصبعه بين عنقه وياقة القميص. يشعر بالدم يصعد إلى وجهه مقاوماً هذا التخيّل. ’لا، وظيفتي مختلفة! سأكون معلّماً له، هذا شيء صحيح!‘ ولا يفارقه الخوف من أن يكون مخطئاً. ’يا للعار! هذه الحيّة تنهش أيضاً في جرأتي!‘

ينظر إلى الوجه الأبيض المستدير الذي يرتاح على الوسادة، إلى الفم الوردي الصغير وخصلات الشعر الداكنة المتهدلة على الجبين. يعتريه إحساس قوي بالانجذاب يسحب

منه تنهيدة عميقة. تتحرك يده باتجاه ذلك الوجه لتداعبه بإصبعها . ويرتعد مرتداً وكأنه مسّ سطحاً مشتعلاً، إذ أن تلك الملامسة أرجعته إلى شعور حي كان يتملّكه أثناء مداعبة دونكا . اليد نفسها تستحضر كتلة نارية من الذكريات تعتلج في صدر الشيخ: دونكا ! تلك الأيام وتلك الليالي ! دونكا ، التي تستلقي بجانبه؛ خدّها شبيه بخدّه. وجهه كيدها ، أم أن الأمر كان بالعكس: يدها كوجهه في إحساس الشيخ؟ مشاعر مختلطة، أوهام، هذيان.

يتأمل الشيخ يديه مرة أخرى والضوء الخافت مستقر عليهما . لمن هاتان اليدان؟ وبغتة تظهران له كغريبتين تبرزان من معصميه: بيضاوان، رقيقتان، أنثويتان. . . أنثويتان؟ وهما على هذه الدرجة من القوة؟ وماذا يهم! حتى دونكا كانت تمسك بيديها سلاح الرشاش الفتّاك!

ينقلب استغراب الشيخ إلى وجل. 'هل أُصبت بالعين؟ يا رب السماوات! أريد أن أسترجع يديّ! يقبض بيده على الكيس ذي التمائم. يهدأ الزلزال، ويستعيد العالم توازنه. يسترجع الشيخ ثقته بنفسه ويتلفت من حوله ويرسل نظرة إلى الساعة. هل غفا غفوة قصيرة، هل كان يحلم؟ يأخذ نفساً عميقاً ويهز برأسه كي يُبعد عنه الأشباح، وكأنه كلب مبتلّ ينفض عنه الماء . ينظر إلى يديه: إنهما ذات اليدين المعتادتين. ويتذكر دونكا بشوق كبير ويتمنى لو أنه يرى يديها في هذه اللحظة تداعبان جبهته وتبعدان عنه الجن. وتستيقظ في أعماقه أغنية عاطفية كانت شائعة في ذلك الزمان قبل أربعين عاماً ، تجعل المحاربين على أرض المعركة ينسون أزيز الرصاص. . . في عصر أحد الأيام في مدينة ريميني حين صدحا معاً بتلك الأغنية وهما في طريق نزولهما إلى البحر من معبد مالاتيستا[١] الذي ترك لديهما انطباعاً قوياً .

منزل على الشاطئ تغطي فناءه عرائش العنب. وفوق رأسيهما وعلى مدّ النظر تتدلى عناقيد ناضجة. تستند دونكا على ساعديه المعقودتين لتطال بيدها العنب وتقطفه. . . نعم تماماً كامرأة إتروسكية!

---

١. Malatesta

ويضطرب الصدر الهرم مصدراً آهة قوية تشمئز منها ذكوريته وتضطهدها . ولكن رقة الذكرى تحمله بعيداً إلى بحر مسالم، ترقص فيه الكلمات التالية كدلافين تظهر فجأة من الماء :

"ما هذا الذي تفعله بي يا برونيتينو؟"

لقد دمدمها بلهجته المحلية. وبنفس اللهجة قال لدونكا أيضاً ذات الكلمات ضاحكاً ، عندما أسلمته نفسها قبل أربعين سنة. ويحس بقبلتها تلمس شفتَيه وتجيب إجابة وحيدة عن جميع أسئلته.

عاطفتان، مرحلتان عمريتان، إحساسان عميقان ينصهران في داخله ويسحبان منه هذه التنهيدة، هذا الاعتراف وهذا الانتماء . . .

"برونيتينو !"

١٣

في أيام الأربعاء لا تذهب أندريا إلى التدريس وتبقى في المنزل لتحرص على "أن يكون كل شيء في مكانه الصحيح". ويعرف المسن بالتجربة ماذا يعني ذلك: بعد أن تنجز أونزياتا الجزء الأكبر من العمل المنزلي تأتي كنّته من غرفة النوم مرتدية بنطالها الأخضر الملتصق تماماً بجسمها. تداعب أولاً ابنها برهة إن كان مستيقظاً، ثم تقوم بجولة تفتيشية. تغيّر مكان هذا الشيء أو ذاك ثم تنسحب أخيراً إلى خلف طاولة عملها مختفية وراء كتبها في زاوية مكتبها الواقع في غرفة الاستوديو[١]. هكذا تسمّي غرفة الجلوس. وفي بعض الأحيان تنقضّ من هناك كنسر مهاجم مراقبةً عمل أونزياتا أو باحثة عن حميها الذي يهرب عادةً إلى المطبخ ليجلس على كرسيه المعهود. حينئذٍ تنظر إليه بعين الرفق والصبر وقد تقول له:

"بابا! ماذا تعملون هنا؟ إن مكانكم في الاستوديو، على الكرسي الفلورنسي!"[٢]

إنها تعجبه أكثر بالنظارات إذ تعطيها الشكل الطبيعي للمعلمة. أما العدسات اللاصقة فتغير من شكلها وتضفي عليها سحنة غريبة. 'أريد فقط ألا أعطي كانتانوتّه السعادة بحضور جنازتي. أعطني أيتها العذراء شهرا واحداً بعد هذا الشخص؛ فقط مدة كافية أستطيع العودة خلالها إلى القرية.' هذا هو دعاؤه القلبي يومياً.

تظهر أندريا للمرة الثالثة في هذا الصباح، هذه المرة في المطبخ. 'يبدو أنها لا تنجز عملها كما تهوى'، يقول المسن في دخيلته. وعندما يسمعها ترسل أونزياتا لشراء الخبز

---

١. Studio تعني أيضاً غرفة الدراسة.

٢. يظهر أن الشيخ يسحب ذلك الكرسي الفلورنسي معه، متنقلاً بين غرفة المعيشة والمطبخ وغرفة نومه، وهو الكرسي الذي تسميه أونزياتا بـ"الصلد".

والفواكه، يعرض عليها بان يذهب هو عوضاً عنها كيلا يكون في المنزل حجر عثرة.
"طبعاً أعرف كيف أنتقي الكمثرى! في النهاية أنا ابن الريف."

تستسلم له أندريا ويذهب ليأتي بعد فترة وجيزة منتصراً، حاملاً مشترياته بكل افتخار:

"هل رأيتم! لقد أرادت البائعة أن تغشني وتمرر لي حبات كمثرى مغلّفة بالبلاستيك، كيلا أستطيع لمسها! ولكنني رديت لها الصاع صاعين!"
"كيف يا بابا؟"، تسأل أندريا بقلق.
"هذه الخالة في المخزن. فلتأكل تلك الفاكهة بنفسها. المحتالة! انظري إلى الكمثرى التي اشتريتها، وفقط بنصف القيمة."
تبحث أنونزياتا بين المشتريات وتسأل:
"وأين الخبز؟"
"آه نعم، الخبز! ... من الأفضل ألا نتحدث في موضوع الخبز. هذا الذي يسمونه خبزاً! إنني أفهم في العجين، ولكنني لم أفقه ماهية هذا الذي يبيعونه. وبما أنني قد نسيت تسمية الخبز الذي طلبته فإنني..."

تظهر كل أنواع الخبز صناعيةً متشابهة، وما أكثرها في ميلانو [، لذلك لم يدرِ ما عليه أن ينتقي].

"تلقي عليه أندريا نظرة ملؤها الشك، وكأنها أصبحت ضحية بريئة لأفكاره المتزمتة.

ولكن انظري إلى الكمثرى! طبيعية، ليست كالأخرى التي تتماثل حباتها وتظهر وكأنها مصنوعة من الشمع. يبتكرون هذه الخدع كيلا يستطيع المرء أن يشمها ويُجبَر على دفع ثمن تغليفها. حسناً، سأنزل مجدداً وأحضر لك نوع الخبز إن أنتِ أعدتِ عليّ تسميته."

"لا تتعبوا نفسكم يا بابا. يجب علي في كل الأحوال أن أشتري لنفسي بعض الحاجات من ... من مخزن العطور."

تعبّر نظرة أندريا ونبرتها عن مزاج معتلٍّ، لذلك يقرر المسن أن يخرج من المنزل ما دامت غائبة عنه. لا يريد أن يكون موجوداً عندما تعود، لأنه يخاف أن ينفجر في يوم من الأيام ويقلب الأمور رأساً على عقب.

في هذه الأثناء، وعندما خرج الشيخ من المنزل، كانت أندريا موجودة في مخزن الفواكه تحاول بكل وسعها أن تهدئ البائعة المُهانة بفظاعة من قبل حميها.
"لقد سمّاني محتالة وهذا أيتها السيدة رونكونه في حضور زبائني! أأنا محتالة؟ أنا التي أتفحص السعر مرتين، ويمكن لكل ساكنٍ في هذا الحي أن يؤكد هذه الحقيقة!"
"انظري إلى هذا الأمر بعين الرفق أيتها السيدةً مورانته[1]. إنه متقدم في العمر ومريض، وفوق كل ذلك آت من الجنوب، من تلك الناحية، تعرفين ماذا أعني... آهٍ لو تعرفين ماذا أتحمّل منه! أرجو منك أن تعذريه وليكن هذا من أجل خاطري."
"حسناً، من أجلك فقط، لأنك سيدة محترمة، ولكن افعلي ما بوسعك من فضلك كيلا يعود للظهور هنا. لقد أراد أن يمزّق الغلاف البلاستيكي كي يعاين الفاكهة! فلاح قليل الثقافة لا تؤاخذيني – لا يفهم شيئاً في أصول النظافة الصحية! ثم إنه ينتقد ميزاني الآلي، الأكثر حداثة. لقد أراد أن يتأكد من صحة الوزن مقارناً إياه بميزان يدوي! إنه يخوّنني! إنه ميزان آلي ماركة فيريتاس[2]، حاصل على موافقة البلدية! ويساوم أيضاً، في حين أن المكان مملوء بالزبائن المنتظرين. ومأخذي الأهم عليه هو شعوره الدائم بالشك. إننا نديرهذا المحل منذ ثلاثين عاماً، ولم يحصل أن اشتكى أحد."

تهمّ أندريا بمغادرة المكان خجلةً بعد أن اضطرّت إلى سماع ذلك "الموشح". إنها حريصة على رضا البائعة، لأن هذا المحل هو أرقى محل لبيع الفواكه في حيّها. طبعاً لم تدُس قدمها المكان الذي اشترى منه حموها، وهو مخزن السيدة القادمة من مدينة تارينتو.[3]

١. Morante

٢. Veritas [الحقيقة باللغة اللاتينية].

٣. Tarento

"إنه شيء لا يُصدّق. هذا هو والد زوجكم المحترم؟ وأنتِ أيتها المحترمة أندريا سيدة مبجلة وابنة سيناتور، وأستاذة جامعية...!"

وفي حين أن البائعة تفتخر بنفسها أمام الزبائن، تأخذ أندريا دور الضحية المسكينة.

"ليس لدي أي خيار آخر يجب علي أن أتحمله! وإنني قلقة دائماً فيما يخص الصغير في المنزل. من يعلم، ماذا يخطر لبال هذا الرجل أن يفعل. إنه يتصرّف أحياناً وكأنه قد فقد عقله."

"يجب عليه حقاً أن يتمالك نفسه قليلاً، إذا ما أراد أن يسكن عندكم... كيف يمكن لزوجكم أن يسمح بذلك؟"

"ليس بيدنا حيلة. إنه مصاب بمرض عضال."

"حموكم؟ وهو يتمتع بكل هذه الحيوية ويتصرف بهذا السلوك؟"، تسأل بائعة الفاكهة بكل استغراب.

"سرطان."

ويتجمد جميع الموجودين عند سماع هذه الكلمة المعبأة بالرهبة. وحتى البائعة الغاضبة تعتريها الشفقة: "المسكين."

"نعم، المرض يتقدم بسرعة. إنه يتعالج عند البروفسور داللانوته. نحن زملاء في الجامعة..."

"داللانوته! شخصية مهمة."

تصف أندريا كم يشق عليها أن تجعل أيام الشيخ الأخيرة محتَمَلةً، وكم يُصَعِّب بتصرّفاته هذه المهمة وبأقصى ما يستطيع!

أخيراً تشتري أندريا بضعة كيلوغرامات من الفواكه كما تقتضيه اللباقة في التصرف: دون بزر وبتغليف بلاستيكي.

"تبدو هذه الفاكهة هناك جيدة. كيف هي؟"

"صنف أول. تشبه تلك القادمة من يوغوسلافيا التي أخذتم منها المرة الماضية. تلك

قد نفدت للأسف. هذه قادمة من اليونان."
"آه نعم، من اليونان!"

تودع المرأتان إحداهما الأخرى. كلتاهما مرتاحتان. بائعة الفواكه لأنه قُدِّم لها الاعتذار بحضور الجميع – وفي الآخر يمكن للمسيحي الحق أن يصفح بوجود مثل هذا المرض. وأندريا لأنها استطاعت أن تحلّ هذا الإشكال؛ لا تريد مشاكلة تلك المرأة. إن أسعارها غالية حقاً، ولكن زبائنها من الطبقة العليا في المجتمع. وبرأس مرتفع تمضي إلى منزلها وتشتري في طريقها البانيتو المعتاد.

في تلك الأثناء يجلس الشيخ في الحديقة مرتدياً سترته السميكة درءاً للبرد ويدخن لفافته الوحيدة التي يسمح لنفسه بها يومياً، بغض النظر عن السيكارة التي يدخنها في غرفته بعد تناول طعام العشاء. إنه يفكر كيف تفاجأ بلقيا زوج مادالينا عوضاً منها [صاحبة محل المواد الغذائية الجنوبية]، عندما أراد شراء الكمثرى من عندها. نعم، إنه رجل طويل القامة، إنما مترهّل الجسم، ذو سحنة خدّاعة، وشعر مفروق مدهون بالملمّعات، وذو صوت رفيع حاد. "أين السنيورة؟"، يسأل الشيخ بتهذيب.

"لقد ذهبت إلى البلدية من أجل الرخصة. إنها تهتم بهذه الأشياء بنفسها. من المفروض أن تصل في أي وقت.!"، أنهى الرجل كلامه ناظراً إلى الساعة المعلقة خلف طاولة البيع.
"انقلوا لها سلام رونكونه، القادم من كاتانزارو."

'لماذا نظر إليّ هذا الشخص بالمائل؟'، يفكر المسنّ. 'لا، إنه لا يناسب السيدة مادالينا. إن هذه الانثى تحتاج شيئاً آخر. يا لها من فرس!' ومرة أخرى تقدم له ميلانو من مفاجآتها. عندما كان يقوم بجولة حول المتحف وصولا إلى شارع فينيسيا[١] العريض، يتعرّف في الجهة المقابلة تماماً وعلى ناصية شارع سالفيني[٢] إلى سيارة تقف

١. Corso Venezia
٢. Via Salvini

جانب الرصيف. في البداية يلفت لونها انتباهه – أخضر معدني– ، ثم يرى جانب وجه السائق، ذي الشارب والجلد الملوّح بالشمس، الذي يشبه طلعة نسر. يودّع السائق مرافقته بقبلة قبل أن تغادر السيارة (طبعاً "مرافقة" وليست "مرافقاً") .

تتغير شارة المشاة الضوئية إلى اللون الأخضر فيعبر الشيخ من خلال الممر المخصص. وعندما تنطلق السيارة، تبقى المرافقة واقفة على الرصيف. إنها طبعاً امرأة، ولا امرأة غير السيدة مادالينا التي تقف هناك بكامل زينتها ورشاقتها وتلوّح إلى السائق مودّعةً. ثم تنعطف إلى شارع سالفيني المؤدي إلى مخزنها ، دون أن تنتبه للشيخ الذي يقف الآن وراءها .

إنه يبتسم. 'يا للسنيورة مادالينا ! هكذا إذاً تجري الأمور.'

١٤

يقوم الشيخ بنزهة عبر الحديقة وينتقل إلى الطرف الثاني منها ليصل إلى ساحة مستديرة في وسطها نصبٌ تذكاري : تمثال لفارس موضوع على قاعدة عالية هائلة، محلّاة في جوانبها بتصاوير برونزية تعبيرية.

'هذه القبعة وهذه اللحية، إنه غاريبالدي[١] ! يا لهذا الحصان! أفلح أهل ميلانو هذه المرة. على الأقل تذكروا غاريبالدي، هُم، أهل الشمال الذين تنكروا له بعدما هزم ملوك نابولي[٢]. لقد شرح لنا معلمنا في مجموعة الفدائيين هذه الواقعة شرحاً وافياً ! وبنفس الطريقة تخلّصوا منا نحن الفدائيين، بعدما طردنا الألمان. عاد قدماء الأرستقراطيين وجماعاتهم إلى السلطة الفعلية يمارسونها من العاصمة روما.'

يستمر في التجول في الشارع المزدان بالأشجار ويقف في النهاية أمام أسوار عظيمة حمراء اللون. 'ما هذا البرج! قلعة كبيرة ذات فتحات للرماة! منيعة كجبالنا التي لم تستطع حتى طائرات هتلر[٣] أن تهزمها. وفي أعلاها ما زال برج الناقوس يقف شامخاً !'

يتوقف أمام كشك للبيع ويستعرض أغلفة المجلات المصورة. إنها تَبهره كما تَبهر الأطفال الصورُ اللاصقة.

'يا لهذه المؤخرات، ويا لهذه النهود ! إنهم فعلاً يُظهرون في هذه الأيام كل شيء. لحسن الحظ أن نظري لم يتدهور بعد. ولكن بكل الأحوال هي قلة حياء. كله زائف، موجود على الورق فقط! يثيرون المرء في البداية ثم يدعونه لا يجني من ذلك شيئاً. لا يقدر على قبول هذا إلا أهل ميلانو الباردون.'

---

١. Garibaldi

٢. Napoli

٣. Hitler

وفي خضم الصور التي رسمها في رأسه، ينظر إلى الإناث من المشاة نظرة مختلفة. ’كيف تستطيع نساء هذا العصر ارتداء مثل هذه الملابس، يا رب ارحم!‘ ويشعر بالقشعريرة تتسلل إلى ظهره من جرّاء مشاهدته للفساتين القصيرة التي يرتدينها في عزّ الشتاء، لم تنقذه من ذلك السترة السميكة التي يرتديها. يشعل لفافته اليومية ويحث الخطا. قبل أن يصل إلى حافة السور الأحمر بقليل، يقرأ لافتة كتب عليها بعدة لغات "متحف القلعة"[١]. إنها فرصة تمناها، زيارة متحف، وعلى الأخص أنه لا يعرف كيف يمضي الوقت بانتظار ساعة الغداء. لقد تملّكته فجأة رغبة في مشاهدة التماثيل الإتروسكية مرة أخرى فقرر أن يدخل إليه.

لم يَنْسَها. فلقد سأل حتى أندريا عنها، أندريا التي أعارته كتاباً سميكاً ورجته رجاء حاراً أن يحرص عليه.

"إنه ألبوم فني يا بابا. يجب عدم فتحه بزاوية تزيد على تسعين درجة بأي حال من الأحوال." وتُريه كيف يتم ذلك.

في الحقيقة فإن الكتاب يضجّ بصور الإتروسكيين تحديداً، لكنها لا تؤثر فيه. أكاذيب ورقية تشبه المؤخرات والصدور في واجهة كشك البيع. ’لا يمكن للناس مع تلك الكتب الكثيرة أن يميزوا بين الصورة والأصل.‘

لذلك لديه رغبة قوية أن يرى الإتروسكيين على أرض الواقع. وما لبث أن سأل أول موظف عنهم، فأجاب أنه لا وجود للأتروسكيين في هذا المتحف.
"كيف لا؟" يقول بانزعاج. "هل هو متحف أم ماذا؟"
"نعم أيها السيد لكننا لا نملك هنا معروضات أتروسكية. إنها توجد في روما وفي الجنوب."
’يا لقلة النظر! وكأنني لا أعلم بأن الإتروسكيين أقاموا في الجنوب! لم يكن من الممكن أن ينعموا في هذه الديار بضحكاتهم! ما هذا المتحف؟ إنني على حق عندما أقول إن

---

١. Castello forzesco وهي قلعة ميلانو الشهيرة.

كل ما يقع شمال روما ليس من إيطالية. وحتى روما نفسها !'

يدافع الموظف عن متحفه : "معروضاتنا رائعة. قطع بديعة من عصر النهضة. لوحات، تماثيل، ستائر، أسلحة... كل شيء."

'أسلحة؟ الحمد لله، فلقد دفعت رسم الدخول.'

لقد كانت مجموعة الأسلحة تستأهل فعلاً الزيارة. إنه مسرور.

'هؤلاء كانوا رجالاً حقيقيين، يرزحون تحت حللٍ ثقيلة ويمسكون بأيديهم سيوفاً طويلة كالرماح. ويا لهذه الهراوات التي ضربت خوذات الأعداء مصدرةً موسيقاها الخاصة! لو كان عندنا بعضٌ منها، كانتانوتّه وأنا، لكنت قد تخلّصت من جميع مشاكلي بضربةٍ واحدة! طبعاً سأكون مربوطاً أيضاً بكرسي ليصبح العراك عادلاً. تماماً كما عند هؤلاء الفتيان المحاربين الأشدّاء! كان من الممكن لهم أن يكونوا حطّابين ممتازين بخلاف أهل ميلانو اليوم الذين لا يصلحون لشيء!'

حقاً لقد استحقت مجموعة الأسلحة أن تُشاهَدَ، بينما لا تستأهل الأشياء الأخرى أن تحظى بالاهتمام. لوحات قديسين، أزهار، لوحات للسيدة العذراء، رسوم شخصية لنبلاء ومطارنة. وبين الفينة والأخرى لوحة أنثى مثيرة، ولا شيء أكثر من ذلك ... أما لوحات الأطفال فلا توجد واحدة تستحق النظر إليها! خدود منتفخة وسواعد طرية كالزبدة، كما يُصوَّر الطفل يسوع.

'طبيعي، الطفل يسوع هو حالة فريدة يجب التوقف عندها. لقد استطاعوا أن يسمروا السيد المسيح على الصليب لأنه كان ضعيف البنية – لو كنت مكانه وبقدراته العجائبية لكنت ... –

لوحات الأطفال هذه لا تعبّر عن شيء : وعندئذٍ ليس من الغريب أن نرى البالغين في ميلانو بلا طعم ولا رائحة. ولحسن الحظ أنني بجانب برونيتينو. يجب أن نكافح يا روسكا إلى أن يتعلّم الكلام. اتركي لي قليلاً من الوقت كي أعلّمه كل شيء ولكيلا

يصبح شبيهاً بالآخرين هنا . إنه يتعلّم بسرعة. هل لاحظتِ البارحة كيف أني قد تسللت مجدداً إلى غرفته بعد أن نام أبواه؟ الليالي تخصّنا نفعل فيها ما نشاء كما كانت في أيام الحرب. هل تتذكرين كيف أنه كان نائماً ولكنه فتح عينيه على آخرهما فجأة؟ لقد أراد أن يمد يده أو أن يبكي، لا أعرف. ولكنه أصبح هادئاً ومبتسماً عندما رآني – هل رأيت ابتسامته الشبيهة بالقبلة! ! – ثم أغلق عينيه منصتاً إلى كلماتي، حتى إلى تلك التي لا أقوى على لفظها.

هذا الساحر الصغير يشعر بها يا روسكا. لا يفوته شيء. إنه يفهم حتى مناوراتي الكلامية التي لا يفقهها أحد هنا.'

لا لم تكن توجد في المتحف كله لوحة أطفال واحدة ذات معنى. بعض اللوحات تستجلب منه في أقصى الحدود ابتسامة هازئة، كما في هذه اللوحة التي تمثل خرفاناً. 'من أين أتى هذا البليد بتلك الخرفان؟ وكأنها مزيج من أرنب وكلب!' إن هذه الصورة تزعجه.

"وهل من المفترض أن يكون هؤلاء رعياناً؟"

كشّر محتقراً وتابع بنظره زائراً تجنّبه حين سمع وقع كلماته الهجومية. 'كيف كان سيتصرف مورّودنترو[1] وهو راعٍ بحق، عندما يرى هذا! حتى في أركاديا[2]، ولا أعرف أين تقع، لا يوجد مثل هذا الراعي الذي يرتدي جوارب بيضاء وسراويل تصل إلى تحت الركبة ولا مثل هذه القبعة. ماذا تعني هذه الشرائط الملونة المثبتة على عصاه؟ أو تلك الراعيات المنتفخات بتنانيرهن البالونية؟ إنها وقاحة! هذا مجرد كرنفال! بودّي لو أوجه لكمةً إلى وجوه أولئك الأغبياء [الرسّامين]. يصوّرون الرعيان بهذا الشكل المضحك!؟'

يتجه غاضباً إلى المخرج. وبغتة يضطر إلى الوقوف متجذّراً في الأرض أمام منحوتة.

---

١. Morrodentro

٢. Arkadia طبيعة رعوية حالمة في الميثولوجيا الإغريقية.

ليس فيها شيء ناعم [مما رآه سابقاً]، بل بالعكس. إنها تعطي انطباعاً عن عمل غير منتهٍ، لكنها بالغة القوة في تأثيرها؛ عمل غير كامل، لكنه في عدم تمامه أقوى من الكمال؛ وبضربة واحدة أصبح منتبهاً له.

جسمان محفوران في الصخر ممتزجان أحدهما بالآخر، يظهران كوحدة واحدة تذكِّر الشيخ بالدوالي المتشابكة والجذور الملتفة. عندما كان يرعى في طفولته جالساً في الجبال تحت ظل شجرة كستناء، كان يحفر في الخشب طويلاً إلى أن تكتسب القطعة شكلاً واضحاً: رأساً ذا قرون، غليوناً، كلباً، امرأة عارية كبيرة الثديَين مكشوفة الفرج. حتى إن إحدى منحوتاته بدت شبيهة بشخص كانتانوتّه الأب الذي كان مميزاً بحدبته. ولقد استحق عقاباً شديداً من الراعي على هذا، رغم أنه لم يكن في نيته تصوير كانتانوتّه الأب: كيف كان له أن يعرف أن السنين ستخبئ شجاراً بينه وبين ابنه؟ صادف أنه كان للجذر الذي بين يديه عقدة في الوسط، تماماً في مكان حدبة الإنسان. قد يكون هذا ليس من قبيل المصادفة وإنما بفعل فاعل أراد أن يعمل سحراً لكانتانوتة الأب.

هنا لا يتعلق الأمر بقطعة خشب مرمية، إنما بمرمر أصلي. إنه مدهوش: معركة طاحنة مع الحجر تعادل معركة يخوضها المحاربون المسلحون بهراواتهم. لا نية لتجميل الواقع. يصل الشيخ تدريجياً إلى نتيجة مفادها أن فنان العمل هو شقيق روحه، لذلك هو مهتم بفهمه على أفضل وجه: ماذا حفر في هذا الصخر؟ ماذا يريد أن يقول عبر ذلك؟ رجل يقف منتصباً واضعاً خوذة على رأسه ووشاحاً حول رأسه، يسند رجلاً آخر عارياً، ساقاه رخوتان إما لأنه فاقدٌ وعيه أو لأنه ميت. ما السر وراء هذا المشهد؟

وليكشف هذا السر ينظر إلى العنوان المكتوب على اللوحة الصغيرة فيهز برأسه هزة قوية: ميكيل انجلو[1]. نسخة روندانيني[2] من تمثال "الشفقة".

---

١. Michelangelo

٢. Rondanini: اسم عائلة إيطالية نبيلة ارتبط باسمها تمثال ميكل أنجلو المسمى أيضاً بـ "الشفقة" والمختلف عن التمثال المعروف بـ"الشفقة" والموجودة نسخته الأصلية في كنيسة الفاتيكان.

‘غير ممكن! امرأة بخوذة؟ وحتى لو كان هذا الوشاح الذي يلفّها وشاح السيدة. لا يمكن تصوير العذراء بهذا الشكل. إنها تمثَّل في الحالات العادية بشخص فتاة رقيقة. عذراء منتصبة بهذه القوة، قادرة على سند المسيح؟ هذا ممكن فقط إذا كان ميكيل انجلو كالابرياً، ففي كالابريا توجد أمثال هؤلاء النسوة. ولكن لا. لا يعلم أهل ميلانو ما يقولون. لقد كتبوا "شفقة" على التمثال لأنهم لا يفقهون ما لديهم. وإذا كانوا يميزون بين الصالح والطالح لكانوا أحضروا الإتروسكيين إلى هنا!’

ولهذا السبب بالذات، بسبب جهل أهل ميلانو بماهية هذا النصب، يهتم الشيخ أكثر بفك ألغاز التمثالين.

‘محاربان، هذا أكيد! فدائيان من زمننا، لا ريب في ذلك. كل شيء واضح وجليّ: واحد منهم جريح، والآخر يسحبه رفيقه إلى مكان آمن! تماماً كما أنقذني أمبروزيو ذات يوم. هما متآخيان. نعم بالتأكيد، فصاحب الخوذة يعاني: يُظهر وجهه شجاعةً، ولكن ألماً دفيناً أيضاً. مَنْ يمكن أن يكونا، ومن أي عصر؟’

وكأن الشيخ يسأل التماثيل المرمرية رجلاً لرجل، ليفهم أكثر تلك الرقة الخشنة المنحوتة في الصخر وليعجَبَ أكثر بذلك الحب العميق المتبادل بينهما. إنه يسأل نداً لند، لأنه كان لينحت ذات النصب في صخور جبله في روكاّسيرا، لو أُعطي في يده مطرقةً.

يستسلم بعد برهة لفكرة مغادرة المتحف، ولو أنه يستصعب ذلك كثيراً لرغبته في أن يعرف أكثر عن المحاربَيْن. ذات الشيء حصل معه عندما غادر الزوجين الإتروسكيين الموجودين في "فيلا جوليا"[١]، مع أن النصبَين متناقضان. أم أنه يبدو له فقط أنهما على طرفَي نقيض؟ أعجبه التمثالان، لفتا نظره ووقعا في نفسه ومسّا مشاعره. في الثاني عمق الألم وفي الأول ابتسامة على القبر. وعندما خرج كان مأخوذاً تماماً، بل مضطرباً، لأن في أعماق أعماقه ذكرى هامة تصارع لتصعد إلى السطح دون أن يعي ماهيتها.

---

١. Villa Giulia

عندما تهب ريح الجنوب في الليل، يستطيع الشيخ حتى عبر النافذة المغلقة أن يسمع نواقيس الكاتدرائية. هل هي مَن أيقظه الآن؟ أم هي ذكرى المحاربَيْن التي لا تزال تمتلكه اليومَ بطوله وتدقّ على ما يظهر، أيضاً في المنام، باب مخيّلته؟ على كل الأحوال فلقد نهض دون سابق إنذار واستقام في السرير. كانت عيناه مفتوحتين على آخرهما وكان جسمه مشدوداً. يسمع وقع أقدام متلصصة. من هو المناوب اليوم؟ هل تمكّن أحد من الالتفاف حوله؟ يريد أن يبحث عن رشاشه ويدرك في هذه اللحظة أنه لا يوجد في الجبال. لا بدّ أنها خطوات ريناتو الذي يريد أن يطمئن على الطفل.

يبتسم ويعود فيستلقي مسترخياً على سريره.

لكنه لم يستطع أن يستسلم للنوم، بل بالعكس، لأن المحاربين يهاجمون بوابة ذكرياته ولأن الماضي يضيء كالبرق في الظلام:

تورلونيو[1] الأطول والأضخم في الجماعة الذي يلفّ رأسه بغطاء يشبه وشاح التمثال. إنه يسند بكل استطاعته دافيد[2] المحتضر كي يستطيع الأخير أن يشاهد من علٍ ما فعله الفدائيون بالألمان من أعمال مدهشة: في الوادي قطار ذخيرة ألماني ينفجر في الفضاء محدثاً مشهد ألعاب نارية عظيمة ... بروق ورعود تمزّق الليل، وسقوف العربات تطير في الهواء، وفزع الهاربين الباقين على قيد الحياة، بعضهم يقفز ببزّاته المشتعلة إلى نهر كراتي[3] المتدفّق. إنها ضربة قاسية ضد مجموعات الألمان في الجنوب، الشيء الذي حصل بفضل متفجرات دافيد، بفضل حساباته وأسلاكه وبفضل نظاراته السميكة.

كان دافيد طالب كيمياء من مدينة فلورنسا، يهودياً قصير القامة أُرسِل إلى المجموعة بسبب قدراته التقنية. وهو الذي كان الجميع يضحك منه لأنه أقرَّ بصراحة بخوفه من أية عملية جراحية، وهو الذي تفوّق على الجميع في التضحية بنفسه. في تلك الليلة لم

١. Torlonio

٢. David

٣. Crati

تستجب الأسلاك ولم يتم الانفجار، الشيء الذي حدا به إلى النزول وحيداً إلى سكة القطار لوصل ما انفك منها. لكن القطار كان قد اقترب كثيراً. ولم يسعفه الوقت أن يتسلّق إلى القمة حيث رفاقه إذ وافته نيران الرشاشات المعادية. ورغم ذلك استجمع قواه وأفلح في الوصول إليهم. دافيد، الذي فقد نظاراته أثناء محاولته النجاة بنفسه، يفتح عينيه المعبّرتين على آخرهما ويتتبّع أضواء الانفجار الحمراء.

كانت عيناه الداكنتان في غاية الجمال إلى أن تجمّدتا وسكنتا، وكان جسمه المستند على ساقين ضعيفتين مرمياً بين ذراعَي تورلونيو الحانيتين. وها هو وجه تورلونيو ينظر بعطف لا متناهٍ إلى دافيد، يغطي وجهه ستار من الدموع.

١٥

شْراب ... شْراب ... شْراب ...

هكذا يُسمع صوت الشفرة تنساق مرة بعد أخرى على اللحية المغطاة بالصابون. هو صوت من الصعب سماعه، ولكن الشيخ يشعر به في داخله عبر الجلد. ولا يسمع المرء أيضاً خرير الماء لأن عمود الحياة يسقط على إسفنجة وضعها عن قصد في حوض المغسلة. لم يُشعل أي ضوء في الحمام: يكفيه ضوء ليل المدينة الذي لا يصل أبداً لحد الظلام ويظل مملوءاً بنور عكر.

الماء الساخن لا يصلح للانتعاش من النعاس، ولكنّه أحسن من الماء البارد لحلاقة الذقن: لا بد في نهاية الأمر أن يكون ذا فائدة.

ليس هناك بدّ من سماع صوت الشفرة تحصد شعرات اللحية الثخينة كمنشار ضعيف الصوت. بعد كل حلاقة يتوجب على الشيخ استبدال الشفرة، مع أنه يشتري أرخص الأنواع التي من المفروض أن تكون أقسى من غيرها [!]. وبما أنه يجب عليه أن يشعر بوجهه كل يوم ناعماً كوجه النساء، فلا بأس، رغم أنه في روكاّسيرا يحلق مرتين في الأسبوع فقط. لحية رجل ويدا رجل، بدتا له منذ فترة قريبة كأيدي النساء. ومع كل هذا الجهد الذي يبذله يبقى ظل أزرق يلوّن خدّيه. ولكن بفضل هذه العناية لم يعد وجه برونيتينو الياسميني الحريري يشيح عنه.

يضم الجد الطفل إليه بحنان عندما يشعر بغياب الرقابة. لا يُعجب هذا أندريا. البارحة قالت لأنونزياتا معتقدة أنه لا يسمعها: "تفوح من الصغير رائحة التبغ. ما هذه المحنة يا إله السماوات!" ويستشيط المسن من الغضب عند سماع هذه الأكاذيب. أولاً ليس عند أندريا حاسة شمٍ من الأساس، وثانياً فقد تخلّى عن عادة التدخين الصباحي التي

لا غنى لروسكا عنها. 'افهميني يا روسكا، يجب على كلينا أن يضبط نفسه، حتى لو كان هذا صعباً علينا.'

جرح بسيط. حسنٌ. بالإمكان معالجته بحجر الشبّة، ثم إن قليلاً من دم على بشرة الذكر يعطي الجلد الأملس رجولةً. وتتوقف دوامة أفكاره عند هذه النقطة. 'أملس كجلد سمكة الثعبان، كأندريا: من غير أثداء، أفخاذها ضامرة ضمور قديسي مدينة ريجيو[١]. ما الذي أعجبك في هذه المرأة بحق السماء يا بني؟ ولا عجب في أنك دائماً مقطّب الوجه. أراهن أنك تتبع تعليماتها في السرير، وأنها – عندما لا تريد – تتظاهر بأن رأسها يؤلمها. هل يكمن السر في كون أبيها سيناتوراً؟ أحلى سيناتور! من المؤكد أنه فقير جداً كفقر فأر الكنيسة! لم أثِق يوماً بهذه الرتبة: فلقد فعلوها في سراويلهم أمام موسوليني[٢]!'

ينحني شاكياً من الألم، فروسكا تعضّه الآن وهو يهمّ بتجفيف وجهه. هذا ليس غريباً، فلقد كانت طوال المساء متيقظة، تلتف حول نفسها كما تفعل الكلاب قبل أن تذهب إلى النوم. وعندما سكنت أخيراً، لم يستطع أن يغفو، وكأن آلامه قد أصبحت شيئاً اعتيادياً يفتقدها إن غابت.

يجلس على كرسي المرحاض. وينظر عندما يقف بعد ذلك بقليل إلى داخل الحوض. 'دم مرة أخرى. نعم إنها ليلتك المضطربة يا روسكا. إنه حوض فاخرٌ يظهر فيه كل شئ وكأنه معروض على صينية فضية، لا كبيت الراحة في القرية حيث لم أكن ألحظ شيئاً. دمي وحياتي يتلاشيان مع كل يوم جديد. كم تبقّى لي يا ترى؟ ليس عندي على الأقل خفقان في القلب، ولا أعراض التقدم في السن التي يتكلّمون عادة عنها.'

يتأمل وجهه في المرآة ولا يلاحظ أية تغيرات. يرى في عينيه – السوداوين كعيني برونيتينو تماماً – غشاوة بيضاء. لكن هذا ليس أبداً بجديد. نعم، كعيني برونيتينو

---

١. Reggio وأظنه يعني تماثيل العصور الوسطى الخشبية للقديسين.

٢. Mussolini

ولكن في جسم شيخ. أما ريناتو فقد ورث عن أمه لون عينيها الجوزي. 'أيتها العذراء امنحيني شهراً واحداً بعد كانتانوتّه، إني أتوسل إليك! ستحصلين مني على شمعة في الفصح، أثخن شمعة سأتمكّن من الحصول عليها! وفي حال منحي وقتاً أطول، فسيكون هذا أفضل، للصغير...'

نعم، إن الشهر الذي كان يكفيه من قبل، كي ينهي سجاله مع خصمه، لم يَعُد كافياً. يفكر الآن في برونيتينو الذي يحتاج مَن يسحبه مِن مستنقع مدينة ميلانو. يتحسس الكيس المعلّق في صدره وينظر مجدداً في المرآة: لا يتمكن من ملاحظة أية متغيرات.

'لو رأتني روزيتا الآن، هل ستلحظ أي تغيّر في سحنتي بعد مرور الشهر؟ إنه شهر كامل قد مرّ علي، ففي مثل هذا اليوم صادفت الإتروسكيين المسكينين... ولكنهما محظوظان لأنهما لا يتوجب عليهما العيش في ميلانو! إنني سعيد لأنهما غير موجودين في متحفها: لا بد أنهما كانا سيشعران أنهما سجينان.' يصيخ السمع فجأة. إن المرء يميز كل صوت من خلال الجدران الرقيقة لمنازل المدينة. ريناتو وزوجته يتحدّثان في مخدعهما.

"هل أنتِ نائمة يا أندريا؟"

"وكأنه يهمك إن كنت نائمة أم صاحية!"

"لقد كنت تعباً مستغرقاً في النوم. هل ينقصك شيء؟"

"لم أعد أتحمل. لقد بلغ السيل الزبى. سيجعل الحيَّ جميعه معادياً لنا. وكنتُ أخيراً قد تمكنت أن أحصل على معاملةٍ لائقة من قبل بائعة الفاكهة، بغض النظر عن الزبونات الارستقراطيات اللواتي يترددن عليها."

يتنهّد ريناتو. 'كم من المرات اضطر المسكين إلى سماع قصة شراء الكمثرى؟'، يضحك الشيخ في عبّه. 'لكنني أعطيت البائعة درساً!'. ويتوقف الشيخ عن الإنصات، فهو يريد أن ينتهي من اغتساله ويعيد كل شيء إلى مكانه قبل أن يلاحظ أحدٌ جولاته الصباحية. ولأن نوعاً من الشجار قد تناهى إليه، يرهف السمع مجدداً.

"... إنه ذنبك. لمَ أمّنتك على قضيتي في فيلا جوليا؟ كان علي أن أعلم أنك ستفسد كل شيء!'

لم يفهم الشيخ إجابة ريناتو. إن ابنه هادئ لكن أندريا محتدّة.

"حجج واهية! لقد كانت علاقاتي في روما على قدر عال من الترتيب. كلهم أصدقاء أبي، حتى وكيل وزارة الثقافة. وكلهم يتذكرون أن عمّي دانييله[1] كان سلفاً لمدير المتحف. طبعاً تأتي أنتَ و ... ما هذا الانطباع الذي تركته عند المدير؟ كيف كان لك أن تفعل ما فعلت؟"

"..."

"لأنك شخص فاشل! كلا، لن أتوقف عن الكلام! إنك تتصرف على هذه الشاكلة في المصنع أيضاً! إنهم يستغلونك ولا يقيمون لك وزناً، بينما يحصل الآخرون من حولك على ترقياتهم، الكل ما عداك! كان يجب أن تصبح رئيساً للمخبر منذ زمن طويل. حتى إن هذا كان مرادك أنت بالذات."

"..."

"كيف لم أحصل أنا على تلك الوظيفة مع كل مقوماتي! أنا ابنة السيناتور كولوميني[2]! لقد كان أبي لينتقم من هؤلاء بإقصائهم عن وظائفهم، لو كان ما زال حياً. لكنهم طبعاً يعرفون أنني وحيدة الآن. فلا أحد ينتبه إلى وجودك. أما أبوك فهو ..."

يسمع المسنّ ضحكاً خافتاً. ثم كلمةً واحدة بصقتها أندريا مليئة بالسم: "مختلّ!"

اسودّت الدنيا في عيني الشيخ لدى سماعه هذه الإهانة. كان يمسك بالحزام في يده لما يرتديه بعد. يمسك بقبضة الحزام ويفتح الباب بقوة على مصراعيه: إن لم يعرف ابنه كيف يتصرّف مع هذه المرأة، فسيريه هو كيف. يخرج إلى الممرّ ويرى النور الأحمر الباهت المنبعث من باب الغرفة التالية، غرفة الطفل. يجفل للحظة ويتوقف زمناً أتاح له أن يسمع صراخاً يملأ الشقة. زئير واضح، ولو كان صادراً عن صوت منكسر.

---

١. Daniele

٢. Colomini

"اخرسي، وإلا سأضربك حتى الموت!"

'لن يتمكن من ذلك، يفكر المسن، لكنه يبتهج، لأن المرأة قد سكنت فجأة وسُمِعَ صوت جسمها يرتمي على السرير. لقد استسلمت. إنها مصدومة إلى الحد الذي لم تقدر معه أن تجهش بالبكاء. هذه السكينة التي فرضها ريناتو انتشرت لتخيّم على كل أرجاء المنزل. يعود الشيخ إلى غرفة الحمام ويغلق الباب خلفه بكل حرص. يأخذ نفساً عميقاً. وأخيراً! لقد وصل إلى حدّ الشك في أن ريناتو ابنه من لحمه ودمه.

'كانت هذه ليلة صعبة. وكأن لسحر إصبعاً فيها. قد يكون كانتانوتّه قد دفع لساحرة، كي تلاحقني. سأنتظر إلى أن يناما، لأذهب إلى برونيتينو وآخذ مكاني في حراسته. في عروق هذا الصغير تجري دمائي رغم أنها هي التي ولدته. إنه يفهم، يشم، يسمع مثلي. إنه من لحمي ودمي.'

دم! ... ما يزال الدم موجوداً في قعر الحوض الأبيض، ملوِّناً الماء. لقد نسي أن يضغط الزرّ، الشيء الذي لم يكن معتاداً عليه في الريف.

يضغط على الصمام بشدة. يكسر صوت الماء السكون ويزيل آثار الدماء.

١٦

تمشي أندريا في الشقة جيئة وذهاباً ، إنها تكره أن تصل متأخرة إلى محاضرتها ، وها هي أنونزياتا لم تصل بعد . وسلفاتوره بدوره معتكف في غرفته ، حذر من أن يقف في طريقها . وبغتةَ يرى رأس أندريا يظهر في بابه :

"هل أنتم واثقون يا بابا من أنكم تستطيعون الانتباه إلى الصغير؟ إنه نائم ، ويجب على أنونزياتا أن تصل في أي لحظة – إنها لم تعتذر عن القدوم ."

'كيف يمكن لها أن تسألني مثل هذا السؤال؟ إن كانت لدي الثقة بنفسي . . . ! الحقيقة أنك أنتِ التي لا تثقين بمقدرتي في فعل ذلك!' . إنه يضحك في سرّه ولكنه يحرص على ألا يظهر ذلك على وجهه الذي اكتسب مظهراً جدياً .

انطلقت أندريا بسرعة من الشقة ، وتضرّع سلفاتوره إلى العذراء بأن يصحو برونيتينو قريباً ويستطيع الجد ضمّه إلى صدره . ويهمّ في دخول غرفة الأطفال وإلقاء نظرة على حفيده جالساً بقربه على سجادة الغرفة . ولكن لم يكن هذا مقدراً له : ما كاد صوت المصعد الذي أخذ أندريا إلى الأسفل يتلاشى حتى سمع جعجعة المصعد الخاص بالخدم جالباً أنونزياتا . 'إنها العجوز قد أتت ، يا له من سوء طالع!' ، يقول لنفسه ممتعضاً ، ومرتداً إلى الممر .

هنا تتملكه الدهشة : فتاة يانعة تنزع وشاحها الأصفر الطويل ، وتخلع سترتها الصوفية . إنها تلبس فستاناً بنفسجياً يشبه لباس الغجر ، ذا تواشيح شرقية ، وتضع في قدميها جزمةً عالية جوزية اللون . تعلّق محفظتها الجلدية وتنزع عنها القبعة الباسكية فيتدلى من تحتها شعر أسود طويل . وعندما تدير وجهها إليه يكتشف وجود تزيينات صوفية ملونة على صدّارتها التي تضعها فوق قميصها . إنها تبتسم :

فمٌ كبيرٌ يفترّ عن أسنان بيضاء مشعّة. تقترب منه.

"العمّ رونكونه، أليس كذلك؟ أنا سيمونيتا[١]، ابنة أخت أونزياتا. إن خالتي مريضة."

إنها تمدّ يدها إليه كطفل صغير. يصافحها وينطق بـ "أهلاً وسهلاً" بكل صعوبة.

"لقد تأخرت، أليس كذلك؟، إنها حركة السير المقيتة! من حي مارتيني أوسكوري[٢] جئت بالباص رقم ٢٠ الذي يتوقف في كل مكان. أوف، إني أكره ميلانو!"، تقول هذا وتتابع سيرها باتجاه غرفة الجلوس دون أدنى صوت رغم أنها تلبس جزمة عالية. يتابعها الشيخ بنظره إلى أن يختفي فستانها العريض الذي يعلق في الباب وهي تغلقه خلفها.

"عندما كان شاباً، كانت النسوة في روكّاسيرا يرتدين أيضاً مثل هذه الفساتين العريضة: فساتين حمراء للمتزوجات، سوداء للأرامل، وبنية اللون للعازبات. كلها مزركشة بنهايات ملونة. وفوقها مرايل مطرزة بنقوش شعبية زاهية. وكنّ يضعن على أكتافهنّ شالات مثلثة الشكل، مثبتة من الخلف بفساتينهن. أما بعضهن فيرتدين الفانكالا[٣]، وهو زي الرأس التقليدي من مدينة تيريولو[٤] ومحيطها. ولكن لا جزمات، إنما صنادل أو خفافات. وكان من المستحيل عليهن تحت أي ظرف أن يظهرن سافرات الرأس إلا في مخادعهن.

مع ذلك تشبهُهن سيمونيتا تمام الشبه. ضحكتها، أسنانها، عيناها السوداوان. إنها ذات عيون فتيات روكّاسيرا.'

تطل الصبية مجدداً. يُظهِر رداء عمل خالتها الذي ترتديه تفاصيل جسمها الأنثوي. وفي قدميها مجرد جوربين صوفيين سميكين.

"إن حذاء خالتك موجود في ..."، يحاول الشيخ أن يشرح لها ويُقاطَعُ من فوره:

---

١. Simonetta

٢. Martiri Oscuri

٣. Vancala

٤. Tiriolo

"لا أحتاجه. إنني أمشي في البيت هكذا."

كانت نساء روكاّسيرا يمشين في الصيف أيضاً حافيات، حتى خارج المنزل. وبهذا كن يحافظن على جواربهن و...

وينقطع فجأة حبل حنينه إلى قريته فيسرع إلى غرفته التي اختفت فيها الصبية تواً ومعها أدوات التنظيف. 'أيتها العذراء، ستجد حتماً إناء الليل!'

وكان هذا متأخراً. يلتقيان مواجهةً على عتبة الباب، وبيدها إناء الليل تريد إزالة ما فيه. يتملّك الشيخ الخجل. 'ولكن لمَ؟' يسأل المسنّ مستدركاً. 'إنه عمل النساء، وإنهن موجودات للقيام به.'

"لا عليكم سأفعل هذا بنفسي." قالت ذلك فرحةً. "لقد كنتُ دائماً أُفرِغ إناء والدي الذي كان جنوبياً من مدينة سيراكوس[1]."

"لا شك أنه كان يفضل الجبن حاد المذاق."، يسأل المسن وفي باله أن يحضّر حجة جاهزة علّ سيمونيتا تكتشف مؤونته السرية. لكن خالتها كانت قد حذّرتها مسبقاً من وجود مخابئ سرية للشيخ موجودة تحت الأريكة وأوصتها أن تغضّ الطرف عنها.

"نعم بالتأكيد، يحبّها كثيراً وأنا كذلك. لقد توفي أثناء عمله في الورشة إذ أنه كان عامل بناء. وتوفيت أمي بعده بقليل، أخت أنونزياتا."

بدأت بتوضيب الحجرة أثناء حديثها. وعوضاً عن أن يختلي بنفسه، تابع هذه المرة الحديث معها بكل حيوية. 'فتاة لا تحب ميلانو، إنها تستحق أن يُنصَتَ إليها!'.

"طبعاً أكره ميلانو. إني أحب الريف، الحيوانات، كل شيء هناك...!"، تقول الصبية وتضحك. "أحب حتى الذباب! ولذلك أريد أن أصبح طبيبة بيطرية."

يستذكر الشيخ الطبيب البيطري السمين حين كان مراهقاً. طبيب بوجه أحمر، ربطة عنق تحيط برقبة ثخينة، يدخن سيجاراً يتناثر رماده، حتى عندما كان يفحص البهائم.

---

١. Siracusa

"كان يجب علينا أن نأخذ الحيوانات إليه، إلى سرساله[1] الواقعة في الأسفل"، يحكي المسن لسيمونيتا، "إذ أنه لم يكن يصعد إلى روكّاسيرا إلاّ لذبح الخرفان والماعز، عندما تكون مصابةً وتكبر بطونها بسبب الأوبئة. لقد كنا نخفيها عنه، حتى عندما كان يأتي مع الشرطة[2]، إذ أن بعضها كان يتمكن من النجاة: تبقى الشاة شاةً! ستتسلقين يوماً الجبال إلى قرانا، وليس كما لم يفعل هذا البيطري، مصّاص الدماء وصديق المنافقين. كوني طالبةً كما تشائين لكن المرء يرى أن لديك يدَين عاملتَين نشيطتَين. ألا تشعرين بالحرّ مع هذه التدفئة وأنت تلبسين جواربك الطويلة السميكة؟"

"أبداً، وبالمناسبة فإنها ليست طويلة! إنها جوارب تصل فقط للركبة، تحمي قدميّ من قساوة الجزمة." وتسحب رداء عملها إلى الأعلى مظهرة ركبتيها العاريتين.

"كانت الفتيات في روكّاسيرا في فترة شبابي يرتدينها أيضاً." يشرح المسنّ لسيمونيتا. "وكن يسمّينها "طويلة"، لأنه لم يكن يوجد أطول منها."

وغض الشيخ البصر عن كشف الصبية لساقيها بتلك الطريقة الإرادية. مثل هذه الحركة كانت تعني للرجل في قريته الكثير ... الكثير الذي كان ليحصل عليه أيضاً.

الآن يعرض عليها المساعدة في ترتيب السرير، الشيء الذي تقبل به وتعتبره مفروغاً منه. ويتابع مساعدته لها في كل الغرف. وفي لحظة من اللحظات تنظر إليه سيمونيتا نظرة استغراب وكأن نوراً قد أضاء فجأة في عقلها.

"لقد كنت أظن دائماً بأن رجال الجنوب لا يمدّون يد المساعدة في شؤون المنزل!"

"لا نفعل ذلك فعلاً. ولكن هنا ليس الجنوب."

يلاحظ الشيخ أن هذا التوضيح قد أتى منقوصاً، وأنها فاجأته في موقفٍ مخجل. لكن ذريعةً قد خطرت في ذهنه.

---

١. Sersale

٢. Carabinieri

"ونحن لا نهتم أيضاً بالأطفال، أما أنا فأفعل. عدا عن ذلك، فقد كان يجب علي في وقت الحرب، عندما كنت فدائياً، القيام بكل شيء : الغسيل، الخياطة، الطبخ ... كل شيء."

وهنا توقف الفتاة المكنسة الكهربائية وتتطلّع إليه بعينين براقتين، هل كنتم فدائيين؟ إن هذا مدهش!"

والآن تلمع عينا الشيخ. أليس صعباً أن تجد شباباً يهتمون بالحرب! لا يريدون عادةً أن يعلموا شيئاً عنها. ولكن ما الذي كان سيحصل لهؤلاء الأغبياء، لو لم يناضل الكبار من أجلهم؟ كانوا ليصبحون عبيداً عند الألمان.

"أين حاربتم؟"، تريد سيمونيتا أن تعرف.

"أين يمكن أن يكون؟ في السيلا[1]، في جبالي! في سيلا الصغيرة وسيلا الكبيرة لم يكن لأحد أن يجدنا. وصلنا أحياناً حتى إلى السيلا اليونانية كي نساعد رفاقنا هناك، ولكنهم في الواقع لم يكونوا يحتاجون إلينا. كانوا يتقنون الحرب بأنفسهم! لقد كانت ألبانيا موطنهم الأصلي، هل كنت تعرفين هذا؟ إنهم قدموا في الماضي مع الأتراك. وما زال عندهم إلى الآن رجال الدين خاصتهم، لأنهم أيضاً متمسكون بشدة بدينهم؛ ولكن يُسمح لشيوخهم بالزواج ويتحلّون بشجاعة الرجال. في مرة من المرات ..."

كانا يعملان ويثرثران، يضحكان ويتذكران. وبالنسبة للشيخ كان هذا الحديث يشبه الحديث مع رفيق قديم عن الأوقات الغابرة. وفجأة يسمعان بكاء الصغير. يركضان معاً إلى غرفة الاطفال. ينظر الشيخ إلى الساعة : غريب كيف مضى هذا الصباح بتلك السرعة!.

تصطنع سيمونيتا تعابير وجه مضحكة أمام الطفل الذي يجلس في سريره ويصفق بيديه الصغيرتين، فيما يسيل من فمه خيط لعاب رفيع.

"هذا يعجبه! هذا يعجبه! هل تَرَون كيف يضحك"، تقول الفتاة فخورة وتضيف:

---

١. Sila : جبال مرّ تعريفها سابقاً.

"أتسمحون لي أن آخذه بين يدي أو إنكم تعتقدون أيضاً أن هذا لا يصحّ؟"

يضحك الشيخ معترضاً على طرحها عليه مثل هذا السؤال السخيف. وتأخذ الصغير بين ساعديها وتضمّه إليها بغريزة أمومية، بطريقة بجعل الشيخ في بالغ التأثر تماماً كالخالة بانغاناتا[1] أو العمة تورتوريلا[2]، أمهات روكّاسيرا ...!

ويفهم الصغير أيضاً هذه الحركة الرقيقة ويتمسّح، كقطة، بصدرها وساعديها الذين يحيطان به.

يد تمسك برقبة الفتاة، وأخرى تنادي الجد الذي يقترب، إلى أن يحسّ بالساعد الصغير يحيط بعنقه. يضغط الصغير عليه ويضحك.

ما هذا العطر المختلف، الممزوج بعبق برونيتينو، وهذا الشعر الأسود الناعم الذي يمسّ جلده! ويعي الشيخ في هذه اللحظة أن الرفيق الذي يتحدث معه عن أيام الانتصار الخوالي هو امرأة حقيقية. هذا النَفَس وهذا الوجه هما لامرأة تقف قريبة جداً ...

هذا الاكتشاف يشوّشه، ولكن بطريقة أخرى. لا، تلك الفتاة التي تحضن طفلاً بين يديه تصبح أماً. أماً لبرونيتينو؟

يتنهّد الشيخ في هذا الموقف غير المعتاد. ويصبح الوضع مملاً للصغير. إنه يلعب برجليه نزقاً ويشير بيده إلى الصحن البلاستيكي الأصفر الفارغ الموجود فوق الكومودينة.

"إنه وقت طعامه، أليس كذلك؟" تسأل سيمونيتا.

"نعم، إنه بالتأكيد جائع."

"ابقوا عنده، وسأذهب أنا لتحضير وجبته."

"هل تتقنين ذلك؟"، يسألها الجد متعجباً، إذ أن فتيات يومنا لا يفقهن في هذا شيئاً.

"لقد شرحت لي خالتي. وفوق ذلك أستطيع التعامل مع الأطفال. لقد عملت في العام المنصرم راعية أطفال في سويسرا. وماذا كنتم تتوقعون غير ذلك؟"

---

١. Panganata

٢. Tortorella

قالت هذا بلهجة مستفزة ناعمة وقد أصبحت في خارج الغرفة. ويبقى الجد في غرفة الأطفال. 'كم من الأشياء يحتاج طفل واحد! على المرء إطعامه، تحفيضه، تحميمه، العناية به عندما يمرض وهدهدته كي ينام. إضافة إلى أشياء صعبة: مثل عقد رباط الحذاء اللعبة –الذي ينزعه برونيتينو بكل سهولة– ومثل الحرص على ان يتجشأ الطفل. أفظعها إدخال تلك الأزرار المتمنّعة الملعونة. يجب على المرء أن يكون امرأة كي يتحمّل هذا شهراً بعد آخر. نعم، ولكن امرأة كاملة!'

إنه مندهش من السرعة التي فازت فيها الطالبة بقلب الطفل. لم يحصل أن أكل الطفل مزيجه دون طلب من أحد. ويحملانه بعد ذلك إلى المطبخ حيث يقوم الصغير بجولاته راغباً في اكتشاف كل الأشياء فيه. وفي الوقت الذي تُقلق تلك الحركات أندريا وتحيرها، تلقى عند سيمونيتا ترحيباً وضحكاً. إنها تعدّ طاولة الطعام وتلعب في الوقت ذاته مع برونيتينو. ويكتمل العيد بإحضار الشيخ مخزوناته الجنوبية اللذيذة، كاشفاً سرّه الذي يساعد على احتمال عالم أندريا الغذائي الفقير. "همم، همم. طعمها جيد!"، تقول سيمونيتا بينما تتلذذ بتذوق الجبنة. وطبعاً يحصل برونيتينو على قطعة منها.

"كان لك أن تجربي الجبن الذي نصنعه في المنزل: راسكو[١] مدخَّنة أو بوتيرّي[٢] مع الزبدة! ولكن الأكل يجب أن يكون هناك. هناك الطعم أحسن، بخاصة على السطيحة الخلفية التي تطل على الجبال البعيدة. أو وقت الظهر، في ظل بستان الكستناء ... من هناك يمكن أن نرى في ايام الصحو، كل الريف وصولاً إلى البحر في الأفق!"

"أحب البحر!"، توضّح سيمونيتا وفمها مملوء بالطعام.

"هراء! لا شيء أفضل من الجبال. البحر ليس مخلوقاً للبشر، وإلا لكانوا يمتلكون الزعانف، أليس كذلك؟ بالرغم من ..." أضاف الجدّ شارداً، "إني أيضاً قد

---

١. rascu

٢. butirri

أمضيت أياماً على شاطئ البحر قرب مدينة ريميني[١]. في النهار كان لون البحر أزرق غامقاً وفي المساء قريباً من البنفسجي...» تنهض الفتاة لتحضر النبيذ وتبقى بعدها واقفة خلف الشيخ. إنها تمسّد شعره وتبعد عنه مزاج الشجن الذي اعتراه. وتقول بعفوية لا يقوى المرء على مقاومتها:

«شعركم يعجبني يا عمّاه. شبيه منتظم، مجعّد وغزير. أرجو أن يصبح شعر رومانو[٢] مثله، عندما يتقدّم في السن!»

«وأنا يعجبني أنك تناديني بـ"عماه"»، يجيب الشيخ خافياً اضطرابه الذي زاد عندما رأى كيف تجرع سيمونيتا النبيذ بكل متعة، بشكل ينساب معه خط أحمر من فمها على ذقنها كالدم. دم كأنه يسيل من شفتين معضوضتين، دم يتفجّر عن جسم فتي قوي. تمسح النبيذ بظهر يدها ويستعيد وجهها مرة أخرى عذريته المفقودة.

بعد ذلك تضحك وتوضّح أن رومانو صديقها.

«إنه يدرس الطب أيها العم. سنطبب لاحقاً القرية بأكملها، بناسها وبحيواناتها! إنه أيضاً شيوعي مثلي وخالتي أنونزياتا لا تطيق رؤيته!»، وتستمر في الضحك.

«أيتها الفتاة، إن الشيوعية مجرد وهم. وأرضي تخصّني أنا نفسي. كيف يمكن أن يملكها إنسان آخر؟ ولكني أعترف بأن الشيوعيين قد كافحوا في الحرب كفاح الشجعان. لقد كانوا رفاقاً جيدين. ولم يستمروا في ذلك بعدها، ككل الآخرين، إذ تركوا أنفسهم تنخرط في السياسة واقتصروا على إلقاء الخطب الرنانة.»

«ليس الكل»، عارضته سيمونيتا بكل حزم. «إن الحصول على الحرية يوجب العمل في السياسة، أم كنت تظنّ أن التغيير في القرى يمكن أن يحصل عندما تفكرون فقط في منفعتكم الشخصية؟» وفي خضمّ هذه المعركة الكلامية بدأت سيمونيتا بمخاطبة الشيخ بصيغة المفرد كما تفعل مع رفاقها.

---

١. Rimini

٢. Romano

بعد الانتهاء من الأعمال المنزلية يبدآن بمشاهدة التلفاز. وفي غرفة الجلوس تصبح المناقشة أكثر حدة، لا يقطعها إلا شغب برونيتينو: إنزال من على المقعد الذي تسلّقه أو أخذ صحن السجائر القابل للكسر، المصنوع من زجاج مورانو[١]. 'إنها تتحدث وكأنها موجودة في اجتماع حزبي'، يقول الشيخ في سرّه بينما ينصت إليها. 'إنهم يتقنون الكلام، هؤلاء الشيوعيون!'.

تعرض سيمونيتا حججها وتتحفّظ قائلة إنها ربما تقع تحت تأثير خطيبها. قبل أن تتعرّف عليه ما كان يشغلها إلا الامتحانات وتغطية المصاريف. أما لاحقاً فقد غيّر رومانو وعيها ... آه يا رومانو!

"لا شك أنه يريد أن ينام معي"، تردّ بانفتاح كامل على تلميحات الشيخ. "وأنا أريد أن أنام معه! وبالمناسبة، ماذا تعني يا عمّ عندما تقول "خمسة عشر عاماً"؟ ألا توجد عينان في رأسك؟ لقد بلغت التاسعة عشرة!"

'عندما تبلغ فتيات روكّاسيرا الثالثة عشرة يتصرّفن كالنساء الراشدات مبتغياتٍ الحذر والحيطة. أما سيمونيتا هذه، فهي حرةٌ كشاب! ولكنها تتقن هذا، بل إنها تظهر من جرّاء ذلك جذابة ونقية'، يفكر الشيخ ويتعجب من بنات أفكاره ذاتها.

"لا، لم نمارس الجنس معاً. لا أعرف لماذا ..." وبعد ذلك تقول على حين غرّة وبكل جدية: على الأغلب لم يَحِن الوقت بعد. لا نريد أن نستعجل شيئاً. يعتقد رومانو أنه على المرء ألا يفسد بداية كهذه. نريد أن نسافر معاً حينما يتوافر المال اللازم. لا عليك فإننا سنستمتع بالتأكيد!"، تضيف مستعيدة فرحها. "ماذا تقول؟" تصطنع سيمونيتا الإهانة. "هو جميل حقاً. أجمل مني!"

'أجمل منها!' يتحفظ الجد على هذا. 'هي ليست بالغة الجمال، ولكنها لا تحتاج إلى الجمال، فهي تستطيع أن تملأ المنزل بالحياة. إن تعليقاتها تجعل حتى رؤية التلفاز ممتعة.' تمرّ الساعات مسرعةً. تصل أندريا وتنقد الفتاة أجرها ثم تنسحب كالعادة مختفية وراء جبل أوراقها. تقف سيمونيتا على عتبة الباب وكأنها تريد الدخول بينما

١. Murano: جزيرة إيطالية مشهورة بصنع الزجاج اليدوي تقع ضمن جُزُر فينيسيا.

الواقع عكس ذلك. إنها تريد فعلاً الذهاب. يحاول الصغير منعها من ذلك، إذ يتشبث بتنورتها ويبكي. وفوراً تحضر أندريا وتأخذ الطفل إلى غرفته.

ساعد الشيخ الفتاة في لبس سترتها. ترتدي القبعة الباسكية عاقدة شعرها على نمط النساء. تعلّق المحفظة الجلدية على كتفها وتلفّ حول عنقها وشاحاً أصفر. تستدير وتهدي سالفاتوره ابتسامةً مشرقةً:

"لقد كان بالفعل يوماً جميلاً!"، قالتها بكل صدق.

تبسط يدها نحوه كما فعلت من قبل، بطريقة رفاقية. وقبل أن يستطيع الشيخ مدّ يده تغيّر رأيها وتضع ساعديها على كتفيه مقبّلة إياه برفقٍ على وجنته.

"أرّيفي ديرتشي[1]، إلى اللقاء عم برونو."

"أراك قريباً يا شيوتشيللا[2]"، يرد عليها وهو جادّ، وكأن لمس شفتيها لوجنتيه كان نوعاً من التبريك.

تفتح سيمونيتا شقاً في الباب وتنساب من خلاله مختفيةً وراءه. تغلقه خلفها برفقٍ غير ناسيةٍ أن ترنو إلى الشيخ بنظرة أخيرة عطوفة، عربون تفاهم خفي.

يسمع الشيخ صوت باب المصعد. إنه يمشي ببطء باتجاه غرفة الطفل ليجلس بجانبه. كان الطفل قد غرق في النوم وكانت أندريا قد تركت الفانوس الصغير مضيئاً، مرسلاً نوره الأحمر في ساعة الغروب. بدا له هواء الغرفة ككأس مليئة بالزّهور المترعة برائحة جسم برونيتينو الحليبية، وبدا الهدوء يحيط بصوت تنفسه المنتظم.

مع نسمات الرياح الجنوبية تصدح نواقيس الكاتدرائية (الدوومو). لقد أقبلت الساعة السادسة [مساءً]! ويتضح للشيخ أن روسكا قد بقيت هادئة طوال النهار. لا عجب في ذلك، فإنها قد سُحِرَت بتلك الفتاة، التي من الممكن أن تكون فتاةً من روكاّسيرا.

في عيد القديسة كيارا يصعد الناس على طريق الكنيسة الواقع على ضفاف النهر إلى حرج الكستناء التابع للقرية حاملين معهم على عربات الجر أقراص الخبز المخصصة

---

١. Arrivederci أر/ري/فيدير/تشي.

٢. Sciuscella يا حلوتي.

للقديسة، وذلك كي يأكلوها عند الظهيرة. وفي الغابة الصغيرة الواقعة خلف آخر كرم عنب يفور من كهفٍ ماءٌ كريستالي صافٍ، لا تتعرّف على منبعه إلا من خلال الفقاعات التي تظهر على سطحه. لقد أينعت حبات العنب ويستطيع المرء أكلها. وبالرغم من أن أوقات بعد الظهر الكسولة الذهبية ما زالت صيفية، تخيّم على ساعة الغروب مسحة من حزن خريفي. إن القرية ترتاح من زمن الحصاد وتحضّر نفسها لوظيفة مهمة أخرى من وظائف السنة هي قطاف العنب.

'لماذا أفكر بتلك الأوقات الغابرة في القرية وكأنني ما زلت شاباً يا برونيتينو؟ هل تنتظرني وظيفة جديدة يا صغيري كما ينتظر أهل القرية؟ هل قمت بالحصاد ويأتي الآن موعد القطاف؟ وهذه الفتاة؟ هل تعرف ما معنى كلمة شيوتشيللا؟ أكثر من "جميلة" أو "جيدة"، الكلمتان الوحيدتان اللتان يعرفهما أهل ميلانو. ولكن هل هذا من الأهمية في شيء؟ من أجل ماذا؟ أنا نفسي لا أعلم لماذا لم تثرني هذه الأنثى على الإطلاق، حتى عندما انساب خط من النبيذ من زاوية فمها ... وهنا ترى يا صغيري أنه لم يعنِ لي أي شيء، عندما تصوّرتها مع حبيبها رومانو يجمعهما سرير واحد! في الماضي كان هذا كافياً لإثارتي. ولكن لا تظن أنها النهاية مع أحاسيسي بالرغم من أن روسكا تفعل فعلها في داخلي. لا، لقد حدث اليوم شيء هام ...'

يشرد المسنّ برهةً متفكراً ثم يتجه إلى الطفل:

'تذكّر يا طفلي ما أقوله لك ولا تنسَهُ: إن النساء سيفاجئْنَكَ دائماً المرة تلو الأخرى. وعندما تظن أنك قد فهمتهنّ عن ظهر قلب، من السيدة المحترمة إلى الغانية، يظهرن لك فجأة بأوجه جديدة. ماذا حصل اليوم؟ لقد أخذَتْكَ في حضنها وكأنها أم متمرّسةٌ، هذا مع أنها لم تعاشر الرجال! إنني أنظر إلى تلك الأرداف وأشعر بتلك اليد تمرّ على شعري، ولا أُثارُ أبداً. هل تفهم هذا؟'

يمسح بيده على جبينه مبتسماً.

'على كل الأحوال حصلنا اليوم على رفيق رائع، أنت وأنا أليس كذلك!؟ أفضل رفيق كنّا قد حصلنا عليه. لو كنت فتاةً لكان يجب عليك أن تصبح مثل سيمونيتا كي تُفرح

جدّك. ما هذا الهراء الذي أقوله! يا بني، إنني أريد أن تكون صبياً وأن يُخلق منك رجلٌ حقيقي! هل أنا إذاً مجنون؟ على الأغلب أُصبح متقدماً في السن. ما هذه الأفكار كلها. هل هي إشارات؟ منكِ يا سالفينيا؟[1] هل تريدين أن ترشديني إلى الطريق القويم كما فعلتِ في السابق، عندما جابهتِ الجميع وتخطيت ساحة القرية، أو عندما أقحمتني في سرير روزا[2]؟ وإذا كنتِ لا تفعلين هذا فلماذا تحصل معي تلك الأشياء؟ ما سبب أنني أرى فتيات روكا سيرا أحياء أمامي؟ كيف حصل أنني قد قابلت واحدةً في ميلانو على شاكلتك؟' وفجأة يتّضح له السبب.

'كل هذا من أجلك يا فتايَ؟ هذا لكي يساعدني في أن أصنع منك رجلاً؟ هل صُنِعَ جسمي هذا من أجل يديك الصغيرتين، وصدري هذا من أجل فمك؟' إنه يتأمل الفم الصغير في الوجه النائم ويضحك في سرّه.

'ولكنها ليست أمّك يا كنزي، إنها ليست أمّك! لم يتبقَّ لك إلا صدري أنا. إننا وحيدان هنا وعليّ أنا أن أقوم بكل شيء، كل شيء ... آه، هذا هو موعد القطاف؛ الآن أصبح كل شيء واضحاً!'

وبغتةً ينهض دون أن يعلم السبب، يفتح الخزانة بكل حرصٍ، يتناول أحد أطقم الطفل ويخفيه تحت سترته، الشيء الذي لن تلاحظه أندريا في حال صادفها في الممر. كم هي صغيرة هذه القطعة!

وفي غرفته يُخفي طقم الصغير في شق السرير قرب الوسادة. في الليل سيتدرّب على فك وربط تلك الأزرار، التي أبَت يداه قبل أيام أن تسيطر عليها. وبالرغم من أن هاتين اليدين هما يدا رجلٍ كاملٍ –وويل للذي يشك في ذلك–، سيحوّلهما إلى يدي امرأةٍ ما دام هذا في سبيل برونيتّينو.

---

١. Salvinia

٢. Rosa

١٧

تعصف الرياح القادمة من جبال الألب فترتعد الأشجار التي تُحتبس جذورها في الأرض المتجمدة من البرد. إن الشيخ يرسم في مخيلته كيف أن دمه في جسمه والنسغ في الجذع يناضلان للوصول إلى الأعلى. وتؤلمه أكثر الضربات التي يسمعها: إنها تزلزل الحديقة كما تهزّ التابوتَ فؤوسُ ومعاولُ حفّاري القبور. إن تلك الأدوات السخيفة تجعل فلاحاً مثله يستشيط غضباً. ما هذا الخراب! هكذا لا تُخدَم الأشجار! وكيلا يضطر للنظر إلى هذا المشهد أكثر من ذلك يستدير الشيخ مبتعداً [يخمد صوت البلطة ويحاول المسن أن يقود أفكاره في اتجاه آخر].

لكن لا، إن الذي يمر الآن في ذهنه لا يمكّنه من الاسترخاء. بالعكس. كيف يمكنه أن يساعد ريناتو. هذا البطل الخلّبي الذي ينساق تحت تأثير أندريا القوي مجدداً، بعد ذلك الشجار الليلي الذي جرى مؤخراً. بل يظهر أنه يندم حتى على ذلك. البارحة اتصلت به لتقول له أنها ستتأخر عن موعد العشاء، وذلك لأن الاجتماع في الجامعة سيطول. وريناتو يهز برأسه مطيعاً طاعة الخروف:

"بكل تأكيد، نعم سأحممه وسأطعمه. وبالطبع سأضعه بعد ذلك في سريره. لا تقلقي يا كنزي ..."

تستمر في ثرثرتها، كالعادة، إلى أن يسمع الشيخ صوت ابنه المتأسف:

"اعذريني إن كنت أقاطعك يا حبيبتي، ولكن عليّ أن أنهي المكالمة. إن الصغير ما زال موجوداً في حوض الماء."

'ويجب عليه أيضاً أن يعتذر!'، يسائل الشيخ نفسه كل مرة لائماً ابنه، وذلك كلما تذكّر، كما هو الحال الآن، هذه الحادثة. 'إن هذه المرأة تجسّد قلّة الذوق عينها!'

ضربات فأس من جديد تعيده إلى الواقع الراهن. وفجأة تصدر أنّةٌ، تلحقها شكوى

مستمرة للخشب المتكسر وللأغصان المتساقطة، ومن ثم صدمة قوية على الإسفلت. وهنا لم يعد يستطيع الشيخ أن يتمالك نفسه. يلتفت ويوجّه نظرةً غاضبةً باتجاه ذروة الشجرة.

هناك في الأعلى واقفاً على سلّم مستندٍ إلى جذع الشجرة يتعلّق رجلٌ بزي أصفر خاص بعمال الحدائق العامة، يحمل فيٍ يده بلطة مرفوعة تهدد غصناً آخر. وهنا ينفجر المسنّ ويصرخ صرخةً تشبه رمية الحجر "هيه، أنتم هنا! اتركوا الغصن بسلام أيها المغفّل!"

'سيهبط بالتأكيد فوراً وستبدأ المشاكل!'، يحدّث المسنّ نفسه.

ينبهت عامل الحدائق لهنيهة ويبدأ بالفعل في هبوط السلّم. 'ستبدأ على الفور!'، يكرر الشيخ في نفسه ويضم قبضته مفكراً في الطريقة التي يمكن له فيها الانتصار على خصم مسلّح ببلطة. ولكن مجيء شابٍ حديث السن بشوش الوجه مبتسماً في حرجٍ يغيّر من توقعاته.

"إنني أخطئ في العمل أليس كذلك؟"

"إن كلمة "خطأ" لا تعبّر بشكل كاف! إن هذا الغصن بالذات يجب أن يبقى في مكانه. ألا ترون أنكم قطعتم توّاً غصناً قبله يقع تحته وعلى ذات الخط؟ أين تعلّمتم هذه المهارات؟"

"ولا في مكان."

"اللعنة مرة أخرى! كيف يتركونكم بهذه البساطة تهجمون على الأشجار؟"

"يجب عليّ أن أكسب قوت يومي."

"إذاً، ابحثوا لنفسكم عن عملٍ آخر!"

"إما أن أعمل مساعد عمال حدائق في البلدية أو ألاّ أعمل أبداً، هكذا قال لي موظف دائرة العمل. كيف كان عليّ أن أتصرّف خلاف ذلك؟ إني آسف"، وبعد وقفة قصيرة يوضح له الشاب:

"إنني أحبّ الأشجار، ولهذا أحاول أن أقطع منها القليل، وفقط الفروع الصغيرة."

"تتركون ما هرِم وتقطعون حصراً ما يبقي على الحياة. . . العكس تماماً هو الصحيح أيها الشاب!"
"إني أعتذر!" يكرر عامل الحدائق. ويتفرّس الشيخ في يدَي الشاب ويرى فيهما يدي المثقف الملتهي بالكتابة وبالقراءة. ثم يتطلع إلى وجهه فيراه محبباً وصادقاً.
"ماذا كنتم تعملون في السابق؟"
"أدرس في الجامعة." وهنا ينفجر المسنّ من جديد ويغضب، شاعراً أنه يقف أمام محتال.
"لا توجد عطالة عمل عند الطلاب!"
"يتكفّل أبي بمصاريف الدراسة فقط إن بقيت في كلية الحقوق. وأنا لا أريد أن أصبح محامياً، إنما أدرس فرعاً آخر."
يبتسم الشيخ. 'برافو! إنه شاب شريف. شريف، ولكن يخطئ إذ يتناسى ما يكسبه المحامون من مال. الأفضل أن يبقى عامل حدائق عند البلدية على أن يصبح بهلواناً قانونياً. برافو! المحامون! لعنة الفقراء!' ويمدّ يده باتجاه البلطة ويقول:
"أعطنيها!"

وبكل خجل يسلمه الشاب البلطة ليأخذها الآخر متجهاً إلى الشجرة. وينتاب الأوّلَ الخوفُ على الشيخ من السقوط عن السلم، الشيء الذي يختفي حالما يرى الخطوة الواثقة التي يرتقي بها السلم والعزم الذي يضرب به: إنه ينظر [من علٍ] إلى جذع الشجرة، يفكّر هنيهة ثم يحزم أمره مختاراً فرعاً بعينه يبدأ في قطعه بكل ثقة. وما هي إلا ثوان حتى يسقط الفرع إلى الأرض. يترك السلّم ليقف على تفريعة يُقدم منها على تهذيب الأغصان، ويرجع فيهبط من السلّم ليضعه في جانب آخر معيداً الكرّة. وأخيراً ينزل من السلّم للمرّة الأخيرة.

يأتي الشاب لمقابلته.
"يجب فعلاً أن أشعر بالخجل."
"لا عليكم! لا يولد المرء من بطن أمه مختصاً. ولحسن الحظ لم يعطوكم منشاراً

كهربائياً ، كنتم بوساطته لخرّبتم أماكن التقليم في الشجرة.»
«لقد حظيت بواحد وأعطبته من أول يوم» ، اعترف الشاب غامزاً بعينه. «ومن وقتها أعمل بوساطة البلطة. إنكم معلم في هذا المجال. هل تعملون في الحدائق؟»
«لست محترفاً ، ولكنني أفهم شيئاً في أعمال الجنائن. إني ريفيّ. ألا يلاحظ المرء هذا؟»
«من أية منطقة؟»
«من روكاّسيرا بالقرب من مدينة كاتانزارو» ، يصرّح الشيخ باعتزاز متَحَدٍّ.
«كالابريا!» يستنتج الشاب فرحاً. «إلى هناك يجب علي السفر في الصيف القادم!»
«أهذا صحيح؟» يجيب المسنّ باهتمام متشجعاً. «ولِمَ؟»
'كيف يمكن لي أن أشرح لفلاح بسيط معنى رحلة علمية استكشافية هدفها البحث عما هو متبق اليوم في العادات الشعبية من الأساطير القديمة؟'
«إني أجمع القصص والحكايات والقصائد والأغاني ، أسجّلها صوتياً ثم أقيّم هذه التسجيلات. هل تفهمونني؟»
«لا!» [ويفكر الشيخ :] 'لا حدود لمخيّلة هؤلاء المثقفين فيما يخص اختراع الأسباب التي تعفيهم من العمل : إن المرء يقصّ الحكايات بهدف التسلية ويغني ليفرح ويمرح. ما هو الشيء الذي يبحثون عنه هنا بحق الشيطان؟'
«ونتائج هذا التقييم تنشر فيما بعد ... إنه عمل جميل» ، يقول الشاب أخيراً غير عارف كيف يوضح الموضوع للشيخ. وبعد توقف قصير يشرح الشاب كاسراً حاجز الصمت :
«أنا من فلورنسا.»
ويبتسم المسنّ من جديد. 'هو على الأقل ليس من أهل ميلانو.'
«سيجارة؟» يعرض الشاب على الشيخ وجلاً ، خوفاً من أن نيّته في جمع ذلك الإرث الشعبي قد تشكل إهانة للأخير. لقد نبّهوهم في الصفّ إلى الحساسية العالية التي قد تواجههم عند أهل الريف.

"لا، شكراً. لقد أقلعتُ عن التدخين، رغماً عن روسكا التي تعترض على ذلك."
"روسكا؟"
"إحدى معارفي. إنها من سوء حظّها تستسيغ تبغي!"
'الآن دوري في طرح الأحاجي'، يسعد الشيخ بهذه الفكرة ويتابع قائلاً:
"انظروا! لستُ مستعجلاً. تسلّقوا تلك الشجرة هناك وسأقول لكم أنا ماذا يجب عليكم أن تقطعوا. ولكن على ضرباتكم أن تكون مركّزة. أمسكوا بالبلطة من هنا. هكذا. أرأيتم كيف يتمّ حفظ توازنها؟ اقبضوا على البلطة بثبات. إذن، إلى الأمام. ليس القصّ صعباً إلى هذه الدرجة!"
وفي الحديقة تراقب الأمّهات وأطفالهن هذا الثنائي الذي يعمل حتى ما بعد وقت الظهر. ويسرّ الشيخ أن يصبح مفيداً للآخرين ويسعده إنقاذ تلك الأشجار من الهلاك الذي يريده لها أولئك البيروقراطيون والكتبة المتعالون، سيّما أن أشجار ميلانو تعاني أصلاً ما تعانيه من عذاب البرد.

'سيصبح برونيتينو يافعاً كهذا الشاب، لكنّه سيتفوّق عليه كثيراً في المعرفة، لأنني سأعلّمه بنفسي. سأساعد أيضاً الأخير بالرغم من أنه لا يفقه في هذه الحرفة شيئاً وكان عليه أن يتوقف عن ممارستها. ولكن ليس هذا خطأه. هو على الأقل ليس من أهل ميلانو.'

وبعد أن فرغا من العمل يشكره الشاب ويسأله:
"تسمحون لي أن أدعوكم لشرب فنجان من القهوة يا سيدي؟"
يفكر الشيخ قبل أن يجيبه.
"يقولون عندنا في الجامعة إنه على المرء ألا يرفض لا فنجاناً من القهوة ولا مرتبة الدكتوراه" يستطرد الشاب مصراً. يضحك المسنّ بصوت عالٍ.
"هل أقبل دعوة عاطل عن العمل قليل الحيلة؟"
إنه ضحك خالٍ من السخرية.

"عندي مالٌ. لقد أحرقت جميع سفني خلفي وقمت ببيع نسختي الفاخرة من كتاب

القانون المدني. إنها نسخة أتت حديثاً من المطبعة، مزوّدة بهوامش وصادرة عن دار روآتا – بروشياني[١]."

والآن يضحك الجانبان معاً. ويربط الشاب السلّم بجنزير يلفّه حول شجرة ويغلقه بقفل. يُدخل البلطة في حزامه ويشير للشيخ إلى البار الواقع على الجهة الأخرى من الرصيف. وفي اللحظة ذاتها تتوقف حافلة تابعة للبلدية بالقرب منهما ويطل مسؤول عن العمال برأسه خارج النافذة المفتوحة:

"هيه، أنت!... اصعد إلى الحافلة! يجب نقلك إلى مركز المدينة."

ينظر الشاب إلى الشيخ معبراً عن اعتذاره.

"إني آسف."

"سنعوّض هذا في يوم آخر. عندها سنشرب في صحة كتاب القانون المدني. اتفقنا؟"

"أعدكم بذلك... واصلوا المجيء. سأبقى في الحي لعدة أيام أخر، أليس كذلك يا ريّس؟"

"ويهز رئيس العمال رأسه مؤكداً، بينما يستعرض عمل الشاب ناظراً إلى الأشجار. يصيح الأول متفاجئاً :

"الله، الله – عمل جيد! إنك إلى تحسّن."

ويتبادل المسنّ والشاب النظرات الباسمة المتكتّمة ويتصافحان.

"فيرليني، فاليريو"، يعرّف الشاب رسمياً عن نفسه.

"رونكونه، سلفاتوره"، يرد الشيخ بمودة.

وتتحرك الحافلة ويرسل الشاب إشارات مودعةً من يده عبر زجاج النافذة الخلفي. لقد كانت مصافحته قوية صادقة، ورجولية.

'ولكن برونيتينو خاصتي سيصبح في المستقبل حتى أكثر رجولةً منه.'

---

١. Roatta-Brusciani

١٨

يرفض الصورة القاتمة التي تمرّ الآن في مخيلته، لذلك يغلق عينيه. ولكنه يشاهد مجدداً ومن فوره "لامبرينو"، صديق عمره الأول وعنوان عاطفته الأولى. ولكن ماذا عن أمه؟ . . . نعم، لقد كانت المركز الأول لعاطفته ولكن هذا شيء طبيعي، وعدا عن ذلك لم تكن تصعد [في الصيف] إلا مرة واحدة في الأسبوع إلى الجبل. أما لامبرينو فكان معه دائماً، ملكه في أي وقت. جدْيٌ أبيض صغير يمثّل إحدى معجزات الطبيعة، يقفز بلا هوادة بين الأحراش وبين النباتات الفوّاحة. يتذكّر المسنّ الآن عيني لامبرينو المسالمتَين اللتين كانتا تفصحان بحب لا محدود ويتحسّس النعومة الدافئة بين يدي الراعي الصغير، عندما كان يضمه مستسلمَين للنوم وعندما كان الصوف الفتي يداعب صدره العاري وكان القلبان النابضان يوحّدان ضرباتهما.

أصبح لامبرينو الذي لا يُنسى أول درس في الحب في حياة الشيخ الزّاخرة بالأحداث العاطفية –والآن بالذات يتراءى له لامبرينو عبر السواد الداخلي الذي يكتنف تدويرة جفنه المغلق. ولكن الشيخ لا يلبث أن يفتح عينيه لكي يبدّد مشهد النهاية المؤلم : المسكين في يد الجزّار، ورقبة لامبرينو كاملةُ البياض موجهة إلى الخلف باليد الأخرى [التي لا تحمل السكّين]. تهكّم الرعيان على الطفل المتألّم الذي لا يستوعب قسوة القدر– تماماً كما في التاريخ إذ يسمّر الجلاّدون الفظيعون السيد المسيح على الصليب.

إنه يفتح عينه على الواقع الحالي: لا رعيان متهكمون ولا جبل مفعم بضياء الحياة، إنما مجموعة صغيرة من مشغولي البال. وما عدا ذلك يتطابق تماماً مع قصة الماضي: جسم صغير لا يتحرك، رأسٌ صغيرٌ ملويّ، رقبة رقيقة مستسلمة ليد الجزّار. في الماضي كان الرأس رأس لامبرينو، تنظر عيناه المفتوحتان على آخرهما نظرةً مرتعبة

مستنكرة ويصدر من فمه ثغاء يقطّع الفؤاد.

والرأس الآن هي رأس برونيتينو التي تستقرّ صامتةً، والعيون هي عيون برونيتينو تغلقها جفون فاتحة بلون الألاباستر[١]، وكأن ستائر شفافة تسترّها.

قبل قليل طُلب من الشيخ أن يمسك بالصبي بغرض تثبيته، لكنه رفض بإصرار القيام بذلك واختار فتحة الباب له موقعاً، مانعاً عند اللزوم أي بشر من المرور دون حساب، ومهيّئاً الموسى في جيب سرواله.

'لأذبحنّ هذا الجزّار في الحال إذا أصاب الطفل بأي مكروه'، صمم الشيخ وهو يراقب الشخص المعني يبحث بإصبعه في العنق الضعيفة عن الوريد المناسب.

إن هذا الجلاّد لا يحمل بيده سكين اللحّام، إنما حقنة فارغة ذات إبرة مستعدة للانقضاض في أية لحظة.

'وإذا ما أخطأتْ هدفها؟ سيموت صغيري عندما يفقد دمه، أو سيختنق بدمه! سأقتل هذا الجلاّد يا روسكا، سأقتله حتماً!' وتنفذ الإبرة إلى رقبة الصغير. 'إن هذا العنّين لا يستطيع أن يصيب المكان المناسب حتى في جسم الثور الفحل. كان هذا واضحاً للعيان!'

بدأت الأنبوبة الشفّافة تمتلئ بدم برونيتينو الثمين. 'دمٌ يذكّر بدم القديس "جينّارو"[٢]'، يتحدث الشيخ إلى نفسه إذ يلاحظ اللون الغريب القاتم لدم برونيتينو عوضاً من اللون الأحمر المفترض. إنه يعطي انطباعاً مرعباً من خلال إضاءة الغرفة المخففة، الآتية عبر النافذة ذات الزجاج المعالج بلون حليبيّ. 'هل هو مسموم؟'، تمرّ تلك الخاطرة فجأة

١. Alabaster: حجر أبيض غير صاف، كثيف اللون ونفّاذ في آن معاً.

٢. Gennaro : قديس، شفيع مدينة نابولي. دمه موضوع في وعاء زجاجي صغير. تكمن عجيبته في أن هذا الدم يصبح سائلاً ويعود ويتصلب ثلاث مرات في العام: في عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد القديس جنارو بذاته.

برأسه عندما يتذكّر "رافائيله" [١] في الضيعة. لقد بصق رافائيله دماً ذا لون مماثل، بعدما داس البغل على بطنه. كان رافائيله واقعاً طبعاً تحت تأثير السحر. عرفت القرية بأكملها ذلك، وكان هذا عقوبة على ملاحقته لـ "باسكوالينا" [٢]. ولكن أية لعنة هذه يمكن أن تحلّ بهذا الملاك؟

لقد أنهى الجلاّد عمله. ها هو يفرّغ الدم في زجاجة صغيرة في داخلها سائل، يغلقها ويضعها في حقيبته الطبية. لم يعط الطفل إشارة لأي رد فعل. لقد أنَّ قليلاً شاعراً بغزّة الإبرة.

يودّع الجلاّد [الطبيب] أندريا، إنما لا يستطيع المرور عبر الباب الذي يسدّه الشيخ في وجهه. وفي انتظار أن يُخلى له السبيل قال للشيخ:
"عند الأطفال حديثي السن يكون أخذ الدم من وريد الرقبة أكثر أماناً. هل تفهمون ذلك يا سيدي؟"
ولا يتزعزع المسنّ من مكانه إلا حينما رجته أندريا قائلةً:
"هل يمكنكم يا بابا أن تمسكوا بالصغير للحظةٍ؟"

وترافق أندريا الطبيب إلى الخارج، بينما يجلس المسنّ واضعاً الطفل بين يديه. بنى له من ساعديه عشاً وبدا قلقاً مشغول البال حين قبّل الجبين الصغير المستعر. وبأصابعه يمسك بالقطنة الموضوعة فوق الجرح (مكان دخول الإبرة والتي يفترض أن تمنع النزف)، ويشعر بالنبض المتسارع للقلب الصغير. لقد بلغت الحرارة مستوى خطراً!

يراقب المسنّ الطفل. بدأ قبل يومين بالسعال سعالاً عميقاً ذا حشرجة يمكن ملاحظتها عند الكبار في السن – إنما في منطقة الجواب لا القرار [٣]. لقد رفض البارحة صباحاً

---

١. Rafaele

٢. Pasqualina

٣. في الأصل "في مقام أعلى". وهنا يريد الكاتب أن يشير إلى المعلومات الموسيقية المتواضعة لابن الريف سلفاتوره، إذ لا يفرّق بين المقام (مثلا: رست، سيغا، عجم) وبين القرار والجواب (المتعلقان بذات العلامة الصوتية، إنما بديوان –٨ علامات– أعلى).

تناول الطعام وأصابته عند الظهر حمى انهار بسببها نائماً. ومنذ ذلك الوقت لا يفتح عينيه إلا لماماً ناظراً من حوله، كأنما يسأل: لماذا يعذبونني؟ وبسبب الحرارة العالية اضطروا أن يغطّسوه في الماء البارد وكانت صدمتهم كبيرة حينما تحسسوا بطنه الصغيرة اللاهبة.

لم يُغلق للشيخ جفن طوال الليل. ليلة انتقل أثناءها من غرفة إلى أخرى بهدوء، ليلقي نظرة إلى الطفل المرّة تلو الأخرى، وليساعد عندما يطلبون منه ذلك، وليأخذ على عاتقه مجرد الحراسة. أما ذروة الموضوع فكان هذا الذي يُدعى باللهجة الميلانوية "بيدياترا[١]" ويعنون بذلك طبعاً طبيب الأطفال.

'كيف كان بالإمكان أن يعهدوا بالطفل إلى مثل هذا الشخص؟' تحدث الشيخ مع ذاته متذكراً مجيء الطبيب البارحة.

كان ما يسمى بالطبيب مرتدياً أحدث الثياب وقاصاً شعره على نمط الصور المعلقة في صالون الحلاق الرجالية "مغارة اللصوص" في شارع روسّيني. يسير حاملاً حقيبته الجلدية الفاخرة ولابساً في إصبعه الصغير خاتماً غالياً بحجر لازوردي يتفاخر به، فيترك وراءه غيمة عابقة بالعطور. عمره ثلاثون أم أربعون؟ من المستحيل تخمين سنوات من يظهر بهذا المظهر المنمّق الملمّع. أما إطار نظاراته فهو ذهبي بالطبع. 'وهذه اللغة التي يستعملها، ارحمينا أيتها العذراء، ما هذه اللغة! الكل يعرف أن الإيطالية لغة بالغة الطراوة على ألسن الرجال، ولكن "مواء" هذا الرجل حينما يمط كل حركة على حدة لا يصدق. شيء مثير للقرف! لقد غسل يديه عند الدخول وعند الخروج. أما بأية طريقة قدّمت له أندريا المنشفة؟! فكما يقدم خادم الصلوات الأواني إلى راعي الكنيسة وكأن الأخير صاحب قداسة. نعم، بالتأكيد. إنها به معجبة!' ينكشف اللغز فجأة عن الشيخ. 'هذا هو النمط الذي تفضّله. لقد كانت لتصيده لنفسها، لا شك في ذلك، ولكن سوء الحظ أراد لابني أن يصادفها في طريقه. بأية طريقة كانت تنظر

١. Pädiater: بالألمانية، وهي التسمية الاختصاصية (المأخوذة من اللغة اللاتينية) لطبيب الأطفال.

إليه مفتونة؟! "دوتّوره[1]" من هنا ... "دوتّوره" من هناك ... أما الأفندي فكان يختال كالديك.

لم يتفضل حتى بفحص الطفل كما يجب. لقد مرّ بسرعة على أذنيه وحلقه بالبطارية المضيئة وسأل عن مقدار ارتفاع حرارته (التي قاستها أندريا قبل وصوله بوضع ميزان الحرارة في مكان مناف للأخلاق). بعدئذٍ أخرج من حقيبته ذلك الجهاز ذا الخراطيم المطاطية الدقيقة[2] التي كانت أشبه بالعلق الذي يمصّ دم الصدر المسكينة. إن الحقيقة ظاهرة للعيان. لقد تظاهر بالفحص. لم يقم مثلاً بوضع أذنه على ظهر المريض. هل لاحظتِ يا روسكا. وكأن الصغير لا يعاني من أي شيء على الإطلاق! إنه سوء طالعنا يا روسكا، فعلاً! هل أندريا واقعة في غرام هذا الأبله؟ من المؤسف أن هذا العنّين لا يتجرأ على خيانة أي رجل، وإلا فإنها فرصة ذهبية لريناتو كي يتخلّص من أندريا إن كانت هي تخدعه بالفعل وإن كانت له عزيمة الرجال.

يتنهّد الشيخ يملؤه الشك، وينظر إلى الطفل لينسى بعدها كل شيء عداه. 'الطفل مريض جداً، حتى ولو لم يأبه لذلك النكرة. طبعاً. بالنسبة له برونيتينو مجرد طفل عادي وليس حفيداً له ...! وإذا كان المرض مجرد نزلة برد عادية [كما شخّص الطبيب] فلماذا يسحب الدم منه على هذه الشاكلة الإجرامية؟ لقد قارب على جزّ عنقه؟ لماذا؟'

يسمع الشيخ همسات في الممر ويسأل نفسه عمّا إذا تجرّأ ذلك الشخص على العودة. لا. إنه ريناتو يتبادل الحديث مع زوجته.

"يقول الطبيب المختص أنه لا شيء جدّي. كلها يومان أو ثلاثة وسيرجع الطفل إلى سابق عهده"، توضح أندريا لزوجها. "لكن الطفل خرّب علي رحلتي."

"تستطيعين السفر إلى روما فيما بعد."

---

١. دكتور: طبيب.

٢. قد يقصد هنا جهاز قياس الضغط.

"أؤجل الآن بعدما أخذتُ موعداً من الوزير! هل يجب علي حجز موعد آخر! وماذا أفعل بالعم دانييله الذي جنّد معارفه من أجلي؟"

ويصمتان مع اقترابهما من غرفة الطفل. يسلّم الجدّ الطفل لريناتو قائلاً في داخله: 'إن مستقبلها المهني هو كل همها. حتى إن الطفل ليقف في وجهها! برونيتينو المسكين.'

وفي المساء وأثناء تناولهم الطعام، يجلس الجدّ عند الحفيد مراقباً ومتحدثاً في خياله مع الجبين الصغير الشاحب ومع الخدّين اللذين تلوّنهما حمرة الحمّى.

الأمر كما ترى يا صغيري. إنهما يأكلان بكل هدوء بينما تدور في جسمك الضعيف معركة حامية: دمك يحارب الشرّ فإما الحياة وإما الموت. كيف باستطاعتهما التصرّف على هذا النحو؟ إنسَهما، فأنت لستَ وحيداً. أبوك لا كلمة له في المنزل وأمك تحيلك إلى ذلك الدكتور الخائب، ولكن جدّك سيقودك إلى النجاة. هل تسمعني يا ملاكي؟ إن كانا سيقبلان أم سيرفضان، سيعطيك جدّك غداً شراب أوراق الكينا المغلية وزهورات الكريميلاريا[1]. هل تعلم أن الأشجار مفيدة وتحب الأطفال؟ ستفلح في شفائك بأفضل مما تفعله الحقن. ستشعرك بوجود الجبال والربيع لتستنشق هواءهما ولتتنفس بحرية أكبر. آها، إنك تبتسم؟ إذن، فأنت تصدقني؟ برافو يا بنيّ! آفانتي[2]، ولنهجم على الأعداء. تماماً كما فعلتَ منذ فترة قريبة وانتصرتَ على الدبّابات!'

وتستسلم أندريا لطلب الشيخ في الصباح التالي، بعدما استشارت كتابها الملعون الذي يحدد بكل دقة مواعيد استيقاظ الأطفال وأوقات شعورهم بالجوع. 'وكأن الأمهات اللواتي لا يعرفن القراءة، لا يدركن أموراً كهذه!' وفوق كل ذلك يسمع الشيخ للتوّ أندريا وهي تتحدث من جهاز التليفون الموجود في غرفة عملها مع "الدكتور" وتطلب منه النصيحة مستمرة في الثرثرة معه فترة غير قصيرة. بعد ذلك يراها محمرة الوجه تعلو شفتيها ابتسامة مضطربة. 'ألم أتوقع ذلك. إنها واقعة في حب ذلك النذل!'

---

١. Cremelaria

٢. إلى الأمام (بالإيطالية).

لقد استسلمتْ لطلب الشيخ فنزل من فوره قاصداً الصيدلية ليشتري أوراق الكينا. لا يعرف الأغبياء زهورات الكريميلاريا، أما أوراق الكينا المغلفة بأكياس مفرغة من الهواء التي حصل عليها هناك، فقد اضطر إلى رميها في القمامة لأنها ليست المطلوبة. وبخلاف الصيدلية فقد حصّل في مخزن مادالينا أوراق الكينا الصحيحة. وفيما يخص زهورات الكريميلاريا فقد عرفتها مادالينا بالطبع ولكنها أرسلته إلى مخزن آخر قريب للحصول عليها. 'هاكم امرأة حقيقية، تلك المادالينا! إنها تعرف كل شيء. وهذه النظرات التي تنعش القلب! شبوة مزدهرة باستمرار. لا عجب في ذلك، فهذه الوردة لا تُسقى من قبل الزوج العنّين!' وشعر بانبساط يغمره كلما نظر إليها وكلما تذكّر تلك العربة ذات اللون الأخضر اللماع.

وفي المصعد استعمل ورق الصيدلية ليلفّ به الأوراق والزهورات، وذلك كي تمرّ عبر رقابة أندريا وكي تستطيع الأخيرة أن تريها "للطبيب". 'يا برونيتينو، الحرب خدعة!'

١٩

في الحديقة العامة يظهر الشيخ المرتدي سترة ريفية من الصوف والواضع على رأسه قبعة مضت موضتها ، يظهر فجأة من جديد . إنه الشخص الذي أشرف لعدة أيام على تقليم الأشجار واختفى بعدها . لقد اعتبرته الأمهات اللواتي يحرسن أطفالهن أثناء اللعب جدّاً عادياً يهتم بحفيده. ولكن نظرة واحدة موجهة منه إلى أجسادهن كانت كافية لتغيير رأيهن : بغريزتهن كنّ يصححن وقفتهن وجلستهن أو يمررن بأيديهن بكل سرّية على شعورهن.

والآن ينحصر اهتمام الشيخ بهذا الطفل الذي يثير كل شيء فيه دهشته : عيناه إن كانتا هادئتين أم فضوليتين ، حركات المبارزة المستمرة باليدين الدقيقتين ،الجلد الطري ، صرخات الفرح المفاجئة. وبخاصة اليوم ، إذ يُسمح للصغير بالخروج للمرة الأولى بعد شفائه من المرض. لقد كان هذا المرض –الذي سمّوه نزلة برد– كابوساً رهيباً ! لقد كان هذا المرض بتشخيص الشيخ التهاباً صدرياً حاداً لم يدركه الطبيب ، ولم يعرف كيف تم الشفاء . إنها فقط أوراقه وزهوراته التي كان ينثرها في الماء المغلي [مرّات ومرّات] من وراء ظهر أندريا ! لقد شُفي سارينو[١] من التهابه الصدري بتلك الزهورات ذاتها ، بعدما يئس الأطباء من مرضه.

إن الفضل يعود لجدّك يا بنيّ في أنك تستطيع التجوّل في الهواء الطلق من جديد . لا يوجد أفضل من الرعيان في معرفة فوائد النباتات في العلاج. أعترف أن السينيورا مادالينا تشترك في ذلك معهم، ولكنهم يتفوّقون عليها . أما الساحرة فتتفوّق على الجميع ، يا عذراء احمينا ، وهذه حكاية أخرى !

١. Sareno

وبغتة يضحك الشيخ متذكراً تعابير وجه أنونزياتا عندما كانا يُلبِسان الصغير استعداداً لهذا المشوار. لم تصدق عينيها اللتين شاهدتا الشيخ يعقد أزرار الطقم الطفولي بكل مهارة! لم يعلم ابن بشر عن الساعات الليلية التي قضاها في التمرين! لقد ساعدته أصابعه التي ما زالت قادرة على التعلّم، ومفاصله التي لم تصدأ تماماً. ويهبط بنظره إلى تلك اليدين اللتين تمسكان بمقبض عربة الأطفال وتقودانها بكل قوة، ينظر إلى عروق الدم النافرة التي ما زالت تتمتع بالحيوية وبالقدرة ويقارنهما بيدي حفيده فيقفز قلبه: ما هاتان اليدان الرقيقتان والأصابع الدقيقة؟ كيف ستصبحان فيما بعد عندما ستُلقيان الخصم إلى الأرض أو ستداعبان نهديّ امرأة يافعة؟

'لن أرى هذا اليوم يا صغيري ولن تقدر على ذلك وحدك، لكني سأكون من يجعل منك رجلاً كاملاً. لقد أنقذتك من ذلك الطبيب المخادع وسأحميك حتى من والدتك أو من أي شخص آخر. أنا، برونو، جدك المحارب السابق. أريد أن أخبرك بشئ! إني أتضرع إلى العذراء يوماً بعد يوم أن تنهي حياة كانتانوتّه قريباً وأن أستطيع أخذك معي إلى القرية، حيث تستطيع أن تلعب في الفناء بحرية وأن تجري وراء الدجاجات. أترى! روكاّسيرا جميلة ومختلفة عن وسخ ميلانو. شمس لا تستطيع تصوّرها إذا كنت لا تعرف إلا شمس ميلانو.

وهذا الأفق المليء بأجمل جبال الدنيا: فيمينامورتا[1]، حتى ليستطيع المرء أن يشبّهها بامرأة تستبدل باستمرار ثياباً بأخرى مختلفة: تبدو مرة زرقاء اللون، ثم بنفسجية أو بنية، وحتى زهرية، ومرّة أخرى تتوشح بغطاء شفاف متأثرة بأجواء الطقس المتنوعة. إنها مزاجية. نعم، وقمة في المزاجية: تحذّرنا من قدوم العاصفة حيناً، أو تفاجئنا ببرد قارس حيناً آخر. قاسية –كما تكون الجبال– ولكنها منصفة. ستقع لا محالة في حبّها عندما يأتي اليوم الذي سنراها فيه.'

ويعي المسن أن كل هذا مجرد أحلام فيحاول طردها من رأسه. ولكن لماذا هي

١. Femminamorta: [الأنثى المتوفاة].

أحلام؟ ألم ينقذ الطفل بالفعل؟ ألا يظهر على وجه الطفل أنه يكبر [بسرعة]؟ لقد وجّه انتباه أندريا إلى هذا الأمر وكان رد فعلها نافياً في البداية. ثم اضطرت أن تسلّم به، إنما عزت ذلك إلى تهدّل الوجنتين قليلاً بسبب نزلة البرد [إياها].

'هراء! إن سبب ذلك يعود إلى أنه يصير ببطء شاباً'، يقرر الشيخ في نفسه إذ يتذكّر تلك الحادثة. ففي كل يوم تقوى عزيمة الطفل فيجدّ في الزحف ويحاول الوقوف باحثاً عن أي شيء يسنده. ولا حاجة للمبالغة في هذا الأمر: لقد أصبحت ساقا العم بينيدتّو[1] مقوّستين لأن من حوله أراده أن يمشي قبل وقته. لم يؤثر هذا سلباً على حرفته المستقبلية كنجّار. ولكن ماذا كان سيحصل لو أصبح راعياً، أو فدائياً؟ لقد أصبح الأمر بالنسبة للبعض موضوعاً للتندّر. "هل ما تحمله بين ساقيك ثقيل إلى هذا الحد؟". أما هو فقد كان سعيداً لإعفائه من الخدمة الإلزامية لهذا السبب. ومن ناحية أخرى فهذه الميزة حزينة، لأن النساء يردن رجالاً أصحاء البنية، ولا شيء يعوض ذلك غير المال. 'سأعلمك المشي يا برونيتينو بكل تروّ لكي تصبح رجلاً صحيح البنية... ولكنك الآن رجل فعلاً ذو عضو ذكري، صغير ولكنه ينتصب مشدوداً بطول خنصر يدي.' وفي هذه اللحظة يلقي نظرة على خنصره فيتابع فكرته مصححاً. 'تقريباً على أي حال'. تلفت كتابة على واجهة بنك انتباهه ثم يلاحظ شمس ميلانو وينظر بازدراء إلى ذلك القرص الأصفر المغطى بغشاوة قاتمة. 'ابنة ميلانو الحمقاء هذه! لا تشبه الشمس في شيء'، ويغير اتجاهه رغم ذلك ليحمي الطفل من أشعة الشمس مقترباً بذلك من الشارع الذي يقود إلى ممرّ المشاة المحيط بالحديقة العامة.

وعلى حين غرّة تمرق سيارة بالقرب منهما مباشرة على ماء متجمّع، يتناثر فتبلل عربة الطفل وبطّانيته، وتصيب بعض قطرات الماء الوسخ خدّ الطفل الذي يبدأ بالبكاء. للوهلة الأولى يقف المسن متسمّراً من شدة الغضب. ثم يرى أن السيارة قد وقفت غير بعيد عنه عند الإشارة الحمراء. وبحنق أعمى يركض ليلحق بالسيارة لاعناً بأعلى صوته وفي ذهنه فكرة واحدة: 'سأقضي عليه، سأقضي عليه!' فكرةٌ يعبّر عنها فمه

١. Benedetto

بالصوت العالي، وقدماه بالسرعة، وقلبه بالخفقان. موساه صارت جاهزة في جيبه. وها هو قد أصبح قريباً من السيارة المعنية لما قفز اللون الأحمر إلى الأخضر –لحسن الحظ– وأعطى السائق بنزينه لينطلق غير مدرك لما يدور حوله.

وليس بوسع الشيخ الآن إلا أن يسبّ ويصنع بيده إشارة فاراتزاتا[١]، إشارة غير مهذبة تلاحق السائق. ولم يمنعه غضبه من الإحساس بوضعه المزري: وقفته المضحكة، قلة حيلته، فقدانه لقبّعته، والموسى المشرّعة الموجودة في يده. وتتجه النظرات المتهكمة نحوه. فجأة يصعد ماءٌ مغليٌ إلى رأسه عندما يتبين له ما يلي:

'هل فقدتَ عقلك كليةً! كيف تركتَ الطفل وحيداً؟ لقد أصبحتَ مجنوناً بالكامل!' ويبدأ بالجري بالجهة المعاكسة رافعاً بطريقه القبعة المتروكة على الطريق وضارباً أخماساً بأسداس من قلقه على الطفل وخوفه مما قد يحصل له من سوء. ويصل في لحظة تكاد تكون اللحظة الأخيرة، فهناك فوق العربة تنحني امرأة غريبة. 'هل في نيّتها اختطافه؟ أيتها العذراء أنقذينا!' تحزّ وجدانه حكايات قديمة عن غجر يسرقون الأطفال. وها هو يقترب كثيراً من المرأة. عرق ينساب، وغضب ورعب يعقدان لسانه، دقّات قلب تغرز كل منها جارحةً فؤاده.

ويوجّه إلى تلك المرأة نظرة فاحصة متوعدة، بينما تسمع هي وقع خطواته فتلتفت إليه والطفل بين يديها. "لا عليك ياسيدي، لا أريد اختطاف أحد"، وتبتسم له مهدئة وكأنها تقرأ أفكاره. "لقد سمعته يبكي. وقد حملته دون إذن لأنه كان وحيداً."

توقف الصغير عن البكاء. وبدأت المرأة بمسح دموعه بمنديل ناصع البياض.

تهدأ نفس الشيخ تدريجياً. ولم يزل مستنكراً تدخّل المرأة الغريبة، إلا أن وجهها السمح يلجم انزعاجه. شفتان مليئتان وغضون بسيطة جذابة وملامح فتيّة برغم تقدم السن، الشيء الذي يظهر أنها لا تحاول إخفاءه.

"شكراً سينيورا"، استطاع أخيراً لفظ هذه الكلمات وهو يعاين جسم المرأة بنظره:

١. Varazzata

صدرها الذي يحتفظ بالحجم المعقول، أردافها المدوّرة، قوامها المنتصب.
"ماذا حصل معكم؟"، تسأل بدورها.
"هذا الكلب النجس! ألا ترَون كيف وسّخ الطفل وبطانيته وعربته؟ هذا القرد المغرور! أيوسّخ طفلاً! كلب ميلانو هذا"
ويستحي بغتة من تعابيره البذيئة. ولكن المرأة تبتسم.
"ويوسخ بنطالكم أيضاً! أنظروا! يجب غسل البنطال."
"هذا ليس مهماً. لو وقع بيدي لكنت قصفت عمره... كلب مسعور! اعذروني، أرجوكم."
"هو فعلاً كلب مسعور"، ترد المرأة سعيدة ومفاجئة الشيخ. وفي هذه الأثناء يلعب الطفل بخصلات شعرها. "من أية منطقة جنوبية أتيتم؟"، تسأله.
الآن يبدأ الشيخ بالفهم. أصلها من الجنوب وقد تعرّفت على لهجته. ولكن لا يبدو عليها ذلك. وعلى الفور يشعر بالراحة ويصلّح وضع قبّعته.
"من روكاّسيرا قرب مدينة كاتانزارو. وأنتم؟"
"من البحر المقابل. من أمالفي[1]."
"ألستم من تارانتيلو[2]؟"
"وأفخر بذلك"

ومن صوتها يشعر المرء أنها تفخر بموطنها. وتعطي المرأة الانطباع بأن قامتها قد امتدت أكثر، حينا رفعت رأسها بحركة واثقة إلى الوراء.

وبدءا بالضحك.

"اللعنة عليه!" يصيح الشيخ ملاحظاً آثار الطين الذي جف على طرف العربة.
"لا تستطيعون العودة إلى المنزل على هذه الشاكلة، أليس كذلك؟ لن تكون أمه سعيدة. هل هي ابنتكم؟"

---

١. Amalfi
٢. Tarantelo

"لا سمح الله! إنها زوجة ابني. فلتجرّب أن تستفزّني."

قالها بصوت فظ جعل المرأة تتوقف للحظة تتفرّس بالشيخ. 'إنه رجل بعيد كل البعد عن مجرد جدٍّ مسالم!'، وصلت إلى تلك النتيجة.
"انتبه أيها الصغير!"، قالتها برقة محررة شعرها من الأيادي الصغيرة الفضولية. "هل ترَوْن، إنه يريد أن يلعب معي."
"من لا يريد ذلك."

وتضحك المرأة مسرورة. 'إنه بعيد جداً عن مجرّد جدّ مسالم.'
"صبيٌ جميل الطلعة!"، قالتها وأرجعت الطفل إلى عربته. "ما اسمه؟"
"برونيتينو ... وأنتم؟"
"أورتنسيا[١]."

وترك الشيخ اسمها يذوب على لسانه وأردف:
"اسمي سالفاتوره."

ويفكر هنيهة قصيرة ثم يضيف:
"ولكن ادعوني من فضلكم برونو ...، قولوا لي، هل تأتون عادة إلى هذه الحديقة؟"

---

١. Hortensia: اسم علم. نوع من زهور الزينة.

٢٠

’الى روما ، إلى روما ، أندريا ، إلى روما‘

بهذه الأهزوجة المرحة أفاق الشيخ صباح اليوم. إنه ينغّمها بلا انقطاع أثناء انشغاله في وضع القهوة على النار. ’على النار؟ ! مزحة جيدة‘ ، قال لنفسه مقارناً نار مَوقده في الريف ، حيث يرقص الشرر ، مع الأسلاك الكهربائية الحمراء التي تتوهّج وتشعّ.

’لن تذهب لتزور الإتروسكيين ، بالطبع لا . إنهم لا يعجبونها . إنها من الحزب الآخر . من حزب أهل روما ، حزب موسوليني . هذا من سوء حظها . المهم أنها ستغيب لبضعة أيام ! وها نحن أحرار . هذه هي الكلمة الصحيحة : أحرار . إنه أمر لا يصدّق . مجرد وجودها ينشر التوتّر ، وكأنها عناصر من الشرطة تحيط بالمكان ، حتى ولو كانت دائماً مختفية وراء مجلّداتها . آه من النساء ! باستثناء الجنس لا يجلبن إلا المشاكل .

أعطت أندريا البارحة زوجها لائحة تعليمات عليه اتباعها في قيادة شؤون المنزل ، وكررت تفاصيلها لتكون على ثقة من تقيده بها . والآن وخلال بضع ساعات سيرافقها ريناتو وقت الظهر إلى المطار . ما أحلى ذلك .

تصل أنونزياتا . وتستعرض أندريا اللائحة معها أيضاً وهنا يستغل الجد الفرصة ليقوم بنزهة على الأقدام. دون برونيتينو هذه المرة وبسبب البرد . ويسمع الجد أندريا وهي تقول لأنونزياتا أن في استطاعة الأخيرة الاستعانة ببنت أختها عند اللزوم. ’سيمونيتّا !‘ ، يمر الاسم في رأسه. إنه ليوم ذو بداية جيدة. حتى روسكا تتصرّف بشكل مسالم.

ويحث السير . يقابل في شارع فينيسيا[١] فاليريو . ويقص الطالب عليه حكاية عمله في مصلحة الطرق في البلدية بعدما أنهى قصّ الأشجار ، وأن هذا سيستمر لعدة أسابيع

١. Corso Venezia

لتحضير إضاءة الشوارع بما يتناسب مع احتفال عيد الميلاد القادم. لقد انتقد نائب من المعارضة البلديةَ في أنها تهمل بعض الأحياء، وبناء عليه فقد أمر المحافظ بتعليق اللمبات الملونة فوراً في بعض ساحات أحياء أطراف المدينة. سيساعد فاليريو في تركيب اللمبات بدءاً من ساحة كاربوناري[١] حتى ساحة لوغانو[٢]. "وبعد ذلك تأتي النهاية، وسأضطر أن أجد لنفسي عملاً مرة أخرى. إلا في حالة ..."، يقول الشاب متردداً، "مساعدتكم لي. لقد كنت أفكر في الذهاب إليكم."

اندهش الشيخ من كلامه وترك الشاب يطلعه على الأمر التالي: قبل بضعة أيام تعرّض الشاب ضمن حديثه مع البروفسور المعروف بوونكونتوني[٣]، بروفسور القوميات والتطور البشري، إلى الشيخ ذاته. "لقد قال لي البروفسور: أريد يا فيرليني التعرّف إلى هذا الرجل. لم أزر منطقة السيلا[٤] منذ الوقت [البعيد] الذي أمضيته هناك في تتبع الخَلَف الألباني الذي أتى أصلاً إلى هذه البلاد في العصور الوسطى وما زال يحافظ على تقاليده الإغريقية القديمة. إن منطقة السيلا لم تتعرض لمتغيرات جدية، لذلك سيستطيع صديقكم أن يمدّنا بمعلومات قيّمة. اصطحبوه معكم إلى جلساتنا الدراسية."

استمع الشيخ إلى كل هذا ولكن لم يفهم شيئاً. ويتكلم فاليريو مضيفاً أن الأرشيف السمعي يخصص أموالاً لدفعها على تمويل التسجيلات، وبذلك سيستطيع فاليريو أن يحصل على مكان عمل مدفوع بصفة مساعد وسيتلقى المتعاونون في هذا المشروع مقابلاً مالياً يومياً.

"ما معنى "متعاون"؟" يرد عليه الشيخ متأذياً. "ما هو الدور الذي سيعطونه لي؟ إنك تخطئ في تقديرك لي أيها الشاب. لم يكن المال بالنسبة لي..."

يقاطعه فاليريو.

---

١. Piazza Carbonari

٢. Piazza Lugano

٣. Buoncontoni

٤. جبال في منطقة كالابريا.

"لم أقصد أن الهدف مادي. إنهم يدفعون مبالغ زهيدة! هو الخوف على التاريخ من الضياع، والحفاظ على التقاليد ... حكايات، أغانٍ، أمثال، عادات، زفاف، جنازات. كل هذا آيل إلى النسيان، تاريخنا، كياننا ..."

"تاريخي أنا"، يكرر الشيخ شارد الذهن. صحيح، إن الماضي في زوال. حتى النساء يقذفن بملابسهن التقليدية القديمة إلى القمامة.

"ألا ترغبون في الحديث عن ذلك يا سيد رونكونه؟ إن هذا سيسليكم وسيوفر لي فرصة عمل. قومو بهذا من أجلي!"

إنه يريد بكل سرور مساعدة فاليريو. نعم. وقد يكون الأمر مسلياً بالفعل. ولكن ...

"ومن سيحضر هذه الجلسات؟"

"مجموعتنا الدراسية فقط لا غير. بالإضافة إلى دعوة أستاذ في التاريخ أو أستاذ في الفلسفة." ويبتسم المسن. هذا الأمر يعجبه. سيكون في إمكانه أن يقصّ كل شيء على جهابذة الكتب الذين يشبهون أندريا، وأن يروي حتى النكات التي يتداولها أصدقاؤه. وسيدهشون من سماع ولو بعض منها فقط كقصة مورّودينترو[1] أو قصة ماتيّ[2] –لترقد روحه بسلام. إن فئران الورق هؤلاء لا يفقهون شيئاً من الحياة الواقعية. والأمر الآخر أن أندريا لن تصدق أن سلفاتوره يتحدث بحضرة الأساتذة في صرح الجامعة. 'نعم، لقد سمعتِ بشكل واضح أنني، سلفاتوره الراعي القادم من روكاّسيرا، أقف على المنصة. ألا تصدقيني؟ اسأليهم إذاً بنفسك. يمكن أن آتيك بصورة فوتوغرافية...' هذا رائع! وعدا عن ذلك فإن حديثه سيدَوَّن في كتب الحوليّات التي سيمكن لبرونيتينو الاطلاع عليها دائماً.

"هل يفترض أن أقص أيضاً عن حياتي [الشخصية]، عن الحرب؟"

"بالتأكيد. إنه قراركم وحدكم. تستطيعون اختيار ما تشاؤون!"

"اتفقنا. ولكن توقف ... أريد يوماً لأجرّب فيه، لأنني سأتخلى عن الموضوع برمّته

---

١. Morrodentro

٢. Mattei

في حال لم يعجبني الجو. أنت تعجبني، ولكن هل ستعجبني البقية؟ يجب أن أتريث. لا أستطيع الكلام إلا مع من أحب من الأصدقاء."

"سيعجبونكم، لا أشك في ذلك! البروفسور بوونكونتوني شخص مدهش، أما الدكتورة روسّي[1] فلا تسل. لم تحصل بعد على الأستاذية مع أنها قدبلغت الأربعين[2]، وذلك بسبب عدم وجود كرسي لعلم الميثولوجيا [الأساطير]. لقد أثبتت نفسها في هذا الاختصاص."

"ميثو ... ماذا؟"

"ميثولوجيا. القصص الغابرة. ستتعرفون على ذلك."

'آه، وهناك امرأة أيضاً. أرجو ألا تكون شبيهة بأندريا'، تحدّث الشيخ إلى نفسه في أثناء توجههما إلى البار الذي سيحتفلون فيه باتفاقهم. وسيبدأ العمل بعد عطلة الميلاد، لهذا تمنيا أحدهما للآخر في نهاية اللقاء ميلاداً مجيداً.

لقد بدأ اليوم بداية جيدة ويستمر بهذا المعنى، إذ ينقل له بواب البناء حين عاد إلى المنزل رسالة من ابنته روزيتّا مليئة بالتفاصيل ومثقلة بأمور ثانوية ليس لها أول من آخر. وها هو يريد أن يتوقف عن القراءة عندما لفت نظره خبر جلل. 'هذه هي ابنتي، دون عقل. كان عليها أن تبدأ بهذا النبأ، بل أن تكتبه بأحرف كبيرة سميكة!' لقد أصبح وضع كانتانوتّه حرجاً.

ويقرأ هذا السطر مرة أخرى. هو بالفعل كذلك. عدوه كانتانوتّه يقترب من القبر، وقريباً سيصبح تحت التراب. لقد توقفوا عن إخراجه على كرسيه المتحرك من البيت، ولا حتى إلى الكنيسة. يا سلام! تقول روزيتا إنه لم يعد يستطيع تحريك يديه، يهلوس في الكلام ويفعلها باستمرار في سرواله.

---

١. Dottoressa Rossi

٢. يُفهم من السياق إما أن المرء لا يستطيع في إيطالية أن يصبح بروفسوراً قبل الأربعين أو أن عمر الأربعين هو عمر متأخر للحصول على الأستاذية.

يدخل من باب الشقة مسرعاً إلى المطبخ. يلتقي بأونزياتا وحيدة : برونيتينو نائم والاثنان قد انطلقا إلى المطار.

"إنه ينازع، ابن العاهرة يواجه حتفه!"

"يا إلهي! ما هذه الكلمات التي تتفوهون بها؟"، تنتفض أونزياتا من الفزع.

"لا شيء. أنتم لا تعرفونه. إن حالته تسوء وهو يحتضر!"

وتطلب أونزياتا الصفح من رب العالمين للشيخ الذي يتمنى الموت لشخص آخر. أما هو فقد ذهب إلى غرفته فأخرج كيس البلاستيك /مستودع أغذيته/ من مخبئه، واصطفى جبناً زكياً وحبة من البصل. عاد إلى المطبخ وبدأ يأكل من الشيئين على التوالي ويرفق ذلك بجرعات من نبيذ أحمر قوي. وهنا تحذره أونزياتا من المبالغة في الشرب.

"لتذهب روسكا إلى الشيطان. اليوم يوم عيد!" يجيبها الشيخ بكلمات زادت من تقزز المرأة المسكينة. وبينما كان مستمتعاً بوليمته، بدأ الطفل بـ "الثغاء". يترك الشيخ كل شيء ويركض إلى غرفة الطفل. يرفع برونيتينو يديه إلى جده الذي يرفعه من سريره ويضمه إليه.

"إنه يموت يا برونيتينو، إنه يموت! ابن الكلب يشهد نهايته. هل تفهم معنى ذلك؟ سأستطيع العودة إلى روكّاسيرا وستأتي أنت معي. سنأكل هناك خبزاً حقيقياً ولحم ضأن على أصوله. وستشرب النبيذ كما يشربه الرجال! ولكن لا تكثر منه! مرّغ إصبعك في نبيذ كأسي والعقه. إنه يموت يا صغيري، يموت قبلي."

ويصفّق الصغير بيديه فرحاً، جاعلاً جده في قمة السعادة.

"تماماً. إنك مسرور مثلي! أنا وأنت من نسيج واحد! انظر إلى جدك! يحتاجون إليه حتى في الجامعة : إنه ينتصر على الجميع. ستصعد معي إلى الجبل وستتعرف إلى رجال حقيقيين جُبِلوا من تلك الأرض الطيبة : سارينو، بيكّوليتي، زامبا[1] ...،

١. Sareno ; Piccolitti ; Zampa

وستكبر لتصبح مثلهم."

وفي الحقيقة فإن كل هؤلاء في عداد الموتى، ولكن الشيخ لا يأبه الآن لعدّاد الزمن. إنه يدبك، والطفل على ساعده، إيقاعاتٍ مغرقة في القدم ويستسلم للرقص مغنياً في سرّه انتصارات برونيتينو المستقبلية. وتدريجياً ينبت صوته وكأنه صوت كاهن، ويدور حول نفسه كما الدراويش. ويضحك الطفل ويصرخ من الفرح. إنه يدور كما تدور الكواكب ويصبح رياحاً وجبالاً، قرباناً وشاماناً[1]. إنه يرقص في وسط الغابة، في ضوء النار التي أشعلها السَحَرة، يتقبّل مباركة النجوم ويرافقه عويل الذئاب الآتي من بعيد. الذئاب التي تخاف من برونو وحفيده فتنأى بنفسها عن الاقتراب منهما. من برونو وحفيده القويين اللذين لا يمكن هزيمتهما، من مشعلَي الأرض وسيّدَي الحياة.

١. كاهن وساحر (وطبيب) عند الشعوب البدائية التي تؤلّه ظواهر الطبيعة.

٢١

ذهبت أنونزياتا إلى بيتها بعدما انتهت من حمّام الطفل. إنه نائم الآن، ويُسمع صوت تنفسه في غرفته التي يعمها الهدوء والظلام، ظلام لا يمنع من رؤية وجهه الذي يتألق كما يتألق الصدف.

يجلس المسنّ على الأرضية ويستمتع بهذا العالم [الجميل]. إنه "يرعى" هذا الحلم كما كان يرعى خرفانه، غارقاً في كمالٍ تشوبه الوحدة، وفي سلسلة لحيظات أبدية متتابعة. 'إنني أحسّ بالحياة تمرّ من جانبي'، قد يكون هذا لسان حاله إذا ما حاول صياغة أفكاره.

وبدون أن يلاحظ ذلك تسلل الليل ليحلّ الظلام. أشعل اللمبة الصغيرة الحمراء. لم يكن ريناتو قد عاد بعد من المطار. لم يحدث أبداً أن عاد في مثل هذه الساعة المتأخرة. هل حصل له مكروه؟ لا يشكو الشيخ من قلة الوقت، إنه يكفيه ليفعل كل شيء: لقد اهتمّ بالطفل إلى أن استغرق في النوم، ولقد حضّر مفاجآته. وماذا عن ريناتو...؟

وأخيراً سمع المفتاح يداعب القفل! إنها أصوات مألوفة وخطوات حذرة ودخول هادئ. يظهر ريناتو ويقبّل ابنه برفق ثم يتراجع مع الشيخ الذي نهض خارجين معاً إلى الممر.

"مرحباً يا أبي! هل عذّبكم الطفل؟"

"عذّبني؟ إنه حقيقة ملاك!"

ويعتذر ريناتو عن التأخير بسبب تأجيل إقلاع الطائرة. ثم يختم بقوله:

"لنرَ ماذا أعدّت لنا أنونزياتا من طعام."

لقد كانت تعليمات أندريا الكتابية واضحة في وجوب تحضير الطعام جاهزاً تماماً،

يحتاج فقط للتسخين.

"لتذهب أنونزياتا إلى الجحيم!"، يصيح الشيخ وقد أصبح في مدخل المطبخ. "سنأكل اليوم طعاماً رجالياً بحتاً!"

ويتفحص ريناتو وجه أبيه: جنّيٌّ من الريف ذو ابتسامةٍ من يفهم معنى المتعة. ماذا يخبّئ في جعبته؟ أرى كيف تمتلئ هاتان العينان الصغيرتان المحاطتان بالتجاعيد المتكاثرة فجأة بالحياة! وينقلب حزيناً عندما تمرق بغتة فكرة أن غياب أندريا يجلب للكهل السعادة. هذا يحزّ في نفسه، ولكنها شخصية والده: لا يقبل أبداً أن يتدخل الآخرون بشؤونه. لقد كان هذا أيضاً رد فعله تجاهها حين التقاها للمرة الأولى في ميلانو.

ويبتهج ريناتو وتنقشع عنه هذه الغمامة عندما يعلم بالنبأ الذي أسعد أباه: كانتانوتّه مشرف على النهاية! هذا ما يسرده أبوه منشغلاً بتحضير الطاولة مصراً على ألاّ يساعده ريناتو في توزيع الصحون والأدوات. ويبدو ريناتو الآن أكثر استرخاء وبخاصة عندما ميّز الرائحة إياها. إنها رائحة مألوفة ومحبوبة، تعود به إلى أزمان ماضية ولكنه لا يستطيع تسميتها ... ويراه الشيخ ممعناً في استنشامها.
"ألا تتعرّف عليها؟"
ويعلن الجدّ فجأة:
"قطع الخبز المحمّصة"
"قطع الخبز؟"
"نعم وماذا ظننت غير ذلك! شكراً لله أنك لم تنس كل شيء. لم أستطع أن أحضّرها كما كان يفعل أمبروزيو – لا أحد يتفوّق عليه في ذلك، ولكنها هي ذاتها التي كنا نأكلها دائماً في الجبال. وحتى الفازيليكو[1] لا ينقصها. لقد وجدته عند المرأة التارنتينيّة. عند مادالينا تجدُ كل شيء تحتاجه."

---

١. Vasilico: حبق.

"ألا تكثرون من زيارة تلك المرأة يا أبي؟"
"لقد تقدمتُ في السن للأسف وآتي متأخراً !" ، يلوّح الشيخ بيده نافياً . ولكنه سعيد بمناكفة ابنه له الشيء الذي يبيّن مشاركة ريناتو له في مزاجه المرح إذ يقول :
"وعدا عن ذلك :

. .... U Signura manda viscotte a cui ‹on ava denti

هل ما زلت تتذكّر لهجتنا ؟"
"هل عندكم أسنان مستعدة لتقضم هذا البسكوت؟" يجيب ريناتو [الإجابة الصحيحة] مصَعِّداً بذلك فرح الجدّ الذي يضع توّاً في وسط الطاولة مقلاةً مملوءة بالخبز المحمّص في الفرن.

وتُفتح على الفور أمام أعين ريناتو بوابة من الذكريات فيرى الريف والرعيان وحرج الكستناء وموقد الخشب، والأغاني ، ومشاكسة الأطفال ويد الأم الرؤوم. نعم، يتذكر يد الأم بالرغم من أن الأيدي التي تخدمه الآن هي يدا الأب المنتفختان المليئتان بالعقد . 'أبي يخدمُني' ، يتفكّر ريناتو في هذه الصورة غير الاعتيادية بينما تعترض عينيه غشاوة قاتمة للحظة. هي ليست البخار المتصاعد من طبق الأكل، إنما طفولته كلها مكثّفة ومعروضة في صحن الطعام السحري.

يتذكّر أمه التي وقفت إلى جانبه باستمرار وضغطت عليه ليترك الحياة في الريف ويحرر نفسه من تلك العبودية، سيما أنه كان طري العود . ويتذكر في الطرف الآخر والده المسيطر كالإله، قادراً أن يكون حازماً في استعمال السوط وسمحاً في المعاملة على حد سواء . يتذكر المدرسة التي انقلبت مع مرور الوقت من طَعْم للحرية في البداية إلى نفق هروب فيما بعد . ويتذكّر قبل كل شيء الاحتفالات في المنزِل : مطبخ عامر، ضوضاء، ازدحام، بقع النبيذ [الأحمر] على غطاء الطاولة تُسوّل [للأطفال] أن يَلُكَّ المرء أصابعه فيها ليرسم إشارة الصليب على الجبين، رائحة التبغ، رائحة العرق، الضحكات، أناس كانوا يحترمون والده ويشربون في صحته. وبعد الطعام تأتي

الموسيقا ويأتي الرقص، التنانير ترتفع في الهواء وتصبح شبه النواقيس التي تجذب الأنظار إلى ما تخبئه تحتها ، الكؤوس التي تنتقل من يد إلى يد ، رجل وامرأة يختفيان بغتة ، الليالي المرصعة بالنجوم، التعب المنهك حالما ينتهي كل شيء .

"ماذا؟ لم يعد هذا الطعام يعجبك؟"

وينتقل به صوت أبيه إلى الوقت الحاضر من جديد فيبدأ بتجربة الطعام. ويعبّر وجهه عن سعادة طفولية بالمذاق [المستعاد] ، الشيء الذي رفع أباه إلى سابع سماء . يبدأ الشيخ بالضحك عالياً ويجذب زجاجة النبيذ إليه.
"ها أنت أفضل حالاً يا بنيّ!"
"ماذا عن النبيذ يا أبتاه! ألم يوصِ الطبيب. . ."
"همم! الطبيب. لا تنس أن
Dui jiriti ‹e vnu prima d›a minestra… e jetta ‹un médicu d›a finestra."[١]

'لماذا يجب على المرء أن يحرمه من الاحتفال بنصره على كاتانوتّه؟' إن ريناتو يستلذ بقطع الخبز تذوب تحت لسانه ويذكره طعمها بالماضي : المواقد في الجبال، المجتمع الرجّالي الذي يستذكرانه اليوم معاً . ففي المرّات الأولى التي صعد فيها مع أبيه إلى الجبال مارَّين بالهضاب الصيفية، انتحى به والده جانباً وانعزل عن مجتمع الرعيان ليتسلق معه جبلاً موجوداً غير بعيد عنهم. حينئذٍ أشار له إلى ذروة أخرى تظهر من خلال حرج الكستناء قائلاً : "هل ترى يا بني؟ من هناك في الأعلى يستطيع المرء أن يرى البحر ، بحر مدينة ريجيو[٢] . سيأتي اليوم الذي سنصعد فيه إلى تلك الذروة."

لم يزوراها أبداً . ومرت السنون وبدأ بالدراسة الجامعية ليس في مدينة ريجيو ، بل في نابولي[٣] ، إذ كان من الواضح أن لاشيء يربطه بمنطقة السيلا وأنه لن يستطيع العيش

١. مثل شعبي : خذ جرعتَي نبيذ قبل الطعام، وارمِ بالدواء من النافذة.
٢. Reggio
٣. Napoli

هناك. بالرغم من ذلك فقد كانت هذه الحادثة بعد ظهر يوم صيفي حار وعلى أعالي ذاك الجبل لا تنسى، إذا أصبح مشهد يد أبيه التي تشير إلى البعيد شبيهاً بالإصبع الإلهي الخلاق –في القاعة السكستينية [في الفاتيكان]– الذي يشير إلى آدم.

وهذا الذي كان في وقت ما إلهاً، تتحرك الآن جوزة حلقه حينما يميّل رأسه إلى الخلف ويفرغ كؤوس الخمر ماسحاً فمه بظهر يده. إن هذا يفاجئ ريناتو. ولكن لِمَ؟ هذا شيء معتاد في الجنوب، مع أن أباه قد بدأ بالتخلي أكثر فأكثر عن هذه العادة. حتى إنه في الوقت المنصرم أقلع عن التدخين وتعود أن يخلع جزمته بالقرب من الباب. إنه يحلق ذقنه يومياً، ومنذ فترة قصيرة استحم دون أن يطلب أحد منه ذلك. لقد سمع أنونزياتا تعلّق على ذلك مازحةً: "أوه، لالاّ! السيد يتأنق أليس كذلك؟". "نعم"، أجابها أبوه. "أريد أن أموت وأنا بكامل زينتي." وقبل أيام قليلة قالت أندريا لزوجها بصدده: "إن مدينة ميلانو تهذّب نفس أبيك." ولكن ريناتو يعلم أن السبب لا يكمن في ميلانو وإنما في الصغير. إن برونيتينو يغيّر من عادات جده والشيخ مأخوذ بعاطفته تجاه حفيده. لقد أصبح هرماً، نعم. ورؤيته من الجانب تظهر أنفاً أطول من ذي قبل وذقناً أكثر ارتجافاً لهذا السكير المرح.

رجل مسنّ على حافة الموت. تصعد الدموع إلى مقلتي ريناتو وينقبض قلبه مع مرور تلك الصور أمامه. إنه ينحني أكثر باتجاه صحنه ويزدرد الملاعق الواحدة تلو الأخرى، ولا يقدر إلاّ بصعوبة على إخفاء ألمه. كيف يمكن إنهاء حياة بلّوطة عظيمة أو نسر كاسر؟ إنها حياة أبيه الذي كان في عزه كالسماء: عاصفة مستبدة، لا تعرف الاستسلام؛ لكنها أيضاً كريمة، مبدعة، طيبة القلب. لقد تمسك بهذه الحياة بقوة الدببة وعاشها بسرّائها وضرّائها. والآن يفترض أن تخمد هذه الحياة بكل بساطة؟ وبدوره يطيب للشيخ أن يرى ابنه يأكل قطع الخبز بهذه الشراهة. طبعاً، من غير الممكن أن يمتنع الإنسان السويّ عن تذوق مثل هذا الطعام. ولكن ريناتو من حيث المبدأ إنسان أكثر من مجرد سويّ. لقد كان دائماً ولداً طيباً: هذا ما يعترف به سلفاتوره عن طيبة خاطر، ولكن دون جلبة تذكر. 'إنه مختلف عني تمام الاختلاف، ياللعنة. لقد

كان دائماً ناعماً . لقد ربته أمه بهذا الاتجاه لأنه كان آخر أولادها ولأنها كانت تعلم أنها لن تنجب بعده. ولم أستطع الاهتمام بتربيته. كان الوقت صعباً جداً ، وقت الإصلاح [الزراعي] ووقت الكفاح ضد آل كانتانوتّه[١] الذين كانوا مسنودين من أصحاب الرياء في العاصمة. لم أستطع أن أتفرّغ لريناتو ، أما الآخر –فرانشيسكو[٢]– فقد هرب ببساطة لاهثاً وراء الثروة وباحثاً عن المال عند بشر مثلنا لا يملكون ما نملك. لماذا؟ وعندي أنا منزل كبير ، أرض ، حيوانات ، أحراش كستناء . . . كل ما يسرّ الناظر ويبهج القلب! وسينتقل جميع ذلك إلى هذا الثعلب الذي يسمي نفسه صهري. آه ريناتو ، ريناتو . لماذا تزوجتَ بحق الإله عود الفاصولياء تلك؟"

"اشرب يا بني ، اشرب. لم ننتهِ بعد [من الطعام] ."

"المزيد يا أبتاه ، بعد هذه الوليمة الفاخرة؟"

"لقد شويت حبات كستناء واشتريت لنا تيناً مجففاً ! لقد بحثت عن الخردل الذي كنتَ تحبّه ، ولم أجد هنا إلا ذلك الشيء من صنع ميلانو . حتى لم أجد الموستاكيولي[٣] من أجل عيد الميلاد !"

وفجأة تذكر الشيخ أمراً هاماً .

"إن عيد الميلاد على الأبواب! لا يحسّ المرء هنا في ميلانو بالأعياد ، فلا يوجد عندهم . . . ألم تعد تعرف؟ أمثال شهر كانون الأول :

Jornu ottu Maria, u tridici Lucia , u vinticincu ‹u Missia ![٤]

ما زلت تذكر؟ إن طفلكما يحتاج إلى مهد الميلاد ! أراهن بأنكما لم تفكرا بذلك؟ !"

ونتوهج عيناه من السعادة بسبب شجن الذكريات.

---

١. Cantanotti

٢. Francesco

٣. Mustaccioli : حلوى من الطحين والعسل ، منكهة بمشروب كحولي يشبه العرق. أكلة ذات أصل عربي.

٤. كلام موزون ، يتحدث عن شهر كانون الثاني (في الثامن منه عيد العذراء ، وفي الثالث عشر عيد قديسة النور ، وفي الخامس والعشرون عيد الميلاد) .

"في الماضي جلبت لكَ من الجبال الفلّين والأغصان وبعض الشجيرات من أجل صنع مهدك الخاص بك. ولقد اهتمت أمك بجلب التماثيل الصغيرة المطلوبة. وإذا لم تتهشم تلك التماثيل فلا شك أنها موجودة حتى اليوم في مكان ما من البيت. لقد كانت جدّة أمك هي من اشترتها من مدينة نابولي. وقد قامت أمك بتغميس المورينيدي[١] بالعسل، أما أنا فقمت بإحضار نبيذ الفواكه من مدينة كاتانزارو المنخفضة، لأنه كان أفضل من مثيله في الجبال. وقد فضلتَ دائماً حبات الكستناء ... نوتالا[٢]! نعم، [لنعد الى] برونيتينو الذي يحتاج إلى مهد وسأتكفل أنا بشرائه."
"أبي ...".

لقد كان ريناتو متأثراً بذكريات الكستناء [المشوية] التي كان الفتيان يحرقون أصابعهم بها عندما يرفعونها عن الجمر ليقدموها إلى الفتيات. وماذا عن تلك الغوغيتيدي[٣] التي كانوا يطبخونها بماء اليانسون! 'آه يا أبي'، يفكر في دخيلته، 'لم أصبح إلهاً مثلك، وهذه ليست غلطتي'. وتلمس اليد الشابة اليد الهرمة بكل تحفظ، كي يبتعد عن أية عاطفة قد تعتبر نوعاً من الضعف لا يقبل به الشيخ. ويرتعد ريناتو عندما يلاحظ تعابير الحزن في وجه أبيه.

"ماذا هنالك؟" [يقول ريناتو]
"Aiu ‹u scilu"[٤]، يبتسم الأب ويعترف بشجن الذكريات. ثم يردف قائلاً: "كفاية! يجب أن نبقى مرحَيْن! جرّب هذا الشراب، لقد مزجته بنفسي."
ويتعرّف ريناتو [أيضاً] على هذا المذاق: مْبيسكو[٥]– مشروب الروم مع اليانسون.

---

١. Murinedhi: حلوى تقليدية من كالابريا، عبارة عن مزيج من طحين وعسل وقرفة وسكر وزيت ونبيذ أبيض.
٢. Notala: على الأغلب تسمية "عشية الميلاد"، بلغة كالابرية محكية.
٣. Gugghieteddhi: نوع من الطعام (معجنات) يتم سلقه في الماء (بإضافة اليانسون) قبل إدخاله إلى الفرن.
٤. باللهجة الكالابرية بمعنى: "كل شيء آيل إلى زوال".
٥. Mbiscu

لقد فضل أبوه ذلك الشراب بخاصة في أيام الأعياد إلى جانب القهوة. وفهم أيضاً معنى scilu ، إذ أن الذكريات تستحوذ عليه. ولكن ما مضى قد مضى، في عالم آخر لم يكن إلا غريباً عليه. هل كان هذا إرثاً من طرف أمه؟ أم عناداً تجاه أبيه؟ 'لماذا لا يوجد تفاهم بيننا، مع أني أحبك بالفعل؟ نحن ننتمي مساء اليوم على الأقل إلى عالم واحد ونتفق اتفاقاً تاماً.'

"اليوم، هو مناسبة خاصة يا بنيّ!"، يوضح الأب بادئاً في ترتيب الطاولة.

"دعكم من ذلك يا أبي! ستأتي أنونزياتا في الغد."

"ومعها سيمونيتا، معها سيمونيتا! يا لها من فتاة! يجب ألا تعلم العجوز أنونزياتا شيئاً عن مأدبتنا، إنه احتفال جميل، صح؟ ولا شك أن صراع كانتانوتّه مع الموت يستحق ذلك."

"أما أنتم فيتحسن وضعكم الصحي يوماً بعد يوم".

وينقل الشيخ الصحون إلى المجلى دون أن يعلّق على الجملة الأخيرة. لا يحب أن يكذب. في الحقيقة، وبعد أن رقص مع برونيتينو، كاد أن ينفق من التعب. لم يعد متسلقاً للجبال كما كان في السابق. كان الصغير يصفّق بيديه مرحاً ويطالب بالمزيد، أما هو فقد أصبح مجهداً ومبللاً بالعرق. لقد كان قلبه يقفز بين أضلاعه مرفرفاً كالعصفور البري الذي يضرب قضبان القفص بجناحيه. 'يكفي يا برونو، انتباه ... لقد تجاوزتُ حدودي اليوم وطلبت من نفسي أكثر مما تستطيع أن تعطي، والآن كفى! نعم، يجب علي أن أهزم ذاك النذل وأن أعيش من بعده. وسأتمكن من هذا ولو ضحك الناس عليّ. فبرونيتينو يهديني حياة جديدة. سأتمكن من هذا وسأجلس تحت العريشة ناظراً إلى برونيتينو وهو يلعب إلى جانبي. صيفاً كاملاً على الأقل ... لحين قطاف الكستناء، ولم لا؟'

وتعطيه تلك الأفكار مدداً من الثقة قد يعزوها ريناتو في هذه اللحظة إلى شراب المبيسكو.

يدمدم الشيخ فرِحاً أنغاماً مرافقة لجلي الصحون. يساعده ريناتو وينهي معه هذا العمل

ليذهبا بعدها إلى غرفة الطفل، ينحيان باتجاهه ويراقبان استغراقه في النوم.

وعندما يخرجان إلى الممر ويريد كل منهما أن يذهب إلى غرفته، تلتقي نظراتهما ويتعانقان عناقاً قوياً يبدو مفرحاً ومحزناً في الوقت ذاته. 'عناق رفاق السلاح'، تلمع هذه الفكرة في رأس الشيخ.

وفي السرير يشتاق ريناتو إلى نوع آخر من العناق. 'كيف تكونون لي يا أبي هذه العاطفة وترفضون في الوقت ذاته زوجتي بهذا الشكل؟ من الصحيح أنها أبعدتني عن موطني، ولكن لتجعل مني شخصاً أشبه بك! رجلاً! نعم وبجسدها. ألا تفهمون هذا؟ بجسدها ذي اللحم الملتهب وبشهوتها المتفجرة وبساقيها اللذين يحاصرانني تطلب مني المزيد والمزيد، إلى أن توصلني إلى الذروة، إلى أن أقترب من الانهيار الكامل ضائعاً وشبه غائب عن الوعي! أما البقاء قربكم فلم يكن ليسمح لي أن أبلغ الرشد، لم يكن لي إلا أن أبقى ظلاً لكم. أما بالقرب منها ... إني أفتقدها الليلة. لقد أرجعتني ذكرياتي طفلاً وحيداً. إن غيابها يغيظني. ما هذا الفراغ بجانبي...!'

يغطي الشيخ نفسه بالبطانية القديمة التي ارتبطت رائحتها الآن ببرونيتينو. إنه يركض في فناء بيت القرية وراء الدجاج والقطط، بينما يضطجع الشيخ تحت عريشة العنب التي تلطّف أشعةَ الشمس وتدفئ وجهه في الوقت ذاته. وفي هذا الجو المشرق كإشراقة جبل روكّاسيرا، تحاول روسكا عبثاً، وتحت تأثير الميبسكو، أن تعيث فساداً في أحشائه وأن تشد الاهتمام إليها. بماذا تهمني روسكا؟ لا تهمني بشيء. لقد حصلت اليوم على ابني من جديد .لم ينسَ دمَه تماماً، لذلك فهو مؤهل لينضم إلى حلف مملكتنا السحرية التي غمّس الطفل إصبعه في كأسها. هذه الليلة هي ليلة الجنوب خصصتها ميلانو لهم وحدهم. لهم هم الثلاثة : جذر وجذع وزهرة شجرة رونكونه.

وعندما بدأ النوم يجذب الشيخ إلى ملكوته، ارتسمت على شفاهه النائمة ابتسامة هبطت كفراشة وحطت كفكرة تفرح القلب : 'كم هي جميلة هذه الحياة!'

٢٢

يعلو صوت أنونزياتا منزعجة أشد الانزعاج.

'الرجال! لا يمكنك تركهم وحدهم! ما لبثت السينيورا أن غابت يوماً واحداً حتى انقلب المنزل رأساً على عقب ... ما هذا الهدر! يلقون بالسمك المحضر بالصلصة والمخصص للعشاء، يلقونه في القمامة! ولا توجد صحون مستعملة، لا شك أنهم قد تناولوا طعامهم خارج البيت. إذاً، لم يكفِهم أكل أنونزياتا العجوز. يا إلهي، الرجال! من حسن حظي أنني لم أتزوج!' ويلقاها الشيخ "عرضاً". لم يرغب في سؤالها، إنما الآن لا يستطيع أن يصبر أكثر.

"ألم تخطط ابنة أختكم للقدوم معكم؟"

"هي مشغولة بتقديم فحص ما وستصل فيما بعد"، ترد عليه ثم تردف بلهجة ظاهرة الحدة: "وفي الحقيقة لا أحتاج مساعدتها."

ويختفي الشيخ في غرفته، بينما تسأل أنونزياتا نفسها عن السر الذي جعل سيمونيتا معجبة إلى هذا الحد بالشيخ، وعما حصل في ذلك اليوم الذي اضطُرّت فيه إلى الغياب وأرسلت سيمونيتا عوضاً عنها. لقد قالت سيمونيتا إن الشيخ فدائي سابق وإنه مثير للاهتمام. 'ومنذ أن تعرفت على هذا الملعون رومانو، تجد كل الشيوعيين مثيرين للاهتمام. وذلك لأن الشيخ رغم نفيها لذلك – شيوعي أفّاك، وإن كان خلاف ذلك فهو يستحق لقب الشيوعي من دون أدنى شك.'

ومن ناحية أخرى، تتفهم أنونزياتا أيضاً سبب إعجاب الفتاة بالشيخ! إنهما مصنوعان من النسيج ذاته. 'لقد أصبح من غير الممكن إنقاذها'، تفكر الخالة، 'ستكون نهايتها مؤسفة، كنهاية أبيها القادم من باليرمو[١]. لا شك أنها تمارس الجنس مع صديقها الأحمر.

١. Palermo

أما الشيخ المسكين فهو يعرف أنه سيموت قريباً ، لذلك من الواجب مسامحته ، بالرغم من أنه كان يجب عليه أن يبقى مستلقياً في كرسيه ، داعياً إلى الله . كان يجب عليه أن يبقى هادئاً تماماً عوضاً من أن يسرح ويمرح ، وأن يكون في مزاج عال . لا أن يبتعد عن الضحك ، بل المقصود هو الموقف من الحياة والتسليم بالقدر . وقد يكون المرض قد خدعه : لله في خلقه شؤون . ما أصعب أن يشيخ المرء . ! أيتها القديسة ريتا[١] ، هبيني نهاية جميلة ! طبعاً فقط عندما تحين ساعتي وليس قبل ذلك .'

يرنّ جرس الباب ، وتهرع أنونزياتا لفتحه . ولكن الشيخ كان قد سبقها عندما ظهرت في الممر . وها هي سيمونيتا تدخل وتقبل الشيخ على خديه الاثنين ، الشيء الذي يثير استنكار الخالة .

ولأن الجو كان ممطراً ، تلبس سيمونيتا البونتشو[٢] المعروف في جبال الأند التشيلية . ويظهر تحته بنطال ضيق أزرق اللون وكنزة بنفسجية بقبة عالية وأكمام طويلة . وتذكّر هذه الطلعة الشيخ بلوحة المحاربين التي رآها في المتحف ، والتي تظهر أيضاً خادماً يرتدي بنطالاً يصل إلى الركبة . ويعي فجأة أنها المرة الأولى التي لا يستهجن فيها ارتداء المرأة للسراويل .

يبدأ برونيتينو بالنحيب ، ويكون الشيخ أول الواصلين إلى سريره . ولكن سيمونيتا تتبعه كظله وتناغي الصغير . وهنا تشعر أنونزياتا أنها زائدة عن اللزوم ، وتعود إلى القيام بواجباتها . تضمه سيمونيتا إلى صدرها كما فعلت في المرة السابقة . أما هو فيتخذ ذات الوضعية ، وكأنه يتذكرها ، إذ يبتسم الابتسامة ذاتها ويبربر بالأصوات المشجعة ذاتها .

وتهبط نظرات الشيخ مستعرضة برفق قفا سيمونيتا . قاس ومدور وليس عذرياً ، شبيه بمؤخرة شاب ! وهنا يستدرك الشيخ : شبيه بمؤخرة شاب ولكنه ليس عذرياً ، وإنما

---

١. Ritta

٢. Pancho : وشاح له فتحة تنفذ منها الرقبة ، ويتميز بألوانه وبنسيجه الصوفي المقاوم للبرد .

مهيِّج[١]. 'ما هذا الذي أهذر به'، يحاور الشيخ نفسه متفاجئاً من أفكاره. 'لقد كان الأمر بالنسبة إلي واضحاً باستمرار : الأنثى أنثى ، والذكر ذكر، وما عدا ذلك لا يهم.' ويستذكر اليوم الذي بدت فيه يداه أقرب إلى يدي المرأة. هل من الممكن أن تكون واجباته الحالية في لعب دور المربية والقيام بتبكيل الأزرار وتغيير الحفاضات وما إلى هنالك، قد غيرت رجولته؟

وتلاحظ سيمونيتا نظرة سلفاتوره الذكورية متفاجئةً :
"هل أُعجبكم أيها العم برونو؟"

إن ابتسامتها ونبرة صوتها ، اللتين تتحديانه بشكل بريء ، يهدئانه لأنهما يؤكدان له أن إعجابه بها هو إعجاب ذكر بأنثى.

"دون حدود !" ينفجر قائلاً ويضحك كلاهما . وكي يغير الموضوع يسألها : "وكيف كان الامتحان، جيداً؟"
"لم يكن هناك أي امتحان."

وبعينيه يستفهم منها بعد شعوره بوجود أمر خصوصي. وتقترب سيمونيتا منه والطفل معها ، فيبتعد الشيخ قليلاً متحرجاً من المشهد الذي يتوقعه الآن وهو أن برونيتينو سيقوم بمعانقتها مذيباً جسده في جسدها . 'ولكن ممّ أتحرّج؟ اللعنة مرة أخرى، ماذا يحصل معي؟'
"لقد كذبت على خالتي"، تعترف سيمونيتا . "إني قادمة من اجتماع؛ يجب علينا تنظيم اعتصام طلابي يوم غد تضامناً مع رفاقنا الذين اعتُقلوا قبل البارحة. لا تقولوا لخالتي شيئاً ، لقد مللت مواعظها ."

ويبتسمان ابتسامة ذات معنى عندما ظهر رأس أنونزياتا من شق الباب.

"أيتها الفتاة ! إن وجودك هنا ليس للعب مع الطفل !"

---

١. بدأ سلفاتوره بتقبّل التغييرات التي طرأت على سلوك ولباس -وحتى على شكل- الفتاة الحديثة.

تعطي سيمونيتا الطفل إلى جده، ترف له بجفونها وتخرج من الغرفة.
"على الفور يا خالتي. إني فقط أنزع جزمتي."

وتذهب إلى المطبخ مرتدية جواربها السميكة كما في المرة الماضية. عندما دعت أنونزياتا لتناول الطعام، أصر الشيخ على أن يأكل معهما في المطبخ الشيء الذي أغضب أنونزياتا كثيراً. إنه يريد أن يبقى بالقرب من الفتاة بالرغم من أنها لا تستطيع استعمال طريقتها الرفاقية في الحديث في وجود أنونزياتا. هذا الخادم الذي يرتدي بنطالاً يصل إلى الركبة –سيمونيتا– يتحرك بمرح وجاذبية كما تتحرك بنات روكّاسيرا أثناء اشتراكهن في الزيّاح[١]. وتغمز له سيمونيتا أحياناً ومن خلف ظهر خالتها، حاملةً الصحون. إن قلبه الهرم ليزهر في وجود مثل شبابها وحيويتها.

وتعلق في الجو بقايا من رائحة أنثوية تؤثر إيجاباً في الاجتماع المسائي على طاولة العشاء ما بين الأب والابن، الذي سار على نفس شاكلة اليوم السابق السلمية والتوافقية. هذه الرائحة تحرك في ريناتو –دون أن يعرف السبب– شوقاً إلى أندريا وتحرك في الشيخ . . . وفي ساعات الصباح الأولى يقلّب الشيخ الأمر على كافة جوانبه باحثاً عن التفسير الذي يساعده على فهم ذاته، بينما يرقد برونيتينو بجانبه نائماً.

'قولاً واحداً يا بني وبكل بساطة : لا يمكن فهم النساء من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المفاجآت التي يجلبنها هي أجمل ما في الحياة. وسيمونيتا امرأة، حتى ولو كنتُ . . . ألا ترى معي أنني تصرفت بشكل مثير للضحك، عندما اعتقدت فعلاً أنها شاب وعندما استمرت هي رغم ذلك في إثارتي؟ إن هذا انحراف! إن مؤخرتها تشبه مؤخرة الذكور العضلية! أما نهداها . . . إنك تفهم فيهما أكثر مني ، فانا لم ألمسهما كما فعلتَ أنتَ، أليس كذلك؟ إنهما مدوران ومنتصبان، هه؟ إني أفضل الصدر الأرحب، ولكن جميع النهود جميلة. تنتظرك في الحياة أشياء بديعة! إنني أتمتع بها معك منذ الآن بمجرد التفكير فيها. لا تفكر كثيراً بل خذ من الحياة ما شئت، لكن ابق دائماً

١. Prozession : انتقال جماعي من مكان إلى آخر بقصد الاحتفال بمناسبة دينية كاثوليكية، وما يرافق ذلك من وجود تماثيل [خشبية] ورموز ولباس.

فخوراً بما تفعله : لا تخدع أحداً من جهة، ومن جهة أخرى لا تعش حياة الأرانب [الجبانة] . عندما تكون الأنثى جاهزة فتصرّفْ كما يسلك الديك مع الدجاجة. في سنك كنت أبعد الجدي عن أمه كي أضع نفسي مكانه وأستحوذ على حليبها . يعني، ليس تماماً في سنك ولكن في سن مبكرة. إذاً، لا توفّر شيئاً ، إن الأوقات الصعبة تأتي من تلقاء نفسها ، والشيء الذي يفلت منك اليوم لن تعوضه عندما تصبح في عمري. لماذا تتحرك الآن؟ نَمْ، فما زال الوقت مبكراً جداً ! ولا تبك، وإلا سيعرفون مكان حراستي. والآن ماذا تفعل؟ تريد أن تتسلق حافة السرير؟ لا تفعل، وإلا ستقع على رأسك. لقد كبرتَ تماماً وأصبحت تفهمني بشكل ممتاز. وما دمت تصرّ على النزول إلى الأرض فافعل ذلك ووجهك موجه إلى السرير. هكذا تماماً ، الساقان أولاً ومن ثم القدمان إلى الأرض واليدان تمسكان الحافة بقوة. وبكل هدوء. تتشوق إلى اليوم الذي تستطيع فيه الوقوف على قدميك دون مساعدة أحد، أليس كذلك يا ملاكي؟ انظر ! إذا تركت الحافة من يديك فستسقط على مؤخرتك. لا، لا ! لا تبك. تعال إليّ واستلق هنا بين يديّ. سأرفعك فيما بعد إلى سريرك. يكفي الآن، أما غداً فستتمكن من الاستمرار في اكتشاف الدنيا . هذا حسن. أغمض عينيك الصغيرتين وابق ساكناً . نعم، نعم. إنك ظريف وقوي وناعم وصبيّ وكبير وكل شيء . إنك فؤاد برونو الهرِم!‘

٢٣

هذا عادي بالنسبة لميلانو ، المدينة التي لا أمان لها !'

لقد طفح كيله. كانت سماء هذه المدينة عادية، ولهذا فقد ابتعد قليلاً عن مسار جولاته [في الجوار] . لقد تلبدت السماء فجأة. 'هذه هي الريح الباردة التي تأتي من ناحية البحيرات –كما يُقال هنا– ! يا لها من بحيرات! وأين هي من بحيراتنا[١] !'

ويحث السير محاولاً اختصار الطريق عبر شوارع غير معروفة لديه، ولكن الوقت لم يلبث أن داهمه. وبالرغم من أن المطر لا يزعجه في شيء ، إلا أنه في هذه المرة كان غزيراً بشكل أجبره على أن يلجأ إلى أحد مداخل البنايات المفتوحة مصادفة ليحتمي داخلها . ويقرأ لوحة الشارع المكتوبة على ناصية الرصيف المقابل : شارع بورغوسبيسّو[٢] . ألا يعني له هذا الاسم شيئاً ؟

وتمر بضع دقائق [وهو على هذه الحال] . يُفتح باب المصعد الموجود في آخر الممر وتخرج منه سيدة. تشاهد السيدة سلفاتوره وهي تهم بفتح مظلتها . تتوقف وتبتسم:

"هذا أنتم؟ صباح الخير ! هل كنتم تقصدونني أم أن المطر هو السبب؟"

ويُسعد الشيخ بلقياها راداً التحية. لقد فكر كثيرا في السينيورا أورتنسيا : في قوامها الممشوق، في تصميمها على مساعدة الصغير، في عينيها الفاتحتين على خلفية شعرها الأسود . وفقط الآن ربط اسم الشارع بعنوانها الذي أعطته إيّاه !

"والبنطال مرة أخرى . . . !" تضحك. "هذه المرة الماء لا الوسخ. إنكم مبتّلون تماماً . ألا تشعرون بالبرد؟"

---

١. Arvo و Ampollino

٢. Via Borgospesso

"إني متعود على ذلك. أما البرد، فكيف يمكن للمرء أن يبرد تحت نظراتكم [الدافئة]؟"، يجيب الشيخ بينما تكثر التجاعيد حول عينيه [الخبيثتين].

وتضحك أورتنسيا من جديد. 'إنها تضحك من كل قلبها'، يلاحظ سلفاتوره ويعجب بصدرها العامر.

"ماذا أفعل بكم يا رجال كالابريا؟ ! كيف حال برونيتينو؟"

ويُسَرّ الشيخ بهذا السؤال.

"الحمد لله أني لم آخذه معي. عنده إسهال. قديكون قد أخذ برداً."

"أنتم الذين ستصابون بالبرد إذا ما بقيتم في مكانكم. تعالوا معي. سنصعد إلى شقتي. يجب أن تستدفئوا وتشربوا كأساً. إنه الوقت المناسب تماماً لذلك. تعالوا معي!"

ويرافقها الشيخ إلى المصعد مشرئب الصدر. ويمضون إلى ملحق[1] البناء.

هناك [في الشقة] تنتظره مفاجأة قوية. لقد تغيّر المشهد كلياً. كل الأشياء موضوعة كي يستمتع المرء بها وليست لمجرد العرض. وما إن دخل سلفاتوره حتى حياه على مستوى القامة رسم يمثّل خليج نابولي. في خلفية الرسم تضطجع فينوس بسلاسة تذكّر أنه لا دخان بلا نار، وبأن وراء ذلك الاسترخاء نار موقدة. كان النظر إلى ذلك الرسم كافياً لأن يشعر سالفاتوره نفسه في دياره في الجنوب. وكان تأثره أكبر عندما دخل إلى غرفة المعيشة والطعام الصغيرة التي تنضح بالضياء، بغض النظر عن لون السماء الكالح. وها هي نباتات منتقاة بعناية تزيّن البلكون الصغير وحافات النوافذ المطلة على جهتين، وها هو منظر أسطحة ميلانو ومشهد كاتدرائيتها التي ينتصب على أعلى أبراجها تمثال للعذراء[2]. وسرح بمخيلته متصوراً هذه الشقة كعش مبني في العلاء، كملاذ دافئ مشرف على المدينة العدائية، لا يمكن حتى للمطر الذي يضرب على الزجاج أن يقف في مواجهته. ويعتري نفس سلفاتوره شعور بالأمان، أمان شعر

١. في سورية يشكل "الملحق" أعلى شقة في البناء.
٢. Madonnanina

به عندما كان فدائياً هارباً وعندما كان يلتقي أثناء الحرب بضابط ارتباط يصطحبه إلى مخبأ يستطيع فيه أن يسقط على السرير متحرراً من توتر الكفاح المسلح.

هكذا كان إحساسه عندما أجلسته أورتنسيا في مقعد مريح، وعندما لف ساقيه العاريتين غطاء دافئ. لم تعطه تلك البطانية الشعور أنه مسنّ أو مريض، إنما أعطته الإحساس أنه الآن مركز للعناية الأنثوية. وفوق ذلك تكوي له أورتنسيا بنطاله كي يجف وتصنع بذلك بينها وبينه جواً من الألفة.

وفيما بعد، عندما جلس بكامل ملابسه، تذوق الغرابّا[1] الكريستالية الرائعة، ذات المنظر الشفاف في الكأس وذات المذاق الحارق في الحنجرة. وتناول إلى جانبها أيضاً شرحات من اللحم المدخّن، الذي حوّلته بإضافة قليل من الثوم إلى لحم مقدد على طريقة أهل الجنوب. 'إنها تقرأ أفكاري.'

نعم، إنها تقرأ أفكاره، تدخل إلى أعماقه، تسبقه مرة تلو الأخرى في صياغتها أثناء محادثتهما التي تقوم على خلفية مطر غزير، يُصدر صوتاً يشبه صوت ماء نبعة القرية. تعرّضا لأمور البلد ولمسائل الحياة. وما هذا التصوير؟ إنه موطن أورتنسيا أمالفي[2] : الجمال الطبيعي للطريق المؤدية في الأعلى إلى دير الرهبان الكاثوليك، البحر في الأسفل، الماء الفوّار المتواجد في المهبط الصخري المؤدي إلى الشاطئ. وآلة الماندولين؟ إنها لزوجها [المرحوم] الذي كان عازفاً ماهراً رافقته زوجته بالغناء. أغانٍ نابوليتانية بالطبع! لقد كان صوت أورتنسيا في صباها جميلاً.

"صِبا؟" علّق سلفاتوره. "لقد كان ذلك إذاً بالأمس القريب."

وتشكره أورتنسيا على إطرائه وتستمر في الشرح. تلك الصور الفوتوغرافية هي صور زوجها المتوفى : الأولى تظهره بلباس البحرية، الثانية مرتدياً قبعة قش ذات شرائط ...

---

١. Grappa : مشروب أبيض عالي الكحول.

٢. Amalfi

"بالتأكيد. لقد كان توماسّو[١] صاحب جندول[٢]. حصل على مال وفير من جراء عزفه على الماندولين أمام السائحات الأمريكيات! هل تستطيعون فهم المزيج الحاصل ما بيني وبينه، ما بين فينيسيا وأمالفي؟!"

'الظاهر من حديثها عنه أنهما قد عاشا في تفاهم'، كوّن سلفاتوره لنفسه هذا الانطباع أثناء استماعه لحديث أورتنسيا. 'هذا مع العلم أني أظنه شخصاً متعجرفاً. وهذا ليس عجيباً. إن لأصحاب الجندول نهجاً مستسهِلاً في الحياة، نهج لصوصية[٣]. من ناحية أخرى، لماذا لم تقل توماسو خاصتي؟ ولكن لا أريد أن أفكر بسلبية عنه. لقد حارب على الأقل في البحرية. أي أنه إذاً من الرفاق.'

ما زالت السماء تمطر وها هي تدعوه بكل عفوية إلى الطعام بشكل لا يمكن الرفض معه، ناهيك عن أنه لم يكن يفكر بالرفض مطلقاً. وأضف إلى ذلك أن المرأة كانت قد طلبت منه أصلاً رقم هاتف ابنه وهي تتصل الآن لتخبر من في البيت بأن السيد رونكونه لن يأتي إلى موعد طعام الغداء.

إنها سيدة منزل معتبرة، لم تحتَجْ إلا لغمضة عين كي تجلب إلى الطاولة معجنات رائعة. هل يشعر بارتياح عظيم عندها بحيث لم يشعر بمرور الوقت؟
"نسمي هذا الصحن في كاتنزارو بالصحن الأول[٤]"، يعلق سلفاتوره مكيلاً المديح إلى صحن المعجنات التي تُقرط تحت الأسنان[٥] وإلى صلصة آل سوغو[٦].
"لا يوجد عندي للأسف صحن ثان"، تعتذر أورتنسيا. "يمكن أن أحضر المزيد من اللحم المدخن –إذا رغبتم في ذلك– وأن أحضر الجبن والفواكه والقهوة. ليس عندي أكثر من ذلك كي أقدّمه."

---

١. Tomasso

٢. Gondoliere صاحب مركب مخصص للنزهة وللنقل الشخصي.

٣. malavitoso

٤. primo

٥. Al dente نصف استواء.

٦. Al sugo مرق البندورة مع اللحمة المفرومة.

وكان الجبن الجنوبي ممتازاً، والقهوة لا يُعلى عليها. "قهوة قوية وساخنة مثلكم."
"والمرار في القهوة؟"، تحاول استفزازه.
"أنتم و"مرار"؟ مع كل احترامي [هذا لا يجوز]"، يقول سلفاتوره متحفزاً ويردف:
"ماذا ننتظر؟ لنتخلَّ عن الصيغة الرسمية. إننا أهل منطقة واحدة."
"أمالفي وكالابريا؟ بيننا تفصل الجبال[1]."
"يمكن للإنسان أن يطوّع الجبال."
'وخاصة عندما يكون الهدف هذا العشّ'، يفكر في دخيلته.
إنه كابن بارّ لمنطقة كالابريا يحتقر أهل نابولي وطريقتهم "الخفيفة" في العيش. ولكن أورتنسيا شيء آخر. ومن ناحية أخرى، ألا تقع أمالفي خارج خليج [نابولي]؟ ويهدأ هطول المطر بشكل تدريجي، ولكنهما لا يلاحظان ذلك. هنا في الداخل عالم آخر. وتستمر المحادثة في انسيابها إلى أن يغلب على سلفاتوره النعاس تدريجياً دون أن تعترض هي على ذلك. إنها فقط غفوة قصيرة.

وقبل أن يسيطر عالم النوم عليه، يفكر سلفاتوره في برونيتينو. يفكر في الأمان الذي يشعر هو فيه الآن جالساً على مقعد أورتنسيا، ويظن أنه مشابه للأمان الذي يحس فيه برونيتينو وهو موجود في حضن جده. وهذا سبب الابتسامة السعيدة التي ترتسم على الخدود الصغيرة الوردية.

تجلس أورتنسيا قبالته واضعة يديها في حجرها ومراقبةً سلفاتوره الذي أمالت الغفوة رأسه إلى الجنب. يشع من عيني أورتنسيا شعور عاطفة عميقة تجاه هذا الرجل، ويلمع في قلبها شجن لا
لم يكن بإمكان سلفاتوره أن يرى لا نظرة أورتنسيا ولا ابتسامتها، إذ أنه كان يغطّ في النوم. ولكنه بعد ساعة من الزمن، حين أصبح على الطريق باتجاه جادة بيافه [عنوان منزله] وحين بدأت الغيوم تنزاح ببطء عن سطح السماء الرصاصي، ارتسمت على عينيه، دون أن يعي ذلك، العاطفة ذاتها ولفَّ قلبه الشجن ذاته.

١. انظر/انظري الخريطة في آخر هذا الكتاب.

٢٤

كلٌّ من أنونزياتا والشيخ يطل برأسه من باب مختلف ناظراً إلى المدخل، إذ يُسمع صوت المفتاح يدور بالقفل. وتدخل أندريا يتبعها ريناتو الذي استقبلها في المطار.

أندريا تحييهما ملقية عليهما نظرة فاحصة. وكان أول ما فعلته هو المرور على غرفة الصغير وطبع قبلة سريعة. 'ما كانت السيدة أورتنسيا لتقبّله بهذه البرودة ولو كان سببها الحرص على عدم إيقاظ الطفل'، عبرت هذه الفكرة رأس الشيخ بينما قامت أندريا بحملة تفتيشية في الحجرة: لم يكن جهاز التسخين الصغير في مكانه –عن يمين طاولة تغيير الحفاضات–، لذلك اضطرّت لوضعه في الجهة الصحيحة. نكّست أنونزياتا رأسها بشكل غير لافت للنظر، لقد أحست بالذنب لأن هذه التفصيلة قد فاتتها.
"ألا تريدين أن تخلعي معطفك؟"، يسألها ريناتو بصوت حنون.

فقط في هذه اللحظة تقبل أندريا مساعدة زوجها متنازلة له عن معطفها، وكأن لسان حالها يقول: 'الآن لا بأس'، ويأخذ ريناتو المعطف ليعلقه في مكانه.

وتستمر أندريا في حملتها التفتيشية الدقيقة مستثنية غرفة الشيخ، إذ ألقت عليها نظرة سطحية واقفة بالباب. "حسن، حسن" كان أخيراً رد فعلها. "ما أجمل الرجوع إلى البيت." ثم بدأت بالرد على الأسئلة التي طرحتها أنونزياتا بكل تبجيل. "نعم. لقد كانت رحلة موفقة جداً، وكان انطباعي ممتازاً فيما يخص الوزارة. كان عند "بابا" أصدقاء عديدون! هذا غير أصدقاء [العم] دانيله الحاليين!". وفي المطبخ تفتح أندريا باب الثلاجة وتراقب ما بداخله. "جيد جداً يا أنونزياتا. ممتاز"، تقول قولها وتتبادل مع أنونزياتا نظرات تآمرية، عندما تشاهد في داخلها نصف قالب من الخبز

الأسود [عائد للشيخ]. وقبل عدة أيام كانت هذه الرقابة لتخرجه عن طوره، أما الآن وبعد أن عاش أوقات الحرية أثناء العشاءات اللطيفة الفائتة، يستطيع أن يغض النظر عن زلّاتها.

وبعد أن ألقت نظرة سريعة من النافذة على ناطحتي السحاب، على المسلّات العظيمة الحديثة، تذهب إلى طاولة عملها. تقف عند الأوراق ولعلها تقول في نفسها برفق أخيراً وصلتُ إلى شاطئ الأمان. "ما هذا؟!"، تشير [بإصبعها] إلى الزاوية سائلة بحدة وعلى حين غرة. هناك في الزاوية رتب الشيخ بالأمس مهداً صغيراً رفعه على منصب خاص.
"من المؤكد أنك ترَيْن ما هو"، يجيبها الشيخ بلهجة حازمة. "هو مهد مخصص للصغير."
"أنا، وطبعاً ريناتو أيضاً، قررنا في الحقيقة أن ننصب شجرة ميلاد. هذا حلّ أكثر عملية وأكثر تعقّلاً."
يعض الشيخ على شفتيه [من الغضب]. 'أكثر تعقّلاً! ماذا يمكن لمثل هذه الشجرة أن تعطي للصغير مقارنة بالمسيح الطفل وبالتماثيل التي تصوّر الحمار والتيس؟ لتقل ما تريد، فلن أتخلى عن المهد، وسأنجح في شرح معناه لبرونيتينو.'

"لقد تأخر الوقت بالنسبة لأنونزياتا"، تقرر أندريا بعد زمن قصير وتتجه إلى المطبخ. وفي طريقها إلى هناك تقف أمام غرفة النوم ويسمعها تقول لريناتو:

"انتظرني. سأعود حالاً لكي أفرد حاجياتي."

وفي المطبخ تتبادل الكلمات مع أنونزياتا لبعض الوقت. 'لا شك في أنها تريد أن تعرف كل ما حصل في غيابها'، يتكهن الشيخ ويسخر من كونها لن تتوقع أهم ما حدث في غيابها: معجزة الحلف الكالابري القوي الذي عقده آل رونكونه: الجد/الابن/الحفيد.

وبعد قليل تودعهم أنونزياتا وتخرج، ويذهب أندريا وريناتو إلى غرفة نومهما مغلقين

عليهما الباب.

وبعد مرور زمن قصير يستيقظ الطفل، فيذهب الشيخ إليه ليهدهده ويعيده مجدداً إلى النوم.

وبعد قضاء وقت طويل تخرج أندريا من غرفة نومها مرتدية رداء المنزل ومتجهة إلى الحمام لتختفي فيه. لقد احتاج الاثنان لوقت لامتناه كي يفضّا حقيبة السفر!

٢٥

"مزاجكم اليوم غير جيد البتة." تلاحظ مادالينا وتقول مشجعة.

يحرك الشيخ رأسه موافقاً. إنه معتلّ المزاج، بل يشعر بالإهانة وبأن الصغير قد طعنه في الظهر بسبب تفضيله شجرة الميلاد على المهد.

"هذا شيء طبيعي."، تحاول المرأة أن تواسيه. "إنه لم يزل صغيراً على أن يقدر المهد حقّ قدره."

"صغير؟ لقد شرحت له الموضوع برمّته وهو يفهم كل شيء! لم يُعِر التيس والحمار أي اهتمام بالرغم من جمالهما. ألفا ليرة ثمن كل واحد، قرون نظامية وآذان باهرة! ولكن أندريا تدير اللعبة دون إنصاف. لقد جمّلت الشجرة بلمبات صغيرة ملونة تضيء وتنطفئ بشكل ذاتي. هذا يجذب الصغير كما يجذب الضوء الذباب. هل تعلمون ما هو أسوأ شيء؟ بعد هذا السيرك، اختفت مجدداً خلف أوراقها وتركته لحاله. إنها لم تفعل ذلك لكي يجلب له الفرح وتشاركه فيه، سينيورا مادالينا، إنها تفعل ذلك لمجرّد إغاظتي!"

وابتسم الشيخ فجأة حينما تذكّر صورة بعينها.

"في الحقيقة، إن منظره أمام الشجرة ممتع! كيف كان يضحك ويصفق بيديه...!"، ثم عاد التقطيب إلى جبينه. "ولكن المهد هو من ثقافتنا، وكان يجب أن يعجبه أكثر!"

"ما رأيكم أن تجلبوا له هذه المرة شيئاً جديداً يلفت انتباهه؟ لن يكلفكم هذا إلا جولة صغيرة تكتشفون من خلالها بضاعة الميلاد الشاملة."

ومرة بعد أخرى يُظهر الإعجاب بهذه المرأة التي تمتلك لكل مشكلة حلاً. ليس غريباً أن تتخذ لنفسها عشيقاً وسيماً تمرح معه، فمع هذا الأبله [زوجها] الذي يقف الآن متفرجاً ويحمل اسم مارينو كما يظهر ... 'إنها تسميه مارينيللو[١]!'

ويصل الشيخ إلى البيت حاملاً معه ليس فقط الأشياء التي تعزز مؤونته الغذائية السرية، ولكن أيضاً علبةً يعطيها بشكل احتفالي للصغير بعدما أفاق الأخير من قيلولته. دفّ صغير ذو إطار خشبي أحمر، مشدود الجلد ومزوّد بخشاخيش ذات لون فضي برّاق[٢]. هزّ الجد الدفّ فمدّ الصغير يديه بإلحاح نحو اللعبة الجديدة. وظهرت أندريا خلفهم في الحال لتعلن بصوتها الحادّ إن هذه الخشاخيش، التي أعجبت الصغير أكثر من أي شيء آخر، خطرة في حال أدخلها إلى فمه.

"لن يبدأ من فوره بالعضّ، إنه ليس غبياً بهذه الدرجة!"، يرد عليها الشيخ دون أن يكلف نفسه بالاستدارة نحوها. ويفكّر: 'تستعملين خدعة اللمبات الكهربائية وتمنعينني من جلب الدف الذي يخص الميلاد فعلاً. وهل كان الضوء الكهربائي في بيت لحم معروفاً وقتها؟ يمكنك تقبيل مؤخرتي!' والآن يساعده الصغير على الانتصار. لقد أدخل الخشاخيش حقيقة إلى فمه، ولكنه لا يحاول عضها. بدأ فقط بتشممها لا غير. إنه مأخوذ بالدف، يضرب على جلده ويحركه ليستمع إلى خشخشة صفيحاته. إنه الآن قبالة المهد مستغرقاً في لعبه وناسياً الشجرة وألاعيبها الضوئية. وتستغل أندريا استراحة من العمل لتتوجه إلى الصبي مخلّصة إياه الآلة الموسيقية الخطرة، ولكن تمسك الصبي الشديد بها وصراخه القوي يجعلانها تعود عن رأيها وتذهب مستسلمة إلى المطبخ لكي تحضر طعام العشاء.

'هل يمكن أن نسمي هذا "تحضيراً"؟'، يتساءل الشيخ بينه وبين نفسه. 'هذا استهلاكٌ لكميات من ورق التغليف المزأبق وللأكياس البلاستيكية وإصرار على هدر المال. ومن يعلم ما هي الأطعمة التي يضعونها؟ يضيفون إليها المواد الكيماوية بالتأكيد كما يفعلون

١. صيغة تصغير (مقلّلة للقدر).

٢. الآلة الموسيقية الإيقاعية المعروفة.

مع النبيذ السيّء. أهكذا يُحضّر طعام عيد الميلاد؟'

وعلى المائدة تتحقق جميع توقعاته، مضافاً إليها الحساء الذي كان له مظهر الماء المغلي. وأخيراً وحتى عندما أرادت أن تشرب الشمبانيا في نخب عيد الميلاد، خيّم جوّ من الجدية بعيد كل البعد عن مشاعر الفرح.

ويهرب الشيخ بمخيلته إلى عشية عيد الميلاد، إلى ذكرياته في الريف: الموقد الذي لا تخبو ناره، الروائح اللذيذة التي تنتشر من مقالي الطبخ وأوعيته، طعم النبيذ المزّ وإبريقه المنتقل من مكان إلى آخر، ضجيج القادمين والخارجين من الزوّار، النقانق الباردة المعدة في البيت، اللحوم المقددة، الضوضاء والجلبة التي تعتري المكان حين يحين موعد منتصف ليلة الميلاد، الناس الذين يختطفون السترات المبطنة بالصوف وأغطية الرقبة الواقية، إذ يخرجون إلى الشارع ويلسع الهواء البارد خدودهم المستعرة. يلعبون اليانصيب في العراء حول منقل النار الذي تتلظى جمراته، ويأخذ كل متسابق رقماً واسماً مثيراً للضحك. يتندرون على مزاح الرعيان مع فتيات القرية، ويذهبون أخيراً إلى أسرتهم صادحين بالغناء، مشتتي الخاطر ومنتشين بفعل حب الحياة أكثر منه بسبب الخمر. إن الكثير من الولادات التي تعمّد بعد ٩ أشهر في روكاّسيرا، تكون من صنع تلك الليلة!

مع تباشير الفجر توقظه روسكا التي تدور في أحشائه مضطربةً. 'لا عجب في ذلك. لم يكن الطعام هنياً. هل من المعقول وضع النبيذ في الثلاجة؟ حتى ولو كان نبيذاً فوّاراً![1] كل شيء في ميلانو بارد. ولماذا استعجل ريناتو بنتَ ميلانو في الهروب سريعاً إلى غرفة النوم؟ هذا ما لا أفهمه.'

يحاول أن يهدئ روسكا منجزاً طقوسه المعتادة: ارتداء البنطال ولف البطانية والتسلل بكل حذر وبدون صوت إلى الممر ثم إلى سرير الصغير. لم يتمّ اختيار سلفاتوره عن عبث للقيام بأصعب العمليات الفدائية. إنه الآن ينحني على الوجه الصغير، على هذا

١. يقصد على الأغلب الشامبانيا، حاطّاً من قدرها.

المغناطيس الأبيض وعلى هذا البدر التّمام الذي يضيء لياليه.

'في الواقع كان عليّ أن أكون زعلاناً منك يا برونيتينو، لأن هراء شجرة الميلاد الذي اخترعه الألمان يعجبك. ولكنك أصلحت الأمر مع الدف وجلبت لي سعادة كبرى! لم يعجبها ذلك، وحسناً فعلتْ. إنك أوقفتَها عند حدّها. أنت مثل جدّك، مقاتل مقدام تجاه تصاريف الحياة. ليعفونا من لمباتهم الكهربائية. إنها مزيّفة حتى ولو كانت مضيئة ملونة. ولكن حماراً حقيقياً في المقابل...! ستكتشف ذلك بنفسك، بنفسك، حينما ترتقي حمارنا في روكاّسيرا. إن في ركوبه أماناً لا يوجد عند حصان!'

ويراقب الشيخ اليد الصغيرة التي تقبض بإصرار على غطاء السرير متأثراً بهيئة هذا الجسم الصغير القادر على التعبير بمثل هذه الحركات الرجولية. ويسرد الشيخ للصغير الأحداث الحقيقية لعيد الميلاد والطقوس التي تتعلق بالاحتفال بعشيته[١]، والمخالفة تماماً لما حصل البارحة في المنزل. في الجنوب يشعر الناس بحلول وقت جديد في هذا العالم وبأن شيئاً عظيماً في داخلهم يتحضّر للتعبير عن ذاته.

'هل تعلم يا صغيري'، يستطرد الشيخ، ' بأن الأغنياء في هذا اليوم يمتنعون عن الاتصال بالشرطة[٢] إذا ما تحرّش بهم الفقراء؟ لقد كنتُ وقتئذ فقيراً جداً. لم أكن أمتلك شيئاً مما تملك أنت ومما ستملك في المستقبل، لأني لن أترك مصاص الدماء –صهري في روكاّسيرا– يحصل على كل شيء! لقد كنت في الماضي أعيش حافي القدمين وأغنّي مع آخرين تحت شرفات الغنيَّين الاثنين اللذين عاشا في روكاّسيرا. واحد منهم كان والد خصمي كانتانوتّه والآخر كان السيد مارتينو[٣]، حماي فيما بعد. هل يمكن لك أن تتصور أن السيد مارتينو كان قريباً من الإصابة بالسكتة القلبية حينما اختطفْتُ ابنته، وبذلك كان من الواجب علينا أن نتزوج! ويالسخرية القدر! لقد حصل ذلك عندما لم يَعُد يستطيع أي كائن أن يعترضني، وعندما وقفتْ الدنيا رأساً على عقب.

١. Notala : عشية الميلاد.

٢. Carabinieri

٣. Martino

إنها كالقلّابة[1] [يوم معك ويوم عليك] ، ومن واجبك عندها أن تصطاد الفرس الأبيض الأكثر جمالاً. وسأعلّمك كيف تختار. وقد احتفلنا بعرسنا جدّ متأخرين. قبل تلك الأوقات، وكصبي من الصبيان الذين كانوا يقفون تحت نافذته، لم أكن حتى لأحلم بما سيحصل في المستقبل. لقد غنينا أغاني الميلاد[2]. كنا نغني واقفين أمام البيت ومنتظرين أن يكافئونا ببضعة قطع نقدية. وعندما كانوا يتركوننا ننتظر طويلاً، كنا ننتقل إلى أغانٍ أخرى نسبّهم فيها ونلعنهم. وماذا تظن أننا كنا نغني عندها؟ لقد كانت أغانٍ ساخرة، يغشى الضحك علينا بسببها:

لا تقف هنا كالحمار

وشارك في العيد

أعط أهل كالابريا خمراً

وإلّا ستدفع خصيتيك ثمناً لذلك

وطبعاً لم تكمن مشاكلنا في غياب الخمر من بيوتنا، إنما في غياب الخبز الذي كان يختفي تماماً منها. ولم يسمح كبرياؤنا بالاعتراف بهذه الحقيقة ولم نرد أن نقف ضعفاء أمام من يستغلنا خوفاً من إمعانه في الاستغلال. وكان عندنا دفوف مثل دفّك ياملاكي، وعندنا طبول الرعيان التي لن تستطيع الآن العزف عليها. لقد صنعناها بأنفسنا، إذ كنّا نشدّ جلد الأرانب على فخّارات نجدها تحت التربة. وكان أحد رفاقي [تونيولو] يرتجل الزجل أيما ارتجال. وستقهقه عندما تسمع ما أّلفه من أهزوجة غنيناها لأحد رجال الضيعة المعروفين بخيانة زوجاتهم لهم. ستفهم بالطبع فحوى الأهزوجة عندما تكبر وعندما تستحوذ على نساء رجال آخرين. لقد كنا نمزح كثيراً وكانت القرية كلها تحفظ هذا النص. اسمع فقط وستموت من الضحك:

يشبه ابنُك المسيح الطفل

وتشبه أنت يوسف النجار

---

١. لعبة الأطفال في الحدائق الكبيرة.

٢. Ständchen : (Strina) أغنية تقدّم في الأصل وقوفاً.

لأنك لست أبا الطفل
الذي ولدته زوجتك

جميل، أليس كذلك؟ وهل تتصور أن الرجل المعني بهذه الكلمات كان يكرمنا أكثر من الآخرين، ليتجنّب الفضيحة؟ أما تونيولو[١]، فيا له من فتى متميز! قوي، ضخم البنية، وكأنه يستطيع هزيمة العالم كله. كانت النساء به مهووسات. ولم يكن مستغرباً أن تأخذه الأميرة ويبقى معها في أملاكها ولما يبلغ بعد الثامنة عشرة من عمره. بهدف العمل، صرّحت الأميرة. لا شك أنه قد نفّذ لها أعمالها على أحسن وجه! كم كنت حاسداً له! أما هو فقد قضى بمرض المالاريا في الأملاك المذكورة بالقرب من مدينة روما، وأما أنا فكان نجم الحظ في روكاّسيرا ينتظرني.'

وفجأة يُهيّأ له أن ظلاً خيّم على حجرة الصغير فيضع يده دون تفكير على صدره لامساً كيس التمائم يعوذ به. وينتصب مستعداً لحماية الطفل من أي مكروه. ولكن لا شيء هناك. مجرد خيال حرضته على الأغلب ذكرى معينة. إنها أغنية أخرى مختلفة تماماً تمرق في رأسه وتعصر قلبه ... ويتمتم النص:

عشية الميلاد أتَتْ
عشية الميلاد راحتْ
ونحن أيضاً سنذهب
ولن نرجع إلى هنا أبداً

'هل سمعت بمثل ذلك يا برونيتينو؟ المعنى واضح ولكننا كنا جد أغبياء إذ غنّيناها ضاحكين لاهين ...! الآن فقط أفهم فحوى النص، سابقاً لم يعن لي الموت شيئاً. سيكون الموت فظيعاً إذا أحسسنا بأننا لا نعيش. ما دام المتوفى لا يشعر بشيء فعلام التأثر. ولكن الأمر الآن يعنيني لأنك تحتاج إليّ. لا أستطيع أن أتركك وحدك في هذه المدينة القاتمة. هل تعلم؟ لم أُرد أن أقول لك هذا ولكن لساني زلّ. وعلى العموم،

---

١. Toniolo

من الأفضل أن تعرف كي تستطيع تحضير نفسك: هذا هو عيد الميلاد الأخير الذي أحتفل به ، وربما قبل الأخير . . . لا تَخَف. لم يزل عندي وقت لأضعك على الطريق القويم، الذي بدأتَ في الحقيقة المضيّ فيه. ما زال عندنا الصيف بطوله والخريف. سأتماسك وأقاوم ما دمتَ تحتاج أنتَ إلى ذلك. وحالما يدفن كانتانوتّه، سنسافر إلى هناك وسأريك كل شيء كي تتمكن من ضرب جذورك في أرض الرجال. وبعدئذٍ أستطيع أن أموت مرتاحاً لأنك عندئذٍ لن تنسى أبداً ما أطلعتك عليه. ستصبح شجرة قوية منتصبة كما كنت أنا ، هذا ما أعاهدك عليه!'

وتتملكه غصة مفاجئة تمنعه عن التفكير. فبينما كان يرسم الصور البراقة للمستقبل، اعتراه خوف كاد أن يخنقه وأجبره على غلق عينيه. لقد قاوم دون أن ينجح في وقف آهة آتية من أعماقه.

'كم كنت أتمنى أن أعيش لأراك شاباً شجاعاً وقوياً ترتمي النساء على قدميه. كم كنت مستعداً لأبذل في سبيل لحظة كهذه!'

وهنا حدثت المعجزة. يفتح الطفل عينيه، سوداوَين كنبعين لا قرار لهما . وتماماً كما حصل عندما انتصب الشيخ خوفاً من الظل من حيث لا يدري، قامت يدا الطفل بحركة مباغتة، مبعداً البطانية عن جسمه، وتسلق الصغير حافة السرير لينزل، ووجهه إلى الحائط، بساقيه البضّتين إلى الأرض. وحينما وصل إليها شدّ جسمه واقفاً واستدار ليصبح قبالة جده . . . لقد خطا خطوات ثلاثاً متعثّرة دون مساعدة أحد باتجاه مباشر إلى ساعدي جده الذي يطير فرحاً من تأثره! لقد خطا إلى الأحضان التي ضمته وضغطت عليه بقوة هائلة ما لبثت أن عادت إلى تطويق معجزة الخلق الرقيقة هذه بكل حنان، متزامنة مع قطرات مالحة تسقط عبر الخدود المخضوضبة إلى الشفاه المعمّرة المرتعشة.

'تخصّني أنا بخطواتك الأولى! والآن أستطيع أن . . .'

وعند الشيخ بلغت لحظات السعادة هذه حداً عارماً ، جعله يشعر بالألم وجعل حنجرته تتسمّر في مكانها .

٢٦

"هل تريدون مزيداً من القهوة يا بابا؟"

يتناول الجد مع كنّته طعام الفطور بينما يُسمع صوت جهاز حلاقة ريناتو الكهربائي في الحمام. لقد عادت الجلَبة الصباحية إلى المنزل بعدما انقضت أيام عطلة العيد.

تمسك أندريا بإبريق القهوة بنزق، منتظرة جواب حميها.

"نعم، شكراً... ولا تدْعينني بلقب "بابا" مرة أخرى!"

"آسفة. لقد سقطت مني الكلمة سهواً."

"هذا ليس موضوعنا. من الآن فصاعداً ناديني بـ"الجدّ"، "نونّو"."

في البداية لم تعرف كيف تتصرف. ولكنها نظرت إليه بعدئذ متأثرة ومتفاجئة. 'ما أكبر الحب الذي يكنّه إلى ابني!' وقد تفاجأ هو بدوره من ردة فعلها العاطفية.

"لماذا تنظرين إلي وكأنك لا تتعرفين علي؟ إذاً، "الجد"، وكفى!"

'جدّو'. لقد فكّر الشيخ مراراً وتكراراً بهذه الكلمة فجر اليوم، أثناء نوبة حراسته بالقرب من الطفل متلذّذاً بجرْسها. نونّو أو نونوْ، كما يقول أهل كالابريا. إنه يشبه الموسيقا الخافتة لجرس الخروف الذي يقف في مقدمة القطيع أو لأغنية مهد. حتى إنه همس بها أكثر من مرة بصوت شبه مسموع، كيلا يوقظ الطفل، "نونّو". وارتأى أن يشرح الأمر الآن للحية "روسكا".

'هذا هو ما أنا عليه يا روسكا: أكثر من أب أو من أمّ، أكثر بكثير، "جد"، والجد الوحيد لبرونيتينو. للأطفال العاديين جدّان وجدّتان. أنا شخصياً لم أحظ بأحد منهم، ولذلك لم أكن أعلم ماذا يعني ذلك وأبدأ الآن في الفهم. ولهذا كنتُ طفلاً متفرّداً، وثم بالطبع رجلاً شرساً. بالرغم من أن المرء يمكن أن يكون كامل الرجولة دون أن... لا

أعرف على وجه التحديد، إنما ينمو شيء ما في داخلي، شيء جديد عليّ تماماً. ما هو؟ يعني، أنت تعرفين ما هو... لا، أنتِ لا تعرفين لأنك شبهي. أنتِ تعضّين، تخطفين لقمتكِ من فم الأسد.

هذا الشيء يمكن أن تفهمه امرأة جدّة، ولكن ليس عند برونيتينو إلاّي. وكم هو جميل أن نضم إلينا هذا الجسم الصغير وأن نسمع تيّار الصوت المنبعث من جسد تلك الحمامة التي لا حول لها ولا قوة! نعم، في داخلي ينمو شيء طري حنون. وكنت سابقاً لأتفكّه بمثل هذه الأمور مسمّياً إياها بـ"الشطط" العاطفي! أما الآن ومع وجود هذا الجدْي المسالم...!'

وكالفارس الذي يروّض فرسه حاول الشيخ أن يطوّع أفكاره التي تظهر –بكثرة في الفترة الماضية– وكأنها غريبة عنه. إنها أفكار تمشي على دروب وعرة لا تنفرج إلا في النهاية البعيدة. ومرّت دونكا بخاطره دون أن يحاول إغلاق عينيه محاولاً إبعاد صورتها. إن دونكا بالذات تستطيع أن تشرح له ماهية أحاسيسه: دونكا بالذات حاولت أن تقوده بأمان إلى تلك الدروب الحالكة... الظلام، الرجولة، 'ما كل هذا الذي يجول في خاطري ومن أين تأتي تلك الأفكار على بالي؟

والآن أورتنسيا، هكذا بغتةً! كيف قضت يا ترى أيام الميلاد؟ على الأغلب تمتّعت بها شكل رائع، عند ابنتها. ألا تعلمين يا روسكا بوجود ابنة وحفيدة لأورتنسيا؟ أيعقل هذا وهي في مثل هذا الشباب؟ تدّعي أورتنسيا بأن غناءها لم يعد جيداً. هذا ليس ممكناً! من الأكيد أنها غنّت لأجلها [لأجل الحفيدة]، ومن المؤكّد أنهم اشتركوا في غناء التارانتيللا[١] طوال العشية. هذه موسيقا حقة وليست كالموسيقا التي تضعها أندريا. نعم، لا شك أنهم رتّبوا الموسيقا الملائمة وحصلوا على مهد مناسب، وليس على شجرة ميلاد سخيفة، ألمانية المنشأ!'

---

١. Tarantelle في الواقع رقصة ذات إيقاع متميّز، أصلاً من مدينة تارانتو الجنوبية (انظر/انظري الخريطة).

ما زال جالساً في المطبخ يرشف قهوته ولا يبالي بدخول الأبوين، وما زال منهمكاً بالأفكار التي راودته مساء البارحة على حين غرّة. ألا يُفترض أن يشتري أزهاراً لأورتنسيا؟ من أي نوع؟ وكان مجرد تصوّر نفسه حاملاً باقة من الزهور، وماضياً في الشارع كالديك يجعله عصبياً. ولكن يجب عليه أن يفعل شيئاً، بالإضافة إلى زيارتها أثناء [ما تبقّى من] أيّام العيد، لأنها في غاية اللطف. ويتذكر وجود كشك للأزهار في الحديقة لا يقع بعيداً عن شارع بورغوسبيسّو، ويتّخذ أخيراً قراره. وهكذا، بعد قليل، نراه في المصعد يتجه إلى الأعلى وبيده باقة من الزهور. وكالعادة يرتجف من ركوب المصعد خوفاً من إمكانية تعطله وبقائه معلقاً في الهواء. كان قد دقّ الجرس عند مدخل البناء وتحدثت معه أورتنسيا داعية إياه للصعود، وها هي تنتظره عند عتبة درج الشقة. هي دائماً هكذا: أنيقة، جذابة، معتدلة المزاج، بالإضافة إلى رنة في صوتها تعرب عن دهشة ودودة.

"ما هذا، ما هذا؟ ماذا فعلتم؟ لماذا تتعبون أنفسكم؟ تعالوا، تفضلوا بالدخول!"

ويسلمها الورود دون دراية بالبروتوكول. لقد نصحته البائعة بشراء الورد وبأنه الخيار الأفضل. وتُدخل أورتنسيا أنفها في الباقة وتأخذ من عبقها نفساً عميقاً.
"رائعة! ولكنه لا يجب عليكم أن ..."
"اسمعي، لقد اتفقنا على إزالة الرسميات. عيد ميلاد مجيد!"
"شكراً، ولكَ أيضاً"

ويطبع الشيخ قبلةً على خدّها عندما قرّبت وجهها منه؛ إنها تتضوّع عطراً أجمل من رائحة الورود. وهذا الشعر الجميل! حرير ممتلئ!
"هل أعجبتكِ الورود؟"، يسألها الشيخ مراقباً إياها من كرسيه تصففها في الإناء.
"وكأنك لا تعرف أننا نحن النساء نحب الزهور."
"هذا ممكن"، يجيبها الشيخ بجدية ويضيف: "إنها المرة الأولى التي أجلب فيها زهوراً لامرأة."

ولم يكذب. فلقد كانت دونكا هي التي تهديه الزهور. ولكن أورتنسيا لا تعلم ذلك، لذا تنظر إليه مستغربةً. إن نظرتها الآن هي أيضاً جدية، بالرغم من أن عينيها تتألقان وتذكّران بنهر هادئ تداعب أشعة الشمس موجاته. لقد أنْسَتْ الدهشة أورتنسيا خجلها فاندفعت تقول:

"ماذا تقول! لا شك في أنك عرفت في حياتك نساءً كثيرات!"

وأبعدت ابتسامته الواثقة كل الشكوك في هذا الصدد.

"لكنني لم أحتجْ إلى إحضار الزهور."

ولا تعرف أورتنسيا بماذا تجيب. ترتب الزهور ترتيبة أخيرة ثم تضع الإناء على الطاولة [أمامه]. تختفي دون أن تقول أية كلمة وتعود مع زجاجة الغرابّا وكوب زجاجي صغير.

"كيف قضيت ليلة الميلاد؟" تسأله.

"لقد لعبتُ مع الصغير. وكل شيء عدا ذلك لم يكن شيئاً يُذكَر... عشية الميلاد في ميلانو! لقد كنتِ بالتأكيد عند ابنتكِ؟"

"أنا؟ لقد كنتُ هنا. وحدي!".

"وحدك؟" يردد ذلك مأخوذاً ومفكراً: 'لو أني عرفت ذلك.. لكن ماذا كنت سأفعل مع برونيتينو؟'

"إن الأطفال كلهم سواء: عندهم حياتهم الخاصة. لقد كنتُ أيضاً كذلك. كان أبي معارضاً لتركي "أمالفي" ولكني لم أندم على ذلك. لم تكن الحياة هناك صالحة لي."

ويتأملها الشيخ. 'أية حياة عاشتها يا ترى؟ لقد خرجت على الأقل إلى العالم.'

"هل تقضين رأس السنة وحدك أيضاً؟"

وتتسع ابتسامتها.

"منذ الآن لن أكون وحيدة. الآن ورداتك ترافقني."

لا يعرف الشيخ بدوره ماذا يُفترض به أن يقول.

وتنظر إليه. ’بم يفكر الآن يا ترى؟ أكيد بشيء ممتع. طيب، سأبدأ أنا إذاً بالحديث.‘
”بماذا تفكّر؟“
”أفكّر بشعرك. إنه بالغ الجمال!“

وفكّر الشيخ ’لقد عرفت أن هذه الملاحظة ستسرّها‘، وذلك حينما أجابت:
”شكراً! الشعر القبيح كان سيجلب صيتاً سيئاً!“
”لماذا ...؟“
”لقد كنتُ مصففة شعر. نقول لهذه الحرفة كابيرا.[١]“
”ونحن أيضاً!“

ألا ترى أن كالابريا وأمالفي يشتركان في أشياء! لقد حظيت بزبونات يترددن علي؛ وعدا عن ذلك صنعت تصفيفات صناعية من الشعر الطبيعي ... لقد دعم بيعها مصروف البيت.“

وشعرَتْ بتغيير في قسمات الشيخ كأنها ردة فعل مفاجئة، فأضافت:

”نعم بالطبع. هناك من حملت صيتاً سيئاً في داخل مهنتنا ،ولكنني لم أنزل إلى مستوى القيام بخدمات أخرى لا تمتّ للمهنة بصلة. وبالإضافة إلى ذلك فقد تردّت المهنة إلى وضع صعب عندما دَرَجت موضة صالونات الحلاقة النسائية وانتشرت أجهزة تثبيت الشعر الكهربائية.“

ويحس الشيخ بأن هذه المرأة تسبر أعماقه. ’هل تستطيع قراءة الأفكار؟ ليس هذا، إنها فقط لا تعرف الخوف وداخلها منفتح تماماً.‘
”وتبعاً لهذه المتغيرات يبدو مظهرهن "حديثاً". أما أنتِ فخلاف ذلك ...“

وتتحسس أورتنسيا ربطة شعرها شاعرة بالإطراء.

لم أستعمل تلك الأجهزة أبداً. لقد كنت أقوم فقط بقص الشعر. وعندما يصبح الشعر

---

١. Capera: كوافير.

كامل البياض، يغدو منظره بالغ الجمال.[١]

'نعم، عندما يُنشَر. أودّ لو أشاهده منشوراً'، كان هذا لسان حال الشيخ ولكنه تحدث عن شيء آخر، عن خصلات شعر حفيده برونيتينو.
"وهو الآن يستطيع المشي، هل تعلمين؟ بدءاً من الليلة الفائتة وعلى شرفي."
"إذاً، أنتَ الآن في منتهى السعادة!"

هذا تحصيل حاصل. ولكن مشكلة أخرى تقلقه. إن الصبي الذي يستطيع المشي يحتاج حتماً إلى أحذية جديدة. لقد فكّرت أندريا بهذا الموضوع واشترت أزواجاً من الأحذية القبيحة. إنها تبدو كأخفاف عادية بينما تسمّيها هي موكاسّان[٢]. لا أريد لحفيدي أن يرتدي أحذية الرعيان'، يقرر الشيخ ويفرّغ بجرعة واحدة كأس الغرابّا.
'أريده أن يبدو سيّداً أنيقاً. بالضبط، جوارب بيضاء وأحذية سوداء ذات لمعة.'

هذه هي تصوراته عن أبناء الأغنياء التي انحفرت في ذاكرته:

في يوم أحد نزل سلفاتوره من الجبل حاملاً على أكتافه تيساً صغيراً ليوصله إلى الأمير. كان هذا الأخير مجتمعاً مع اثنين من أصدقائه اللذين قدما خصيصاً للمشاركة في الصيد.

لقد كانت المرة الأولى التي يرى فيها سيارة. من تلك المركبة العجيبة نزل صبي نحيل أشقر. كان جورباه الأبيضان ساكنَين حذاءً أسود يلمع كالمرآة. وأصبح هذا الصبي فيما بعد ذا مركز عند الفاشيين، الشيء الذي كان سبب إعدامه بُعيد الحرب.

"أورتنسيا! هل تعتقدين أن الأحذية السوداء اللامعة هي حصر على الفاشيين؟"

"ما هذا الهراء!" تضحك مردفةً، "ولكن الجزمة الصغيرة [هنا تربط موضوع الأحذية بخبر بدء برونيتينو بالمشي] أفضل من الحذاء اللماع. فالأولى تسند الكواحل وتساعد

---

١. قد تكون هذه الملاحظة كناية عن أن شعر أورتنسيا قد شاب ولكن لم يصبح بعد كامل البياض.
٢. Mocassins: أحذية للبيت والشارع تصنع على نسق أحذية الهنود الحمر.

على المشي الواثق.» من الصعب على الشيخ أن يتخلى عن حلم طفولته، ولكن الجزمة بالفعل تناسب الرجال أكثر. ومن سيشتري؟ وما هو نوع الجزمة؟ ما هو المقاس؟ أين؟ من أين له أن يتعرف على جودة الحذاء؟ لا شك أن أهل ميلانو سيغشونه، محاولين خداعه حالما يكتشفون أنه قادم من الريف...

وتعرض عليه أورتنسيا الذهاب معه إلى مخزن الأحذية. هذا بديع! وهكذا سيستطيع شراء هدية للصغير بمناسبة عيد الملوك الثلاثة، رغم أن هذه العادة غير موجودة هنا. وستُبقي أورتنسيا الجزمة الصغيرة في بيتها حتى موعد العيد حرصاً على عنصر المفاجأة. ولنر رد فعل أندريا. هنا يبدأ سلفاتوره بالضحك.

يستأذن سلفاتوره مغادراً، لكن هذه المرة مرتبطاً مع تلك الشقة العالية بسر يخص برونيتينو يتقاسمه مع أورتنسيا. وبسرعة وبنشاط يهبط الدرجات إلى الأسفل، بذات الهمة التي كانت له عندما كان يهبط من الجبل إلى روكاّسيرا بسبب أحد الأعياد.

٢٧

هل يمكن تسمية هؤلاء النسوة بـ"البديعات"؟

لقد سجلته أندريا في نادٍ رائع "نادي الهوايات للمسنين" يرتاده النساء والرجال كما أعلنت أندريا.

"نساء؟"، يسأل الشيخ
"نعم، نساء، بالطبع"، تجيبه أندريا وتردف الجواب بابتسامة مصطنعة.

الآن وفي هذه اللحظة يتفرّج الشيخ على تلك النسوة في الصالة التي لا تزال ترتدي زينة الميلاد[١]. وفي الزاوية تقبع الشجرة التي لا يمكن الاستغناء عنها. ولكن اللمبات الصغيرة الملونة تضيء دون تقطّع.

البعض يلعب الورق، وآخرون يجلسون في حلقات على الأرائك والمقاعد المنجّدة ويضعون فناجين الشاي أو القهوة على طاولات صغيرة. وهناك تجمعات ذكرية تتحدث فيما بينها بحماس ويُسمع منها بين الفينة والأخرى صوت أحدهم يضحك ضحكة قصيرة عالية. وحينما ظهر الشيخ مع أندريا ومديرة النادي على عتبة الباب نظر الجميع إليه ومنهم امرأة كانت تعزف على البيانو، قطعت العزف واستدارت بكرسيها الدوّار صوبه. ينظر الشيخ من حوله. 'نساء؟ هياكل عظمية! يكوين شعورهن ويتبرّجن ويتلمّعن، وهن في آخر المطاف كائنات هرمات!'

ولا يبدو الرجال أحسن حالاً. هناك واحد يقف بالقرب من عازفة البيانو. رجلان يلعبان الشطرنج هما الوحيدان اللذان لم يستديرا لرؤية الشيخ.

---

١. نجوم وأجراس وشرائط خضراء...

"استمروا أيها المحترم أمادو[١]، إن صوتكم هو في أفضل حالاته. شيء مدهش. السيد كومتور [دون أمادو] هو مغني أوبرا عالي الموهبة من طبقة التينور[٢]"، تشرح المديرة لسلفاتوره. في الحقيقة لا تحبّذ هذه السيدة أن توصف بـ "المديرة". "أنا لا أدير شيئاً؛ إن أعضاء النادي هم من يقررون كل شيء بأنفسهم. أنا فقط منظمة نشاطات متواضعة، واحدة من الأصدقاء كغيري من أعضاء النادي." ولا لُبس عند الشيخ في الدور الذي تلعبه هذه السيدة: دور واضح للعيان ومسموع للآذان – هو ممارسةٌ ديكتاتورية.

"آه، لو سمعتموني في الماضي أغني في "لا سكالا"[٣] ...!"، يتنهّد المسنّ الذي يقف جانب البيانو وينحني بطريقة مسرحية ردّاً على الإطراء. ويقلب صفحة من النوتة الموسيقية عائداً إلى الوراء وقائلاً لعازفة البيانو: "مرة أخرى من البداية، من فضلك."

وتضرب العازفة بعض الأنغام المتلاحقة على المفاتيح قبل أن يبدأ المغني بآريا[٤] "ماتيناتّا" للمؤلف الموسيقي "ليون كافالّو". ولما صدح الصوت المتحشرج كانت المديرة تقود أندريا وحماها إلى مقعدين فارغين موجودين قبالة ديوان يجلس عليه رجل محاط بامرأتين. "من غير الضروري أن أقدمكم بعضكم إلى بعض. يكفي هنا أن يكون المرء عضواً. إن شعارنا الأسمى هو العفوية والانطلاق نحو الآخر، أليس كذلك؟"

ويهزّ الثلاثة الجالسون على الأريكة رؤوسهم، الواحد تلو الآخر، فتبتسم من اتّحدت في شخصها المديرة والمنظّمة في آن معاً. والحقيقة أن كل الأشخاص هنا مبتسمون ما عدا الشيخ وكنّته، التي تراقبه وهي على أعصابها.

---

١. Don Amado

٢. صوت رجالي عالي الطبقة.

٣. "La Scala" دار الأوبرا في ميلانو، وهي مشهورة دولياً.

٤. آريا (أغنية أوبرالية) Matinatta من أوبرا "المهرّجون" Pagliacci، للمؤلف الموسيقي الايطالي Leoncavallo.

"اسمي "آنا لويزا"[١]"، تقول الأولى للشيخ في حين يتقاطع معها صوت الثانية ""تيودورا"[٢]" . وهنا يجب عليهما إعادة ما قالتاه لأن الأصوات في المرة الأولى قد تداخلت بشكل غير مفهوم. وللأسف لم تفلحا في المرة الثانية أيضاً ، لأن موجة من الضحك اعترت صديقهما وانتقلت لتصبح نوبة سعال. لذلك اضطُرّتا في النهاية إلى الصراخ مقدمتَين نفسيهما .

"لاتثق بقولهما أيها الرفيق"، يحذره الرجل بعدما هدأت نوبة سعاله. "هذان ليسا اسميهما ، إنهما تغشّانك. إنهما مزّاحتان ، مزّاحتان. . . هاهاها ، فتاتان تحبّان المرح!"

وينفجر الثلاثة على الأريكة بضحك مدو ، ولا ينفكّ الرجل صاحب السعال عن الغمز للقادمَيْن الجديدين على صاحبتَيه. وفجأةً وفي الجانب الآخر من الصالة يتوقف الغناء ، ويُسمَع صوت غطاء البيانو وهو يُغلق بقوة يملأ صوته الفضاء ، كأنه استنكار الفنّانين لهذه الإهانة. تُسرع المديرة إليهما لتهدئتهما . وتنقطع قهقهة الثلاثي نهائياً حالما يضع صاحب السعال يديه كلاًّ على فخذ إحدى رفيقتَيه. وينقلب الجوّ من مرح إلى توتّر ، وتبعد كلتا الرفيقتين يدي صاحبهما من فخذيهما بتكبّر واستنكار .

"هل تبدؤون هذا من جديد يا دون بالداسّاره[٣]"، تقول آنا لويزا ، وربّما تيودورا .

"ليس هذا مكان من لا يفقه شيئاً في الفنّ. نعم. مثل هذا الشخص نشاز في هذا المجتمع"، يصرخ التينور المهان، بينما تحاول المديرة إقناعه كي يهدأ . وعندما تنجح في ذلك، ترجع إلى العضو الجديد في النادي لتسمع دون بالداسّاره يستفهم من سالفاتوره :

"وأنتم يا رفيق، أين خدمتم؟" [يقول بالداسّاره لسلفاتوره]

"لم أكن صالحاً للخدمة العسكرية. . . أنا أصمّ!" يصرخ الشيخ الحانق الذي لم يعد يطيق الغمز المستمر ، صارّاً أسنانه ومفترّاً ثغره عن ابتسامة مفتعلة، ثم يتجه إلى باب

---

١. Ana Luisa

٢. Teodora

٣. Don Baldassare

الخروج. تلحقه أندريا وكذلك المديرة التي تريد أن تفهم ما يجري.

"إن المسكين دون بالداسّاره ليس دائماً بقواه العقلية، ولكنه لا يُسمح لنا برفض أحد. نحن هيئة تابعة للبلدية كما تعلمون. ويأتي إلينا أيضاً أشخاص لطفاء، أشخاص فاتنون..."

وتنجح أندريا في إقناع حميها بأن يلقي على الأقل نظرة على باقي فعاليات النادي التي بالغت المديرة في مدحها.

"هذه هي المكتبة. نهاركم سعيد، دكتور. لا تلقوا بالاً. الكتب بديعة، رائعة... حجرة التلفزيون الصغيرة ذات جو حميمي... مسرح الحفلات كبير، أليس كذلك؟ نحن ننظّم محاضرات كثيرة، بالغة الأهمية... أيضاً أفلاماً، وحتى عروضاً مسرحية في بعض الأحيان وبجهودنا الشخصية ... قبل شهر واحد عرضنا مسرحية بيرانديللو[١] "العريان يُلبِسون الثياب" وتلقّينا مديحاً ممتازاً في الصحافة. هل يعجبكم بيرانديللو يا سيد رونكَونه؟ هل تسمحون لي بأن أدعوكم دون سالفاتوره؟ كلّنا هنا نادي بعضنا بعضاً بالاسم الأول، هذا أبعد عن الرسميات. هل يعجبكم بيرانديللو؟"

وأخيراً، ينتهون إلى بهو الدخول حيث كُتب على الجدار الشعار التالي: "بيت الفرح. الضحك يعني الحياة". وتهمّ المديرة بتوديعهم. أندريا مستاءة من حميها ولكنها في الوقت ذاته ممتنّة لأنه تمالك نفسه. لم تعرف أنه شبه مشلول من الدهشة. في الحقيقة لم يستطع تصديق المشاهد التي رآها مذ وطئت قدماه ذلك البناء. هل هؤلاء من بني البشر؟ لم يصنّفهم حتى تحت بند "أهل ميلانو". لقد كان مأخوذاً بشكل لم يستطع معه أن يقول كلمة واحدة. وفي النهاية تساءل بشرود:

"هل الجميع هنا على هذه الشاكلة؟"

"ماذا تعنون بهذه "الشاكلة"؟"، تسأله المديرة مستفهمة ورافعة حاجبيها اللذين يطلان على عيون ذات لون أزرق قاتم. ويرتعش داخل أندريا منتظراً جلدة السوط القادمة.

---

١. Pirandello: كاتب مسرحي إيطالي.

”بهذا ... التقدّم بالعمر و...“

وتحتفظ المديرة بلا هوادة بأسلوبها "الطبيعي" :
”ماذا تقولون يا دون سلفاتوره! لا يوجد هنا مسنّون أيها السيد العزيز. جميعنا هنا في المرحلة الثالثة من العمر، في المرحلة الأكثر جمالاً إذا ما استطاع المرء أن يتمتع بها. تعالوا لزيارتنا مجدداً، سترون ذلك بأنفسكم، تعالوا لزيارتنا. سنعلمكم المتعة.“

وحينما أصبحا في الشارع، شعرت أندريا بالغضب من هذا الفشل. لقد منّت نفسها بأن يغادر الشيخ البيت باستمرار ليزور هذا النزل الذي يقع على مقربة منهم، وليعفي الصغير من الدلال الزائد الذي يصعّب عملية التربية الصحيحة. وما أشدّ دهشتها عندما أجاب على تساؤلها الحذر أنه نعم، سيرتاد هذا النزل بين الحين والآخر.

”ومن يدري، قد يأتي فعلاً أشخاص لطفاء، أشخاص فاتنون...“، قالها ناظراً نحوها بعينين ماكرتين. إنها نظرته العميقة التي تظهر أحياناً من تحت عينين نصف مغلقتين وفم شبه باسم. فلقد انتبه فجأة إلى أنه سيتمكن من مغادرة المنزل تحت هذا الغطاء. سيعلن أنه يزور النزل بينما هو في الحقيقة عند أورتنسيا. وسيكون هذا في فترة بعد الظهر، في فترة رقابة أندريا. أما في المساء فسيتمتع بحمام الطفل في جميع الأحوال. ’ولكن لماذا يجب علي أن أصطنع الأعذار؟‘، يعاتب نفسه. ’لي الحق أن أفعل ما يحلو لي‘. هذا صحيح، ولكن يحلو له أيضاً ألاّ يتحدث عن أورتنسيا. إن جهل أندريا بها يشعره بالمرح. وبهذه الأفكار يرضي ضميره ويقنع نفسه أنه حرّ في تصرّفاته.

٢٨

هل مرّا من ذات الشارع من قبل؟

لم يُجِر الشيخ جواباً. يجد نفسه في متاهة تقوده فيها أورتنسيا بكل ثقة. لم يكن يتيه في الجبال من قبل. وتتشابه مخازن الأحذية لتتجرّد بالنسبة إليه إلى مخزن واحد وحيد. لقد كانا هنا وهناك، يسألان مرة ويتفحصان أخرى ويكتفيان بالنظر إلى واجهة العرض ثالثة، إذ تتجمهر الزبائن المستعجلة على شراء هدايا عيد رأس السنة.

وعادت القائدة الحازمة إلى المكان الأول الذي ابتدأا منه: "موندوني"[١]، مشيرة إليه إشارة المنتصر. "لقد عرفت أنه الأفضل. ولكنه وجب التأكد من ذلك، إذ يمكن أن تجد في المخزن التالي [بذات الجودة] بضاعة أرخص."

لم يكن الشيخ يوافقها تماماً. ولكنه كان مستمتعاً بتلك الجولة الاحترافية، كما بإحساسه بالضياع في هذا الخضمّ: هكذا يشعر أكثر باهتمامها. هو في النهاية مسرور برفقتها. إنها ترتدي سترة فروٍ أنيقة بلون رمادي، وتلبس جزمة ضيقة. وقبل كل شيء أرفقت ساعدها بساعده وما زال يحس بالجسم الأنثوي وبالجسد الطريّ.
وبكل فخر يقول لها:
"ألا ترين نظرات الرجال الموجهة إليكِ؟"
"إنهم ينظرون إلينا معاً."
"ينظرون إلي؟ على الأكثر فقط إلى سترتي الصوفية."
"إنهم يراقبون وقفَتَكَ ومشيَتَكَ."
"من الممكن أنهم يلاحظون السيقان القوية للرجل القادم من الجبل. لن يستطيعوا

---

١. Mundoni

منافستي في تسلق الجبال. كيف حالك أنتِ؟ ألم تتعبي؟ لقد أثقلتُ عليك اليوم وجلبت لك عملاً كثيراً."

"عمل؟ لاشيء أجمل من زيارة المخازن والتفرّج على محتوياتها. بهذه الطريقة فقط يمكنكَ أن تحظى بالأفضل. وفوق ذلك بالأنسب مادياً!"

سعر مناسب؟! لقد أنفق الشيخ على الجزمة الصغيرة كل مدخراته. حتى إن أورتنسيا أخذت على عاتقها دفع ٦٠٠ لِيرة لإكمال المبلغ. لقد رفضت شراء الجزمة الأرخص. "لا، لا، هذا غير ممكن! يجب أن نشتري لبرونيتينو الأفضل والأحسن. وهذا، صدقني، سعر مناسب تماماً. إني أفهم في الأحذية، لقد عملت لمدة ست سنوات بائعة في مخزن لومبارديا[1]، بعدما ترمّلتُ وأصبحت وحيدة مع طفلتي الصغيرة... خذ الـ ٦٠٠ لِيرة وستردها إلي فيما بعد. ألسنا أصدقاء؟". ويقول فيما بعد: "سيتطلّب هذا وقتاً. إني مفلس تماماً."

يقول قوله هذا بكل جدية قالباً سحنته، الشيء الذي يضحكها. بدأ المساء بالحلول. وهما الآن محتميان من المطر الخفيف تحت أقواس "فيتّوريو إيمانويله"[2]. ترنّ ضحكتها في صدى المكان ويلتفت الناس إلى مصدر الصوت بينما يبتسم سلفاتوره. لا أحد يفلت من تأثير ذلك الوجه الصبوح وتلك الأسنان ناصعة البياض. ويعتريه غضب مفاجئ:
"لا يرسل إلي ذلك الشخص الملعون النقود، رغم أن الأرض وما فوقها ملك لي. أستطيع أن أصرخ عندما يحدثني على الهاتف، ولكن عصاي لاتصل للأسف إليه. لا أريد أن أتسول في منزل كنّتي!"
"لا داعي للعجلة! ولا تقلب وجهك! سيظن الناس أننا نتشاجر، بينما نحن لا نفعل ذلك، أم ماذا؟"

١. Lombardia

٢. Vittorio Emanuele: آخر ملوك إيطالية. ويُقصد بالأقواس ممرّات (غاليريات) مسقوفة مليئة بالمخازن ومفتوحة على الساحة بأقواس.

”فقط كنت أريد . . “

”لا داعي لأن تشرح لي. إني أعرف ماذا تريد . كنتَ تريد دعوتي ، أليس كذلك؟“

’إنها عرّافة‘ ، يفكّر الشيخ الذي كان فعلاً محرجاً ، كونه لن يستطيع الآن أن يدعوها كما تقتضي العادة. سيّما أن قبالتنا باراً جميلاً . ‘

’لقد أصبتُ في تخميني‘ ، تقول أورتنسيا في نفسها سعيدة بأن هذا الرجل لا يستطيع إخفاء شيء عنها . إنه كتاب مفتوح بالنسبة لها .

”إذاً . ادعُني ، ولم لا؟ هذه النقود لأجلك. اعتبر أنك استدنتها من البنك بفائدة.“

”موافق، بفائدة !“ ، يجيبها الشيخ ويقبل نقودها .

وتتلقف ساعده من جديد ، وتتركه هذه المرة يقودها : يرافقها عبر الباب الدوّار ويأخذها إلى طاولة صغيرة عليها ضوء خافت ويجلس معها على كنبة ذات غطاء حريريّ. إنها تزدهر مراقبة كيف يأخذ هذا الفلاح المتمرّس القيادة وكيف يطلب من النادل ما يريد بكل ثقة. ”هذا كاف ! من سيأكل كل هذه الأشياء؟“ ، تعارضه مبتسمة وتجرّب تلك الأشياء بعد ذلك مستمتعةً، وعلى الأخص الغاتّو ، الذي استطابت مذاقه. وعلى هذه الجزيرة النائية ، وحيدَيْن في غمرة الزبائن ، يمر الزمن كالبرق.

”هل تأخّر الوقت إلى هذا الحد؟“ ، تقول أورتنسيا مرتعبة، بعدما نظرت إلى ساعتها . . .

”سيكونون بالمنزل في انتظارك !“

”هم يظنّون أنني في بيت المجانين ذاك.“

”ألم تقل لهم أننا نتقابل؟“

”إن موضوع الجزمة أمر سرّي، لا تنسي ذلك. وفيما عدا ذلك“ ، يردف الشيخ بكل جدية ، ”لا أريد أن أسمع اسمك من فم أندريا .“

’أنا سرّه الكبير‘ ، تفكر أورتنسيا وهي في قمة سعادتها .

”هل تعرف أننا قد تناولنا للتو طعام ليلة رأس السنة؟ لن أستطيع في البيت أن أتناول شيئاً إضافياً .“

"لقد كانت هذه نيتي بالفعل. هل أنتِ الآن مسرورة؟"
"غاية في السرور، وأريد شكر القديس فرانسيس[١]. هل تأتي معي؟"
"أرافقك إلى الكنيسة؟ ليس من عادتي الذهاب إلى هناك."

ولكنه بالطبع يقوم معها ويساعدها في ارتداء سترتها. ويفهم الآن السبب في هذه العادة التي يحرص عليها عليّة القوم. إنها تُشعر الرجل وكأنه يضم المرأة!

لقد توقّف هطول المطر. وتشرح له في الطريق، في شارع مانزوني[٢]، أنها أيضاً لا تذهب إلى القداس، إنما تزور قديسها المفضل "أنجيلو"[٣] الذي أقيم له تمثال هناك. إنها تذهب بخاصة في الأوقات التي لا موعظة فيها، فهي لا تصدق كلمة واحدة من كلمات القساوسة. ويستمران فترة في المشي، يداً بيد، صامتَين. ثم تصيح:
"تستطيع أن تراه، دون الدخول إلى الكنيسة. انظر إليه!"
"الى مَنْ؟"
"الى القديس فرانسيس."

وفي الساحة بحرةٌ ثمانيّة الأضلاع، تشبه حوضاً لنوافير مياه ولكن دون أية نافورة في الوسط. وعلى إحدى الحواف يتكئ راهب مراقباً طائراً صغيراً موجوداً في مواجهته. التمثالان مصنوعان من البرونز. ولقد مثّل النحات هذه الحالة الواقعية بشكل صادق وحقيقي، وأقنع المشاهد من خلال رؤيته الخالية من التعقيد ومن خلال دقة ملاحظته. ينعكس ضوء فانوس الشارع الأصفر بكسل على صفحة الماء ويعطي التمثالين نفَساً من حياة.

"هل تعرف يا برونو أن القديس فرانسيس كان يتكلم مع الطيور. عندما أرى هذا العمل النحتي أفكّر في كثير من الأحيان بأن القديس فرانسيس كان ليعجب به."

---

١. Franciscus (فرانسيسكوس باللاتينية): فرانسيس الأسّيزي (من مدينة Assisi)، تمتّع بمعجزة السير فوق الماء وبمعجزة التفاهم مع الطيور.
٢. Manzoni
٣. Angelo: ربما كانت هذه تسمية الكنيسة [القديس أنجيلو].

"هل كان يتحدّث فعلاً مع الطيور؟" لا يعتقد الشيخ بأن الطيور قد وُجدت في هذه الدنيا كي نتحدث إليها. ولكنه يتخيّل برونيتينو يحمل على يده عصفوراً صغيراً: لا شك بأن برونيتينو سيتمكّن من التحدث إلى الطائر. تعجبه هذه الفكرة وتعجبه هذه البحرة. وفي النهاية أورتنسيا موجودة معه وستقوده بعد قليل إلى داخل الكنيسة.

كنيسة ذات صالة وحيدة، كما في روكاّسيرا، وخالية تقريباً من الناس. إنها مفتوحة الآن ليلة رأس السنة. تتجه أورتنسيا بتصميم إلى ركن حجري وُضع فيه تصوير للقديس فرانسيس وتجلس على مقعد خشبي تستطيع منه رؤيته. وفي مذبح هذا الركن يتراقص ضوء شمعتين تضيئان صورة العذراء. على الجدار عُلّقت لوحة كبيرة أطفأت الأيام ألوانها.

ينظر الشيخ إلى جانب وجه أورتنسيا وقد بدت له من تلك الزاوية كالبحرة في الخارج، بسيطة ورقراقة. شعرها سابل ومعقوص إلى الخلف، أنفها مستقيم، فمها مبتسم. يسرّه أنها لا تتمتم أية أدعية، وإلا شابهت الراهبات الحانيات. إنها العكس تماماً: تضع يديها في حجرها [وليستا مضمومتين أمامها]، تتنفس بإيقاع منتظم يشع من خلاله سلام داخلي وتوازن روحاني. وفجأة تتنهد بصوت خافت ينمّ عن سعادة أكثر منه عن هموم. ويخجل الشيخ من نفسه، وكأنه يتجسس عليها، فيدير وجهه باتجاه اللوحة.

في هذه الأثناء تعودت عيناه على الظلام [الموجود في الكنيسة] ويميز [في اللوحة] القديس كريستوف. إنه واقف في الماء الذي بلغ ركبتيه، يستند بيد على عصا مليئة بالعُقَد ويمسك بالثانية الطفل [يسوع] الجالس على كتفه. إنه ينظر إلى الطفل بكل تفانٍ وإخلاص، بينما تلقي أقدار قادمة عظيمة ظلالها على الأمواج. وبدون وعي منه يتبنى الشيخ تعبير وجه القديس كريستوف لان الطفل، الذي يمسك بالكرة الأرضية رافعاً إياها عالياً، يذكّره ببرونيتينو.

'ولكن حبيبي برونيتينو أذكى وأكثر مرحاً. هذا الباميينو[١] بليدٌ يشبه تماماً التصاوير

١. Bambino: طفل.

الأخرى. ولكن كم هو خائف، يتمسك بشعر القديس كريستوف! إمسك هذا المخلوق الضعيف جيداً أيها القديس كيلا يتبلل!' وتسمعه أورتنسيا يتمتم وتستدير مندهشة، كيف أن شفاهه تتحرك. ولكن لبرهة قصيرة ثم يلبث ساكناً، شاعراً بأن عليه أن يتذكر شيئاً ما محدّداً، شعوراً يكتنفه، ولكن ما هو؟

ويغلق الشيخ عينيه كي يستطيع أن يركّز بشكل أفضل – من المؤكد أنها ذكرى مرّت عليها سنون كثيرة– ، ليرى نفسه قد انتقل إلى كنيسة روكاّسيرا : صوت الخشب يطقطق تحت الأرجل، الخطوات الحذرة، صرير الأبواب، ارتعاش الشموع. الأمر ذاته كما في هذه الكنيسة والرائحة ذاتها، رائحة الشمع في الهواء الرطب. ولكن الذكرى تبقى لغزاً لا يريد الإفصاح عن نفسه. هل هي ذكرى مدفونة في عالم طفولته في روكاّسيرا؟

ويعود الزمن الذي توقّف للحظة إلى السير قدماً. يقف الاثنان ويخرجان إلى الشارع ليعودا إلى شارع بورغوسبيسّو القريب الذي تخطّته أورتنسيا لتحجّ إلى [كنيسة] القديس أنجيلو. ويصبح الجو أكثر برودة؛ وتلتصق به أكثر، ويحثّان خطاهما.

وفي مدخل البناية تودّعه أورتنسيا قائلة :

"أتمنى لك سنة جديدة مليئة بالحظ!"

وتقرّب خدّها منه فيخلع قبعته ويقبلها على خديها الاثنين كما فعل من قبل، حين أهداها الورود. وينتظر إلى أن تختفي في الممر. وعندما تابع مشواره حمل معه ثلاثاً : شعوراً ناعماً في شفاهه، وملامسة لشعرها على جبينه، ومشهداً لأورتنسيا من جانب وجهها اللطيف في عيونه.

٢٩

إن قضاء ليلة رأس السنة في البيت لهو عذاب بالنسبة للشيخ. فبعد أن تناول مع أورتنسيا تلك الوليمة الفاخرة هو الآن مجبر على تذوّق الأطعمة التي بذلت أندريا في تحضيرها جهداً عظيماً، طبعاً متبعةً إرشادات كتّاب الطبخ وملتزمةً تماماً بوصفاته. أما التخمة فلا تحلو لروسكا، لذلك تراها تعض بقوة أكثر من العادة معلنة احتجاجها. أكثر ما يود أن يفعله الآن هو الذهاب للنوم، ولكن كنّته قررت أنهم يجب أن ينتظروا بزوغ السنة الجديدة واقفين أمام النافذة، كما تفعل [برأيها] الأمة الإيطالية جمعاء. ولم يكن الشيخ ليتحمل مجيء منتصف الليل، لولا أخذه سراً للدواء الذي وصفه له البروفسور للحالات الحرجة.

وبعد الانتهاء من القبل ومن تبادل التهاني ولما بدأ قداسة البابا كلمته [السنوية]، انسلّ الشيخ إلى غرفته وفتح الأريكة استعداداً للنوم. ولكنه لم يرد أن يغفو لأنه يعلم بأن الدواء إياه منوّمٌ وأنه لن يستطيع الاستيقاظ باكراً [كعادته]. لذلك يريد أن ينتظر ليرى برونيتينو قبل ذلك، في الساعة الأولى من صباح السنة الجديدة. وحالما تنقطع الأصوات الآتية من الحمام ويتجه الزوجان إلى غرفة نومهما، يأخذ الشيخ بطانيته ويتسلل إلى غرفة الطفل وينحني على الطفل النائم، كما تنحني شجرة الصفصاف، إنه يقبّله بلطف ويتمنى له حياة طويلة مليئة بالنجاحات. ويجلس بعد ذلك على الأرض ويلفّ نفسه بالبطانية ويستند إلى الحائط، كي يبدأ كالعادة نوبة حراسته. وتعطيه البطانية مفتاح الذكرى العالقة التي طالما حاول فكّ أسرها عندما كان في الكنيسة قبالة لوحة القديس كروستوفر. لقد بحث عبثاً في طيات طفولته ولكن ليلة رأس السنة تلك لم تكن متعلقة بالطفولة، إنما ببحرة إحدى النوافير. إن لرائحة هذه البطانية قدرة على تذكيره بطفولته كصبي يرعى الأغنام من ناحية، وبذكريات حياة الفدائية ومغامراتها من

ناحية أخرى. والآن تزيل هذه الرائحة الغشاوة عن ذكرى ليلةٍ عمرها أربعون عاماً: ليلة رأس السنة التي تعرّف فيها إلى دونكا في جوّ دراماتيكي. وعلى الفور يعيش مرة أخرى شريط الذكريات الذي يُعرَض أمامه: المفاجأة التي كانت تنتظره في البار إذ اكتشف بأن ضابط الارتباط الموعود هو فتاة، الشعور المباغت بالخطر المحدق، الهرب في اللحظة المناسبة، طلقة الرصاص التي أصابته في جنبه، والخدعة التي اتّبعاها مع الغستابو[١] حين اختبأا في بحرة النوافير العامة في الماء حيث خاض أيضاً القديس كريستوفر... وكيف أن تلك الفتاة قد قادته عبر المدينة الغريبة عنه بكل شجاعة حتى أوصلته إلى مخبأ للفدائيين حفاظاً على سلامته. وفقط في تلك اللحظة سمحت لخوفها أن يظهر وبدأت بالارتعاش.

لماذا استغرقته الذكرى كل هذا الوقت كي يستحضر تلك الليلة، ليلة رأس السنة التي لا تُنسى في مدينة ريميني؟ إنها ذكرى [حيّة] تكمن في العمق، إنها كالقلب الذي ننسى ببساطة وجوده. وكهبّة من رماد وجمر، تجتاحه ذكرى الشجن تلك. وهنا يسيل الماضي في الحاضر. يأخذ النوم الشيخ بفعل الدواء المسكّن، يأخذه النوم كما كان الحال في الماضي عندما كان يحرس القطيع المتجمع في الحظيرة تحسّباً من خطر الذئاب.

وعكس المعتاد، يستيقظ الطفل –قد يكون ذلك بفعل حلم مزعج–. وعندما يشاهد برونيتينو جده نائماً متقوقعاً على نفسه، تتحرك شفتاه لتشكّلا ابتسامة ويستدير ليستمر في النوم مغلقاً عينيه كقطة مسترخية.

ولكن الأحلام تستمر في التحليق حول الشيخ النائم لربما كان زمن الانتقال من سنة إلى أخرى جديدة، مناسبةً خاصة تحفّزها امرأة ذات عيون فاتحة –أحياناً خضراء وأحياناً رمادية–، تجرّه معها إلى متاهة من الأزقة الضيقة في إيقاع يوقف الأنفاس. كان صعباً عليه أن يجاريها لأنه قد فقد فردة جزمته ولكون دمه –وهذا هو الأسوأ– قد

١. Gestapo: اختصار لغوي ألماني لاسم الشرطة السرية النازية. لقد كان الاحتلال الألماني قد وصل حينئذ إلى ايطالية.

بدأ بالنزف. إذاً، لقد توقفا عن الجري ويقبعان الآن في داخل البحرة، يصل الماء إلى ذقنيهما ويستند ظهراهما إلى الحافة. ويريان أمامهما التماثيل الغارقة في الظلام. فجأة تضاء كواشف النور [النازية] وتُظهِر [لهما] أحد التماثيل الذي يصوّر ملاكاً ممتلئ الأوداج باسم الثغر ساخراً... [وهنا تختلط عليه الذكريات.] فيما بعد يصبح شعره طويلاً جداً (لا يعرف لماذا)، وتسرّح هذه المرأة –وربما امرأة أخرى، لا يدري– شعرَه ببطء، ببطء شديد. تجبره على الثبات وعدم الحركة وتغرز المشط أعمق فأعمق ليبدأ في جرح جسمه وشق بطنه. إنها تضحك وكأنها تعتبر ألمه مزاحاً، وتهديه طائراً صغيراً يتحدث بكلام البشر ويأخذ لنفسه مكاناً على كتف سلفاتوره. ويصبح الطائر أثقل فأثقل ليجبره على الركوع على ركبتيه، مع أنه يستند إلى عصا راع غليظة. لا... إن سلفاتوره يستند إلى ذراع المرأة التي تسرّح شعره، أو إلى ذراع تلك الأخرى، إن كان هناك امرأة ثانية. إنه لم يعد على يقين ويبدأ بالاضطراب.

ولحسن الحظ يستيقظ الشيخ باكراً بالرغم من تناوله الدواء المهدّئ، ويستطيع أن يعود مجدداً إلى غرفته في الوقت المناسب قبل استيقاظ الوالدَين. أما بعد ذلك فيستغرق في نومه حتى الضحى المتأخر لليوم الأول من العام الجديد. وتعترف له أندريا الموجودة في البيت بحكم عطلتها عن العمل، بأنها [بسبب ذلك] قد قلقتْ عليه.

"لا عليكِ. لقد كنت فقط مستغرقاً في نوم عميق. قد أكون بالغتُ في الشراب مساء البارحة، لم أعد أدري."

أما أندريا فإنها تدري تماماً بأن زجاجة الخمر لم تُمَسّ، لذلك تستغرب حديثه وتريد أن تعرف الحقيقة. لا يعطيها الصغير الفرصة [ويقطع عليها أفكارها]، إذ يبدأ بإرسال الإشارات التي تعلن عن استيقاظه. ويهرع الشيخ إلى غرفة الصغير، كيلا يفوّت على نفسه شيئاً من بداية مسرّات الحياة الطفولية [اليومية].

٣٠

لم تأخذ أندريا إعلان حميها برغبته في زيارة نادي المسنّين على محمل الجد، لكنه وفي الساعة الخامسة بعد الظهر ذهب فعلاً إلى هناك. لقد تعرّف على ما يبدو على شخص ما، ذلك لأن الساعة الآن بلغت التاسعة ولم يَعُدْ بعد.

"لنبدأ بتحضير الطعام. سيأتي في الحال"، يقترح عليها ريناتو.

"هل حصل له مكروه؟"

"مكروه، لأبي؟"

ويعرف أن أباه سيتصرف في أي موقف كان. ولكن أندريا لا تستسلم.

"لقد أصبح هَرِماً."

'هذا مؤكد'، يفكّر ريناتو بحزن. 'وفوق ذلك فإنه ...' ولكنه يظهر بمظهر حيوي ومرح يجعل المرء ينسى أنه مريض. وأن مرضه قاتل.

تتصل أندريا بالنادي، وكانت المديرة قد انصرفت. لم يستطع البواب أن يؤكد لها وجود العضو الجديد السيد رونكونه في النزل من عدمه... نعم، فقد استدعى اسمه عبر مكبر الصوت، ولكن هؤلاء المسنّين لا يسمعون أبداً. هكذا علّق الموظف بنبرة تحطّ من شأنهم. أما أندريا وريناتو فإنهما يتبادلان النظرات المتسائلة.

في هذه اللحظة يُسمع دخول المفتاح في القفل، بعدها خطوات حذرة لا تريد إيقاظ الطفل النائم. ويدخل الشيخ بمزاج معتدل، وكأنه قد استمتع فعلاً بوقته. وبعد أن اعتذر بشكل عرضي عن تأخره يقولان له أنهما قد قلقا عليه.

"لا تكونا ساذجَين! ماذا يمكن أن يحصل لي؟"

ويبتسم ريناتو. ! إن أباه على حق. يخلع الشيخ سترته وهو في أطيب حال.
"لقد كان بعد ظهرٍ بديعاً!"

وتذهب أندريا إلى المطبخ لتحضر طعام العشاء والدهشة تأخذها. يُظهر الشيخ شاهية جيدة، حتى إنه يشرب قليلاً من الخمر. وينظران مرة أخرى أحدهما إلى الآخر مستغربين. عندما استلقيا على سريرهما وأطفأا النور، لم تعد أندريا تحتمل أكثر من ذلك:
"ما هذا الذي يفعله أبوك؟"، تقول وتصدر آهة. "إني لا أفهمه. لا أفهمه. إنه ليس من هذا الكوكب."

الكوكب الذي أتى الشيخ منه اسمه "كل عام وأنتم بخير" : عنوان العرض المنوّع الذي نظمته البلدية في الهواء الطلق، في ساحة أكّورسيو[1] وعلى خشبة متحركة. لقد دعته أورتنسيا إلى هناك وجلسا بين جمهور منوّع من جنود وشيب وشباب. وعندما استلقى الشيخ على سريره بدأ باستعراض فقرات العرض المختلفة في مخيلته. وتذكّر ثنائي الدراجات الهوائية البهلواني والمؤخرة البديعة للاّعبة؛ الصندوق والمنشار الذي استعمله الساحر في نشر مساعدته المعروقة التي ظهرت بعدها فجأة تتمشى بين المقاعد؛ الشخص الذي يقرأ أوراق اللعب ويقرأ الأفكار (ولكن هذه بالتأكيد خدعة)؛ وفنانو الأراجيح وبخاصة الصبي المسكين الذي كان عليه أن يعيد فقرة "قفزة الموت" المرة بعد الأخرى؛ وراقصات الباليه ذوات السيقان الجميلة اللواتي كن يرقصن بين الفقرات المختلفة. لكن وقبل كل شيء مانغورّونه[2]، مانغورّونه النجم، المشهور بنكاته وباسكتشاته الكوميدية. "مانغورّونه! المزيد، المزيد!"، هكذا هتف الناس. "مان-غو-رّو-نه، مان-غو-رّو-نه!" وظهر مانغورّونه مرة أخرى وبزيّ جديد على الخشبة ليقدم فقرة إضافية إلى جمهوره الذي يحبه ويحترمه، جمهور ميلانو. وتكاد تفلت منه ضحكة عندما تذكّر فقرة بذاتها. لقد أوهم امرأة أنه قد سحرها

١. Piazzale Accursio
٢. Mangurrone

إلى بقرة حلوب. بدأ بتمسيد ذنبها المتخيَّل وجرّها إلى الجلوس على أربع كي يبدأ بحلبها. 'لقد كان ماهراً في تجسيد المشهد، وواضح أنه يفهم في شؤون الألبان!' وأمام أعين الجمهور انطلق شعاع حليب أبيض باتجاه الوعاء الموضوع تحت المرأة التي كانت تخور من المتعة. (وحرفتها الأصلية مغنية كورال). 'كيف فعلوا هذا؟ ودعى مانغورّونه واحداً من الجمهور إلى الصعود إلى الخشبة وأعطاه كأساً من ذلك الحليب الذي كان حليباً أصلياً'. أما الفقرة الختامية فقد بلغت قمة العرض كلّه. الآن سَحَر مانغورّونه نفسه ثوراً وانقض على مغنية الكورال [البقرة] وفي نيّته أشياء معينة. وبدأت البقرة بالابتعاد متثاقلة وهو يتبعها على أربع، أما الجمهور فقد ضجّ بالتصفيق.

"مشاهدة هذا العرض تملؤك بالمرح أليس كذلك؟ أنا فرحةٌ برؤيتك تضحك بهذا الشكل!"، قالت أورتنسيا.

"هذا الرجل لا مثيل له! أظن أنه فيما بعد سيمسك بالفتاة وراء الستارة و... هل تتصورين هذا!"

"إن مخيلتك واسعة جداً!"

"هذه هي الحياة! حتى إناث الماعز لا يسلمن من الرعيان. اعذريني."

ونظرت إليه أورتنسيا بتسامح.

"إنك تضحك مثل طفل صغير."

"هكذا يكون الضحك"، يردف الشيخ وينظر في عينيها مباشرة، فيتراجع ضحكه أمام الفرح الراقي لأورتنسيا والانفتاح الصادق لروحها.

وفي سريره يتنهد الشيخ مفكراً: 'هذه هي الأم المناسبة التي تصلح لحبيبي برونيتينو.'

٣١

[يوم عيد "الملوك الثلاثة"]

"هل تعجبكم يا بابا ، أقصد أيها الجدّ . هل تعجبكم؟"

"إن منظرهم جميل جداً . شكراً يا أندريا ."

'أيتها العذراء ! لا يمكن لأحد غير أندريا أن يفكر في إهدائي قفازات. نحن لا نرتدي مثل هذه الأشياء. إنها مناسِبة لرجال ميلانو المرفّهين، أو لنساء ميلانو اللواتي لا يعملن بأيديهن. هناك في جنوب البلاد ، في الريف ، لم يكن يلبس القفازات إلا سائق الأمير ، الذي كان يقل الأمير لجباية النقود القليلة الباقية لدينا ولسحبها من جيوبنا . لقد كان إنساناً حقيراً ، ذلك السائق. كان يعتقد أن قبعته وزيّه الرسميَّيْن يخوّلانه جرّ أية فتاة يريدها إلى البرية. وكأن فتياتنا لقمة سائغة للغرباء ! أما مصير الواحدة منهن التي تستسلم للغريب فهو ترك القرية ، لأنها ستصبح منبوذة من الجميع. إذاً ، كان على السائق أن "يهبط" الى مدينة كانزارو ويدفع المال في ماخور سغارّونا[١] . وفي اليوم التالي لم يعد يتفاخر كما كان يفعل ، وأصبح منظره كمنظر الديك المنتوف.'

"لماذا تضحكون أيها الجدّ ، ألم تعجبكم القفازات؟"

"بلى ، كثيراً. ما هذا الجلد الفاخر ! لا شك بأن ثمنها غال جداً. ولكن انظري إلى يديّ ، إن قياس القفازات لا يناسبني."

وتُتَأْتِئ أندريا معتذرة –فلقد اشترت أكبر مقاس– متأكدةً بنفسها من عدم مطابقة القفاز لليد . يحاول الشيخ أن يواسيها ولكن الحقيقة واضحة للعيان. إن القفازات طويلة بما يكفي ولكنها ضيقة جداً بالنسبة لمخالب هذا الدبّ البنّي.

---

١. Sgarrona

"أنا حمقاء فعلاً، آسفة غاية الأسف..."، تقولها أندريا فاقدة القدرة على النطق السليم...، "لم تأتِ ببالي فكرة أفضل لشراء هدية بمناسبة عيد الملوك."

وللمرة الأولى ينظر الشيخ إلى يديه بهذا الفخر. 'إنهما فريدتان في ميلانو،إنهما ليستا فقط قويتين، بل تستطيعان أيضاً تبكيل الأزرار!'

وبعد الظهر يحكي هذه القصة لأورتنسيا، حيث انتظرته في شقّتها تحت السقف محضّرة له مفاجأة: غطاء صوفي للرقبة. وقد اضطرت للضحك، إذ أنها أيضاً فكّرت بشراء قفازات وتركت هذه الفكرة جانباً حالما تذكّرت منظر يديه.

"ما هذا الصوف؟ هنا توجد بالتأكيد إضافات كيماوية." يقول الشيخ متشكّكاً، لأن ملمس الغطاء ناعم للغاية.

"إنه أنعم صوف متوافر. من إنجلترا." توضّح أورتنسيا.

"من إنجلترا إذاً! إنه فعلاً ناعم الملمس."

'لقد كان الإنجليز رفاقاً جيدين. أصحاب عزيمة، رغم صفاتهم السَّمجة والمثيرة في النهاية للملل. أتذكر السيد ...، ما اسمه؟ لقد لقّبناه بـ "التّيريَر"[١]، كاسم الكلب، لأنه كان مقاتلاً جيداً وأنزل خسارات بالألمان. لقد كان يكتب كل شيء ويجبرنا على تكراره. ولقد خسرناه لهذا السبب بالذات. كان يتّبع الخطة بالرغم من حصول تغييرات ميدانية طارئة. التخطيط الذي يزيد على الحد لا نفع فيه.' ويأخذ الشيخ الغطاء الجديد بيد، ويحتفظ بالقديم، متردداً، باليد الاخرى. 'كما يفعل الفلاحون في المكاتب الرسمية'، قالت أورتنسيا لنفسها. 'لا يعرفون أين يذهبون بقبّعاتهم.' "لستَ بحاجة يا عزيزي أن تستغني عن الغطاء القديم. أستطيع أن أخبّئه من أجلك، لحين تود أن ترتديه مرة أخرى."

'ومرة أخرى تحزر ما يدور بخلدي. شيء لا يُصَدّق.'

"إني متمسك به"، يجيبها ويناولها كنزه الثمين. "هو مصنوع من أصواف خِرافي. لقد

---

١. Terrier تسمية لسلالة كلاب تتميز بالشراسة.

حبكَتْه لي ابنتي. وبالمناسبة فقد اتصلَتْ البارحة بي. إنها ترسل إليّ نقوداً و...."
وبكل اعتزاز يصرّح بالخبر الجديد: إن حالة ابن الكلب هناك تزداد سوءاً، ويزوره الطبيب فقط من أجل جبران خاطره. وعندما يزوره الخوري يجهش كانتانوتّه بالبكاء، كما تحكي راهبات المحبة أنه نادم على كل شيء وسيصعد إلى السماء كقديس. 'هذا الشخص قديس؟! إنه يبكي لأنه خائف. يفطس هكذا لأنه ليس برجل!'

ويقدم الشيخ بدوره هديته الصغيرة، ولا يجد في نفسه القدرة على شبكها.

"أوه. هذا رائع الجمال. أجمل من أن يكون لي!"، تقول هذا معجبة غاية الإعجاب وشابكة البروش على فستانها. وكانت تود لو تطلب منه أن يقوم بذلك بنفسه، لكنها لم تستجمع شجاعتها. والآن يلمع جندول صغير فضي دقيق الصنعة على صدرها. طبعاً دون صاحبه. ليس لأن هذا الشكل غير متوفر في المخزن، بل لأن ذلك سيقلل من احترام المرحوم.
"رائع الجمال"، تكرر أورتنسيا. "منذ أن أصبحت أرملةً، لم يجلب لي الملوك الثلاثة هدية بمثل هذا التميّز."
"لا نسمي عندنا هذا العيد بـ"الملوك الثلاثة"، إنما بالبيفانا/الساحرة[1]. وهي ساحرة طيبة (إذ لا توجد فقط ساحرات شريرات) كساحرة جبل إنزوتّا[2] مثلاً التي، كما يعرف الجميع، تفرّق الذئاب وتخمد الحرائق الخطرة."
"عندنا في نابولي تُضرَم النار في عيد الملوك الثلاثة." ترفد أورتنسيا ضاحكة. "يلقي الجيران من نوافذهم أشياءهم البالية، وحتى الموبيليا، ثم نراكم هذه الأشياء في كومة نشعل فيها النار. وتتصاعد ألسنة النار وتتناثر الشرارات لتصل إلى علو النوافذ."

ويعود الشيخ إلى المنزل مع الجزمة الصغيرة التي حفظتها له أورتنسيا. وعندما حان وقت نوم الصغير يُظهر الشيخ هديته محتفلاً، وكأنها كانت طوال الوقت موجودة في الخزانة. وإذ يرفع الشيخ الجزمة الصغيرة بيده الضخمة إلى الأعلى، ينظر ريناتو إلى

١. La Befana
٢. Enzutta

زوجته سعيداً، وكأنه يريد أن يقول: 'هل ترَيْن، هذا هو أبي!' ولم تكن أندريا بالفعل تتوقع هذا الذوق الجيد من ذلك الشيخ. 'من كان ليتوقع هذا من فلاّح قاس؟'

وفقط برونيتينو لم يكن مسروراً. لقد قاوم ضد هذا الشيء الجديد الذي يجرّبونه عليه. وعندما ألبسوه إياه حاول نزعه، صار يبكي ويرفس جالساً ثم واقفاً. ولكنه سرعان ما لاحظ بأن الحذاء الجديد يقوّي خطواته، فبدأ بالنظر بفضول إلى جزمته. إنه يتطلّع إلى الكبار أثناء قيامه ببضع خطوات غير متوازنة، ثم ترتسم ابتسامة تحت الخدود المخضّلة بالدموع. ويمشي بعد ذلك مخترقاً الغرفة إلى أن يتمسك ببنطال الشيخ حامياً نفسه من الوقوع على الأرض.

وتلف السواعد الصغيرة ركبة الشيخ كما يتعشق اللبلاب على جذع شجرة الدردار الضخمة. ما هذه السعادة التي تغمر قلبه وتخنق نَفَسه، تتسرب من ركبتيه إلى بطنه وتصعد حتى عينيه؟ وقبل أن تتحول إلى دموع من قوة التأثر يحمل الشيخ الصغير بكلاّباته الكبيرة، المعادية لكل أنواع القفازات والملائمة للمؤخرة الطفولية، يحمله إلى كتفه.

يضحك الصغير سعيداً مصفقاً بيديه. ويصفق الأبوان أيضاً مهلّلَين. ويشعر الشيخ نفسه كريستوفاً شبيهاً بذلك الذي في لوحة الكنيسة، آخذاً الطفل يسوع إلى ضفة السنة الجديدة، ضفة السنوات الجديدة القادمة.

"ريناتو!"، يقول لابنه. "اسحب لنا صورة."

'وعندما تصبح الصورة جاهزة، سأهدي أورتنسيا نسخة منها.'

٣٢

’أتريد أن تعرف بماذا أفكّر؟ الحقيقة أن الساحرة الطيبة بيفانا هي وراء موضوع القفازات. يجب أن تكون هي التي أوحت إليها بهذه الفكرة! لقد أُصيبت أندريا بخيبة أمل كبيرة... بروفسورة، اضرب واطرح، وكانت قاب قوسين أو أدنى من العويل.‘

يتأمل الشيخ الطفل النائم ويشعر بالرضى. السماء أصبحت صافية، وقد نظّفتها رياح البحيرات من الغيوم. وفي الزاوية العليا للنافذة يظهر القمر هلالاً رفيعاً كالمنجل، يضيء بلون أبيض بارد.

’أنت تسأل بالتأكيد عن مصير القفازات. انظر إلى قدمَي! لقد بدلناها مقابل هذا الحذاء المنزلي. ملعون أبو الشيخوخة. ومتى كنت ألبس حذاء في المنزل؟ في عمرك كنت أمشي حافياً، بعد ذلك ارتديت الصندل أو الجزمة، وهنا الحذاء العادي. ولكن هذه تصدر صوتاً، لذلك سيسمعونني في الحمام أو في المطبخ أو في كل مكان لايوجد فيه بساط على الأرض. ماذا أفعل حين تضطرّني روسكا أن آكل شيئاً لأهدئها أو أن أبوّل كي أترك لها فضاء إضافياً، وتعلم أنها ستفرك هنا وهناك عندما يضيق عليها المكان. إذا لبست هذا الحذاء فسيُسمع صوته على البلاط، وإذا بقيت بالجوارب أشعر بالبرد، لقد تغيّرتُ ولم أعد أنا... لا شك بأن الحذاء المنزلي أمر جيد.

أنت تسمعني أليس كذلك يا بُنيّ؟ لا فرق إن كانت شفاهي مغلقة أو مفتوحة. إن كل من يفكّر بوجدانه سيُفهَم! ضع هذا نصب عينيك. عندما تنظر مباشرة في أعين خصمك وتقول لنفسك: إن تجرّأ أن يقوم بأية حركة فسأوسعه ضرباً، سيرتد عنك، صدّقني. الشيء ذاته، ولكن بطريقة أنعم: إذا نظرتَ إلى امرأة وتخيلتها فعلاً في سريرك، فلقد حصلتَ عليها عملياً. تخيّل! لقد كنتُ كراع في الجبال أفكر كل ليلة في المكان الذي سأقود إليه خرافي في اليوم التالي، وفي الصّباح كانوا يجدون الطريق

من تلقاء أنفسهم تقريباً . حتى الحيوانات تشعر بذلك. لهذا السبب أقول لك إن فكرة القفازات كان مصدرها الساحرة بيفانا .

أستطيع أن أمشي دون صوت كما كنت أفعل في الجبال، ليّناً كقطة برية. كما كنت في الحرب : لم يكن مركز الحراسة المعادي ليسمع خطواتي وأنا مرتدٍ الصندل. وفي حال سمع الحارس أخيراً فإن صوت النجدة لم يكن يصدر من فمه، إنما من حنجرته المذبوحة. كنتَ تسمع صوت دفقات الدم. لقد كنت بارعاً في ذلك ولم يكن حتى "تورلونيو" أقدر مني. وأنت تعرف من كان تورلونيو، لن أكرر عليك قصته. أستطيع الآن أن أمشي دون صوت، حتى أحسن مما كنت أفعل في الحرب، فلا أغصان هنا تطقطق ولا أحجار تنزلق. يجب أن يكون لهذه الشقق شيء واحد نافع. سكون القبور. لا غرابة في ذلك، فالإسمنت يغبّ الأصوات ويحاصرها كما يحاصر الأنهار في بحيرات السدود. ميتة هي هذه البيوت، نعم. وخلاف ذلك بيوتنا في الجنوب، إذ توجد الحياة يا بنيّ في الخشب وفي الطين وحتى في الحجر الذي هو ابن الجبل. إنهم يتحدثون إليك لأنهم مليئون بالحياة. يحكون جميع القصص، وبالذات ليلاً، كالنسوة المسنّات اللواتي يثرثرن عندما لا يقدرن على النوم.

أنت متعجب، ها؟ سترى ذلك بنفسك يا بنيّ! عندما كنتُ صغيراً لم أكن أستطيع فهم لغة البيوت مثلك الآن. لقد كانت مختلفة عن لغة الجبال هناك في الأعالي مع القطعان! لقد كنت أشعر بالخوف من تجاويف المنزل وأحتمي بجسم أمي. ولما كنت أتقلب في السرير، كنت أسمع تكسّر التبن في الفراش، فأمتنع عن الحراك لأسمع أصواتاً أخرى حولي لا أعرف كنهها : صرير وحفيف وصفير. وكأن البيت كله يتمطّى ويتأوه، مطقطقاً حوافه وباحثاً لنفسه عن وضع أكثر راحة. ومع مرور الزمن أصبحت أفهم لغة البيت الذي يحكي كما تحكي خالة ثرثارة. هكذا تعلّمت يا ملاكي. ستتعلم أنتَ أيضاً، لأنني سأزوّدك بكل ما هو مهمّ. أعرفُ، أعرف. لا يتبقى لي كثير من الوقت، ولكنه سيكون كافياً. في هذه الحياة الأشياء ذات الأهمية قليلة. ولكن على المرء أن يدركها كيلا يخطئ.' ويرنو الشيخ بطرف عينه ليرى أن الصغير قد تحرّك في سريره.

'أنت تسمع كل شيء طبعاً . . . حسناً . لقد تعلّمتُ لغة البناء ذاته، بل – توقّف، لقد أخطأتُ – : لغات البناء، لأن كل حجرة فيه حظيت بلغتها الخاصة. الدرج على سبيل المثال. يسمع المرء : آكس-آكس ثم كنورّ، لأن الدرجة الأخيرة لم تكن مثبّتة جيداً. وهكذا كنا نعرف أن السيد مارتينو[1] قد هبط من الطابق العلوي الذي كانت زوجته وابنته تنامان فيه أيضاً. وأين يذهب السيد مارتينو في مثل ذلك الوقت [من الليل]؟ تحب بالتأكيد أن تعرف. فعندما يقول الممر الذي يقود إلى المطبخ : تاب تاب، وتكون الخطوات ثابتة، عندها يكون السيد في طريقه إلى سيفيرينا، أو أغنيزه[2]، أو واحدة من البنات اللواتي يتسلى معهن الحين. أما عندما يتلاشى صوت الدرج ولا تعود تسمع شيئاً فإن المالك يكون قد خرج إلى الفناء. لا يوجد للتراب صوت ولا يتحدّث إلا لليد التي تلمسه وللأنف الذي يشمّه. لقد ذهب الملاّك إلى الحظيرة كي يتفقد حيواناته التي تستقبله كما تستقبل الحيوانات طبعاً : باللبط وبالشخير والصهيل. وهل تعرف يا بني متى كان يجب علينا أن نحتاط؟ عندما يتلاشى صوت الدرج ثم تقول خشبات الممر المؤدي إلى الغرف : كراك-كراك، إلى غرفنا حيث ينام الصبيان الرعيان.'

وعند هذا الحد تصدر من الشيخ ضحكة مكتومة.

'وأحياناً يسرع فتى كان مع فتاته في العراء، فيتسلق النافذة التي خرج منها إذا ما سمع موسيقا الخشبات في الوقت المناسب. ما أفظع أن تُجبر على أن تترك ما بدأت به قبل أن تتمّه! وإذا ما انتبه الملاّك إلى ذلك، يرفع بالباب فانوسه عالياً قائلاً : لي حديث معك غداً يا موتّو أو يا تورّيدو[3] أو أي فتى آخر. وكلما طال الليل، زاد كسل النهار. كما قلتُ لك فإن المنزل يشبه امرأة ثرثارة تمام الشبه. حتى سرير الزوجية، حيث كان ينام الملاّك وزوجته، لم يكن قادراً على الكتمان، فكان يقول قوله: كراش-كراش-كراش التي كانت سرعتها تزيد أكثر فأكثر. كل شيء افتُضح: ليال غاضبة، شهوة،

---

١. Martino (حمو سلفاتوره المقبل).

٢. Agnese, Severina

٣. Mutto, Turridu

أمراض، ولادات... وموت بالطبع. ولكن الحداد على الجثة كان يقلب الآية: لقد سكت المنزل وسُمع دوي بربرة الناس، يتداخل بعضه ببعض. وكأننا في كابوس، وكأن البشر هم الذين يتحدثون إلى المنزل ويسألون كما تُسأل الجدة الخبيرة بأمور الحياة.'

يتوقف الشيخ ويطيل التفكير. لقد عبّر تواً عن حكمة لم يكن يعيها من قبل. فقد كان المنزل، عبر صمته الذي يلي كل حادثة وفاة، كان يتحدث ليقول لهم : لا تخافوا، أنا ما زلت هنا كي تستمروا في حياتكم.

'نعم لقد كان يقول هذا. وعدا عن ذلك... هل تعرف ماذا يا ملاكي؟ الآن تتوضح لي الصورة. لم تكن تلك ثرثرة، بيوتنا لا تثرثر كما حدّثتك. إنها تحكي لنا قصص الآخرين كي نتعلم كيف يتعايش بعضنا مع بعض بشكل أفضل. نتعلم كيف نكون رفاقاً، فدائيين في الحرب. إنها تحكي لنا قصص الآخرين الذين يشكلون الحياة، لأن الإنسان الفرد لا يعني شيئاً. هذا ما تفعله بيوتنا، أما هذه البيوت الميتة في ميلانو فإنها لا تستطيع تعليمنا كيف يعيش بعضنا مع بعض. ماذا لو نشب حريق في ناطحات السحاب التي تعجب أندريا، المحشوة بالبشر الذين لا يعرف أحدهم الآخر ولا يتكلمون معاً– وكأنهم متشاجرون، فلينقذ نفسه من يستطيع إلى ذلك سبيلا! على هذا النحو هم القاطنون: أنانيون!' [بدأت روحه بالاضطراب].

وكانت هذه المعلومة الأخيرة هي التي هزّته، فركع على ركبتيه بجانب سرير الطفل. إنه منفعل لدرجة أن شفتيه تفترّان ويهمس بصوت مسموع :

"الآن أفهم يا صغيري لِمَ آتي إلى هنا كل ليلة. لأبني منزلاً لنا في هذا البيت يخصنا وحدنا ونعيش فيه أنت وأنا كرفيقين. وبالرغم من أن هؤلاء الناس لا يفقهون معنى الحياة، ستتعلم أنت ذلك مني. ولكني لم أكن أبداً أعي ذلك كله، وقد وعيته الآن عن طريقك. إلى جانبك أيها الزميل أفهم أكثر فأكثر. أليس هذا جنوناً؟ إنني أتعلّم أيضاً، إنني أتعلم منك. لا أعرف في الحقيقة كيف، لكنك تدرّسني. آه يا حبيبي برونيتينو، يا عرفاني!"

٣٣

للشيخ حاسة سادسة لا تخطئ. ما هذا؟ يفتح الشيخ عينيه.

أصوات سحب وشحط أصوات وخطوات قصيرة. هذا غير معقول. خطوات متعثرة، من يكون غيره... !

ويستوي بلحظة واحدة في سريره. 'برونيتينو في الممر!'

وبسرعة البرق يلبس حذاء المنزل، وهذه من فضائل الحذاء مقابل الجوارب. 'الى أين تريد الذهاب يا ملاكي؟' ويلف نفسه بالبطانية ويمد رأسه إلى الممر الذي يتسرّب إليه من باب غرفة الطفل ضوء خافت آت من النافذة.

ويتعرف على الشيطان الأبيض الذي يرتدي لباساً تظهر منه ساقاه. إنه في آخر الممر يتعثر، لكنه يتجه بإصرار إلى غرفة أبويه ويختفي داخلها.

'وماذا بعد؟' يفكر الشيخ غير مرتاح لما يحصل. 'يا إلهي! لقد كانت غلطة من جانبك، وأنت تحمّل نفسك مالا طاقة لك به. لقد ساعدَتْكَ الجزمة على المشي وتشعر الآن بالثقة! ولكن الأطفال لا يمشون في الليل على غير هوادة، ولن يسمحا لك بأن تكون معهما في الغرفة، يريدانك أن تنام في غرفة وحدك.'

إن الشيخ لمندهش من جهة، وفخور من جهة أخرى بهذا الصبي الذي هبط عن حافة سريره بمهارة، ومضى دون أدنى خوف يكتشف العالم المظلم. دون أن يبكي، شق طريقه باحثاً عن حقّه : عن أبويه.
'برافو، يا برونيتينو!'
وفي الطرف الآخر من الشقة تُسمع جلبةٌ، وشوَشات، صرير السرير، خطوات الكبار. وبالرغم من أن البطانية التي تلفّه تموّهه في الظلام بلونيها الرمادي والبني، يدلف الشيخ

إلى غرفته ويبقى واقفاً بجانب الباب. يسمع أندريا تتكلم مع الطفل كما يتكلم المعلم مع تلميذه، ويسمعها كيف تأخذه إلى غرفته لتضعه في السرير – صوت السرير ثم الصرخات الاستغاثية الأولى والبكاء العنيد بعد خروج أندريا متجهة إلى غرفتها. من جديد يعيد الطفل الكرة ليصل إلى الممر ويبكي بكاء نصفه شاكٍ ونصفه مطالبٌ، بكاء يصبح أعلى فأعلى.

"ارجع إلى سريرك يا برونيتينو! اذهب إلى هناك، هل تسمع؟ يجب عليك أن تنام، آمرك بذلك!"

ولم يبدُ أن تحذيرات أندريا أوقفت الصبي.

"ألم تفهم؟ إنك صبي شرير وغير مهذب! لقد أيقظتَ الجميع... في منتصف الليل! ستغضب ماما حالاً!"

ويسمع مرة أخرى كيف أن أندريا تذهب إلى غرفة الطفل وتضعه في السرير. 'إني أقسم لكَ إنني سأكون عندك يا رفيق، حالما تختفي أمك!"

ولكن أندريا تبقى لفترة غير قصيرة. وعندما ترجع أخيراً إلى غرفتها لن تسنح له الفرصة للذهاب إلى الطفل لأنه سيبدأ فوراً بالبكاء وبشكل أقوى هذه المرة.

"هذا الطفل!"، تصرخ أندريا نصف غاضبة ونصف محتارة. "لماذا يشهق بالبكاء؟ ماذا يريد؟ هو بخير! لماذا لا يفهم ذلك؟"

ويُسمع صوت ريناتو يتكلّم بصوت خافت مع زوجته محاولاً إقناعها، ثم يذهب إلى غرفة الطفل كي يهدئه.

وبما أن ريناتو لا يخرج من الغرفة، يستلقي الشيخ في سريره مجدداً ولكنه لا يستطيع النوم من قوة انفعاله. 'إنكما لا تفهمان، لا تفهمان! إنكما لا تفهمان شيئاً لأنكما عنيدان! ألم تكونا طفلَيْن في زمن ما؟ ألم تشعرا بالخوف في إحدى الليالي؟ ألم تحتاجا إلى جسد تلتجئان إليه؟'

وبعد ذلك بقليل يعود ريناتو إلى سريره، إذ يخيّم الهدوء فترة من الوقت – إلى أن يستيقظ الصغير مرة أخرى وينطلق بالبكاء. وعند هذه النقطة لا يستطيع الشيخ أن يمسك نفسه ويركض إلى الصغير كي يواسيه. وفي غرفة الطفل يُفاجأ بريناتو.

"اذهب إلى سريرك!"

"لا يا أبتاه، اذهبوا أنتم من فضلكم."

ويمد الطفل ساعديه إلى جده ملؤه الأمل، الشيء الذي يحدو بالشيخ ليعبر عن غضبه. "هل ترى!"، يرى الشيخ في رد فعل الطفل برهاناً على صواب رأيه. "هل ترى!"

"هذا شأننا يا أبي، نحن والداه."

لا يريد الشيخ أن يتنازل عن موقفه ولكنه يلاحظ أن ابنه لن يستسلم، وعليه أن يتراجع، يجب أن يقود المعركة بطريقة أخرى. هو يعلم أن ريناتو يطيع أندريا. حتى الشيخ يخضع لسيطرتها، لقد خوّفتْ برونو ذاته. اللعنة على ذلك الطبيب! اللعنة على تلك الكتب! كنا سنكون بخير دونها.

وغاضباً يجلس الشيخ على حافة سريره. لا يستطيع الاستلقاء وكأن جسمه يلامس روثاً مشتعلاً فيرتدّ مرتعداً. يلف الشيخ ركبتيه بساعديه ويفكّر :

'هذا مروّع! إن هذا العالم يقف رأساً على عقب، إذ يجب على المرء حماية الأطفال من أهلهم. هذا أكثر وحشية من عالم الوحوش... مع أنهما يحبّانه. هل فقدا عقليهما؟ ليست أندريا غولاً، إنما هي متزمّتة. إن الجلاّد الأكبر هو آكل اللحوم ذاك، ذو الخاتم في إصبعه وذو اللحية المدببة، ابن العاهرة الذي يُسمى دوتّوره أو أي اسم آخر يطلقونه عليه هنا. إن هذا الشخص هو الآمر الناهي الذي يضع منديلاً في جيب سترته، ويحمل في يده كتب القانون التي تقول بإلزام الأطفال بأن يقضوا لياليهم وحيدين! مثل هذا الشخص يجب أن يُسفَك دمه. نعم والله.'

ويتخيّل نفسه للُحَيظات ينفّذ هذا القرار، ثم يَعدل عن ذلك.

’لا فائدة من ذلك. سيأتي آخر ليأخذ مكانه.‘

وفي نهاية الأمر يخلد إلى سريره، ولكنه يتقلّب ويظل منصتاً، علّه يضطر إلى التدخل إذا ما ساءت الأحوال. ولا يمنعه من ذلك إلا إيمانه بأن وظيفته هي الوقوف ضد ذلك الشخص ذي المنديل في جيب سترته، ضد الكتب، ضد العالم أجمع –ضمناً ضد ريناتو الذي يستغرب كونَه من لحمه ودمه، ريناتو الذي يحاول الآن أن يجبر الطفل على النوم في جوّ من الوحدة كان أبواه قد نفياه إليها.

’هذا الصغير يُظهر بهذا العمر تلك العزيمة! هكذا أريدك أن تكون! يجب أن تكون مقاوماً ومتطلباً لما هو من حقّك. لا، لم تجلب لك الجزمة سوء الحظ إذ علّمتْك المشي. إنها سلاح تستعمله كي تقاتل بشكل أفضل. وإذا احتجتَ إلى جزمة جديدة فستحصل عليها. سأجلبها لك لأنك مثلي، فدائي حقيقي. إنك مقاتل ليليّ مقدام. آه يا رفيقي برونيتينو: ستنتصر! ستنتصر لا محالة، كما فعلنا نحن في الماضي.

٣٤

فقط عند تباشير الفجر سقط الطفل في نوم عميق خائر القوى. في هذه اللحظة يبدو الوضع عادياً –التحضير للفطور وللذهاب إلى العمل، ولكن التوتر يخيم على الجو والنظرات تحاول ألا تتلاقى والزوجان يتبادلان الهمس.

'حالما تأتي أنونزياتا سأهرب من هنا. يجب علي أن أقص لأورتنسيا كل ما حدث'، يقرر الشيخ بينه وبين نفسه. 'سيكون غضبها أكبر من غضبي، فهي في النهاية أمّ!'

وعدا عن ذلك، فإنه يتجنّب نظرة اللوم الصامتة التي سيوجهها إليه الصغير عندما يراه. رغم أن هذا لن يكون من الإنصاف، فالشيخ لم يخذله. وتحضره هنا ذكرى طواها النسيان، موعظة اضطر أن يسمعها في أثناء الحرب عندما كان مختبئاً في سقف كنيسة. وكان كل عالمه ينحصر بمنظر بهو الكنيسة، يشاهده عبر نافذة صغيرة. كان وقت الفصح، وكانت موعظة قسّ القرية تنقل بتأثّر كلمات يسوع المصلوب:

""إلهي إلهي، لمَ تركتني؟""

ولكن القسّ يوضح أن الله لم يترك أصلاً ابنه ولم يترك إيطالية المحتلة المصلوبة من قبل الألمان. والآن يفعل الشيخ الشيء ذاته : 'لا يا ملاكي. لم أتركك، حتى ولو ظهر الأمر على هذا الشكل. أنا قدّيسك كريستوف الذي يفضل أن يموت معك. إنني هنا وسننتصر معاً!'

وفي أثناء هبوطه الدرج يتذكر ملامح قسّ القرية الشاب. لم يكن أحد يتصوّر أنه يعمل مع المقاومة وأنه، كسلفاتوره، أنقذ حياة كثيرين معرضاً نفسه للموت. ولم يمر وقت طويل قبل أن يعتقله الغستابو ويعدموه. 'ما كان اسمه؟ إن ذاكرتي تخونني وأنسى حتى

أشياء في وقتنا الحاضر، بينما لا يريد إبن الكلب أن يفنى – يتمتّع بشمس الجنوب. أمّا نحن في ميلانو...'

لا تستطيع السماء أن تكون أكثر رماديةً، ولا تفتأ اليد تثبّت القبعة أثناء المسير حاميةً لها من الريح الثلجية. وعندما يمر في طريقه بنوافير القديس فرانسيس في ساحة موسكو[1]، يتذكّر عشية رأس السنة مع أورتنسيا. إن للقديس وجهاً طيّباً، لكن...

"عوضاً عن اهتمامك بالعصافير التي تنقر حبات الخوخ على أشجاري"، يشتم الشيخ التمثال البرونزي، "كان من المفترض أن تهتم أكثر بالأطفال. خاصة وأنك صديق لأورتنسيا." ويسمع صوتاً من خلفه يناديه فيلتفت متعجباً. وعندما يتعرّف على فاليريو، يتذكّر أنهما أرادا اللقاء بعد عيد الملوك. ويؤكد له فاليريو ذلك:

"لقد كنت على وشك الاتصال بكم. سنبدأ بعد غد بتسجيلاتنا." وحين يرى تغيّر ملامح وجه الشيخ يسأله: "هل نسيتم؟ سنهديكم مفكّرة مواعيد تصدرها الجامعة [علّها تساعدكم في تذكر الأوقات]."

"مفكرة مواعيد يعرف أهل ميلانو منها ماذا يخططون، ويسجلون فيها ما عليهم أن يفعلوه في الشهر القادم؟ لا، هذا لن يحصل أبداً يا بنيّ! دعك من هذا الهراء!"

"إذا كان الموعد لا يناسبكم، يمكنني تأجيل أوقات ستوديو التسجيل."

"يلتزم رونكونه بالكلمة التي يعطيها. بعد غد نلتقي في أيّ وقت تشاء."

"سآتي إلى بيتكم لأخذكم."

ويودّع أحدهما الآخر. 'يجلب فاليريو لي الحظّ'، يقول الشيخ في سرّه، إذ يلتقي بعد قليل [مصادفةً] بأورتنسيا التي تخرج من أحد المخازن. إنها سعيدة برؤياه.

"أنت ترتدي اللفاع الذي أهديتك إياه."

---

١. Moscova

"إنه مغازلة من طرفك تداعب رقبتي." وتبتسم المرأة.

من ناحية يخجل أن يقول لها إن غطاء الرقبة يحمل عطرها، ومن ناحية أخرى يلوم نفسه على عدم البوح لها بذلك. ما هذا الذي يجري معه، وكأنه إنسان آخر! ويدعوها لتناول فنجان القهوة. ما كادا يجلسان حتى فضفض عن نفسه وحرّر غضبه من والدَيْ برونيتينو:

"...ولكن هذا لا معنى له! إنهما أعند من البغل – لقد حشوا رأسَيْهما بتلك الأفكار. سمعتها اليوم صباحاً تقول لزوجها: 'لقد قال الدوتّوره ياريناتو إن الطفل سيعتاد. لا يمكننا السماح له بأن يتحكّم بنا.' هل تَرَيْن يا أورتنسيا؟ هذا الملاك الصغير أصبح مستبدّاً! وماذا يُسّمى السلوك الذي يتّبعانه معه، أليس هو التسلّط بعينه؟ هؤلاء البرابرة!"

"لا تبالغ يا برونو. لا يمكن لنا أن نترك الأطفال يفعلون ما يحلو لهم. يجب أن تكون هناك تربية."

وينظر إليها الشيخ غير مصدّق ما تسمعه أذناه. 'كيف يمكن لها أن تقول ذلك؟ من الممكن أن تكون عدوى ميلانو قد انتقلت إليها بما أنها تعيش فيها منذ وقت طويل!' ويجيبها مجروحاً:

"هو أنتِ من يقول هذا؟ ألاّ يفعل ما يحلو له؟ أليس من حقه أن يكون له والدان، في الليل على الأقل! إنه يبحث فقط عن حنان، عندما يخاف في ساعات الصباح الأولى. هل خذلتِ ابنتكِ أنتِ شخصياً؟ لا أستطيع أن أتصور شيئاً كهذا!"

تبتسم أورتنسيا مهدئةً وتضع يدها على يده.

"خذلان..."، تتمتم. "هذا ليس خذلاناً."

'إنها بالغة الطّيبة. إنها تفكّر مثلي، لكنها لا تريد أن تصبّ الزّيت على النّار. هذا ليس ضرورياً الآن والنيران مستعرة!'

"سمّه ما شئتِ. هل اتبعتِ هذا النهج مع ابنتكِ؟ أجيبيني! ويشتكون من أن الأطفال

يريدون مغادرة منزل أهلهم والاستقلال بأقرب فرصة!"

وتردّ أورتنسيا عليه تريد المصالحة :
"آه يا برونو! في يوم من الأيّام سيتركون المنزل بغض النظر عما يعمل المرء من أجلهم. في النهاية سيبقى المرء وحيداً."

وينبعث من صوتها شجن يطفئ غضب الشيخ في الحال. ولكنّه ما يزال سجين انفعاله، لذلك يقول لها برقّة :
"ولكنك لم تفعلي هذا؟ !"

"لا، لم أفعل. ولكن ابنتي تفعله وحفيدتي تنام الآن وحيدةً في غرفتها. هذا هو رأي الأمهات اليوم. إنهنّ يرَيْن في ذلك الأفضل لأولادهن."
"أفضل من الشعور بالأمان؟ هذا ما يقوله ربّما الطبيب ابن الملعونة، المذنب في كل هذا. ما أهمية الأطفال في غُرفه؟ كلما أصيبوا بالمرض، أصبح وضعه أفضل. هل أجانب الحقيقة؟" وترفع أورتنسيا كتفيها، وقد أُسقِط في يدها.
"يبدو أنّك على حق يا برونو. لكنك لا تستطيع تغيير العالم أم أنك تريد قتل ذلك الطبيب؟"
"لقد فكرّت بذلك."

رغم أنه لا يرفع صوته، تأتي النبرة مقنعةً وعازمةً. وترتعد أورتنسيا إذ تتهيأ لها جثة الطبيب ملقاةً أمامها، ثم تضحك بعصبيّة. إذ ذاك يردف بعدوانية :
"لا تصدقينني؟"
"لا تكن شريراً! أعرف أنك على ذلك قدير. ورغم ذلك لن يغيّر هذا من الأمر شيئاً."
"أعلم. سيحضرون طبيباً آخر بالمقاييس نفسها، وسيخسر الطفل وقوفي إلى جانبه، هذا فقط ما ينقذ ذلك الولد الملّمع ذا اللحية المدببة."
"يجب ألاّ تتشاجر مع ابنك وكنّتك، فلن تستطيع بعدها البقاء عندهما. افهم من فضلك : لا يستطيع المرء في هذه الحالة أن يغيّر شيئاً."

"آها ، سنرى في النهاية !"

إن ضحكه المزدري يدعو أورتنسيا لأن تراقبه عن كثب. إنها ترى وجهاً ذا تعبير لئيم ومتهكم وواثق بنفسه. إنها ترى الأعين الصغيرة تلمع بخبث تحت الحواجب نصفَ المغلقة وتحتَ التجاعيد التي قُدَّتْ من صخر.

"بلى. يستطيع المرء أن يفعل شيئاً" ، يردّ عليها بحدة ، "إذا كانت الإرادة موجودة !"

وتحت يد أورتنسيا تتكوّر القبضة [الحديدية] معطية الشعور بتصميم وحشيّ.
"كن حذراً . إنهما والداه. هما يقرران مصير ابنهما ."
"لقد كان الألمان هم من يقرّر. لقد كانوا السادة، هل نسيت ذلك؟ كانوا أصحاب طائرات ودبابات. وماذا حصل؟ لقد استطعنا أن نفعل شيئاً . لقد ملكنا بالشجاعة الجبل والليل، اختبأنا في الجبال وانقضضنا عليهم ليلاً كالذئاب. . . وانتصرت شجاعة المقهورين."

ويتلكأ قليلاً ثم يردف بكل عزم :
"هذا هو الواقع. إن النهار ملك لأصحاب السلطة، وإن الليل ملك لنا ."

٣٥

صمتُ الأموات يخيّم على الشقة، وفدائي هرم واحد يقوم بالحراسة [منطلقاً من غرفته].

وفجأة يصل إلى أذنه المرهفة صوت خطوات قصيرة. ويستقيم في سريره. مفاجأة! لا تبتعد الخطوات هذه المرّة باتجاه غرفة الوالدَيْن. ويكشف البطانية عن سَاقيه ويبحث بيدين مهتزّتين عن حذائه المنزلي. 'برافو يا برونيتّينو! إن طريقك يقود إليّ!' يلبس حذاءه ويبعد عنه البطانية ويلبد في مكانه.

ورغم أنه توقّع رؤية الطفل، إلاّ أن ظهوره مسّ شغاف قلبه. هذا ليس طفلاً تظهر ساقاه من حلّته، إنما هو ملاك ليليٌّ صغير يفتح ساعديه كجناحين. ويسقط الشيخ على ركبتيه مستقبِلاً الطفل الذي يتحسس أحضان جدّه المشتاقة إلى الجسم الصغير، ذي الرائحة الحلوة الدافئة.

'لا شك بأن ساحرة شريرة قامت بإنذار أندريا!' وكأنها قد سقطت من السماء تدخل أندريا على الشيخ الذي ينظر إليها كما ينظر الراعي إلى الذئب، وتخطف الطفل منه.

"هذا لا يجوز يا بابا"، تقولها بحزم. "يجب على الصغير أن يتعوّد."

"على ماذا، ولماذا؟"، يرد عليها بانفعال. "وبحق الإله، لا تدعيني إلاّ "بالجد"!".

ولكنها تحمل الطفل بعيداً مُرتِّلةً عليه محاذير لوائح طب الأطفال. ولكان قد همّ وراءها مندفعاً، لولم يكن لديه خطة ردٍ جاهزةٍ منذ زمن: ففي الحرب للانسحاب يوم وللهجوم يوم.

يبقى في غرفته والدم يفور في عروقه من الغضب، إذ سمع باب الطفل يغلق وتُحكَم أُكرته.

إنه تماماً كصوت رتاج الزنزانة يُغلق في معتقل الغستابو في مدينة ريميني قبل أربعين عاماً .

'دفع بيترونه[1] الثمن. اختاروه من بين السجناء . لقد كان رجلاً ولم يثرثر ، وبهذا كان خلاصي. كان من الممكن أن أكون مكانه.' ويتذكر الشيخ الصرخات والإهانات في البداية ، ثم في النهاية الأنّات والحشرجات عندما كان رفيقه يُعذَّب في الزنزانة المجاورة .

وعاد السكون إلى الشقة مجدداً . الآن ينتظر الشيخ بعصبية مجريات الأمور .

'كنّا رجالاً ، وكان وقت حرب! أما هنا ، فلا أعرف لماذا؟ لأن مثليّاً يقحم نفسه [الطبيب] ، دون أن يعرف مشاعر الحبّ – هذا واضح . إن الأطفال بالنسبة له مجرّد وظيفة ومجرّد وسيلة لكسب المال!'

رغم تنبّه بأن الصرخة الأولى للطفل المحبوس آتيةٌ لا محالة ، فقد ارتعب لسماع ذلك يتحقق. إنه يتخيّل الطفل واقفاً وراء الباب ، لا تصل يداه إلى المقبض. وأثار الصراخ جَلَبة واسعة كما تفعل الطلقة الأولى من وراء الكمين في الأعداء. يسمع الشيخ صرخات المساجين ، فورات الغضب ، أصوات القضبان تطرق على أبواب الزنزانات ، وآهات الألم لبيترونه المسكين عندما بدؤوا يضربونه ويعذبونه بالحرق. ويسمع الحنجرة الحريرية تذكرّ بذلك ، والرئتين الصغيرتين تعبران عن القوة التي لا حول لها .

'هل يقويان فعلاً على تركه ببساطة يصرخ؟' ، يُسائل نفسه متدحرجاً في سريره وكأنه مُستلق على خشبة التعذيب . وأقصى ما يتمناه الآن هو أن يسدّ أذنَيه ، ولكن واجبه هو البقاء صاحياً والأفضل أن يهاجم بدلاً من أن يُفرض عليه الانتظار وهو كامن بلا حركة . وتخاف اليدان اللتان تمسكان الآن بقوة بمسند السرير أن تصبحا عنيفتَين. إنهما تتمنيان أن تذوبا بخشب المسند على أن تبحث عن الخنجر ذي المقبض العاجيّ .

إن صرخات الطفل تلسعه كما تفعل ضربات السوط ، وسريعاً ما تتحول إلى شهقات منتظمة. وتتحول الضربات المستسلمة لليد الصغيرة معبّرةً عن غضبٍ أقل وحزنٍ أكثر

١. Petrone

لا نهاية له. وكأن الصغير يسأل : "لماذا"؟ ، وكأن الهدوء [اللاجواب] في هذه الشقة العدائية يُثقل صدره.

يجلس الشيخ في غرفته وبودّه لو يزرع القنابل ويقذف حوله بالديناميت، حتى تفنى مدينة ميلانو عن بكرة أبيها. ولا يستطيع إلاّ القيام بإرسال تداعيات صامتة إلى الطفل مناصراً. 'اهدأ يا برونيتّينو، سأكون عندك من فوري. لا تصرخ فلن يجدي هذا نفعاً! إنك بهذا تفقد صوتك وسيعذبونك بإعطائك الأدوية. ابق ساكناً! اخدعهما، كي أستطيع الوصول إليك. لا تنهزم، إنني هنا معك!'

ولكن الصغير لا يتقن خدع الحرب إذ ينزف دمُه صامداً في الجبهة الأمامية. وتتبقى له شهقات وأنين بلا جدوى. ضياع. وأحياناً تصدر عنه صرخةٌ أو آهة، ولكن هذا مجرد حشرجةٍ كحشرجة بترونه الذي يفارق الحياة. وتطول الاستراحات إلى أن تحلّ الهزيمة ويعود السكون : إنه فراغ هائل يحوّل المنزل إلى قاع لا قرار له.

ويصل عذاب الشيخ مع ذلك السكون إلى ذروته. لقد كان ذلك متوقعاً، لكنه يمزّق رغم ذلك روحه. ويسيل العرق منه متصوراً الضحية التي لا حول لها أمامه، الصغير الذي لم يعرف تلك الوحدة من قبل. لم يعد الطفل الآن يثق بالشيخ الذي عقد معه حلفاً والذي هرب إلى أحضانه قبل أن يعاني من خيانته. أليس من المحتمل أن يكون قد سقط مغمياً عليه؟ أن يصبح مثل غزال سجين يضرب يائساً يمنةً ويسرى. أمن المحتمل أن يبحث عن مخرج فيزيح الكرسي إلى النافذة، يتسلق عليه ثم يفتح النافذة و... أيتها العذراء!

ولم يعد يرى من حوله إذ شُلَّ تفكيره بوجود هذا الخطر. وينسى الشيخ الوالدَيْن وينسى كلّ شيء. إن إغلاق الباب أصبح كالشرارة التي أدّت إلى انفجار الأمور.

لقد دقّت ساعة الهجوم. نهض الشيخ واقترب دون أدنى صوت ليحرر السجين وليردّ إليه إيمانه بالحياة.

٣٦

يقف الشيخ بجانب سيارة فاليريو متعجباً.

"سيارتكَ؟ ألم تقمْ بقصّ الأغصان لأنّك محتاج إلى المال؟"

"هي ملكٌ لوالدي، وهي قديمة."

"وأنت ثورجيّ لامع، أليس كذلك؟ طبعاً بمساندة الوالد!"

إن هؤلاء البشر يدهشونه المرّة تلو الأخرى. حتى فاليريو! 'هؤلاء ليسوا إيطاليين'، يفكرّ الشيخ الذي ينقصه التسامح في هذا اليوم بالذات. لماذا لم يعتذر عن هذا قبل عيد الميلاد.

إن غرفة الطفل التي تحوّلت إلى معتقل، وضعته في مزاج لا يحسد عليه. ويدخلان إلى الكليّة من بابٍ جانبيّ. مَمرات ضيقة وجدران رقيقة وأبواب صغيرة مزوّدة بلوحات اسمية. يلجان إلى حجرة استقبال تحييهم فيها امرأةٌ شابة ترتدي رداءً أبيض.

'إنها تشبه سيمونيتا. الجاذبية ذاتها.'

"مرحباً يا فلافيا[١]. هذا هو السيد رونكونه الذي سنسجّل له."

"أهلاً وسهلاً."

'وحتى صوتها يذكرني بصوت سيمونيتّا.' [يقول لها:]

"بماذا تقومون هنا عدا عن التسجيل؟"

"إننا ندرس الأصوات."

"همم. يعني شيء مثل دروس الغناء؟"

---

١. Flavia

’إن هذه الفتاة تليق تماماً لخشبة المسرح.‘
“لا. نحن نحللها”، تضحك. “هل تريدون أن "تَرْوا" صوتكم؟”
“هل يمكن للمرء أن يرى الأصوات؟”
“نعم، في خطّ بياني. لحظة واحدة من فضلك.”

ويضعونه أمامه ميكروفوناً وشاشة. وتطبع المرأة الشابة شيئاً [على لوحة المفاتيح] فتبدأ الشاشة بالوميض. ويسمع المرء أزيزاً خافتاً ثم يَظهر في وسط الشاشة خطّ أفقيّ يشبه خط الاستواء.

“قولوا أي شيء!”

وأكثر فأكثر يندم الشيخ على الاشتراك بهذه اللعبة الميلانوية. شيء سخيف! وإذ لم يستطع قمع دفاعه الذاتي العفوي، يسلّط عليهم من حنجرته صيحة جبلية يستعملها الرعيان: “هيبا! هيبااااا!”

ومن فوره يندم [مجدداً] على ما فعل. سيظنون سلفاتوره رونكونه شخصاً متشرّداً، أما نتائج هذه الصيحة فآسرة: إن خط الاستواء على الشاشة قد تحولّ إلى أفاع متنابذة أو رسوم موجات تُشبه حبال السوط. ويبتسم فاليريو. مسروراً [ويقول:]

“هل شاهدتم ذلك؟ هذا صوتكم!”

ويرغب الشيخ في النهوض، ولكن الفتاة تستوقفه.
“اعذروني. هل يمكن أن تعيدوا الكرة؟ أريد أن أصوّر صوتَكم.”
’هل يريدون العبث بي؟ إن هذه السيمونيتّا الجديدة تتصرّف كالأطفال الصغار! إذا كانت تريد المزاح فلا مانع، لنلعب إذاً معاً.‘
“هيبا! هيبااااا! هل هذا كاف؟”
“نعم. شكراً جزيلاً.”
“هل هذا مثير للاهتمام؟”، يسأل فاليريو [فلافيا].

"نعم. جداً. إنه صوت لرجل خمسيني." وتلتفت إلى الشيخ. "لقد تخطّيتم الستّين على ما أعتقد؟"
"السابعة والستين. ولكني سأسلّم الراية قريباً."

وتنظر إليه باستغراب، ثم تأخذ كلامه من باب المزاح. ولاشك أن هذه برأيها هي صفة شبابية إضافية للشيخ.
"سأرسل لك بنسخة يا فاليريو لكي تسلّمها للسيد رونكونه"،

تقول الفتاة هذا مودّعةً بعدما سجّلت المعلومات الشخصية للشيخ في سجلّها.
"إذاً، هذا صحيح؟ يمكن للمرء أن يصوّر صوتي؟"، يسأل الشيخ فاليريو.
"كما يصوّر المرء الوجهَ. أم ظننتم بأن هذا مجرّد مُزاح؟"
'شيء مفرح! صوتي صوت خمسينيّ! وبمجرّد موت ابن العاهرة هذا، وبمجرّد عودتي إلى روكاّسيرا، فإن الناس هناك لن يتوقّفوا عن الاستغراب، عندما سأظهر صورة صوتي في قهوة "بيبّو". هناك لم يسبق لأحد أن "صوّر" صوته، ولا حتى في مدينة كاتانزارو! هم لا يعلمون حتى إن هذا ممكن.'

وفي المكتب الصغير الخاصّ بفاليريو، يحضرّ الأخير جهاز التسجيل.
"لنبدأ! ماذا تقترحون. لتحكوا لنا شيئاَ، يمكن لي أن أعرضه غداً على البروفسور بوونكونتوني."
"ما هو؟"
"شيء ما من منطقة كالابريا. الشيء الذي يخطر على ذهنكم."

ولكن حكاية واحدة ترد على ذهن الشيخ في هذه الأوقات، الليلة تلو الليلة.
"أي شيء يخطر على بالكم"، يُصرّ فالِيريو حين يرى الشيخ متردداً ويضغط على زر التسجيل. والآن ينتقل الشريط من بَكرة إلى أخرى. ويشعر الشيخ بنفسه تحت الضغط. [ويقول فاليريو:]

"بماذا تفكرون الآن في هذه اللحظة؟"

"أفكرّ بطفل. صبيّ في حفرة. طفل مسجونٌ فيها."

هكذا نطق لسانه! وهنا يحاول أن يسيطر على نفسه. 'يجب أن أكون حذراً مع هؤلاء الناس. لا أستطيع أن أقصّ عليهم كلَّ شيء، لأني لا أعرف ماذا سيفعلون بهذه المادّة.'

"جيد جداً"، [يقول فاليريو:]، هل هذه حكاية قديمة؟ أين كان هذا الطفل محبوساً؟"

"نعم. لقد جرى هذا منذ زمن طويل... في مكان يشبه المغارة. والحقيقة إنه لم يكن طفلاً بل صبياً سجنوه وأغلقوا عليه المخرج بالحجارة."

وتدور البكرات. لقد لاحظ فاليريو تغيّراً في سلوك الشيخ: الآن يحاول التركيز. إن الكلمات تهدر خارجة منه. إنه يرتاح لأنه يستطيع أن يتخلّص من الهموم التي تؤرّقَه.

"لقد سجنه أبواه، ملكا البلاد. لم يكونا شريرَيْن وقد أحبّا الأمير بالفعل. لقد كان جميلاً جمال الملائكة!. لكن، وبعد ولادته، جاء ساحر شرير وتنبّأ بأن هذا الطفل عندما سيصبح فتياً، سيقتل أبويه وسيتسبّب في سقوط المملكة. ماذا سيفعلان الآن؟ هل يقتلانه؟ هل يرميانه في البحر؟

لم يستطيعا فعل ذلك، إذاً – لقد سدّا عليه المغارة [وهو على قيد الحياة]، ثلاثة أيام وثلاث ليال..."

'دائماً ثلاثة أيام وثلاث ليال، أو سبعاً في سبع'، هكذا يفكرّ فاليريو. ويؤكد على هذه النقطة التي سيستخدمها في أطروحة الدكتوراه التي يحضرها والتي جعل عنوانها: "عن انتقال الأساطير القديمة في منطقة ميتّوجيورنو[١]". وهنا نسمع أسطورة أوديب، وأبيه لايوس:

"ويسمعونه من الخارج يقول في يومه الأوّل:

أخرجاني من هنا

أخرجا ابنكما

---

١. Mettogiorno

ماذا فعلت أنا
يا أبي ويا أميّ"

لقد قرأ الشيخ بذات الصوت الرتيب وبذات الطبقة التي كانت تقرأ بها الخالة بانغاناتا[١]، رغم أن هذه الأبيات مستقاة من قصة أخرى، كما يتذكرّ الآن (قصة فتاة منبوذة رموها في فوهة البئر). يشعر فاليريو بالسعادة.

"وفي اليوم الثاني كان فقط يبتهل إلى الله، أما في اليوم الثالث فلم يعد يُسمع له أي صوت. وهنا أجهشت الملكة بالبكاء فأخذها الملك بين ساعديه. ثم بدءا يتبادلان الاتّهامات: 'لقد كنتِ أنتِ من أراد ذلك'. 'ليس صحيحاً، بل أنت من أراد...' وتعاطف الناس مع الأمير الصغير وبدؤوا يُزيلون الأحجار من المدخل. ولما وصلوا إلى الطفل، أقصد الصبي، وجدوه في القاع، جميلاً كعهدهم به – ولكن ميتاً. غزّه الطبيب الملكي بإبرةٍ في إصبعه، ولكن لا دَمَ يخرج منه. لقد قال الجميع: سبق السيف العذل."

'يا سلام. إنه راوية محترف'، يفكرّ فاليريو. 'يتحدث كنبيّ. إنه أسطورة ما زالت على قيد الحياة. ستكون الدكتورة روسّي[٢] في قمة السعادة.'

"وهنا قدم شيخ، شيخ هرم. هبط من الجبال بلحيته البيضاء وبعصا الرعيان. 'سأخلّص الأمير'، قال الشيخ [في سريرته]. وهنا رأى الجميع أنه ساحر طيّب وسمعوا صوته الصافي كالزّجاج. هذا ما حصل. وبسكين ذي مقبض عاجيّ فتح ثلماً في وريد ساعد الصبيّ، ثم أخرج قرن الرعيان خاصّته ليسكب منه سائلاً أحمر على الجرح. لقد ظنّ الناس أنه سائل نباتيّ، ولكنه كان في الحقيقة دمَ الشيخ نفسه. هنا عاد الأمير إلى الحياة أقوى من ذي قبل، ونهض وعانق أبويه. ثم عاش وملك سنين طويلة دون أن تتحقق الرؤيا. وإلى آخر حياته بقي يتذكرّ الشيخ الآتي من الجبال، الذي

١. Panganata
٢. Rossi

اختفى حالما نفّذ وعده بتخليص الأمير.»

ويضغط فاليريو على زرّ الوقوف. تسمع تكّة وتتوقف البكرات عن الحركة.

«هل تُحكى هذه القصة في كالابريا بتلك الطريقة؟»

'أية حكاية؟ إنها ليست من الأساطير، بل واقع أصدق من الكتب – ولكن حذارِ من هؤلاء الناس!'

«طبعاً! ولماذا تسأل؟»

«لأن مادة الحكاية قديمة جداً. هي لا شك تنويعة على أسطورة الربّيع: انبعاث الحياة في الطبيعة. والشيء المثير للاهتمام في الأساطير المعروفة هو دور المرأة التي تعطي دائماً الحياة.»

«كيف؟ هل سمعتَ هذه القصة من قبل؟»، يسأل الشيخ مستغرباً.

«ليس بالضبط. وكما قلت لكم، تكون الشخصية المخلّصة غالباً امرأة: عشتار تنقذ تمّوز الأخضر، وإيزيس تعيد أوزيريس إلى الحياة، وهكذا دواليك. هذه أسطورة واسعة الانتشار.»

«هذا ممكن» يردّ الشيخ بحيوية. «ولكن المرأة غير موجودة في قصتي. إن الحكاية هي كما رويتها: شيخ آتٍ من الجبال.»

'رجل خالص، رجل حقيقي'، يكرر الشيخ لنفسه. 'سأقتلع الأحجار عن المدخل وسأعيد إليكَ الحياة. تماماً كما فعل تورلونيو مع دافيد، مع فارق أنّك [بعكس الأخير] ستعيش ولن يصيبك أحد برصاصة.'

وفي هذه الأثناء يُرجع فاليريو البكرَة قليلاً ثم يضغط على زرّ مختلف، كي يتفقدّ مصير التسجيل. ويُسمع صوت الشيخ يعيد الكلمات الأخيرة:

«... وإلى آخر حياته بقي يتذكرّ الشيخ الآتي من الجبال، الذي اختفى حالما نفذ وعده بتخليص الأمير.»

«هكذا هي القصة بالضبط. لا أَنقص ولا أَزيد.»، يؤكدّ الشيخ ذو الصوت الشبابيّ.

٣٧

لقد سقط الثلج طوال النهار وصَنَع غطاءً ثلجياً زاد من انعكاس أضواء فوانيس الشوارع ولوحات الإعلان، الأضواء التي تخترق الجو البخاري المكوَّن من الضباب والدخان. غرفة الطفل مغمورة بضوء سرّي. وفي السكون العميق حيث يغيب الزمن، يُسمع فقط تنفّس الشيخ الذي يترافق مع تنفّس الطفل في مملكة عمادها عهد سحري يربط بينهما.

يمسك الشيخ بين يديه الطفل الملفوف ببطانية، الذي يضع رأسه الصغير الناعس على كتف الشيخ اليسرى ويستند بثقله على ساعد الشيخ الأيمن. إنه حِمل ثمين! وفي الخارج تحميهما طبقة ثلجية، فعلى هذا الغطاء الثلجي الغض لا يخاطر أي ذئب خوفاً من افتضاح آثاره الواضحة.

وفي سبيل الحصول على امتياز حمل ذلك الثِقَل والبقاء بالقرب من ذلك الجدي وتنشق عبيره، يبقى الشيخ دائم التوفّز ونصف نائم. فحتى عبر الباب المغلق لغرفة الطفل، يستطيع الشيخ من غرفته أن يسمع صرير السرير عندما يبدأ الصغير في التقلّب فيه. بسرعة! لا يستطيع التأخرّ ولا لثانية واحدة، وإلاّ وصل برونيتّينو إلى ذلك الحاجز الملعون وبدأ بالنضال وحيداً بالطريقة الوحيدة التي يعرفها : يبكي ويضرب على الباب بقوة. يقفز الشيخ من سريره ويفتح باب الطفل في الوقت المناسب لإيقاف الملاك الصغير، إذ كان الأخير قد هبط من سريره.

ُقف يا رفيقي. لا يمكنك أن تجتاز هذه العتبة. وعندما لا يستطيع المرء أن يتقدم، يتخندق في مكانه. لقد جئت لأقلب سجنك إلى حصن. إنك بالفعل محاصر، ولكني أعلم كيف يمكن كسر خطوط العدو. ولقد نجحت في ذلك عدة مرّات! إهدأ الآن

فإن العدو يسمعنا.'

ويحمل الشيخ الصغيرَ إلى النافذة وكأنه يريد أن يُطلع ميلانو جميعها على انتصاره أو أن يعرّف الثلج، صديقَه، على هذا الانتصار. إنه يهدهد الطفل يمنة ويسرى حتى يستسلم للنوم فيضعه في سريره.

'هل ترى يا برونيتّينو. لقد وعدتكَ، وها أنا عندك في نوبة الحراسة. نَمْ يا ملاكي وتمتَّعْ بالأمان. إن الجديان المرتاعة تهدأ أيضاً عندما يأخذها المرء بين ذراعيه ويتحدث معها. وإذا كنتَ...'

ويسمع مسكة باب غرفة الوالدَيْن يتحرك. وبسرعة يختبئ الشيخ تحت طاولة تغيير الحفاض المزوّدة بستارة تنسدل إلى الأرض. يُفتح الباب ويقتحم شخص منطقتهم. ومن تحت الستارة يرى أقدام أندريا العارية تلبس الخفَّ المطاطيّ.

وتبقى المرأة واقفة دون حراك، تلتقط أية حركة للهواء كما تفعل أنثى الغزال الحذرة. 'من الجيّد أنني أقلعت عن التدخين... وأنها أيضاً لا تمتلك حاسة شم قوية.'

تقرب أندريا من السرير، فيغامر الشيخ بإلقاء نظرة من مخبئه عندما يشاهد عقبَيْ قدميها. إنها، وظهرها للشيخ، تنحني على ابنها، تغيّر مكان استلقائه لتجعله أكثر راحة للطفل ثم تغطيه بكل حنان. 'هذه إشارات أمومية'، يُضطر الشيخ إلى الاعتراف مستغرباً. 'لم أكن أتوقّع ذلك؟'

وفي الغرفة اجتمع ثلاثة من البُكم في ضوء خيالي للمدينة المغطاة بالثلج. في النهاية تقبّل أندريا الطفل بلطف وتخرج من الغرفة. ثم يسمع مسكة الباب إياها، المتحالفة معه، تُغلَق وراء أندريا فيخرج من ملجئه. 'إنه لمن حسن حظيّ أن زيارتها لي في غرفتي لا تخطر على بالها مطلقاً'، يفكرّ متهكّماً. يجلس على الأرضية، ويصل وجهه بصعوبة إلى مستوى حافة السرير بشكل يستطيع معه تيّار أفكاره التواصل مباشرة مع جبين الصغير.

لن تكون وحيداً أبداً بعد الآن يا برونيتّينو. كل لياليَّ ستكون من نصيبك. عندي الكثير لأقصه عليك. سأحكي لك عن كل شيء يجب عليك أن تعرفه، وعن أشياء استغرقني وقت طويل لفهمها لأن عقلي جامد، نعم، وعن كل ما تعلّمته من خلالك. إنك توضّح لي الكثير. إنك ساحر، ساحر صغير لأنك بريء مثل بوربيلا[1] الدرويش الذي بلغ الخامسة والخمسين دون أن يلمس أنثى؛ لكن عيونه الزرقاء كانت تستطيع النفاذ إلى سويداء القلب لتنزع عنه همومه وتَسحب أمراضه، كما يُسحب البيض من تحت الدجاج.

سأحدثّك فتتمكن بفعل صوتي من الاستغراق في النوم، وكأنك تنام في ظل الأشجار قرب الساقية. وهذا أحلى نوم ممكن. هل تعلم أن صوتي شاب جداً؟ إنه على وجه التقريب ليشبه صوتكَ إذا ما وقفتَ قبالة الشاشة تتحدث مهيِّجاً لكل تلك الأفاعي. أُمْنِيَتي كبيرة في أن أسمعك تتحدث! أودّ أن أعيش اللحظة التي تتحدث فيها معي! لا أشك في أن صوتك يُشبه صوتي. صوت رفيق قديم، أليس كذلك؟ لذلك أتكلم معك كرجل لرجل ولا أخترع الأساطير كما أفعل من أجل جهابذة العلم. إنهم يحتفظون بها في آلاتهم، أما أنت فتنصت إلي كما ينصت السنجاب الواقف على أحد فروع الشجرة. إنهم لا يفهمونني بينما أنت تفعل، إذ تعشش الكلمات في روحك إلى أن تصعد في يوم من الأيام فجأة إلى ذاكرتك. لن تعي مصدرها ولكني سأكون وراء ظهورها، كما أصبحتَ أنت سبب ظهور أمور في نفسي أكل عليها الدهر وشرب. أنت تستدعي من أجلي دافيد ودونكا وكل الرعيان. وسأحكي لك أكثر عن دافيد ودونكا فيما بعد. لقد أهدوني أشياء قيمة في حياتي لم أقدّر قيمتها. لم أكن أفهم شيئاً ولم أكن ببساطة أعلم كيف يصبح المرء سنجاباً منصتاً. إنني الآن اجترّ حياتي من جديد كما كانت خرفاني تجترّ طعامها، وهذا لأنك محرّكي الذي يمنحني الشجاعة، ولأن التقدّم في السن يحلّ القيود أيضاً. إن بعضي داخلٌ في بعضي الآخر وكأنني حصاد مدروس يذرونه في الهواء لتنفصل النخالة عن حبة القمح. وكأنهم يضعونك في برميل العنب

---

١. Borbella

فيدوسونك بأرجلهم كي يستخرجوا الخمر منك. [ماتبقى مني] هو قطاف حياتي وأنت تفهم ذلك. سأقصّ عليك الكثير كي تعرف جدّك تمام المعرفة وكي تأخذه معك إلى أماكن لن يستطيع زيارتها بعد الآن. سأكون لك كل ما تحتاجه، سأكون أباً وحتى أماً ليلةً بعد أخرى. نعم، حتى أماً. هل تتصور ذلك؟ من كان ليتجرّأ. أن يفكر في هذا مجرّد تفكير! لن تنام وحيداً بعد الآن، لقد حظيت بهذا الحظ فلم أنمْ وحدي مطلقاً. وفي الشيخوخة تؤانس الذكريات وحدَتَنا. نعم لقد كنت محفوظاً: كصبي راع كنت أقضي الشتاء عند أميّ، وفي البداية كنت أقضي الصيف عند لامبرينو المسكين، ثم عند الرعيان أو الفتية أو عند البقرات اللواتي ينشرن الدفء، وبعد زمن أطول عند الفدائيين. وطبعاً مع النساء! ماذا أقول لك يابني عن النساء؟! عندما تستلقي واحدة إلى جانبك، تشعر بها حتى وأنت نائم: دفؤها، شعرها، ملمسها. يا للروعة! النساء أجمل ما في الحياة حتى ولو خانوك أو مللت منهن. إن وجودهن قربك هو أعظم شيء. سترث تمائمي في هذا الكيس قبل أن أموت، ولكنك أنتَ في هذه اللحظة [التمائم التي] تعيد حظي إلى الحياة: تعيد لي حيويتي وذكرياتي، تعيد لي شوقي ومتعتي اللذين يلتهبان في داخلي. إنّه الحب يا بنيّ، ولا توجد كلمات تصفه. لا، لا. لا توجد كلمات...'

٣٨

ʼما بها يا ترى؟ أيمكن أن تكون غاضبة بسبب النقاش الذي دار بيننا مؤخراً؟ʻ ، يحاور الشيخ نفسه وهو في طريقه إلى شارع "بورغوسبيسّو" . ʼلم أقل شيئاً سيّئاً ، ولكن النساء تتأثر أحياناً من أشياء لا تخطر للرجال على بال. . .ʻ

هو لا يشك بأورتنسيا لأنها امرأة محترمة، رغم أن لأورتنسيا تهيؤاتها ككل النساء. ولكنه إذ لم يقابلها منذ ذلك الوقت، يشعر بأن عليه حتماً أن يعلمها بنجاحاته الأخيرة فيما يخصّ تكتيكه لإنقاذ الصغير.

ما زال الباب يُغلق عليه، لكن فترة التعذيب قد انتهت، ورجع المعتقل من جديد غرفةً للأطفال. لقد هزم الشيخ الوحدة، فإن وجوده مع الصغير رفع حالة النفي عن الأخير. عندما يضحك الصغير في الصباحات، وعندما تداعبه أنونزياتا قائلةً "يا بهجتي" ، يفكّر الشيخ: ʼهذا بفضلي. . . أيضاً مزاج أندريا الرّائق يعود إليّ، إذ تتفاخر بأن الصغير قد تعوّد أخيراً على البقاء بمفرده. ما يزعجني فقط هو الدّوتّوره اللعين الذي بذلك يحتفظ بصحة موقفه.ʻ

إن هذا التكتيك ناجع والصغير فهم مغزى المناورة، فلقد شرحها له الشيخ بكل تفاصيلها عندما كان يضمّه بين يديه – والأطفال يفهمون في هذا الوضع على النحو الأمثل. ʼيجب عليك أن تنتبه حين تدخل أمّك إلى الغرفة وأكون أنا مختبئاً تحت طاولة تغيير الحفاض. لا يجوز أن تُشير إليّ بإصبعك! لا شك أن هذا كان ليسرّك، ولكنك بذلك تفضحني – وهذا ليس مزحة! نحن في حالة حرب ويجب عليّ التمويه، هل تفهمني؟ يجب علينا خداع العدو. لا يجوز أن نخون رفاقنا!ʻ

وسيُفرح أورتنسيا أن الصغير نبيه ومشترك في اللعبة. ʼأورتنسيا تشد من أزرنا وهي

خطَ دفاعنا الثاني. وتساعدنا أيضاً السينيورا مادالينا، لكن الأخيرة توافر لنا الدعم اللوجيستي وغارقة في حربها الخاصة. أورتنسيا ملاذنا، وهي... بالضبط، هي الجبل!'. لهذا يلجأ الآن إليها ويرن الجرس الموجود على مدخل البناء. لا ردّ، مع أن صوت الجرس يصل إلى الأسفل. 'هل اضطُرت إلى السفر فجأة؟ إن هذا وقت وجودها في المنزل!'

ويُفتح الباب من قبل امرأة [تريد الخروج و] تنظر إليه نظرة شك.
"إلى أين تريدون الدخول؟"
"إلى السيدة أورتنسيا. الشقة اليسارية تحت السقف."

ويتغير سلوك المرأة فوراً ليصبح وديّاً ظانّةً أنه قريب لأورتنسيا آتٍ من الجنوب.
"المسكينة! إنها مريضة منذ بضعة أيام. لم تكونوا تعلمون؟ أظن أنها طريحة الفراش. ولكن لماذا هذا الخوف أيها الرجل الطيب! إذا كانت حالتها خطيرة، كان سيتمَ نقلها إلى المستشفى. ادخلوا واصعدوا إليها!"

'ملعون أبو هذا المصعد الخَرِب. وأخيراً وصلنا!'

وكان باب الشقة مردوداً وليس مغلقاً. ماذا سيفعل الآن؟ يدقّ على الباب برفق. لا جواب. 'هل هي وحيدة في الداخل؟ ماذا لو حصل لها مكروه؟ ويحاول أن يكون رابط الجأش فيدخل إلى الممر. ويقابله صوت مرتعب "من هناك؟" يتوقّف ذاكراً اسمه. وتصدر صرخة! وعندما يلقي بنظره إلى داخل غرفة النوم يرى ثنايا البطانية ما زالت تتماوج. ومن تحتها يبزغ وجه أورتنسيا فقط – إنها مغطاة بالكامل حتى رقبتها.

"بالله عليك، لا تدخل!"

ويتسمّر الشيخ في مكانه.
"لا تؤاخذيني. لقد كان الباب مفتوحاً و..."
"اذهب، واتركني وحدي!"
ويرتدّ الشيخ خطوة إلى الوراء باتجاه الممر. متفاجئاً :

"هل علي الخروج؟"

ومن فوره يأتي الجواب.

"كيف تريدني أن أتركَكَ تذهب! أيها المغفّل، أيها المغفّل." وتخنق العبرات كلماتها. الآن بلغت حيرة الشيخ ذروتها. لقد تعقّد الوضع تماماً. هل يُفترض أن يدخل؟ هل عليه أن ينتظر في غرفة الجلوس؟ لماذا تبكي؟ ما هذه الحركات النسائية اللعينة! وتقول له وما زالت تجهش بالبكاء:

"ادخل، ادخل. لا تقف هكذا!"

ويدخل الشيخ [وجلاً. تقول أورتنسيا:]

"أرجو المعذرة، ولكني أشعر بضعف كبير. وعدا عن ذلك فأنتم الرجال فعلاً بطيئو الفهم. ألا ترى مظهري البشع؟ لا شك في أن شعري في حالة رهيبة!"، ثم تعلو وجهها ابتسامة متملّقة وتقول: "ولكنك لن ترتعد من هذا المنظر، أليس كذلك؟"

[والآن فقط،] ومع سماع هذه الجملة الأنثوية التقليدية، يستعيد الشيخ ثقته بنفسه. يقترب من السرير ويتطلّع إليها. تمسح أورتنسيا دموعها بزاوية الغطاء دون أن تُظهر يدها. ويرى منديلاً نظيفاً موضوعاً على الطاولة الصغيرة بجانب السّرير فيأخذه ويمر به على الوجه المحاط بالشعر الأسود المفرود. وتمسح القبضة الهائلة، المدربة على تبكيل الأزرار الدقيقة، بقايا الدموع. وتأسره تلك الابتسامة الأنثوية.

"برونو، برونو. قد يكون مرضي معدياً"، تهمس أورتنسيا بلهجة لا يمكن وصفها بالمقنعة عندما ترى شفتيه تنفرجان عن أنيابه الذئبية وتتهيأان لتقبيلها. وبسبب هذا الخطر "المحدق" تغيّر الشفتان طريقهما، بعدما كانتا صاعدتَين إلى الجبين، فتهبطان إلى الفم طابعتَين قبلةً قصيرةً. يستقيم جسم الشيخ بعدها ويقول:

"قصيرة فقط".

ينظران أحدهما إلى الآخر سعِيدَيْن. ويجلس الشيخ عند مسند السرير ويقصُّ كل منهما

على الآخر :

بعد لقائهما في القهوة مرضت أورتنسيا مرضاً شديداً منعها حتى عن الاتصال الهاتفي. كيف حال الصبي؟ آه، هذا جميل، هذا رائع.

ينتظرون نتائج الفحص فقد تكون كبدي مصابة، وإلى ذلك الحين عليّ عدم مغادرة السرير. لا توجد آلام وأمورها بخير. تقوم ابنتها بجلب أطعمة الحمية التي لا طعم لها. ومن وقت لآخر تقوم بتفقّدها جارتها دونا كاميلا[1]. هي امرأة طيبة بالرغم من أن ابنها لا يمشي في الطريق القويم، فقد وصل إلى حد تناول المخدرات. وتعد لها ابنتها أيضاً طعام الفطور، لكنها تأخرّت اليوم عن الحضور.

"تجاوز الوقت الساعة العاشرة. كيف تستطيع إهمالك بهذا الشكل!"

"آه. إن فتاتي المسكينة مثقلة بالواجبات!"

ويمتعض الشيخ مفكراً بأن جميع الأولاد متشابهون. ويسألها عمّا تأكله عادةً وما يلبث أن يتجه إلى الباب.

"توقف! ليس بهذه السرعة، إنما خطوة بخطوة، أعطني هذا الشيء الموضوع هناك على الكرسي."

"الشيء الموضوع هناك" هو غطاء مشغول بالصنّارة ذو لون ليلكي مزيَن بالشرائط؛ وضعه لها على السرير، دون أن تُخرج يدها من تحت الغطاء لتأخذه.

"والآن أحضر لي فرشاة الشعر مع الأمشاط الموجودة في الحمام، ومعهم المرآة التي بجانبهم."

ويجيء الشيخ بتلك الأغراض التي يضعها على الطاولة الصغيرة إلى جانب الأدوية وإلى جانب زجاجة الكولونيا[2]. لقد أحالت ابتسامة السرور المطبوعة على وجهها الأمر

١. Dona Camila

٢. Eau de Cologne : ماء كولونيا (مدينة كولن الألمانية).

كله إلى لعبة طفولية لطيفة.

"والآن اذهب إلى المطبخ، وانظر كيف سيمكنك إيجاد الأشياء. هذا إذا كنت تفهم بأمور المطبخ."

"يمكن للراعي أن يدبّر أحواله في أي مكان كان."

"وعندنا راع ليس كغيره من الرعيان! ولكن لا تخرّب شيئاً...". ولا يخرج من الغرفة حتى تردف:

"وحذارِ أن ترجع إلى الغرفة قبل أن أدعوك!"

ولكنها تناديه ولمّا يمضِ على ذلك دقيقة واحدة. ويجدها جالسة، تظهر على وجهها علائم التعب. يبدو أنَ مغادرة السرير قد أجهدتها.

"ساعدْني من فضلك... أشعر بضعف شديد!"

ويتأثر بصوتها الشاكي. إنها الآن لا تحاول إخفاء جسمها ولا تجميل نفسها. وتستسلم للأيادي القوية التي ترفع الجسد الضعيف برفق. لا تحاول أن تخفي فتحة قيمص نومها وتُهدي أذنيه المرهفتين تنهيدة ملؤها الشعور بالراحة وبالتحسّن. ويتحسس الرجل عبر قماش قميص النوم جسداً يانعاً مصاباً بالحمّى. يا للعجب! لا يوقظ فيه هذا الجسد رغبة جنسية، ولكن مجرّد عاطفة قوية. ماذا جرى له؟ منذ أن وطئت قدماه ميلانو لم يعد هو نفسه، هذا ما يشعر به ويعيه يوماً بعد يوم. هل أصبح هرماً، أم أن هذا من فعل الحيّة [روسكا]؟ وبينما يسند المرأةَ بيديه يرى في مخيّلته فجأة تمثال المحاربَيْن في المتحف، الشيء الذي يزيد في اضطرابه. لقد عنونوا التمثال "بالشفقة"[1]. هل يلعب دور "المادونا"[2]، أم أن هنا "Pietá" خاصة بالرجال؟ لقد أصبح مشتتاً تماماً.

"هل أنت مرتاحة في الجلوس؟"

---

١. تمثال السيدة العذراء تسند السيد المسيح للنحات العبقري ميكل أنجيلو Pietà: والمقصود هنا على الأغلب النسخة الأخرى من التمثال التي ورد ذكرها سابقاً. (النسخة الأساسية -في الفاتيكان- تمثّل العذراء جالسة والمسيحَ مسجّى بين ذراعيها.

٢. السيدة (العذراء).

"نعم. مرتاحة جداً. شكراً يا برونو."

وتمسك بإحدى قبضاته في يديها وتشد عليها بطريقة تجعل الرجل المسكين يخرج عن ثباته. يهرب إلى المطبخ ليعد لها طعام الفطور.

وعندما تصل ابنتها تجد الاثنين مستغرقَيْن في الحديث. ترميه المرأة بنظرة فضولية ثم تعنّف والدتها لأنها تركتْ السرير. ولكن المرء يلاحظ أنها مسرورة من كونها لن تخسر كثيراً من الوقت قبل أن تغادر مسجّلةً الأشياء التي يجب عليها الإتيان بها في المرة القادمة.

يبقيان وحدهما. ويعيش الشيخ قبل ظهر ساحر. إنه يستمتع بخدمتها ويتّبع حتى تعليماتها التي لا يرى منها فائدة تُذكر، مثّل مسح الغبار عن قطعة موبيليا في وقت تكون فيها تلمع من النظافة – حالها حال الشقة بكاملها. يُحسّ وكأنه يهتم بحفيده، ولكنها الآن امرأة محتاجة لمساعدته. وعندما اضطُرت لذلك، أخذها إلى المرحاض وأعادها إلى السرير الذي رتّبه في تلك الأثناء. رأتْ أورتنسيا ذلك فقالت:

"السرير أيضاً يا برونو! أنت رجل لا كالرجال!"

'ماذا؟ هل هذا عمل رجولي؟'، يسأل الشيخ نفسه وهو في الطريق عائداً إلى البيت، بعد ما رفضتْ أن يبقى عندها. 'ما هذا الإحساس الرائع الذي يعتري المرء عندما يهتم بالآخر؟ إن النساء لمحظوظات. ليس دائماً، على الأقل في خصوص الاعتناء بالآخرين. الآن أفهم ماذا فعلت دونكا عندما ضمّدتْ جراحي واهتمّت بي لمّا كنتُ غير قادر على المشي. دونكا! كم كانت مختلفةً عن أورتنسيا وكم هي شبيهة بها! لماذا لم أفعل ذلك مراراً، ولماذا لم أهتمّ بأحد بمثل هذا الاهتمام؟ لكن كيف كنت لأفهم ذلك، ولم يعلمني أحد. لقد ترعرعت على الكفاح في هذه الحياة. ولكن الوقت ليس متأخراً الآن، أليس كذلك يا روسكا؟ لقد بدأتُ ببرونيتّينو الذي دلّني بدوره على أورتنسيا. إني أرجوك يا روسكا، فكّري بالصغير الذي ما زال بحاجةٍ إليّ. لا تلحّي عليّ، هل تسمعينني؟ وإلا سيُصدم الطبيب غداً [عندما يفحصني]'.

٣٩

"السيد رونكونه! تفضل."

هي ذات الممرضة كالمرّة الماضية، تنبئ بالقيام بذات الإجراءات. وقد أجبر نفسه في الصباح على تناول ذات المحلول تحت أعين برونيتّينو، الذي صرخ بكل صوته يريد نصيبه منه. لقد تسلّح الشيخ بالصبر ليواجه التعذيب المتوّقع، ولكنه أخطأ. إنّ تشابه المرة الأولى مع الثانية قد انتهى في اللحظة التي دخل فيها إلى العيادة. ففي الجهة الثانية من غرفة الفحص ينتظره البروفسور دالآنوته شخصياً ويمد له يده.
"كيف الأحوال عزيزي رونكونه؟ كيف تشعرون؟"

ويُحسّ الشيخ بنفسه مباغَتاً، حتى إنه لم يستطع أن يردّ التهذيب الذي قوبل به بمثله.
"تفضّلوا... لن نعَذّبكم هذه المرّة، نريد فقط أن نعرف تغييرات مشكلتكم." ويبتسم البروفسور [ويقول:].
"الحيّة، أليس كذلك؟ ما كان اسمها؟"
"روسكا، بروفسور. روسكا." يردّ الشيخ عليه بابتسامة ويضيف:
"اعتقد أنّها تزداد وزناً."
"نعم، بالضبط، روسكا. سنرى حالاً. اخلعوا ملابسكم من فضلكم."

ويأخذون الشيخ إلى غرفة الأشعة بعدما ألبسوه الرّداء الأخضر هناك يستعرض البروفسور الصور القديمة ويطلب من الشيخ الاستلقاء تحت الجهاز ويبدأ بفحصه.
"آها. هنا توجد ذكرى[١] تحرير مدينة كوسينزا[٢]. وبالمناسبة، فهل تعرفون السيناتور

١. (رصاصة).
٢. Cosenza

زامبريني[1]؟"
"الشيوعي؟ لا. فقط بالاسم."
"ولكنه يعرفكم. جيد. لقد انتهيتُ. سأراكم حالاً."

ويذهب البروفسّور ليقدم مساعدُه بأخذ عدة صور، ثم يطلب من الشيخ ارتداء ملابسه في حجرة تغيير الملابس.
"أهذا كلّ شيء؟"
"هذا ما يحتاجه البرفسّور. لقد فحصناكم في تشرين الثاني بشكل مفصّل. لا توجد بهذه السرعة تبدلات تُذكر يا سيّد رونكونه"، يقول المساعد مبتسماً.
'بلى!'، يعقّب الشيخ في دخيلته، بينما يلبس ثيابه لامساً كيس التمائم. 'وإلاّ لما أرادوا فحصي مجدداً يا أيتها العذراء. لماذا لا يستسلم ابن العاهرة كانتانوتّه إلى الآن!'

والآن لا يأخذونه إلى العيادة الرئيسة، إنما إلى حجرة صغيرة: يجلس البروفسّور فيها إلى مكتبه؛ يقعد الشيخ قبالته على الكرسي الوحيد الموجود، وينتبه إلى عاكس النور ذي الساعد المتحرك، الذي يشبه في بساطته ما يستعمله التلاميذ. يبتسم البروفسور محيياً.

"نعم، عزيزي رونكونه. السيناتور زامبريني يعرفكم، وهو صديق مقرّب منّي رغم أنني لست شيوعياً.

حتى إنّي لا أهتم بالسياسة. وأنتم تعرفونه أيضاً. لقد حاربتم معه في مدينة كوسينزا."
"آسف. لا أتذكر، مع أنني في الحالة العادية أستحضر ذلك الزمن الجميل بكل تفاصيله."
"قد يكمن السبب في اسمه الذي كان وقتها مختلفاً: ماورو[2]. واسمكم برونو، أليس كذلك؟"

---

١. Zambrini

٢. mauro

وبطرفة عين تبرق الذكرى في وجدانه.

"ماورو! لقد قاد الكفاح المسلح في منطقة السيلا الكبرى في جبل سوربيللو[١] على بحيرة آرفو[٢]!

كيف عرفتم اسمي الحركي؟ وكيف ربطتم ما بين الاسمين؟"

"لقد كان زامبريني في ميلانو قبل أسبوع. تحدثنا عن الزمن الغابر فتعرّض إلى مدينة كوسينزا. لقد حكيت له عن مريض لي، تستقر في جسمه إلى اليوم رصاصة [تلقاها في كوسينزا].

وعندما وصفتكم له عرفكم فوراً. "هو برونو لا شك في ذلك!"، قال زامبريني وعبّر عن رغبته الشديدة في لقائكم عندما يأتي إلى ميلانو في المرّة القادمة."

"همم. يلقاني أنا؟ زامبريني هو إذاً ماورو... إن الرجال أمثاله نادرون يا بروفسور!"

"ويعود الفضل إليكم في وجوده اليوم على قيد الحياة. لو لم تأتوا في تلك الليلة في الوقت المناسب لكان الألمان قد سلخوا جلدكم. هذه هي كلماته "سلخوا جلدنا"!"

"لم يجانب الحقيقة"، انفرجت أسارير الشيخ. "لقد حصل الألمان على أسلحة راجمات النار وبدؤوا بحرقنا أحياء. لكن رجالي فاجؤوهم وغنموا منهم سلاحَيْن استعملوهما ضدهم. بعد ذلك رمينا السلاحَيْن في بحيرة كراتي[٣] لعدم وجود الوقود. أسِفنا لذلك، لقد كان هذا الاختراع فتّاكاً! لم يكن عندنا شيء إلاّ السلاح الذي غنمناه. من كان يظن أن ماورو سيظهر! يبدو أن ماورو مازال مقداماً كما في السابق، رغم أنه كالآخرين قد اتجه للعمل في السياسة."

"لقد حكى لي زامبريني عن كثير من أعمالكم البطولية" - وعند سماع "البطولية" يهزّ الشيخ يده معترضاً -، "مما يدعوني أن أطلب منكم التالي: أرجو أن تنسوا كل ما قلته لكم في المرة السابقة وأن تعتبروني صديقاً لكم. صدّقوني، شخصيتُكم

---

١. Sorbello

٢. Arvo

٣. Crati

ليست ككل المرضى. الغالبية العظمى تحتاج إلى مثل تلك الكلمات... إذاً، عفى الله عما مضى؟"

"لقد تجاوزتُ ذلك منذ زمن بعيد، فما بالكم إذا كنتم صديقاً لماورو؟"

"وشيء آخر. صحيح أني لست راعي غنم، ولكن جدي كان من الرعيان."

"أين؟"، يسأل الشيخ بفضول.

"في الشمال، في منطقة الدولوميت[1]. هذه هي الصورة الفوتوغرافية الوحيدة التي بقيت عندي."

وعلى الحائط صورة مصغرّة. العيون الفاتحة ذاتها عند الجدّ والحفيد. بشارب، وببّزة صيّادي الجبال في زمن الحرب العالمية الأولى: بالقبعة المدبّبة ذات الريشة في حافّتها، الموضوعة على الرأس بكل فخر.

"ألا ترَوْن أيها الصديق العزيز رونكونه أنه لنا روابط مشتركة؟"

وهنا تأخذ الأمور منحىً جدياً.

"في هذه الحالة يمكنكم أن تؤدّوا لي خدمة، رفضتم في المرة الماضية أداءها. قولوا لي: كم بقي لي من الوقت وهل اكتشفتم اليوم شيئاً جديداً؟"

"لا. إن روسكا تمضي قُدُماً ولكنكم تقفون في طريقها. ولقد أجبتكم في المرة السابقة وقلت لكم بأن التنبّؤ غير ممكن. لم يكن غيركم في حالتكم ليبقى على قيد الحياة، أما أنتم فكالفولاذ، شكراً لله."

"حددوا لي فترةً قصوى. إن هذا مهم بالنسبة لي."

ويبدأ البروفسور بسؤال الشيخ بالتفصيل عن عدة أمور: وضعه الصحي، آلامه، ردة فعل جسمه على أطعمة معينة، خروجه، بوله. لقد كانت أسئلته على درجة كبيرة من الدقة دعتْ الشيخ ليقول:

"أهنّئكم على مهارتكم أيها البروفسور. إنكم تسألون وكأنكم تعايشون هذه الأعراض بنفسكم."

---

١. Dolomit: منطقة في شمال شرق إيطالية.

وينظر البروفسور إليه نظرة ثاقبة، وتشعّ عيناه الزرقاوان الفاتحتان في العتمة، إذ يصل نور مصباح الطاولة إلى وجه البروفسور متوقّفاً عند ذقنه. يأتي الجواب بطيئاً.

"لا تهنّئوني. إني مصاب بذات المرض."

هذا لا يخطر على البال. إن الحزن الذي اعترى الشيخ قد يفوق معاناته الشخصية.

"ولكنكم في عمر الشباب"، يقول الشيخ معترضاً على القدر.

ويهزّ الطبيب كتفيه. والآن يرى الشيخ أعقاب السجائر المتجمعة في المنفضة.

"هل تدخنون؟"

ويعيد الطبيب هزّ كتفيه.

"تستطيعون أن تدخنوا... من واجبنا أن نمنع ذلك!"

"لقد أقلعت عن التدخين من أجل خاطر حفيدي."

يهزّ الطبيب رأسه ويقول حزيناً:

"عمر ابني ستة عشر عاماً."

ويصمتان معاً ويُنصتان إلى السكون، وكأنهما ينتظران الكلمة الأخيرة من حاضر ثالث غير مرئيّ.

"لم أسمع منكم إلى الآن تحديداً للوقت المتبقي لي أيها البروفسور"، يقول الشيخ أخيراً.

"سأقول لكم لأنكم تستحقون ذلك، ولكن دون ضمان: تسعة أو عشرة أشهر، على الأغلب أقلّ من سنة. ولا تسألوني عن الحد الأدنى المتبقي، فقد يكون يوماً واحداً لاغير. وهذا ينطبق عليكم وعليّ وعلى الجميع."

"تسعة أو عشرة أشهر!"، يقول الشيخ وهو في أوج سعادته. "إنكم تهدونني الصيف بأكمله! شكراً أيها البروفسور، بالنسبة لي هذا كاف!"

"هل هو وقتٌ كاف لموت جاركم المشلول؟"، يبتسم الطبيب غامزاً. "كيف حاله؟"

"في أسوأ حال! هو إذاً على الطريق الصحيح. ولكن ليس هذا فقط. يجب علي الانتظار حتى أسمع حفيدي يناديني "nonno"، أو "nonnu" كما نلفظها نحن. أريد أن آخذه معي في الصيف إلى روكاّسيرا، كي يتعرف إلى بيته وقريته وأرضه."

يبتسم البروفسور. ويكتشف الشيخ بغتة بأن ابتسامته هي ذات ابتسامة دون غايتانو، طبيب مدينة كاتانزارو، التي خصّ بها مرضاه الآتين من القرية. ولا ينقصه إلاّ سيجارة تزيّن زاوية الفم، أما عدا ذلك فالابتسامة واحدة: جريئة، مليئة بالألم، في منتهى الإنسانية.

٤٠

يجلس الشيخ في كرسيه القاسي الهزّاز قرب النافذة، بعدما وضع الصغير في سريره استعداداً للنوم.

يرّن جرس الهاتف وترفع أندريا السّماعة.
"بابا ، أقصد أيها الجدّ ، روزيتّا على الطرف الآخر."

'هل أرى عيون أندريا تلمع، بعدما تبادلت بضعة كلمات مع روزيتا؟ هل وقعت الواقعة؟' فكرّ الشيخ قبل أن يمسك بالسمّاعة. لقد "وقعت" بالفعل.
"أ هذا صحيح؟ متى ستكون الجنازة؟"

وينصت دون أن يركّز على السمع. من الطرف البعيد يتناهى إليه صوت يخبره بحدث لطالما شاهده في أحلامه. البالون الممتلئ الذي كان مستقراً في صدره قد انفجر. لقد وضع السماعة من يده بشكل ميكانيكي، ولم ينتبه إلى أن الأولاد قد أصبحوا بقربه. يشاهدهما ويعلن ببطء :
"لقد فطس، انمحى، نفق."

ودُهش الأولاد من برودة الموقف. ودُهش هو أيضاً ، لأن هذا الذي تمنّاه بشدة يبدو وكأن صلاحيته قد نفِدت. في الوقت ذاته يشعر بفراغ كبير، وكأنما سُرق منه شيء.

وبتثاقل يذهب إلى غرفته ويستلقي على سريره دون أن يشعل الضوء. يشد البطانية حتى تصل إلى ذقنه ويستنشق الرائحة التي رافقته على درب حياته كلها. إنه مفتوح العينيين، لكنه لا يرى الحائط في مواجهته، إنما ساحة القرية المغمورة بأشعة الشمس. يرى أصدقاءه واقفين بجانب باب قهوة بيبّو ، أو مستندين إلى جدران البيوت. يرى

بضع مركبات قد أتت من كاتانزارو، من ضمنها سيارة دفن الموتى، الأفخم في المدينة. يسمع أصوات الجوقة الموسيقية. ويستطيع أن يخبر بدقة عن الأشخاص الذين يرتدون ملابس الحداد ويمشون في المقدّمة، وعن الآخرين الذين يمشون خلف موكب الجنازة. يسمع نواقيس الكنيسة تدقّ...

حتى الجثمان المسجّى في الكفن، يراه يتحرك ويهتزّ مع اهتزاز السيارة السائرة على الطريق غير المعبّدة، ويرى الثؤلول على لحُيَمْة أذنه، ذلك الذي كان عليه أن يقصّه قصّاً. ويسأل نفسه: هل تركوا على وجهه النظارة الفاشستية السوداء؟ إنه يرى كلّ شيء وكأنه هناك معهم.

يعي تنفسّه المنتظم [شاعراً بطعم الحياة]، ويمرّ بيده على الكيس المعلق في صدره، على عضوه التناسلي، على فخذيه: 'شكراً يا روسكا. أنت فتاة طيّبة. وأنتِ أيتها العذراء ستحصلين على شمعتك.'

في الوقت الذي تُهديه فيه الحياة هذا النصر العظيم، لا يشعر أنه يمدّ يديه إليها. إنه يتوّقف عن فهم نفسه ذاتها.

وفي غرفة الجلوس تقول أندريا لريناتو شبه غاضبة من صمت الشيخ: "هل تفهمه أنت؟ ماذا جرى له، ماذا يريد؟ ألا تتذكر كيف طار من الفرح حينما أخبرتْه روزيتّا بتدهور صحّة ذلك الآخر؟ لم يبق إلاّ أن يأسف لموته!"

"قد يشعر الآن أنه سيلحقه عمّا قريب" يقول ريناتو ملؤه الحزن. "ماذا قال لكما دالّانوتّه؟"

"لقد حكيتُ لك كلّ شيء. أعطاه عشرة أشهر وكان أبوك سعيداً فرحاً. لم يذكر له شيئاً عن العملية الجراحية، ولكن ذكرها لي. إن الجراحة إمكانية يحتفظ بها البرفسور لنفسه إذا اضطر الأمر، ولكنه غير متيقّن من نجاحها... وبالمناسبة"، تردف بكل ثقة بالنفس، "لقد كان شديد التهذيب ورافقنا إلى الباب. لا شك أن زمالتنا في الجامعة قد لعبتْ دوراً إيجابياً."

وتصرّ أندريا على أنها لا تفهم سلوك الشيخ، قبل أن تدفن نفسها بين كتبها. ويخمّن ريناتو أنها تتطلع إلى مغادرة الشيخ منزلها قريباً، عائداً إلى قريته ليموت في سريره الخاص. في هذه المرة أيضاً لم يعتد أبوه على ميلانو، بل أقلّ من المرة الفائتة، وذلك بسبب اختلاف وجهات النظر فيما يخصّ تربية الطفل. لحسن الحظ لم تلاحظ زوجته الزيارات الليلية التي يقوم بها الجدّ لحفيده، والتي اكتشفها هو عن طريق المصادفة.

لقد أجبر نفسه على إخفاء ذلك عن أندريا، بالرغم من أنه يأسف على هذا الدلال الذي يُفسد الطفل. ولكن أين المشكلة، إذا ما أخذ بالحسبان الوقت القليل المتبقي لأبيه؟

ونظراً لتمسّكها المتشدّد بنظريات التربية، لن تقبل زوجته بهذا التعليل.

تتوقف أندريا عن العمل وتتجّه إلى المطبخ، ويدخل الابن غرفة أبيه المستلقي على سريره في الغرفة المظلمة.

"سيكون الطعام جاهزاً في الحال، أيها الجدّ."

"لا شهية عندي. ابدءا دوني، وسألحق بكما."

"هل ينقصكم شيء يا أبي؟"

"لا عليك. أنا بخير."

ويظهر الشيخ في المطبخ وبيده زجاجة. ليس لأندريا على الأغلب علم بوجود النبيذ الأحمر، ولكنها لا تعلّق بشيء. ويُحضر الشيخ حبات زيتون من الثلاجة. يصب كأساً مليئة ويبدأ بأكل زيتوناته بجانب الخمر.

"في صحة المتوفّى، وفي صحة الدوتوّره الذي عالجه كما يجب! عاش الدتّوره!"

يشرب بلذّة، وتتراقص جوزة حلقه في الرقبة النحيلة محرّكة السائل إلى الأسفل.

الأولاد يصمتون، ماذا عليهم أن يقولوا؟ يبلع الشيخ نبيذَه ويقول:

"لقد انقضى الأمر. الشكر لمارليتّا[١]، الساحرة الطيبة."

---

١. Marletta

وتنظر إليه أندريا غير مصدّقة. 'هذا غير طبيعي!'، تفكرّ وتشكر الظروف : لقد حان موعد الأخبار التلفزيونية.

عند الفجر يذهب الشيخ إلى غرفة الطفل، حتى قبل أن يسمع تقلّبه في السرير. وفي النور المعكرّ لليالي شتاء ميلانو، حيث نظفت عربات البلدية الثلج أثناء الليل، ينظر الشيخ إلى الطفل وهو غارق تماماً في أفكاره:

وبدهشة كبيرة لاحظ الآن أن الطفل مستيقظ، يمد يديه نحو جدّه دون أدنى صوت. يرفعه من سريره ويجلس معه على الأرضية. ويفرد البطانية من طرفيها بشكل تستطيع معه أن تلفّ الاثنين معاً.

"هل تتصور يا برونيتّينو أن ذلك الشخص قد انتهى وأنهم دفنوه صباح اليوم؟

وستعرف في يوم من الأيام معنى "دفنوه". افرح!، فإن جدّك أقوى منه، يجلس هنا حيّاً يُرزق". وقبل أن يعود الطفل إلى النوم يطوق العنق النحيل بساعديه الصغيرتين البضّتين اللتين تثيران مشاعر الشيخ.

"لا تخف يا بنيّ. هل تظن أنني سأغادر الآن وأدعك وحيداً؟ كيف تفكرّ على هذا النحو؟ سأزعل منك اذا استمريت في ذلك! كيف يمكنني أن أذهب، ليتمكنوا مجدداً من الإحكام عليك وتركك مع مخاوفك التي تجثم على صدرك؟ الخوف من المجهول هو أسوأ المخاوف. نم هادئاً يا قلبي... وعدا عن كل ذلك، ما زال عندي الكثير لأقصّه عليك. ومازال عندك أيضاً ما تقصّه عليّ. كلمّا أسرعنا في ذلك كان أفضل لنا. ما أحلى أن أسمع كلماتك الأولى!"

وتصدر عن الشيخ تنهيدة عميقة.

"سأقول لك الحقيقة، لأنني لا أريد الكذب عليك. نعم، لقد فكرّتُ بمغادرة ميلانو حالما يموت. هل توقّعتَ شيئاً آخر؟ ميلانو لا تعجبني... ولا بشيء. ولكن ما دام كانتانوتّه مستريحاً على كرسيه في الساحة، فإنّي لم أكن أتمكّن من العودة. أنت لا

تعرف ساحتنا بعد. هناك تُقرّر شؤون القرية ذات الأهمية. عدا عن ذلك كان يجب أن يصبح يومُ عودتي حدثاً جللاً! لقد خطّط أمبروزيو إطلاق ألعاب نارية من ظهر الكنيسة، حالما تصعد سيّارتي المرتفَع. وفقط لخوفه من أن تأخذ الشرطة رشّاشه، يمتنع عن إطلاق الرصاص بهذه المناسبة. لقد خبّأ سلاحه [وقتها] ولم يسلّمه. هل كنت تعلم ذلك؟

وهو على حق، لأنه قد غنم سلاحه دافعاً دمه ثمناً. وأنا أيضاً أحتفظ بسلاحي، إذ أنني سلّمتُ قطعةً أخرى كي يتركوني وشأني. سأريك إياه فيما بعد. سيكون الجميع في انتظاري في الساحة، جموع ستفوق عدد الناس الذين استقبلوا وقتَها ضابط الصف الإنكليزي ورجالَه. سيلاقيني رفاقي بالعناق والضحك والنكات، وسينفجر الآخرون من الغضب وسيلعنونني. ولكن اللعنة التي فرضتُها على كانتانوتّه بمساعدة ماريلتّا [الساحرة] كانت أقوى، وهذا الكيس هنا، الذي سيكون قريباً ملكك، يحميني. نعم. كل القرية ستكون مجتمعةً في الساحة بسببي وليس بسبب أحد أقلّ مني، هل تعلم هذا؟ سترى بنفسك ماذا سيحصل، عندما ستقول بأن جدّي كان سلفاتوره رانكونه من روكاّسيرا. وستلاحظ ما قيمة الاسم الذي صنعته بنفسي، بالرغم من أن اسم أبي الحقيقي لم يكن معروفاً. ولكني كنت أعرف من يكون. لقد اهتم بي في الجبال، بالرغم من أنه لم يصرّح بأبوته أبداً، كما لم تَبُحْ أمي بأي شيء.

وطبيعي أن صبيان المدرسة لم يعترفوا بوجود أب لي، فكان علي أن أوجه إليهم الضربات الواحدة تلو الأخرى حتى توقّفوا عن إهانتي. لهذا السبب أصبحت قاسياً. وأريدك أن تصبح أنت أيضاً قاسياً كما تكون الرجال. حفيد برونو، حفيد سلفاتوره من روكاّسيرا.»

وشعر الشيخ أنه بفضل هذه الكلمات وحدها، انتقل الطفل في نموّه إلى مرحلة أكثر تقدماً.

«أعترف بأني أردْت الرحيل، ولكني الآن سأبقى. لن يزعجني بعد ذلك أني سأعود

في صندوق من الخشب، ما دام ذلك الخنزير لن يراني عائداً في كفن. لن يكون البقاء هنا صعباً، لأنك أصبحت روكاّسيرا خاصّتي. إن عظامي ودم قلبي... كل هذا هو أنت، يا جدبي، وبرونو الهرم يخصّك أنت. إلى أين يُفترض أن أذهب؟ حتى إن روسكا لن تفرّق بيننا، هل تتصور هذا! يعني، هي ستفرّق بيننا بشكل من الأشكال. (أُعذريني يا روسكا)، على كل الأحوال هي غير مستعجلة. لقد قال البروفسور ذلك. تصوّر أنه يكاد يكون من الرفاق.

كم هو مؤسف أنه لا يعالج الأطفال، وإلاّ كان ليعتني بك! وهو طبعاً لا يشبه ذلك المغفّل، وكيف له أن يكون كذلك؟"

ينخفض صوته أكثر ويصبح خفيضاً جداً، يُسمَع بصعوبة.

"انظر. الحقيقة هي أني سأبقى لأنني أحتاجك. لولاك لكنت الآن غير قادر على المقاومة. هذه هي الحقيقة: أنا أدافع عنك ولكنك أنت أيضاً تدافع عني، ومعاً سنربح الحرب – هذا ما أعدك به – برونو الهرِم ورفيقه الشاب: برونيتّينو."

ولو أن الصغير لم يكن مستغرقاً في نومه، لكان قد أحسّ بالدمعة التي سقطتْ من الخدّ الهرم الملوّح بالشمس على خدّ الطفل النّضر المكتنز.

٤١

"'رأس قزم"' هكذا وصّف سلفاتوره البرفسّور عندما رأى الصلعة المحاطة بفروة بيضاء من الشعر تشبه نور القداسة، ورأى الفكين المدوّرَيْن والشفتين المكتنزتَين. ولولا العينان اللتّان تقدحان ذكاءً، لكان شكله مضحكاً. بجانبه تقف الدكتورة روسّي: طويلة القامة ومسطحّة الصدر، مبالِغة في قِصَر شعرها الأشقر. وعلى المقاعد تجلس دزيّنة من الطلاب، أما فاليريو فيأخذ بالطبع مكانه بالقرب من آلة التسجيل. لم يقدّر الشيخ أن البروفسور سيُظهر مثل هذا الاهتمام به عندما اتصل به فاليريو. وقد خجل قليلاً من نفسه فيما بعد بسبب تلك الحكاية التي لم تكن فقط مختلَقَة، إنما احتوتْ أجزاء من حكاية أخرى. 'ولكن، اللعنة! لقد كانت تلك البكرات تدور وتدور، ولم أشأ أن يستهلك الشريط دون فائدة.'، ورغم ذلك أرادوا أن يستمرّوا معه وعرضوا عليه ثلاثين ألف ليرةً عن الجلسة الواحدة. لا بل اعتذروا منه لأنهم بسبب الميزانية المحدودة لن يستطيعوا دفع مبلغ أكبر.

'أناس هزليون!'، يقول الشيخ لنفسه عندما اتصل به فاليريو. 'شيء لا يصدَّق أن يكسبوا قوتهم من خلال هذه "الألعاب"، بينما الآخرون يكدحون كالمجانين!'

"تشرّفت بمعرفتكم"، يحييه البرفسّور [ويضيف:]

"التسجيل مثير جداً للاهتمام. إن تنويعكم على الأسطورة السومرية المتعلقة بتموز جديدة علي. وإني على ثقة بأنكم ستقصّون علينا أشياء أخرى متنوعة."

'لا، ليس قزماً، إنه طفل'، يصلّح من تقييمه للبروفسور. 'الجميع هنا أطفال، ولذلك يُعجبون بالحكايات.'

"أنا هنا لأفعل ذلك. هل تهتمّون بقصص العرب؟ عندنا من بقاياهم قلاع وكل شيء. لقد تركوا آثاراً كثيرة."

"العرب! من دون شك" يهزّ البروفسّور برأسه، "والبيزنطيون؟"
"من؟ ... لا، هؤلاء لا نعرفهم."
"كاتانزارو كانت مدينة بيزنطية أيها العزيز رونكونه."
"أنتم تعرفون أكثر... ولكن الآن لا يتذكرهم هناك أحد. قد تكون خلافاتنا الكثيرة مع العرب هي السبب، بخلاف الآخرين ذوي المشاكل الأقل."
جهاز التسجيل يعمل، والبكرات تدور وتدور دون هوادة.

"خلافات؟ لماذا؟"
"هكذا. هم عرب [مسلمون] ونحن مسيحيون. أليس هذا سبباً كافياً!"

وينتبه الشيخ إلى أن المستمعين لم يفهموا الفكرة فيستطرد شارحاً:

"إذا أراد المرء أن يختلف مع الآخر فسيجد دائماً مبرراً، والظاهر أننا وجدناه. على سبيل المثال: لقد نشأت بيننا حرب. كنّا نخطف نساءهم وهم يخطفون نساءنا! والنساء تُخطف حتى يومنا هذا!"، يقولها بكل اعتزاز.

"في يومنا هذا؟"، تسأل الدكتورة وتسجل الملاحظات في دفترها.

"طبعاً. عندما لا يكون الوالدان موافقين على اختيار العريس، يقوم الأخير باختطاف العروس. عندها يجب عليهما أن يتزوجا. وفي بعض القرى تكفي "السكابيلياتا"[١]."

"ماذا؟"، يسأل بعض الطلاّب، بينما يبتسم البروفسور الذي يعرف هذا التقليد.

"عندما تخرج الفتاة من الكنيسة [مرتدية غطاء الرأس الإلزامي]، يتوجه الشاب إليها وينزع عنها الغطاء فيظهر شعرها. أمر واضح: الآن يكون الشاب ملزَماً بالزواج منها لأنه نال من شرفها. بعد هذه الحادثة لن يقترب منها ذكر، إلاّ في الحالة التي يَقتل فيها أهلُها الشاب. عندئذٍ تأخذ الأشياء مجراها الطبيعي من جديد."

ويبدؤون بنقاش مختصر عن هذه العادة. تشرح الدكتورة بعض الأساطير التي تربط

---

١. Scapiliata

الشَعر [النسائي] واللحية مع الشرف. ثم توجّه سؤالاً إلى الشيخ : هل ينظر المجتمع إلى اختطاف الفتاة من قبل الشاب على أنه من أعمال العنف؟

ويتعجّب الشيخ من هذا السؤال.

"بالعكس. إن الشاب الذي لا يخطف الفتاة لا يُعدّ رجلاً. هذا هو قدر النساء. وتكون تربيتهن بالتأكيد على عاتق أهلهن، ولكن من أجل الآخر. أم تعتقدون خلاف ذلك؟"

وتريد الدكتورة أن تناقشه، لكن البروفسور يُعيد الحديث إلى موضوع الخلافات ويسأل عن وجود أسباب أخرى لها [غير النساء].

"أسباب كثيرة. الأراضي، السقاية، الطواحين... القطعان، كما في حالة "مورّو دينترو"[١] على سبيل المثال."

"كيف؟"

"قاد راعٍ عربيّ عنزةً إلى السوق. شردت العنزة ودخلت إلى حقلٍ مزروع يخص مسيحياً، الشيء الذي دعا حينئذ لإقامة دعوى عند المطران."

"هل أطاع العربي المطران؟"

"يعني؛ في الماضي كان المرء يحسب حساباً للمطارنة كونهم يملكون السلطة. كان بإمكانهم معاقبة الناس، وليس كما هو الحال اليوم، إذ لا أحد يحسب لهم حساباً. لقد نكر العربي أي ذنب، أما المسيحيّ فقد أصرّ على دعواه. إذاً، سأل المطران الراعي إن كان الحيوان قد دخل فعلاً إلى الحقل المزروع. وأجاب الراعي بأن 'بوز العنزة كان داخل الحقل، أما أرجلها فكانت خارجه.' لهذا سمّوا العربي مورّودينترو [العربي الداخل]، وأصبح هذا التندّر فيما بعد اسم عائلةٍ لُقّب به أولاده. والمورّودينتري يعيشون لغاية اليوم في روكّاسيرا. وكان قرار المطران بأن تُعطى العنزة إلى المسيحيّ

١. Morrodentro

لأن رأسها كان داخل الحقل ولأن الحيوانات تُعدّ بالرؤوس. ولكن قبل ذلك فَرض على المسيحيّ رسوم تعميد العنزة، لأنه لم يَسمح له بالاحتفاظ بالعنزة في منزله قبل أن تصبح العنزة مسيحية. مثال حيّ للخوري الذي لا يهمّه إلاّ جمع المال!" وبدأ الطلاب بمناقشة "حكم قرقوش". واحد منهم لّمح إلى الـ "فابليو"[1] في العصور الوسطى وإلى الـ "بانتشاتانترا"[2]، ولكن الشيخ قاطعه :

"لحظة من فضلك! لم تنته القصة بعد. لقد أُقسم العربيّ على الثأر، ومنذ ذلك الوقت يتنازع العرب والمسيحيون. يقتل العربي أفضل نمس عند المسيحي : أنثى، صيادة أرانب ممتازة. أما المسيحيّ فيُفقد ابنة أخ العربيّ عذريتها ويقطع ذنب أفضل كلب حراسة لدى الآخر، الشيء الذي أفقد الكلب توازنه."

"كيف؟"، يسأل أحدهم، "فقط لأنه فقد ذنبه؟"

"فقط لأنه فقد ذنبه."، يؤكد له الشيخ مغتاظاً من تكبّر هؤلاء "الخبراء"

"كلب الحراسة [الذكر] حيوان نبيل. عندما يفقد ذنبه يشعر بنفسه وكأنه مخصيّ فيحس بالخوف، كالديك دون عُرف. هل تفهمون هذا؟"

لا أحد يتجرأ على مجادلته. وواحد منهم يريد أن يستفهم عن نتيجة تلك الحرب [بين المسلمين والمسيحيين].

"ككل حرب : بالموت. عندما هرم المسيحيّ أصبح مريضاً، الشيء الذي أفرح العربي أيما فرح. لقد قضى أياماً بكاملها مرابطاً مع أهله في برج المراقبة، مستطلعاً أحوال المسيحي المريض الذي كان يمضي إلى الطبيب راجياً الشفاء. آه، ولكن المسيحي نجا في النهاية!"

"كيف نجا؟"

---

١. Fabliaux : حكايات مصاغة شعرياً، تروى على لسان الحيوانات وذات مغزى أخلاقي. قصص قصيرة فرنسية من أدب القرنين الثاني والثالث عشر الميلاديين.

٢. Pantschatantra : مجموعة شرائع هندوسية.

"كان يظهر له في كلّ ليلة ملاك. ومشكلة [المسلمين] أنهم لا ملائكة عندهم. هذا الملاك أمدّ المسيحيّ بالقوّة. لقد كان ملاكاً صغيراً تكفي ملامسته أو استنشاق عطره ليتحقق الشفاء. وعندما أدرك العربيّ أن المسيحيّ في تحسّن، وافته سكتة قلبية من شدة الغضب ورفع الأربع. في النهاية مات المسيحيّ أيضاً، هذا لا يحتاج إلى تفسير، ولكنه في آخر حياته كان سعيداً، سعيداً جداً. طبعاً بموت العربيّ، لكن الملاك جعله يصعد إلى سابع سماء من السعادة، أليس كذلك؟"

وهنا يُناقش موضوع الملائكة في الديانتين المسيحية والإسلامية. أما البروفسور فقد طرح السؤال التالي :

"لقد قلتم : "ملامسة" الملاك. هل كان ذلك الملاك من لحم ودمّ؟"

ويلقي الشيخ بنظرة متسامحة إلى القزم.

"بالطبع! إن الملائكة من لحم ودم، وإلا أصبحوا أكذوبة، أصبحوا من الجنّ. أم أنكم لا توافقوني في ذلك؟ إنهم من لحم ودم مثلي ومثلكم. يعني، قد يكونون من لحم مختلف، ولكنه لحم في نهاية المطاف. لذلك منهم الذكر ومنهم الأنثى"، يضيف الشيخ، إذ تذكّر فجأة جسد دونكا.

"اعذروني يا سيد رونكونه"، قاطعه طالب نجيب، خريج مجمع الخوارنة. "الملائكة لا جنس لهم".

ويطير صواب الشيخ :
"هراء! من قال هذا؟"
"الإنجيل. البابا."

وهنا ينفجر الشيخ بالضحك.

"ماذا يفهم البابا فيما يخص الجنس؟! وعدا عن ذلك، كيف يكون المرء حياً دون أن يكون له جنس؟ إذا كنا نحن البشر ذكراً وأنثى، فكيف يمكن تجريد الملائكة – وهم

أعلى منا – من هذه الميزة؟ هل سيعاقب الله الملائكة الذكور بحرمانهم من الملائكة الإناث اللواتي يقفن إلى جانبهم؟ ما هذه الأفكار التي يروّجها البابا ! ولكن علينا ألا نتوقع منه أكثر من ذلك.“

ويلاحظ الشيخ بفرح كبير كيف أن الدكتورة روسّي تبتسم مواليةً لأفكاره، وأن البروفسور ينبّه الطالب إلى أننا لسنا هنا في حلقة بحث لاهوتية، إنما بصدد جمع أساطير شعبية، وأن السيد رونكونه مصدر لها لا غبار عليه.

وعندما أوصل فاليرويو بسيارته الشيخ إلى المنزل، كان الأخير جدّ مسرور. أمّا قناعاته فيما يخص حلقة البحث، فإنّها لم تتغير.

‘كالأطفال تماماً، ولكنهم يكسبون جيداً من جرّاء جمع الحكايات.’

وبكل نعومة يتلمس في جيبه ورقات [الألف] الثلاث الجديدة، لقد أتت في وقتها.

٤٢

"ادخل، ادخل، لقد فقدت الأمل من حضورك"، تهتف أورتنسيا من سرورها عندما سمعت دخول الرجل. "وما هذا؟"، ترفق حديثها بالتلميح إلى باقة الزهور التي يضعها سلفاتوره على الطاولة. "ألا تقلع أبداً عن عاداتك السيئة؟"

"هذه هدية من الجامعة، من كلية الأساطير"، يجيبها الشيخ بكلمات متقطعة، إذ أنه حث السير إلى بيتها.

يرى أنها قد تحسّنت، ولكنها لم تعُدْ بعد إلى ازدهارها، وترى أنه متعب وتلاحظ يديه المرتعشتَين.

"ماذا أعددت لهم هذه المرة؟" تضحك، وتتساءل إن كان قد انتبه لتسريحة شعرها التي أصلحتها ابنتُها.

"مظهرك اليوم بديع يا أورتنسيا! هذا واقع وليس أسطورة. أنت محقة فيما يخص الجامعة، ولكنّك لن تصدّقي أنهم دفعوا لي ثلاثين ألف ليرة!"

"وماذا فعلت لتحصل عليها؟"

"لا شيء. إنهم أغبياء. أحكي لهم ما يخطر آنياً ببالي، ويتلقفون حديثي وكأنه الكتاب المقدّس. كان عليك أن تري الجدّية التي يناقشون بها، وتسمعي لغة الإذاعة التي يتحدّثون بها! من المستحيل أن أتحدث بتلك اللغة الإيطالية. ببساطة، شيء مروّع... من الممكن لأي ريفيّ من ضيعتي أن يستخفّ بهم."

"أيها المخادع! إنك تتمتع بلسان طليق لاذع"، تضحك، بينما تستقيم في سريرها وتدعه يضع على كتفيها سترة بيتية محبوكة.

يُسَّرُّ الشيخ بهذا الإطراء ويذهب إلى المطبخ ليعود بإبريق مملوء بالماء. يفك الباقة ويحاول تصفيف الزهور دون نجاح.

"هاتِ الإناء ودعني أصفف الزهور! مع أنك ماهر بين الرجال!"

"منذ أن بدأت بالاهتمام ببرونيتينو، تعلمتُ الكثير. لا تتصوري صغر الأزرار ...! ولكنه عمل جميل في النهاية. الآن أفهم المتعة التي تشعر بها النساء. إني أقوم اليوم بأشياء اعتبرتها في الماضي مخجلة!"

وبينما يمسك لها بالإناء وتقوم هي بترتيب الزهور، تراقبه بطرف عينها.

"خجلتَ لأنها وظائف نسائية، أليس كذلك؟ لقد اعتبرتَها أعمالاً مهينة؟"

"نمط حياتنا [كرجال] مختلف تماماً. إن للرجال دروبهم الخاصة في الحياة، ولو أنهم ينامون في ذات السرير مع النساء."

"انظر ما أجملها! ضع الإناء هناك. نعم هكذا. هذه أحلى باقة أحضرْتها لي ... بالطبع، لكم حياتكم المختلفة لأنكم لا تقدّرون النساء."

"لا تقدّرهن؟"، لقد أصابته في موطن ضعف، "إنّك تبالغين قليلاً. بَيْدَ أننا حقاً لا نعرف عن حياة النساء إلا القليل، مع أني لم أُقصّر في معاشرتهن!"، يبتسم الشيخ فخوراً بنفسه.

"ولكنك لم تتعرّف إليهن في واقع الأمر، أيها البليد. لقد بحثت عن متعتك الشخصية لا أكثر ولا أقلّ. تعرّفت إلى الجسد من أقصاه إلى أقصاه."

"بالتأكيد!"، يضحك الشيخ "هذا أجمل ما في الأمر!"

"هذه وقاحة! هناك أشياء أخرى كنت لتستمتع بها، لكنك لم تُحس بوجودها. حالك كحال كل الرّجال. إنكم تشتهون النساء ولكنكم لا تأبهون لهنّ. هكذا أنتم."

تجوّل الشيخ في ذاكرته باحثاً في الدفاتر القديمة.

"أظن أنهنّ لم يُردْن غير هذا . واحدة فقط تمنّت لو أنني ... نعم، واحدة . . ."

"أعرف." وتتغيّر نبرتها . "الفدائية الشابة المقدامة."

"نعم، دونكا . لقد أرادت تغييري وقولبتي بحسب تصوّراتها . ربما كان هذا هو سبب تركي لها . ولا ننسى طبعاً الحرب التي كانت كعاصفة تثرتنا يميناً ويساراً . ولكن دونكا أرادت . . ."

"أن تكون بجانبها بالتأكيد."

ويصمت الرّجل منصتاً بانتباه إلى أورتنسيا

"وأنتَ اخترت طريق الهرب، أيها المسكين برونو . لقد خسرت الأفضل والأجمل."

"لا أوافقك في ذلك. لقد حصلت على الأجمل الذي أردتُ في الوقت الذي أردت!"

وانطلقت منه ضحكات فجّة، شعر هو نفسه أنها مفتعلة. مجرّد دفاع عن النفس!

"بلى، لقد خسرت كثيراً. والآن فقط تتوضح لك الأمور. أن تأتي متأخراً خير من ألا تأتي أبداً."

ينظر الشيخ إليها ويعي الآن فعلاً وبغتة شيئاً ما . لكن ما هو؟ إنه يُحس به ولكنه لا يستطيع تحديده.

"بماذا تفكر الآن؟"، تريد أن تفهم.

وتصدر عنه أنّة.

"لو أنني تعرفت إليكِ قبل الآن. . ."

إنها تضحك لتموّه العاطفة القوية التي غمرتها.

"لم تكن لتلاحظني أيها المغفل فلم أكن أثير الانتباه. لا تضحك عليّ، هذه هي الحقيقة. لقد كنت أبكي في بعض الأحيان بسبب ذلك." ويصبح صوتها أهدأ.

"ولكن عليّ الآن عدم ذكر ذلك، وإلا ستلتفت إلى غيري كما تفعل للتوّ مع دونكا."

"أنا، سألتفت إلى غيرك؟ كيف وقد مُنّ علي شيء لم أكن أحسبه؟" ويضع إصبعه أمام شفتيها مانعاً إيّاها من الكلام. كان تهدّج صوته كافياً لأن يخيم عليها الصمت.

يلقي الشيخ نظرة من النافذة ثم يجلس على كرسي بجانب السرير. [تقول:]
"أنت متعب. إن نومك قليل، بينما متاعبك كثيرة."
"لم أحتج إلى نوم طويل."
"تعال. نم قليلاً، كما فعلت في اليوم الأول."
"لمَ لا، إذا لم يضايقك ذلك."
"ولكن ليس على الكرسي. هنا مكان واسع."
وتشير بيدها إلى الطرف الفارغ من سرير الزوجية العريض، ثم تنزع الغطاء عنه.
ويتصلّب جسم الشيخ.
"في سريرك؟. هل تظنينني هرماً لهذه الدرجة؟"
وتضحك أورتنسيا لأنه خجل.
"تعال ولا تتدلل على مريضة مثلي. هيا، استلق هنا ولا تخلع ثيابك إذا لم ترد ذلك.
واحرص على أن تتغطى، كيلا تصاب بالبرد.
ومازال الشيخ متردداً. لم يتعود أن يلج سرير أنثى، دون سبب! وتظهر في مخيلته صورة ذات مغزى: صورة سكين تُشهر دون أن تقطع. لكن أورتنسيا تجد حجة "تقنعه".
"لا تخف. لقد قلت لك إن نتائج الفحوص قد بيّنت أن مرضي ليس معدياً."
"وإن يكن! أنت تعرفين أني..." ويقبل التحدي ويجلس على طرف السرير كي يخلع حذاءه. [تقول:]
"عدا عن ذلك فإن الجراثيم في جسمي ستقع صريعةً إذا ما صادف والتقت بمثيلاتها في جسمك."
يقف، ويبدأ بنزع بنطاله مديراً ظهره إليها، ويردف قائلاً:

"ولكني أحذّرك يا أورتنسيا . إني لحم هرم، قاس كالجلد ."

"إني أحب اللحم المقدد"، تمزح معه. "لا عليك لن أشاهد شيئاً لم أره من قبل."

ويضع البنطال جانباً ويذهب إلى الحمام، في قدميه جوارب من صوف القرية، ولباسه كلباس توماسّو وليس الـ "سليب" الذي يرتديه صهرها . تنظر أورتنسيا إلى ركبتَيه الناتئتَين بعظمتيهما الظاهرتين وشرايينهما المنتفخة – كل هذا يثير فيها الحنان .

"لا أستطيع أن أدخل إلى السرير بقدمين وسختين"، يشرح لها عندما يعود من الحمام .

وهذه المرأة تقدّر له هذا . رجال آخرون من طينته لن يخطر لهم ذلك على بال .

وأخيراً يستلقي الشيخ إلى جانبها وتستقر الخصل البيضاء على مخدتها . وعندما ترفع له البطانية لتغطيه حتى وجهه تمسّ أصابعها شعر ذقنه الجارح، فترتد عنه . وينتبه هو إلى ذلك .

"منذ أن توقّفت عن استعمال الموسى، لا أحظى بذقن ناعمة. ولكني جرحت نفسي، يدي . . ."

'توماسّو[١] أيضاً كان في نهاية حياته يجرح نفسه أثناء الحلاقة (لكنه كان قد أصبح كحولياً)، وهذا ما كان يضايقه أيضاً . الرجال كالديكة!'، تفكر أورتنسيا . 'إنه لأحساس جميل عندما يستلقي رجل إلى جانبكِ؛ إن تنفس رائحته يعطيكِ شعوراً بالأمان .'

تستلقي أورتنسيا على جنبها متكئة على ساعدها [باتجاه سلفاتوره] . تحبّ أن تراه ممدداً وتحب أن تنظر إليه من علٍ .

تمر في ذهن الشيخ ذكرى معينة .
"كالإتروسكيَيْن! لقد كانت مستلقية مثلكِ ... ومبتسمة مثلك الآن!"
"إتروسكيون؟"

---

١. Tomasso : زوج أورتنسيا المتوفى .

"إيطاليو أزمان غابرة يظهر موتاهم كالأحياء. كم كانت حياتهم مليئة وغنية!" [إني أحسدهم!] وعندما نظر إليها وإلى ساعدها العاري وصدرها القريب منه، تلاشى بسرعة الإحساس بالحسد الذي رافق كلماته.

'كم هي بديعة هذه الحياة!'، يقول هذا لنفسه وهو منتشٍ بنظرات أورتنسيا التي تحنو عليه. ويمد يده من تحت البطانية باتجاهها. تتوقف اليدٍ حين تستشعر الدفء الذي ينبعث من جسدها، قبل أن تلمس ذلك الجسد. هناك تبقى اليد جامدة كالحاج الذي يقف أمام مكانه المقدس، مهتزةً بفعل موجات الهواء العطر الذي ينبعث من جسمها. وبينما تهبط الجفون، يرتسم على وجهه تعبير صاف لشعور بالنعيم.

بسكون وبحنان تراقب المرأة الرجل النائم: تبتسم كفتاةٍ تكتشف الرجل لأول مرة، وكامرأة ناظرةٍ إلى طفلها في المهد تشعر بالأمومة، وكعشيقة تسترخي راضية عن عشيقها الذي أوصلها إلى الذروة.

٤٣

"شيء لا يصدق أن تَريْ إنساناً بهذا الصِّغر يستطيع أن يجعلك تلهثين طوال الوقت وراءه"، تقول أنونزياتا مبعدةً برونيتينو عن مكان القمامة. إنه يُبقي الكل في توتّر دائم، منذ أن أصبح جوّالاً في جميع أنحاء الشقة. أما الشيخ، فهو مبتهج. 'صحيح يا بنيّ. استمر! من لا يقاتل يبقى في مكانه مراوحاً!'

الضحية الأولى لمقالبه الطفولية هو النظام المنزلي الذي تديره أنونزياتا، فهو يتلقف أي شيء يجده، ويذهب به إلى أماكن لا تخطر على بال. وعدا عن ذلك فهو يستطيع الآن تحريك أشياء كبيرة الحجم فعلاً، وآخر اهتماماته يكمن في سحب الكراسي عبر الغرف. وتراه يدفع كرسياً بسرعة عبر الممر فيسقط هو على الأرض، ولا يدوم احتجاجه بالصراخ العالي طويلاً، إذ بعد فترة قصيرة يعود ليتابع هوايته فرحاً.

"انتبهوا، ها هي الدبّابة تندفع نحونا!"، هكذا يهتف الجدّ الذي يأخذ له مكاناً في منتصف الممر." وها هو الكابيتانو برونيتّيو يقتحم دُشَم العدو! آفانتي!"

وتصطدم الدبابة بالشيخ فتقف. ويزأر الرائد زئيراً يجبر الشيخ المَرِح على التنحي ويفتح الطريق أمام الدبابة المندفعة مباشرة نحو الجدار المقابل.

"يا إلهي! من منكما أكثر طفولة من الآخر سينيور رونكونه!"

ولكن الشيخ لا يعرْها بالاً. وتسأل نفسها أحياناً: ألا يعذّبها الشيخ أكثر مما يفعل الطفل؟ فقبل لحظة أخذ برونيتّينو سكيناً من المطبخ وبدأ باللعب به:

لما رأت أنونزياتا ذلك صاحت مرعوبة بشكل جعل الشيخ يهرع على الفور إلى المطبخ، ليراها تنزع السكين من يد الصغير الذي بدأ بالصراخ.

"كل هذا بسبب سكّين؟"، يعلن الشيخ لأونزياتا مسترداً أنفاسه. "ولكن يا سنيورا، لقد خُلقتُ السكاكين للرّجال. وعوضاً عن أخذ السكين من يده، كان من الأفضل أن تشرحي له كيف يستعملها. ولكن كيف لك أن تعلمي. انظر أيها الصغير. هنا يجب أن تقبض على السكين أترى ذلك؟ نعم، هذا جيد ... ما تبقى [النصل] يُستعمل للقطع والغزّ ولمجابهة الخصم. أما أنتَ فأمسك المقبض، . . . المقبض."

ويُسَرُّ الطفل بالسكين في يده، تحركها يد الجد موجهة السكين إلى عدو وهمي تطعنه. وتهرب أونزياتا مرتعدة. لا شك أنها ستحكي للسينيورا أندريا عن هذه الحادثة، عندما تصل الأخيرة إلى المنزل. وهذا ما حصل بالفعل. تخرج من أندريا آهة مختنقة وتحوّل عينيها باتجاه السّماء، وكأنها تطلب من هناك الصبر. ولحسن حظّه اتقى غضب الأم، لأنه كان قد خرج للتو من المنزل رغم حلول ساعة الغداء.

"ألا يتناول طعامه في البيت؟"

"هكذا أراد ... وهذه ليست المرّة الأولى"، تتذكر أونزياتا.

"هل تعرفون أين يأكل؟"

لا تعرف أونزياتا ذلك، أما أندريا فقد ثار فضولها. لقد أصبحت تصرفاتُه في الفترة الماضية غريبةً. يا رب السموات! لا نريد أن يفقد عقله، إن هذا ليكون فظيعاً. لقد أكد البروفسور أن مرض السرطان هذا لا يخرّب الدماغ، ولكنه - وفي مراحله الأخيرة - يمكن أن يؤثر على السلوك. يا إلهي، يا إلهي. إنه يرتكب سقطات أكثر فأكثر: ينسى ما عليه أن يفعل، يبحث عن قبعته مع أنه يمسكها بيده. ماذا يفعل الآن في الشارع؟ وهذا في منتصف الشتاء دون أن يكون عنده عمل معين ودون أن يمتلك النقود، إذ أنهم في القرية يتأخرون في إرسال النقود إليه من ناحية، ويرفض أن يساعداه هي وريناتو من ناحية أخرى. أم أن المال موجود لديه؟ إذ تظهر عند برونيتّينو في بعض الأحيان فجأة لعبة جديدة لم يحصل عليها لا منها ولا من ريناتو. صحيح أنها ألعاب رخيصة الثمن، لكنها تجلب الفرح للصغير إلى أن يقضي عليها. هذا مستغرب؟

وهنا ، لا تجد أندريا لذلك تفسيراً . وتجلس إلى طاولتها راغبةً في استغلال الوقت في العمل ما دام برونيتّينو نائماً . ويبدو أن هذا اليوم مليء بالمفاجآت ، فالباب يُدق وتقوم لتفتحه قبل أن يستفيق الطفل .

في الباب شاب ذو ابتسامة محبّبة لا تعرفه . وبالفطرة تضبّ قسمي الرداء الذي يحيط به مجرّد رباط ، لتخفي صدرها .
"السيد رونكونه؟" ، يَسأل صوت لطيف .
"إنه في المعمل حتى الساعة الخامسة ."
"إني أبحث عن الأب ، عن دون سلفاتوره ."
'الجدّ؟ ماذا يريد هذا الشاب المهذّب منه يا ترى؟'
"لقد تواعدتُ معه في هذا الوقت أمام المدخل . وبما أنه لم ينزل إلى هناك ... هل هو بخير؟"
"لقد خرج . ولكن إذا كنتم على موعد معه فسيحضر قريباً بالتأكيد . تفضلوا بالدّخول ."
ويدخل الفتى نازعاً قبعته الشبابية التي تروج اليوم بين صفوف الطلاب . تحت القبعة رأس رومانيّ يؤكد عليه شعر متموّج . إنه أصغر سناً مما بدا على الباب . تشير إلى الأريكة في غرفة الجلوس . وتجلس على مقعد مغطّية ساقيها بطرفي الرداء ذاته ، الذي ما ينفكّ ينفرج عنهما . ولقد لاحظ فاليريو نور الطاولة المُضاء والكتب المفتوحة على متنها .
"لا أريد أن أشغلكم عن عملكم ، سينيورا ." ولكن الفضول يأكل أندريا .
"لا ، لا ... يجب أن يحضر حموْي في أية لحظة . هل تريدون الخروج معاً ؟"
"أريد أن آخذه معي إلى الجامعة ، كما كان الحال في الأيام الماضية ."
إلى الجامعة ! إنه المكان الأخير الذي يمكن أن أخمّنه فيه . الجدّ يذهب إلى الجامعة !
"هل تشتركون في دورة ما ؟"
"السيد رونكونه يعمل في حلقة بحث مع البروفسور بوونكونتوني ."

ويقف الهواء في صدرها من قوة الدهشة . بوونكونتوني ! بوونكونتوني الشهير ! القامة

الأكاديمية المعروفة في إيطالية في مجال الإثنولوجيا[1]. والآن تستجوب الطالب اللطيف عن كل شيء. وكان فاليريو يجيبها من تلقاء نفسه عن التسجيلات والمناقشات العلمية. "إن السيد رونكونه هو واحد من أفضل المتعاونين الذين استضافتهم حلقة البحث منذ إنشائها. والدكتورة روسّي معجبة بشكل خاص ..."

'آها، ناتالي! سأسألها حتماً.'

"إن بياناته تفتح لنا آفاقاً جديدة فيما يخص تناقل الأساطير في التقاليد الشعبية الكالابرية"، ينهي الطالب حديثَه. "ونكتشف نحن أنه في منطقة سلسلة جبال السيلا، التي لم تغطِّها البحوث بشكل كافٍ، بقيت أساطير اختفت كلياً في مناطق كالابريا الأخرى. وعلى سبيل المثال فقد قصّ علينا قبل البارحة تنويعة، غير معروفة ولكنها قمة في الإثارة، على الأسطورة المتوسطية الهامّة عن أمومة العذراء."

لا تستطيع أندريا التحرر من صدمة المفاجأة. هذا الفلاح الجاهل الذي يعيش في منزلها، يلقي المحاضرات في حلقة بحث البروفسور بوون-كونتي. لقد علمت الآن على كل الأحوال بمصدر المال، وهي متأثرة بكونه يصرف النقود على ابنها. وعلمت أيضاً أين يمضي أوقاته، طبعاً ليس في نادي المسنّين كما كانت تتأمّل. بقي أن تشرح لنفسها أين يتناول طعام الغداء في بعض الأيام. على الأغلب في إحدى الخمّارات، حيث يُقدّم له العلف الذي يحبّه والذي يسيء إلى صحته. ولكن من يعرف؟ قد يكون على مائدة غذاء الكاردينال. إنها بعد أن علمت بمهمّته في الجامعة تتوقع كل شيء. وتبتسم أندريا عند هذا الخاطر.

وتنتبه إلى الطالب الذي يراقبها. ولكيلا تُفهم ابتسامتها خطأً تشد أطراف روبها مرة أخرى ضامّة له ومصححة لجلستها. وأرادت أن تقول شيئاً في اللحظة التي سُمع فيها باب الشقة يُفتَح. يدخل الشيخ بوجه متجهّم، يُسرّ عند رؤية الشاب.

"آه، فاليريو. جيّد أنك فكّرت في الصعود. لقد نسيت تماماً أننا اليوم ... أين ذاكرتي؛

---

١. علم الشعوب.

هيا، هيا لننطلق! ماذا سيقول البروفسور! أسرع!"

لقد ظهر الشيخ كزوبعة لم تعط الفرصة لأندريا أن تقول شيئاً وعصفت بالشاب جارة إياه معها. أما الشاب فقد تمكن بصعوبة أن يستغل الوقت المتبقي له بالشد على يد أندريا المنبسطة أمامه وعلى الانحناء بعد أن قال لها:

"فيرليني، فاليريو ... في خدمتك سينيورا."

وسُرت أندريا بأن شفتيه لم تصلا إلى وجهها، فهي لا تحبذ ذلك، ولكنها في الوقت ذاته طُربت بالملامسة الناعمة لشاربه. 'فيرليني، فيرليني ... أهو ابن الحقوقيّ المعروف؟' وتتذكر أندريا التحقيق الذي نشرته إحدى المجلات المصورة عن الفيلا الفخمة التي تملكها تلك العائلة على ضفاف بحيرة لاغو ماجيّوره[1].

وفي الطريق يصمت الشيخ وينهمّ بسبب ذاكرته المتراجعة. هل سيقتطعون بضع ليرات من مكافأته بسبب هذا التأخير؟ وعلى حين غرّة يسمع فاليريو يقول: "إن كنّتكم جميلة جداً."
"جميلة؟"، يكرر الشيخ متعجباً ويستدير بشكل مفاجئ إلى الشاب وراء المقود.
"جذابة. نعم، وودودة."
ويغرق الشيخ في صمته. 'ولقد ظننتُ أنه رجل عاقل!'

يقرر الشيخ أن يزيد اليوم من درجة الهراء المقدَّم إلى أولاد الجامعة أولئك. 'لا يفقهون شيئاً! كلما كانت الحكاية أقرب إلى السخف، اهتموا بها أكثر! إذاً، هاكم واحدة أيها الأغبياء!'، يقول هذا في سرّه ويستهجن منظر وجه فاليريو الحالم.

١. Lago Maggiore: البحيرة الكبيرة (الأكبر).

٤٤

ʼانظر يا صغيري إلى تلك الأسطح. إن الشيء الوحيد الجيد فيها أنها مرتفعة، إذ لا أرتاح في الطوابق المنخفضة. ستقول لي : لا عجب يا جدّي، فأنتم أولاد الجبال. هذا صحيح وأنا فخور بذلك. وبالمناسبة، متى ستلفظ كلمة "جدّي"؟ أسمعك تبربر كثيراً : إه، إه، إه، آه، آه ... ولكن لا أثر لـ "نونّو"[١]. كم كنت لأود ذلك ... إذاً، انظر إلى الخارج وتعلّم أن تنظر من علٍ. على الأخص إلى الناس، كيلا يفكروا بالدوس عليك. أنا طبعاً ابن الجبال، ومن حماني في الحروب غيرها؟ جبل الـ "فيمّينامورتا" خاصتي، أُم الفدائيين، ملجؤنا عند الخطر. لم يتجرأ الألمان الخنازير على تسلقها. لقد احتلّوا السفوح واكتفوا بالنظر إلى الأعلى خائفين. علموا أننا هناك في القمة، ولكن الشجاعة نقصتهم. كانوا في الجبال كالضائعين. كذلك كانوا في الضباب، ضباب الجبال الأبيض الذي يتلوّى بانسياب وليس ضباب ميلانو الوسخ. لم يتمكنوا من رؤيتنا بوضوح، لذلك كانوا يصوّبون نحو الأشجار التي ظنوها مقاتلين – وهذا جعلنا نُصيبهم نحن بدقة أكبر. إن الضباب مثاليّ للكمائن. انظر كما قلت لك فإن الضباب هنا متّسخ قبل أن يبدأ بالانتشار، هل تراه؟ لكنك نائم! الحق معك، لقد جاء الوقت لتغيير الحراسة، جاء الآن دوري. نم مرتاح البال أيها الرفيق الصغير.ʻ ويبتعد عن النافذة ليضع الطفل في سريره، ثم يجلس على الأرض مستنداً بظهره إلى الحائط.

ʼنم مرتاحاً فأنا حارس محترف. أحب الحراسة لأنني أحصل على الوقت اللازم للتفكير، طبعاً دون أن أغفل عنها.

إن هذه الحالة تنشّط الذاكرة وتوضح الأمور. أقلّد العنزات عندما تجتر غذاءها. انظر : الآن تأتيني ذكرى دافيد. لقد جاء إلينا تحت جنح الضباب. سمعت خطوات

---

١. Nonnu ، واو في الآخر بحسب اللهجة الكالابرية.

بينما كنت أقوم بالحراسة. لم يمنعني من تثقيبه بالرصاص إلا رغبتي في الحصول [على هذا العنصر المعادي] حياً. وجاءت المفاجأة! لقد وجدَنا، بالرغم من أنه لم يعرف طبيعة المنطقة. واعترف لنا فيما بعد أنه قد ضاع. تخيّل! لقد أقرّ بعفوية أنه كان ضائعاً. هكذا كان دافيد ذو العينَيْن الوديعتَين الحزينتَين. لماذا أقول عنه إنه مسكين؟ من هو المسكين ومن هو غير المسكين؟ نعم أيها الرفيق الصغير، أنتَ ترى بأني أصبحت متشككاً بعد أن كنت في الماضي واثقاً. لم يؤدّ الله عمله على الأرض كما يجب. كان عليه أن يجعلنا نعيش كالأشجار: بعد سنة من العقم تنبت الأوراق من جديد وتدور الحياة من البداية. أما نحن البشر فلنا ربيع واحد، وصيف واحد، بعدها إلى الحفرة مباشرة. لهذا يجب عليك أن تحترس منذ البداية، أن تتغذى أغصانك بالنسغ المناسب. لقد نبتُّ على تربة حجرية، رغم ذلك لا أشتكي، فقد استطعت وحدي أن أنجو إلى الأعلى وأتفرّع. ولكن كان من الممكن أن أُزهر بشكل أفضل...'

وتمسك تلك الفكرة الأخيرة بتلابيبه.

'نعم، بالضبط: أن أزهر. لقد اعتقدت أن هذه من شيم النساء: نحن الرجال قُدِدْنا من الخشب، كلما زاد قساوة أصبح أحسن، ولكن ما عيب الزهرة؟ لقد أحبّ دافيد الأزهار. كان يتوقف أثناء المسير كي يتفرّج عليها ويسأل عن أسمائها. في البداية كنا نهزأ منه، ولكن اتضحت لنا بعد ذلك كينونته واستحق احترامنا العميق. هل كان هو المحق؟ كما قلت لك، لم أعد الآن واثقاً من عدة أشياء. لم يدر بخلدي أبداً أن رجلاً يمكن أن يُزهر! والآن هذه المفاجأة! إن الرجل يُزهر مع المرأة. طبيعي، فإنها ربيعه الحقيقي. نُزهر معها في الظلام كما تفعل الزهرة السحرية، هذا إذا وافانا الحظّ واستطعنا أن نجدها.

لقد نعمتُ بهذا الحظ، ولقد خبّأتني [سالفينيا] في سريرها حيث استطعت أن أنمو. هكذا كانت "سالفينيا". جذبت الرجال ثم نبذتهم، بالطريقة التي تحلو لها. لم يكن لها في المنطقة كلها مثيلة. لقد نبذت حتى الأمير الذي أراد أن يخصّها بمنزل منفرد في كاتانزارو. كانت قويةً كالرجال. قالت له: لن انحطّ إلى أميرة، ما دمت

في طاحونتي ملكة. أدارت الطاحونة بمفردها. كانت سالفينيا ملكةً حقاً، قُدَّت من أندر الأخشاب. لقد سبحنا معاً في خندق الطاحونة، ساعدتها في إفراغ الطحين، أكلنا معاً. يا لها من خشب ثمين، يا لها من أمسيات، يا لها من ليال! وكانت قرقعة المصافي لا تتوقف في النهار ولا تسمح لك بأن تفهم ما يقوله الآخر، وكانت أحجار الطحن تجعل البناء كله يهتزّ. أما السكينة التي كانت تخيّم بعد قطع المياه في وقت الغروب ... أيتها العذراء! كل شيء رقص على موسيقا سالفينيا: البيت، العالم، العصافير، الضفادع، كانوا كلهم يرتاحون وكنا نحن نمرح. ينظر بعضنا إلى بعض كيف أن كلّاً منا مغمّسٌ بالبياض ونضحك. نشرب قليلاً، نأكل شيئاً: جبناً، تفاحة، لحماً مقدداً، خبزاً - وكل هذا كان متوافراً بكثرة -، ثم نقفز إلى السرير أو نستعجل فنستلقي على الأكياس المرصوفة، كيلا نُضطر إلى صعود الدرج. لقد كانت سالفينتي ناريةً! أراها الآن أمامي في العتمة ... آه سالفينيا، سالفينيا!'

ومرة أخرى تنفذ إلى ذاكرته خاطرة، وتصعد تنهيدة يحاول قمعها.

'الآن أعرف لماذا أحكي لك كل ذلك. لقد وضح لي في هذه اللحظة أنها لم تكن خشباً، بل حجراً صخراً. لم أفكر حينئذٍ في هذا الأمر ملياً. لقد كانت المتعة بوصلتي. من فتحتْ عينّي هي أورتنسيا. وأنت أيضاً، أنت يا بني. إنكما تعلّماني دون أن تقولا شيئاً، إلى أن أفهم ذلك بنفسي. ليست أورتنسيا مصنوعة من حجر، إنما هي ألَيَن: هي التي تشبه الخشب النادر.

أما سالفينيا فقد كانت قطعة من الجبال. الآن أفهم. أنثى وحشيةً تمص النخاع من العظام، لكنها كانت عاقراً. أنثى خروف لا تلد. من يدري السبب، قد تكون شجاعتها قد التهمت خصوبتها. الآن لا فرق. على كل الأحوال، كانت سالفينيا منْ خطط لزواجي من جدّتك، بالرغم من عشقها لي. لقد تخلّت بسببي عن جميع مريديها، لترسل بي في النهاية إلى سرير روزا[١] كي أرث العم مارتينو[٢] ...'

---

١. Rosa ، اسم جدة برونيتّينو.

٢. Martino اسم أب الجدة.

ويتحرك الطفل، فيرتعب الجد ويسير على الأرضية على أربع حتى الباب الموصود.

'لقد ظننت أنك قد سمعت شيئاً. إن سمعك قوي تماماً مثل سمعي، ولكن لا وجود في هذه اللحظة لأحد على هذا الدرب الوحيد الذي يمكن للعدو أن يأتي منه. إن دفاعاتنا جيدة، ويمكن مع ذلك تقويتها. لقد فرد دافيد أسلاكه على الأرض وربطها بقنبلة يدوية: عندما كانت تنفجر، كنا نعلم بوجود الألمان. وكانت فكرة أمبروزيو أن نتخذ لنا مخرجاً إضافياً في كهف ماندرانه[1]. ولما خاننا ذلك الفاشستي الخنزير من سانتينارا[2]، استطعنا من خلال ذلك الكهف أن ننجو من قاذفات النار الألمانية. أمبروزيو! سيظنّ الآن بأني فِراريّ، أرفض الرّجوع إلى قريتي لأموت في نقطة حراستي الأخيرة. لا، لا تخف يا صغيري، فلن أغادرك. فقط أمبروزيو سيفكر على هذا المنوال لأنّي لا أكتب إليه ولأنه لا يمتلك خطاً تلفونياً. لن أتركك وحيداً وسأفر إلى روكاّسيرا فقط إذا أتيت أنت معي. كيف سيكون دخولنا معاً، أنت وأنا! يجب أن تعلم خطّ سيرنا الذي نخترق الساحة بموجبه. إنه خط لا يمكن رؤيته، ولكنه موجود. لقد نسيه أبوك على الأغلب، ولكنه يخصّك الآن ويجب عليك أن تتعرف إليه[3]. كل أسلافك مَشَوْا عليه – مع أني لا سلف لي غير أمي. لقد ظفرت بهذا الدرب من أجلك، بمساعدة سالفينيا التي زوّجتني بجدّتَك.'

ويسكن الشيخ ويرهف السمع.

'هذه الليلة مليئة بالإنذارات ...! نعم، الدرب. انظر! لا يمكن أن يعبر المرء الساحة كيفما اتَّفق. هذا الأمر في روكاّسيرا ليس بهذه البساطة. هو صعب كصعوبة التسلل بين صفوف العدو في الغابة. ولكن هنا بالعكس، فالمطلوب في الساحة أن يراك الجميع. لا يتستر إلا من كان على هامش المجتمع. يجب أن تجعل الجميع يرَوْنك. أنت تسأل كيف؟ صدرك إلى الأعلى، رأسك مرفوع، عيونك تنظر إلى الأمام،

---

١. Mandrane

٢. Santinara

٣. يذكرنا الكاتب بمشهد الساحة في بداية هذه الرواية.

ذراعاك يتحركان - أنت فقط من يتقدّم إلى الأمام! هكذا ستعبر الساحة لأنك برونيتينو، ولكي يستطيع كبار السن في قهوة بيپّو أن يقولوا، ولتتمكن النسوة وراء الستائر - لأن النساء المحترمات لا يطأن الساحة بمفردهن - أن يقلن : من الواضح أن هذا هو حفيد سلفاتوره. سيقلن هذا لأنهن سيراقبننا كيف سنمضي معاً في اليوم الأول، ماشين على هذا الدرب الذي هو ملكك الآن : عبر المنتصف، إلى اليمين بجانب النافورة. حذارِ أن تجنح إلى اليسار، فهذا هو درب الكاتانوتّي، ليذهبوا إلى الشيطان. هل تعلم أنني كنت رئيس الرعيان في أرض دون مارتينو، وأن جدّتك كانت مغرمةً بي؟ لقد كنت من الرعيان القلائل الذين كانوا يمتطون الخيل، وكنت أركب الحصان إلى الجبال، الشيء الذي جلب لي صيتاً لايستهان به. ورغم ذلك لم يقبل بي أبوها صهراً، لكنه لم يشأ أن يسرّحني من عملي لأنني كنت الأفضل في رعاية حيواناته، ولأنه كان يعرف ألاّ أحد يستطيع أن يبزّني في عملي ولو من قريب. وانتظرَ الجميع ما سيأتي به الزمن. استغل الكاتانوتّي هذا الانتظار : لقد استولوا على نوبات سقاية تخصّ مارتينو واقتحموا حرج أشجار الكستناء الذي يملكه، حتى إنهم تجرّؤوا على أن يلتقوا في الجهة اليمينية من الساحة! كان مارتينو قد تقدّم في السن ولم يحظ بابن لأنه كان زير نساءٍ وتزوّج متأخراً[١]. رغم ذلك لم يوافق عليّ لأنني لم أكن أملك شيئاً. أما روزا فقد بقيت على عنادها : رفضت جميع من تقدّم إليها وخيّرت أباها ما بين الزواج مني وبين الذهاب إلى الدير. قلة عقل يا بني، تفكير أنثوي نموذجي! ولم آبه بكل ذلك، إنما استمريت في تأدية عملي ممتطياً حصاني إلى الجبال ومصطحباً بندقيتي، في حال صادفت خنزيراً برياً أو واحداً من الكاتانوتّي يريد بي سوءاً. وكان جينارو[٢] يودّ كثيراً أن يحصل عليها لنفسه. وكما قلت لك، كان كل شيء معلّقاً في الهواء إلى أن أتى اليوم الذي كان عليّ فيه أن أذهب إلى الطاحونة لرؤية سالفينيا. لقد كانت بيضاء الوجه والرقبة[٣] وذات عينين سوداوَيْن كبيرتين. وكنت لم أزل راكباً على

١. لقد أنجب مارتينو (بنتاً : روزا). ولكن إنجاب الذكر مرتبط في العرف الشعبي بالفحولة.

٢. Ginaro

٣. قد يكون قصد الكاتب هو أنها لا كالفلاّحات سمراوات البشرة، إنما بيضاء الوجه والرقبة.

ظهر الحصان حين كانت تفتح لي ذراعيها – لقد حكيت لك عن الليالي الكثيرة التي قضيتها عندها. نعم، لقد كانت هي من استطاع أن يستكشف المستقبل أكثر منيّ بكثير. يا لها من امرأة!

هل ترى؟ لا تنس ما قلته لك. إن الضباب في ميلانو داكن اللون دائماً، وهو في الجبال فاتحٌ كصوفة الخروف الممشطة جيداً والمنشورة لتجفّ في العراء'. ويبتعد الشيخ عن النافذة متقززاً.

'نعم، إن الرفاهية التي عشت فيها كانت بسبب سالفينيا. وما انفكت تقول لي بأنني بزواجي بروزا سأكسب جائزة اليانصيب الكبرى. لقد كنت أمتعض من هذا القول، وظننت أنها قد سئمت مني. وكان العكس هو الصحيح، لقد كانت تقول ذلك لأنها تحبّني. ولم أنقطع عن الذهاب إلى الطاحونة، رغم أن جدّتك كانت جميلة. جمال روزا كان كجمال حديقة تقطف منها الزهور، أما سالفينيا ... فكان جمالها معجزةً، عاصفةً، سُكْراً! إلى أن جاء اليوم الذي أفحمتني سالفينيا فيه ووطئت موطن ضعفي. لقد تحدّتني وقد قبلت أنا التحدي: أراهن أنك لن تقبل أن تصطحبني مساءً إلى ساحة القرية وأنك تخاف مِن ألسنة أهلها؟ ولن تتخيل جوابي: الآن وفي الحال. لقد كان كل شيء عندي سيّان، وكنت واثقاً تماماً من فقدان روزا في هذه الحال. لكن سالفينيا التي كانت تعرف النفس البشرية أفضل مني، وخطّطت أن يكون هذا الاستعراض الكبير في يوم سبت. في ذلك اليوم رجع الناس كالعادة من أعمالهم وتجمّعوا أمام محلّ بيبو، ووقف البعض بانتظار دورهم عند الحلاق آلدو. وكان القس بالمصادفة واقفاً مع راهباته على درجات الكنيسة. دقت ساعة الحدث الكبير في الساحة. لقد ظهرتُ مع سالفينيا التي كانت تمسك بساعدي – وهذا كان فضيحة بذاتها، إذ لم يكن للنسوة أن يفعلن ذلك إلا مع أزواجهن. ومشينا بكل تؤدة آخذين الطريق الأطول: من زاوية ريبّيا[١] حتى زاوية بناء البلدية. لقد كان موكباً مهيباً يا بنيّ، وكأن جوقةً من الطبول والأبواق ترافقه. لقد أعطتنا الراهبات ظهورهن، وتسمّر الرجال

١. Ribbia

في أماكنهم دهشين : الرجال الذين لم ترضَ سالفينيا بهم تحت أيه مغريات أو الذين قبلتهم ثم تخلّت عنهم. كلهم قاطبة كانوا مكسوري الخاطر، أكانوا من المرفوضين أو من المقبولين ثم المنبوذين. لقد نظرنا إلى الناس حولنا، فيما كنتُ أتوقّع أن برج الكنيسة سيقع على التو. لم يحصل ذلك، وحتى ناقوس البرج بقي في مكانه. دقت الساعة السادسة مساءً، وكأنها تحيي موكبنا! ببطء، كما قلت لك، حتى إن البعض قد حيّانا، وقد فعل هذا من شدة الارتباك ودون نيّة فعلية. لقد كانت هذه الحادثة صفعة على الوجه، وإلى اليوم يتحدث الناس عن ذلك!'

يضع الشيخ يده على بطنه ناظراً باتجاهه :

'وأنت يا روسكا، هل تنصتين إليّ؟ من المؤكّد أنّك لا تفهمين معنىً لذلك وطبعاً يشترك معك برونيتينو في هذا. أنتما لا تعرفان أن سالفينيا كانت دائماً تحترم الساحة لأنها قلب القرية النابض، بغض النظر عن أنها مُذْ أن غرق زوجها في خندق الطاحونة قد تصرّفت على هواها غير آبهةٍ بأحد. قد يكون ذلك بسبب الكنيسة، لأن حتى أشجع النساء تحتفظ بمثل هذه التخيّلات. لم تذهب أبداً إلى الساحة وحدها ورفضت الذهاب مع رجل آخر، من باب الاحترام أو لا أعرف لماذا. أما معي فقد أصرّت على ذلك. لقد قالت لي: معك مستعدةٌ أن أُظهر ثدييّ ومؤخرتي في وضح النهار وبرأس مرفوع في ساحة القرية، لا يعنيني رجالها لأنهم عنيّنون ولا تعنيني نساؤها لأنهن لا يتميزن بما أتميز به. وسترى كيف سيعلو شأنك وستحصل على روزا؛ يجب على المرء أن يمسك الدنيا من قرنيها. وهذا ما حصل بالفعل : لقد بدأ الناس فجأة بالنظر إلي نظرة مختلفة، واقتنع العم مارتينو بأنني سأكون ورقة رابحة في وجه الكاتانوتّي وحتى في مواجهة ابنته. كانت روزا قد قررت التخلّي عني، ولكنها عندما رأتنا من النافذة أصيبت بصدمة عنيفة (وهذا ما علمته فيما بعد). قضت بضعة أيام تجهش بالبكاء وحضّرت نفسها لوهب حياتها إلى الدير. ولكن أباها فهم أنه يحتاجني وأنني بالإضافة إلى ذلك سأنقذ له هيبته في الساحة. وهكذا زوّجنا في نهاية المطاف، وكان هذا ما صنعَتْه سالفينيا من أجلي. هل تتخيّل هذا الحب؟ فعلتْ ذلك بالرغم من

أنها تعشقني ! واستمررت في الذهاب إلى الطاحونة، ولكن بابها كان دائماً مغلقاً في وجهي. أعرف أنها كانت وراء الباب تشهق بالبكاء، لكنها كانت كالحجر، كالصخرة، كالجبل ذاته ... من أجلها أصبحت مقاتلاً ثائراً، وإلا ... ماذا كانت تعني الحرب بالنسبة لي؟ إن الوطن هو حجة الجنود، فهم يكسبون من ورائه. أما السياسة فهي مطلب السادة المرفهين : الفاشيون أولاً تحت قيادة موسوليني، ثم الديمقراطيون. لا، لم أصبح فدائياً لا من أجل هؤلاء ولا من أجل أولئك، بل لأن الألمان اغتالوا سالفينيا في طاحونها. نعم يا بني، لقد قتلوا تلك المرأة النادرة. وبأية طريقة، بأية طريقة! بكل بشاعة وأفظع من قتل الحيوانات. لم يكونوا بشراً، ولم يصلوا إلى مرتبة يستحقون فيها أمهاتهم. القتل، ممكن. ولكن ليس بهذا الشكل. لا أستطيع أن أحكي لفتى بريء مثلك ...'

وتختنق الكلمة في أفكاره كما يختنق الصوت في حلقه.

'من أجلها التحقت بالفدائيين ... كنت بالتأكيد سأحصل على السلم في داخلي لو استطعت أن أعرف أولاد الزانية الذين عذّبوها وقتلوها وأن أقتص منهم بطريقة أفظع من طريقتهم. ولكنهم كانوا غير معروفين. كان يمكن أن يكون أي جندي ألماني واحداً منهم، لذلك لم يبقَ لي إلا أن أعلن الحرب عليهم جميعاً. هل تفهمني؟ انتسبتُ إلى الفدائيين كي أقضي على الجميع ولقد قتلت غير قليل منهم، على كل الأحوال عدداً أكثر من الذين عذّبوها، أكثر بكثير، كي تكون سالفينيا فخورة بحبيبها سالفاتوره. لم يكونوا هم ذاتَهم، ولكني قمتُ بواجبي. نعم، أظنها راضيةً عني'.

٤٥

”كم أصبح كبيراً ، وكم هو جميل“

شهقت أورتنسيا . وتذكّر الشيخ ذلك الصباح : تذكر السيارة التي وسّختهما ، كيف ركض وراءها وترك الصغير وحده ، تذكّر السيدة المتعاطفة. لم يمض أربعة أشهر كاملة ، مع ذلك ، أصبح هذا كنزاً من الذكريات .

اليوم يومٌ صاح، أزرق، لطيف من أيام شباط. وعلى الأشجار التي قصّ فاليريو أغصانها ، تظهر أوائل البراعم. يأخذ الشيخ الصغير في نزهة إلى الحديقة، وتخطر في باله أن يزور أورتنسيا ليحكي لها عن آخر مغامرةٍ للصبيّ : إذ أن الصغير تحدّى كلباً في الساحة الصغيرة. يعني، ليس كلباً تماماً ، بل واحد من الكلاب التزينيية تقوده امرأة متقدمة بالسن، ألبسوه غطاءً ضد البرد وسواراً في رقبته تتدلى منه أجراس صغيرة. وأن هذا الكلب نبح في وجه الصغير نباحاً غاضباً حاداً . أما برونيتينو ، فبدلاً من أن يخاف، صار يضرب الأرض بكل قوته ويصرخ بأعلى صوته بشكل أجبر به الحيوان أن ينسحب وراء ثوب صاحبته.

والآن عندما فتحت أورتنسيا لهما الباب، يفقد الصبيّ جرأته ويلتجئ إلى جده ممسكاً بساقه. ولم يدم الخجل طويلاً . تفتح أورتنسيا ساعديها للطفل ويظهر الجندول الفضي مشبوكاً على صدرها ، الشيء الذي يُفرح الشيخ. ولكن الصبي كان ما يزال يوازن ما بين الدرج المعتم والممر المضيء للشقة قبل أن يشير بإصبعه آمراً باتجاه النور. يضحك الجدّان وتأخذه أورتنسيا بين ذراعيها سائرة به قدماً إلى غرفة الجلوس الصغيرة. وهنا يتبين لها بوضوح مقدار التغيير الذي أصاب الصغير فتقول :

”هل تتذكر يا برونو أن ساعديه الصغيرين لم يستطيعا أن يضمّا رقبتي؟ أما الآن فانظر !“

"أنا الذي أتذكر! ولكن لا تتعبي نفسك! هذه هي المرّة الأولى التي أراك فيها بعد مرضك تقفين على قدميك."

"لقد نهضت فقط لأفتح لكما الباب"، تجيبه وتسقط على الكرسي متعبة بعدما وضعت الطفل على الأرض. "إني أجلس هنا اليوم بطوله."

ويتطلع الصغير من حوله مستكشفاً الغرفة.

'يحتاج الصغير إلى مشغلة مناسبة، ولكن هذه الشقة للأسف غير معدّة للأطفال'، تفكّر أورتنسيا. "آه نعم، افتح الخزانة يا برونو. في الدرج الكبير في الأسفل ستجد لعبة دومينو."

لقد قام الشيخ أثناء مرض أورتنسيا بخدمات كثيرة مماثلة، ولكن هذه الخزانة تثير إعجابه كما في المرة الأولى، إذ كان عليه أن يُحضر منديلاً. لقد انطبعت هذه الذكرى في رأسه. وفي هذه المرّة أيضاً يقف بدايةً مراقِباً: الألوان الزاهية، الأثواب التي تشي بقوام صاحبتها، وقبل كل شيء العطر ... لا، العطور التي تهفو إلى أنفه. إن هذه الخزانة أهم من أن تكون صندوقاً كبيراً، فأبوابها تنفتح عن حجرة، عن معبد مليء بالكنوز. هذه الأقمشة تذكّر بالشِّباك التي ينصبونها في طرفي الممرات الجبلية، كي يصيدوا بوساطتها الحمام المخطط. وفي فضاءات النعيم الواعدة هذه، يصبح قلبه قلب حمامة وجلة. 'لماذا لم أنتبه إلى هذه الأمور من قبل؟'، يتحاور مع نفسه. 'كم من الخزائن فتحت في حياتي، أحياناً كي أختبئ من الأمهات المتربصات؟! لا شك أنها كانت تُشبه هذه، ولكني لم أكن آبه: لتذهب الأثواب إلى الجحيم، ولتأتي الأجساد التي تتمتع يداي بملمسها! أما الآن، فأقف أمامها فاغر الفم...'

الدُّرج الكبير في الأسفل. يفتحه فيرى أشياء حميمية تهيّبه وكأنما رأى جسداً عارياً. والموضوع ليس فقط جوارب نسائية أو ألبسة داخلية، إنما أكثر من ذلك بكثير: إنه كشف الغطاء عن ذكريات إنسان. فحين يرى الظرف المملوء بالصور وعلبة المجوهرات التي تحوي قطعاً تزيينية بسيطة، ودون أن يحتاج لمعرفة التفاصيل، يعلم أنه يدخل عالم

حياة كاملة. تغوص يده في الأشياء الثمينة الطرية، كالنمس في التربة، لتقنص غنيمتها.

بالنسبة للصغير الذي اتّخذ موضعاً على السجادة تحت الطاولة، تعني كومة أحجار الدومينو السوداء/البيضاء جبلاً من الأحجار الكريمة البراقة. يأخذ حجراً فيشمه ويضعه في فمه. ولأن الأحجار لا يمكن أكلها [لقد وصل للتو إلى هذه النتيجة]، يرميها كيفما اتفق ويسعد بصوت قرقعتها.

"بهذه اللعبة كنت أشغل وقت توماسّو في أيامه الأخيرة."

'وهذه الذكرى تعطيها ليلعب الطفل بها! ما هذه المرأة! وما هذه النظرة المليئة بالعاطفة تجاه الطفل!' ويمنع نفسه من التنهّد. 'كم كنت لأصبح سعيداً لو لم تكن روسكا الملعونة قد وصلت إلى أسفلي تنهش فيه!' وقد ذكّره هذا [الأسفل] بشيء دعاه أن يُخرِج برونيتينو من مغارته.

"لا أريده أن يبلل السجادة، تعال يا بنيّ، لنذهب معاً إلى المرحاض." ويذهب إلى الحمام، يفكّ الأزرار العجائبية، يُنزل السروال الصغير ويمسك بالطفل مساعداً إياه على قضاء حاجته. وقد أتت أورتنسيا وراءهما بكل هدوء، تراقبهما دون أن يراها. وعندما رجع الشيخ كانت قد اتخذت مجلسها مجدداً في غرفة المعيشة. قال لها الشيخ معتزاً "إنه يبول كالرجال، أليس كذلك يا برونيتينو؟ نافورة ولا أجمل ... !"

ويستغرق الطفل مجدداً في لعبه، إذ تستمر قرقعة الأحجار طويلاً؛ قرقعة تشبه صوت الكاستانِيِتّا[1].

"بماذا تفكّر يا برونو؟"
"لا أعرف ... لا أفكر بشيء"
"محتال! إني أعرفك فلا تكذب. قل ما عندك!"
يشعر أنها قد قبضت عليه بالجرم المشهود فيبتسم.

---

١. آلة إيقاعية ذات فردتَين، الواحدة منهما بحجم الأذن تقريباً ومصنوعة من خشب رنّان، أسود اللون في العادة.

"قبل الحرب وعندما كنا فتياناً، كنا نبوّل خلف المدرسة. لقد كنّا نعلم أن المعلّمة تراقبنا وتعمّدْنا أن نُظهر ما لدينا ... كانت تتجه بثبات نحو العنوسة ورغبتها في الرجال قوية، لكنها لم تكن تمتلك الجرأة. بنت مدينة لا تصلح لأعمال الريف، قبيحة ودون مال. لقد كانت حالتها صعبة."
"قد يكون صحيحاً أنها لم تكن ذات شأن، ولكنك تتذكرها رغم ذلك!"
"فقط الآن. عندما كنت أراقب الصغير."
"وكأنك المعلمة إياها؟"

لقد وقعت منه هذه الملاحظة غير الشريرة موقعاً موجعاً. هذا تماماً ما حصل. وتختلط أفكاره مرة أخرى بعضها ببعض. يحتاج صغيرهُ جدّةً يجب عليه أن يعوّضه عنها وأن يكون له فوق ذلك جدّاً، هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فإن عضّات روسكا في أحشائه تقتل الرجل فيه وها هي المعلمة برغباتها المكبوتة تذكّره بذلك.

وتحس أورتنسيا أنه يعاني من شيء ما.
"هل تزعجك روسكا؟ هل تشعر بآلام؟"
"آه، آلام! لو أن الأمور تتوقّف عند هذا الحدّ..."
ولكن العينين اللتين تنظران إليه تطلبان الحقيقة بإصرار. وهو يستعد الآن لهما: "لا أريد أن تسيئي التفكير بي، بعد أن استلقيت إلى جانبك دون أن ألمسك. أسهل عليّ أن أعترف لك بأن روسكا تتدحرج هناك وأنني أفقد رجولتي... لقد بُحت الآن وانتهى الأمر."
ينظر إليها بتحدٍ. يصبح صوته أجشّاً بفعل الاضطراب والحماس، وتظهر الرغبة في عينيه مما يوضّح رسالته أكثر. ولا تنبس أورتنسيا ببنت شفة: هذا أفضل شيء تفعله. ستحكي له فيما بعد أنها كانت تود وقتها لو تقول لهذا الرجل إنها لا تأبه لما صرّح به، وأنها لهذا السبب بالذات تحبه أكثر من قبل.

أحجار الدومينو مازالت تقرقع بين يدي الطفل.

"نعم، هذا هو الوضع ... كنت في الماضي أستهتر بالمسنين وأظن أن حياتهم لا قيمة لها. وظننت أن حياتي، وبخاصة بعد موت كانتانوتّه لا قيمة لها."

"ما هذا الكلام السخيف. لا تقل هذا!"

"الآن الأمر مختلف. من أجل ألا يبقى الصغير وحيداً في سجن الغستابو ذاك، سأبقى موجوداً إلى أن يتعلم أن يدافع عن نفسه..."

"الحمد لله"، تقول أورتنسيا وتردف برقّة:

"ولكن أليس هناك شخص آخر يحتاجك عدا الصغير، يا ثقيل الفهم؟"

ترتعش شفتا الشيخ عفوياً. ثم ترتسم ابتسامة بعد حين، تتحول بسرعة إلى ضحكة؛ "آه، هناك شيء لم أقصّه عليك! لقد اتصلت بي روزيتّا البارحة، وحكت لي بأن أولاد كانتانوتّه قد بدؤوا يتشاجرون على تقسيم أراضي الإرث. أليس جميلاً أني عشت لأرى ذلك؟ هؤلاء الأغبياء سيخسرون بسبب خلافاتهم على الأراضي التي حافظوا على وحدتها أثناء الإصلاح الزراعي، وذلك بفضل الرشاوى التي دفعوها في روما. والحقيقة أنهم لم يحافظوا عليها كلها، لأنني عبر مجلس البلدية لم أتركهم يفعلون ذلك. كان هذا في عصر ذهبي مضى، كنتُ أستطيع فيه أن أحافظ على غابة القرية ملكاً لأهلها. كانت الكلمة العليا وقتها للمقاتلين. ثم جاء السياسيون فاعتزلت. لماذا؟ [يقفز إلى موضوع كانتانوتّه] انظري بنفسك: الآن يخاتل كل منهم الآخر. في النهاية ستؤول الأرض إلى المحامين ليبيعوها."

"في النهاية تستقر الأمور وتعود إلى ما يجب أن تكون عليه." تجاوبه أورتنسيا ببساطة. ومرة أخرى تجبره كلماتها على التفكير.

وكيف يجب أن تكون الأمور؟ ولكن وقبل أن يستطيع الإجابة عن هذا السؤال، حدثت الحادثة: لقد حاول برونيتينو أن يستند إلى رجل الطاولة كي يقوم من على الأرض، فإذا برأسه يصطدم بلَوْح الطاولة [من الأسفل]. يبكي الطفل ويمسّد مكان الصدمة بيده، أما أورتنسيا والجد فيهرعان لمؤاساته.

٤٦

في حلقة البحث ينجح المسنّ المرة تلو الأخرى في إدهاش المختصين في علم الشعوب، ولكنهم أيضاً يفاجئونه بما يكتشفون : لقد تبيّن أن روسكا – التي تأكل أحشاءه من الداخل – معروفة لديهم في التاريخ الإغريقي. وقد جاؤوا له بمثال لم يكن يعرفه: رجل مثبّت على الصخور يُنهش كبدُه، ليس من قبل حيّةٍ إنما هذه المرة من قبل نسر. "يا لطيف! من المؤكد أن النسر قد التهم الكبد بلمح البصر"، قال لهم المسنّ متعاطفاً مع الرجل. ولكنهم أكّدوا له أن النسر لم يكن يقضي على الكبد بالكامل.

'إن هذا النسر إما مشوّه أو مريض'، يعلّق المسنّ بينه وبين نفسه ويفترض أن فئران الأوراق هؤلاء لم يَرْوا في حياتهم مدى الوحشية التي يقطّع بها نسرٌ غنيمته بمنقاره. 'ومن الممكن أن يكون هذا الفتى، بروميثيو[١] أو مهما كان اسمه، فتىً مشاغباً عوقب فعلاً بسبب سرقته النار من الآلهة. كانت الآلهة في الماضي البعيد آلهةً حقيقية، وليس كإلهنا الآن الذي يحاول الخوارنة أن يلصقوه بنا، دون أن يكون له حضور على الإطلاق. وما أفظع استغلال الكهنوت لمناصبه وما أهنأ العيش الذي اختاروه لأنفسهم، بالأخص مع النساء.

المسن منتبه كلّ الانتباه. لذلك فإن حكاية النسر الذي لا يفترس الكبد في طرفة عين لا تقنعه إن كانت قد حدثت مع بروميثيو أم مع غير بروميثيو. الأمر ذاته مع حكاية إحدى المعجزات التي يتحدث القساوسة عنها، في وقت لا يستطيع فيه بشر أن يؤكدها، كونها قد حدثت منذ أمد بعيد. وهناك معجزة أُخرى يتناقش فيها الباحثون : إله يستعير وجه وجسم ملك غائبٍ في الحرب، كي يغرّر بزوجة ذلك الملك. المسن أبعد

١. بروميثيوس: من عالم الأساطير الإغريقية.

ما يكون عن الإعجاب بمثل هذا الفعل.
"هذا ليس من صفات الآلهة." يقول باحتقار [ثم يضيف :]
"هذا ليس عملاً بطولياً. إن "الفن" يكمن في أن يكسبها الذكر الآخر بوجهه الحقيقي. الاثنان يجب أن يكونا فرحَيْن بتركيب قرونٍ نظامية للذكر الأول. اعذريني سينيورا . . ."

ويلتفت الشيخ هنا إلى الدكتورة روسّي التي تبتسم له.

"لا تحتاجون إلى الاعتذار يا سيد رونكونه. أو تسمحون لي بأن أدعوكم "سلفاتوره"؟ اسمي بالمناسبة ناتاليا ... لا يجب عليكم الاعتذار. كل واحد يهتم بالأساطير لا تكون كلمة "قرون" غريبة عنه. عدا عن ذلك أعطيكم تماماً الحق فيما قلتم : لا توجد أية رجولة في خداع المرأة على هذا النحو." وتتسع الابتسامة.
"أليس كذلك؟"، يوافقها الشيخ مبهوراً.
'انظر إلى هذا. عرق الفاصولياء هذه تفهم الأمر أحسن من الرجال، بالرغم من صدرها الأملس.'
"وبشكل عام هناك شيء آخر غير مفهوم"، يستطرد. "عندما يتخذ الإله لنفسه جسد الزوج فهذا الجسد سيحس بالنشوة، أفترض هذا. إذاً : من سيشعر بالنشوة، الإله متقمصاً الزوج أو جسد الزوج الذي يمارس الجنس؟ هل تراهنون على أن الإله لن يشعر بشيء؟"
وتضحك الدكتورة موافقة، بينما ينظر الذكور بعضهم إلى بعض متفاجئين. 'لم يخطر ببال هؤلاء المتحذلقين أن يفكروا من سيتمتع بالجنس، في حين أن الموضوع كله يتمركز حول هذه النقطة!'
ويلتفت مجدداً إلى الدكتورة ويلحظ نظرتها المرحة، المتواطئة معه. يجب أن يعترف أن ساقيها الطويلتَين جميلتان، رغم أن بعض اللحم الملفوف لن يضرّ بمنظرها. يا للعنة، وأيضاً فخذاها المشدودان الظاهران من تحت ثوبها القصير يغويان.
وتنتقل المناقشة إلى موضوع آخر يشغل أيضاً بال الشيخ في هذه الأيام. الخشب البرعم، وإن كان الرجال أيضاً يزهرون.

"هل عندكم حكايات عن "الغاويات[١]؟""، يسأل البروفسور الشيخ. "أنتم تعرفون طبعاً: عن نساءٍ لهنّ رؤوس الطير أو نصفهنّ امرأة ونصفهنّ الآخر سمكة.. أو ما شابه."

"إذا كنّ أنصاف نساء وأنصاف أسماك، فمكانهن البحر ومن يعرفهن هم الصيادون. عندنا في الجبال غير موجودات. ولكننا بالمقابل نعرف الإنسان العنزة[٢]."

"آها! كيف هو شكلهم ومن أين أتَوْا؟"

"كيف هو شكلهم؟ نصفهم العلوي رجال ونصفهم السفلي ماعز. لقد رأيت هذا في إحدى الرسوم. أمّا من أين أتَوْا ... همم ... !"

يتوقف لحظة. ما هذا السؤال! قد يظن المرء أن هؤلاء البروفسورية – بالرغم من كل كتبهم – لا يعرفون أن المعزة الصغيرة تأتي من نفس المكان الذي يأتي منه الطفل الصغير. يجب أن يشرح لهم ذلك! الدكتورة تسانده: يرى المرء أنها مسرورة، ويراها لا تتوقف عن تسجيل ملاحظاتها.

"أتَوْا من المكان الذي يأتي منه الجميع! من العنزة الأم. وعندما يضاجع رجل عنزةً – لا تؤاخذوني – وتحمل، تطرح إلى الخارج إنساناً–عنزة. وبما أن وقتنا هذا لا يشهد إلا قليلاً جداً من بشر العنزات – ليس كما كان الحال سابقاً – ، فإنني أظن أن عنزات اليوم إما تسقطن أو لا تحملن أصلاً. وإذا كانت العنزات تطرح اليوم بشكل طبيعي، كنّا سنرى الجبال مليئة بالبشر العنزات!"، ينهي حديثه مبتسماً.

"تريدون أن تضحكوا علينا؟"، تفلت الجملة من طالب لم يعد يفقه شيئاً.

ويرميه الشيخ بنظرة محتقرة. حالٌ نموذجية. لا علم بعد لهؤلاء الأطفال بالحياة الواقعية. [ثم يقول له:]

"أغلب الرعيان الفتيان يفعلون ذلك! هكذا يتمرّنون."

ويتفرّس الشيخ في الوجوه غير المصدقة. 'يا سلام. أحكي لهم قصةً لا كذب فيها –

---

١. Sirene: [حورية] في الميثولوجيا الإغريقية تستدرج البحارة إلى اليابسة عن طريق صوتها الساحر.

٢. Capruomi

على سبيل الاستثناء – ، فينظرون إلي على أني محتال!'
"عنزة أم غنمة؟" ، يريد البروفسور أن يعرف بدقة. ضحكات مكبوتة. يغتاظ الشيخ : "عنزة! إنها مناسبة أكثر، لأن عظام مؤخرتها أكثر بروزاً. ألم تلاحظوا ذلك ولا مرّة؟ إن مؤخرة الغنمة أصعب على الإحكام."

وتجبر نظرة الشيخ المتحدية الجميع على الصمت. ثم يبدؤون بالمناقشة على طريقتهم فيتحدثون عن أنواع أصناف البشر : نصف سمك، حوريّة[1] ، نصف حيوان، ويتحدثون عن حالات أخرى موجودة في الكتب. ويذكرون حالة شبيهة بحالة بروميثيوس : قصة العملاق تيثيوس[2] ، ثم ينتقلون إلى موضوع يهمّ الشيخ أكثر بكثير : كائن نصفه ذكر ونصفه أنثى يسمى عندهم تيريسياس[3] .

"وهل كان نصفه الأسفل ذكري أم أنثوي؟" [يسأل الشيخ]

وتشرح له الدكتورة المتعمّقة بشكل خاص في تلك المسائل : ليس لهذا الكائن نصفان، إنما جسم واحد يتنقل بين أنثى وذكر. لقد كانت تيريسياس امرأة لمدة سبع سنوات ثم رجعت رجلاً عرافاً حكيماً ذائع الصيت.
"من الممكن أنه كان كامل المعرفة. ليس هذا المراد."
'بوسع الكائن المزدوج أن يجمع في وقت واحد بين الجدّ والجدّة.' وتراه الدكتورة غارقاً في أفكاره فتريد مساعدته. تذكر له أن هناك حالات لا يوجد فيها نصفان، إنما جهازان تناسليان في آن معاً. ولقد سمّت له هذه الحالة [خنثى] ولكنه الآن، في المنزل راقدٌ في سريره، نسي ما قالته. التسمية لا تهم.

الشيء المؤكد هو أن الأزمان الغابرة تفوّقت فيما يخص الآلهة وكائنات الأنثى التي تحمل أعضاء الرجال. 'بهذا تظل الأنثى أنثى وتستطيع الاستمرار بشعورها بالنشوة رغم

١. يورد الكاتب هنا كلمة Silen [معناها مربّي ومرافق في الميثولوجيا الإغريقية] ، وهي تشكّل مع كلمة Siren (حورية) الواردة قبل أسطر سجعاً. أظن أن هذا هو المطلوب.

٢. Tythios

٣. Tiresias

تقدمها بالسنّ الذي لن يعيقها : تفتح رجليها وقضي الأمر. فكرة إعجازية! إضافة لذلك لا تحبل. حقيقةً، حظهنّ أكثر من حظّنا بكثير، تلك الكائنات المخاتلة.'

وعلى حين غرّة تباغته روسكا بعضّة من عندها. لم تكن هذه المرّة شديدة القوة.

'ولكن الله في عصرنا لم يتمّ عمله على أكمل وجه'، أكمل فكرته وهو على وشك أن يغفو. 'ليس فقط أنه أهدانا حياة واحدة لا غير، بل لم يأت بباله أن يعطي الرجال أثداء. في الأسفل ماكينة جيدة وفي الأعلى أثداء. كم كان الأطفال سيُسعدون بهذا!'

٤٧

في غرفة نومهما، يتبادل الوالدان الحديث عن الجدّ.

"لابدّ أنه كان قادماً من الجامعة. كان هذا وقته." تعلّق أندريا التي أصبحت في الفراش. "يكون عموماً أكثر سروراً عندما يعود من هناك." يردّ عليها ريناتو الذي تفقد توّاً الطفل، وعاد ليستلقي على سريره.

"قد يكون يومه لا ككل الأيام. إنه لغريب أن يحاضر في حلقة بحث البروفسور بوونكونتوني. هل تعرف ماذا يعني هذا؟ منذ اللحظة التي أخبرني فيها ذلك الشاب، لا أصحو من دهشتي. وبالمناسبة فهو ابن القائد[١] فيرليني، دومينيكو فيرليني."

"نحن نعرف على الأقل أين يتواجد."

"ليس تماماً! ماذا عن تناول الغداء خارج المنزل؟ ولماذا أهتم بحمْيَته؟ تعلم أن كل شيء يزداد ثمنه، فلماذا يأكل الأشياء الضارّة في الخارج. ولكن من كان ليخمّن ذلك: أبوك يعمل في الجامعة."

"لماذا لا؟ إنه خبير بمنطقته ويعرف العادات التي اندثرت في أماكن أخرى."

"ألا تعلم أنهم يتناقشون حتى في الميثولوجيا الكلاسيكية؟ هل يهزؤون به؟ إن هذا ليفسر مزاجه اليوم."

"لا يستطيع أحد أن يهزأ بأبي، على كل الأحوال فإن هذا الشغل يُفرحه، بخاصة وأنه لم يبق وقت كثير"، يضيف الجملة الأخيرة بحزن.

وأندريا أيضاً ينتابها الهمّ. لم تحكِ لزوجها عن الزيارات الليلية والتسلّل إلى غرفة الطفل لأنه لم يبقَ للجدّ وقت طويل. لا يستطيع المرء أن يحرمه من ذلك، حتى ولو كان هذا

---

١. Commendatore : لقب شرفي [مثل اللورد في بريطانيا].

مشتتاً لتربية الطفل! لم يبق وقت كثير، لقد أكّد البروفسور دالانوته هذا بوضوح تام. 'ولكن لماذا لا يسافر إلى روكاّسيرا، الآن بعدما اختفى الآخر من الوجود؟'، تسأل نفسها قبل أن تجيب هي ذاتها :

"إنّه صعب المراس!"

"إنه لكذلك، لأن المواجهة كانت قدره. لقد تعرّفت عليه متأخراً. لو كنت تعلمين كيف كافح لتحسين وضعه، في قريته التي ولد فيها دون أن يعرف من أبوه!، كيف قاتل في الحرب وأظهر شجاعة عالية! وطنيٌّ مخلص، جُرِحَ ثلاث مرّات. لقد حكى لي صديقُه أمبروزيو عن أعمال بطولية حقّقها هناك. لقد حرّر قريته بواسطة بضعة جنود إنكليز، وكان السكان مدينون له شخصياً، في أن الألمان أثناء هربهم لم يُعدِموا أحداً من الرهائن ولم يهدّموا شيئاً. بعد ذلك أصبح عمدة القرية، أفضل عمدة يمكن تصوره. لقد حرص على تنفيذ الإصلاح الزراعي لصالح السكان، رغماً عن أنف الكانتانوتّي الذين رشوا الموظفين وكمنوا له مرّتين يريدون قتله. لقد وقف بوجه المجرمين، أمّا الآن ... أبي المسكين! وأقسم لكِ إن ضميري في بعض الأحيان يؤنّبني لأنني لم أبق معه في القرية."

ووضع ريناتو رأسه على صدر أندريا مهموماً، وأحس بثدييها تحت قميص النوم الشفاف وكأنهما عاريَيْن. تمرّ بيدها على شعره المجعد كشعر أبيه، ولكن لونه حالك السواد. شعْر ريناتو كثيف، كشعر الطالب الشاب صاحب الرأس الرومانية، الذي جاء بعد الظهر منذ فترة قصيرة ليصطحب حماها. "ولكنني لو بقيت هناك"، يعلل ريناتو تركه للقرية، "لكنت بقيت طوال عمري ابن سلفاتوره لا أكثر. كان علي أن أغادر، هل تفهمينني؟"

"طبعاً يا حبيبي. لم يكن عندك خيار آخر"، توافقه أندريا على رأيه، بينما تفكّر أن ريناتو في الحقيقة لم يحقق الكثير رغم هروبه من الريف. "كيميائي" في معمل، هذا أعلى ما وصل إليه. لم يصبح حتى رئيس مخبر. يجب أن تأخذ القياد بنفسها، وإلا

لن يبلغا روما حيث يوجد مستقبلها . في المتحف [المركزي] سيفرغ منصب مدير الحفريات الأثرية. ستكون هذه فرصة جيدة! أحسن من [متحف] فيللا جوليا[١] . رئيس القسم هناك من معارف العم[٢] دانييله القدماء ، كان تحت حكم دي غاسپيري[٣] مستشاراً حكومياً ومازال قادراً على التأثير . يجب عليها أن تحرّك الأمور بشأن روما إلى الأمام.

وتهيّجها فكرة الانتقال إلى روما . ولكن ربما يهيّجها أيضاً نَفَس الرجل بجانبها ، وكونه يقبل حلمة ثديها . وتمد ببطء يدها الحرّة إلى تحت الغطاء لتمسّد صدر ريناتو وبطنه . يستجيب ريناتو لرغبتها وكأن جسده يبغي التحرّر من ربقة الموت .

---

١. أنظر / أنظري بداية الرواية.

٢. العم : Onkel [كلمة منمقة]، وليس Zio [كما تستعمل في اللغة المحكية].

٣. De Gasperi : سياسي إيطالي تولّى رئاسة الحكومة الإيطالية بين عامي ١٩٤٥ إلى ١٩٥٣. في عهده تحوّلتْ إيطالية من مملكة إلى جمهورية في عام ١٩٤٦.

٤٨

لا يستطيع برونيتّينو أن ينام. يحضّر له الشيخ بين ساعديه أطرى سرير، فيتحسسه الصغير مسروراً في البداية، ثم، وبعد فترة قصيرة يصرخ: "نو[١]" – هذا آخر اكتشافاته – ويغيّر من وضعيته. ومن حين لحين يفتح عينيه، فيرى المرء عبر الضوء الخافت الذي ينعكس على الغرفة من إنارة الشارع، يرى مدى شدة سوادهما.

'هل يخبِّئ لنا شيئاً [مرضاً]؟'، يفكر الشيخ مشغول البال، 'سيوقظ والديه بصراخه. إنهما أصمّان لحسن الحظ يا بنيّ. ليسا من الفدائيين، ينامان كما ينام المواطن الصالح. ولكن، دعك رغم ذلك من الضجيج!'

إن الطفل يزعق بالفعل هذه الـ "نو" – وفي الحقيقة هي مزيج من "نو" و"نا" – بحيوية انفجارية.

الشيخ في الانبساط، لأنها الكلمة الأولى التي لفظها، قبل ماما، بابا، وحتى نونّو. على المرء أن يتعلم قول "لا" وأن يدافع عن نفسه.

وأخيراً يغفو الصغير فيضعه جدّه في السرير، ثم يبدأ حراسته مسنداً ظهره إلى الحائط. وكما في كل ليلة يجري الأحاديث مع نفسه.

'هل قلتُ: على المرء أن يدافع عن نفسه؟ هذا شيء أضيفه يا بني إلى الأشياء التي لم أعد أُحِرْ عنها جواباً واضحاً. كما الحال مع الخشب والبرعم، مع الرجل والمرأة. لقد كانا طرفي نقيض في الماضي، والآن – انظر إلي، "قبضاي" مثلي يفكّر إن كان سيصبح جدّاً أفضل، في حال ظهر له ثديان. ما هذا التخريف، ألا ترى معي؟ لكن

١. No : لا.

هذا هو الواقع. الآن أعي أنه لا توجد أطراف نقيض : الأخشاب تتبرعم، ومن البراعم الكثيرة يُنتج الخشب. ألا توافق؟ من أين يأتي الخشب إذاً، إنه لم يكن من بذور الزهرة؟ (ولكن في حالتنا لا نحتاج أو ننتظر لوقت طويل كهذا). خذ مثلاً الورود! لقد قطعت مرة نصبةَ وردٍ قديمة جداً، وكان الجذع قطعة خشب صافٍ. وأيُّ خشب!'

ويستمتع الشيخ بهذه الذكرى :

'هل تعرف ما كانت هذه النصبة؟ كانت نصبة ورد من مدفن آل كاتانوتّي. كانوا قد فقدوا خجلهم وأنشؤوا قبراً فخماً من المرمر. لم يمنعهم من المضي في جبروتهم قدماً إلا خوفهم من أن تنزعج عائلة الأمير التي تملك مدفَنها في ذات المقبرة. تصوّر! من أجل هذه الحثالة، تُنشأ تلك الحجرة المرمرية العفنة! على كل حال، فقد نمتْ نصبة الورد، صعدت إلى قوس البوابة وترعرت هناك متشابكةً كخطوط هندسية كنسية[١]. وكانت شجيرةُ الورد محلّ اعتزازهم، حتى أكثر من القبر ذاته. ولما كنت ممتعضاً من محاولات الاغتيال التي نظموها ضدّي قلت لنفسي : سأخلّص موتاهم وورودَهم. وفي إحدى الليالي قطعتُ شجيرة الورد بضربتَي بلطة. كان خشباً قاسياً، أليافه - كما قلتُ سابقاً - قمةٌ في النقاء. وبالمناسبة، لا يجول الأموات ليلاً في المقبرة - هذه خزعبلات النساء!

يأكل الدود الآن الخنزير ذا النظارة الفاشستية، وليدقّ على الباب المغلق [من الداخل] ما شاء له، فلن يفتح له أحد - وأنا في كل الأحوال لن أخلّصه...' وتصدمه هذه الخاطرة الأخيرة. ويبعد فوراً هذا الانطباع عن نفسه، غير سعيد بردة فعله.

'أخلّصه؟ ولا في الحلم! أيكون عندي رحمة تجاه آكل لحوم البشر هذا؟ إنه الآن جثة هامدة، ولقد ترك لنفسه كامل الوقت وزيادة! إني أفكّر كامرأة، فهل أصبحتُ مثلياً؟ ليصرخ وليضرب الباب حتى تتكسر جميع عظامه! إن الباب مغلقٌ! رحمة؟ كيف فكّرتُ بها؟ هل تسلّل شخص آخر إلى روحي؟ يجب أن ينتبه المرء إلى هذا

١. يقصد خطوط الهندسة القوطية المتشابكة.

جيداً يا بنيّ، ويحذر من الجواسيس. بسبب المندسين أمثال سانتينارا[1]، يمكن فقدان مجموعة حربية برمّتها. ولكن هنا لن ينجح المندسّون، حتى ولو كانوا قد تسلّلوا فعلاً.'

يا للدهشة التي تجتاحه بسبب تلك الأفكار.

'الرحمة! غير ممكنة أبداً! لستُ شريراً يا برونيتينو، ولكن هذا الشخص عدوّي. لقد استغّل الناس، وحاول قتلي، هل تفهم؟ كيف يمكنني الآن أن أحسّ بالرحمة تجاهه؟ لا، لا توجد لديّ تجاهه مشاعر رحمة ... لقد كنت لوهلة مشوّش الأفكار ... الآن عاد كل شيء إلى وضوحه. حتى الحيوانات تعرف أن الأقوى يحصل على الغنيمة. هذه قوانين الطبيعة. يجب أن يكون المرء قاسياً يا بنيّ : إما أن تلدغ أنت أو يلدغك الآخرون. لقد تعلمت ذلك من ذكر العنزة الشاب الذي كنت ألعب معه. لم يكن وديعاً كلامبرينو، إذ كان يرفس باستمرار. لقد استخدموه لتلقيح الإناث، ولما تقدم في السن [ظلّ] كالملك يختال ماشياً بين إناثه. لقد تعلّمت درسي [منه]، فلم أستسلم قط ولم أتوقّف عن الكفاح. هل تعلم ما هي أجمل هدية تلقّيتها في طفولتي؟ – لقد تذكرت هذا مؤخراً، حين اختطفتْ منك أونزياتا السكين. موسى جيب. صغيرة ولكن سكين. لقد أهداني إياها مورّودينترو الشيخ، أبو مورّودينترو الحالي. وقال له رئيس الرعيان وقتها، إن الصبي مازال طفلاً وسيجرح نفسه. [وكان الرد:] هذا أفضل، سيتعلّم إذاً. ولكن هيهات، أنا لم أجرح نفسي. هل تعرف كيف استعملتها أول مرة؟ لقد كانوا يسلخون تيساً شاباً قضى من ضربة تيس آخر أوقعتْه فوق الصخور. أراد الرعيان أن يشووه. أراني الطبّاخ كيف يتمّ سلخ الجلد عن العظم : يعلقونه من ساقه الخلفية، ويُدخلون الموسى بين الأعصاب وعظمة الساق الطويلة. وتعود الحيوية إلى يدي عندما أفكّر في ذلك [الذي حصل منذ زمن بعيد]، أما ماذا فعلتُ اليوم صباحاً فشيء قد نسيته الآن تماماً. موسى الجيب تلك يجب أن تكون حتى الآن موجودة في كيسي العسكري، إذا لم يكن الشخص الذي يُسمي نفسه صهري، والذي يكرهني

١. Santinara : الخائن الذي ذُكر في فصل سابق.

كرهاً عميقاً، قد رمى بها خارجاً.

لا يكرهني تماماً، فالكره يحتاج إلى عزم – وهذا العنّين لا يتقن سوى خُطَب الكلام المعسول. وفيما بعد حويتُ سكاكين مختلفة. سكين العريس[1] [مثلاً]: في ذلك الحين كانت الفتاة تهدي خطيبها الذي اختارته خنجراً. والخنجر التي أهدتني إياه روزا كان ذا مقبض مرصع بالصدف، كخنجر المافيوزو[2]. ولكن الموسى الأولى لا يُعلى عليها، كما المرأة الأولى، صحيح؟ ستختبر ذلك بنفسك. لماذا تتحرك؟ هل تجد تسمية الخنجر عندنا – قاطع البطون – تسمية ظريفة؟ إن هذه التسمية اسم على مسمى، لأن الضربة في البطن هي ضربة قاضية؛ الموت مضمون لأن كل شيء هناك طريّ. أفضل شيء طبعاً هو جزّ الرقبة – ولكن من الخلف. هل تحوم في سريرك لأنك مريض؟'

ويقترب الشيخ من السرير ويدسّ جبين الصبي: لا توجد حرارة. ثم يبتسم، إذ يسمع صوت هواء يخرج من مؤخرة الصغير. 'أيها الشره الصغير، لقد أكلت بسرعة كبيرة، هه؟ سأساعدك.'

ويقعد على ركبتيه ويضع على البطن الصغير يده الهائلة، فقد كانت زوجته المرحومة تزعم دائماً أن له يداً شافية. لم تتركها الآلام، رغم أنها لم تكن تأكل إلا القليل القليل بالأخص بعد أن ولدت ريناتو.

'نعم. يجب توجيه السكين إلى بطن العدو – وهذا هو الأنجع. ولكن من هو "العدو"؟ في السابق كان جوابي واثقاً: الألمان! ولكن هذا غير صحيح، فأخت أورتنسيا متزوجة ألمانياً من مدينة ميونخ، وهي تعيش سعيدة معه ومع أولادهما السبعة (شيء لا يصدق)! إنه انسان جيد. تصوّر أنه كان مُعتقلاً في سجون هتلر. ولكنني كنت لأرديه قتيلاً، إذا ما مرّ في الجبال من أمامي في بزّته العسكرية اللعينة. وهناك شيء

---

١. Scerraviglicu

٢. Mafioso: من أعضاء منظّمة المافيا.

آخر كنت واثقاً منه دائماً : يجب أن تناضل في سبيل الحياة. ولكن انظر إلى الإتروسكيين: لم يكونوا محاربين.

هذا ما تدّعيه أندريا، وهذا ما أصدّقه تماماً هذه المرة. لذلك انتصر عليهم الرومان! ولكنهم عاشوا كالملوك. انظر إلى الزوجَيْن الإتروسكيَيْن اللذين كانا يمرحان على تابوتهما، هذا الذي يسمونه هيكل[1]! هل تراهن على أن كانتانوتّه ليست له قدرة على المرح مثلهما؟ ويتسلى الشيخ للحظة بالصورة التي يراها أمامه : كانتانوتّه مسجّى وعلى وجهه نظارة شمسية.

'وأنت يا بني؟ هل تناضل؟ حسناً، أنت تقول "نو"، وتبعد ملعقة الدواء – هذا حقك. ولكن هل هذا "نضال"؟ ثم تأتي إلى صدري وتتحسس بي، فأصبح لك أيها الخبيث عبداً تفعل بي ما تشاء! وربما لا تعرف بأن شيئاً يقف في حلقي، كلما رأيتك بين أحضان أحدهم، تمدّ ساعديك نحوي تريدني أن أحملك أنا.'

وتصوُّر هذه الحركة الطفولية يقطع سلسلة أفكاره بقسوة غير متوقعة.

'لذلك يجب عليك أن تترفق بي! ما لا تعرفه أن جدّك لن يدوم طويلاً. حتى وقت جمع الكستناء على أقصى تقدير، لهذه الدرجة أصبحت روسكا تقض مضجعي! إنها أيضاً "قاطع بطن"! أنا أعرف أنّك تحبّني، ولكني أريد أن "أسمع" هذا منك! قلها، قبل أن يفوت الأوان. مدُّ السواعد شيء جيد، ولكن أريد أن تلفظها. طبعاً، يمكن للمرء أن يقولها دون أن يعنيها. لقد أحسّت دونكا بذلك وقالت : لا، أنت لا تحبني، أنت معجب بي فحسب ...، وكل النساء يعجبنك! ولقد أقسمت لها إنني أحبها، لأنك هنا لا تُقسم قسماً كاذباً إذا لم تقل للمرأة [كل] الحقيقة. ولم يكن ممكناً ألا أحبها : لقد كانت بالغة الجمال وقوية البنيان! كانت تنظر إليّ حزينةً، ينطفئ الشرر الأخضر من عينيها الشهديتين – وكأن غيمة حجبت الشمس عن موجات بحيرة آرفو. دونكا المسكينة! لقد كان دافيد مغرماً بها، أما هي فكانت تنسلّ على الدوام إلى سريري.

---

١. Sacrophag

لم يحظ دافيد بها أبداً.

ولكن لماذا "مسكينة"؟ لقد أرادتني فأصبحت ملكاً لها، أليس كذلك؟ وهل أصبحت ملكاً لها فعلاً؟

أفكر الآن بأنني لم أعطها إلاّ قليلاً. هناك أشياء أخرى [غير الجنس]؛ أورتنسيا محقة.

لقد أحسّت دونكا بذلك وأصبحت حزينة. نعم، لقد نظرتُ إلي تلك النظرة، وإني لأرى عينيها أمامي: قل لي إنك تحبني، ولو لم يكن ذلك صحيحاً – فقلت، وكررّت، وأضفت كلماتٍ لطيفةً أخرى تُسعدَ بسِماعها. عندئذ ابتسمَتْ ورجع البريق إلى عينيها، وكأن تلك الغيمة قد انقشعت. كانت حينئذ سعيدة، بالتأكيد. لقد كان هذا جميلاً. هل تعرف كم هو جميل أن تُسعِد الناس. يجب أن تتعلم هذا أيضاً. لا تتباطأ، "قل" لي إنك تحبّني! وسنرى متى ستلفظ "نونّو"، وهو [بالمناسبة] أسهل من "بابا" أو "ماما". أنت قريب جداً من كلمة نونو: يجب أن تضيف إلى "نو" [لا] التي نطقتها، نوناً أخرى، وبذلك سيكون عندك نو– نو، نو– نو.

إن خلاصي سيكون في ذلك اليوم الذي تنطق فيه اسمي. خلاصي، هل تسمع، خلاصي!'

ويغط الصغير في نوم عميق مستغرق.

'همم. إذاً، مازلتُ أستطيع الشّفاء'، يتحدث مع نفسه وينزع يده عن بطن الصغير.

وفي هذه اللحظة يشعر بحدسه الفدائي بوجود إنسان في المحيط. يستدير ويستعد للقفز كما يفعل الوحش الربيّ. ظلٌّ مرسوم يقف بالباب. ويلعن تساهله في الحراسة، فلقد باغته الألمان.

كان هذا ريناتو. يتصلب الأب والابن ناظرَيْن أحدهما إلى الآخر. يتقدم الشيخ باتجاهه ويهمهم:

"ماذا حصل؟ هل كان صوتي عالياً؟"

"لا يا أبي. لقد ظننت أن الصبي ليس بصحة جيدة [أردت الاطمئنان عليه]، فوجدتكم هنا".

"هل كنت تبحث عني؟"

وهنا يكذب الابن [لأنه كان يعلم بمغادرة أبيه اليومية لغرفته].

"أردت أن أتفقدكم، ولما لم أجدكم في غرفتكم..."

وبكل حماس يعانق الأب ابنه ويهمس في أذنه:

"لقد عرفت أنك طيّب القلب!"

ويعجز الابن عن الكلام، بينما يبدأ الأب بدوره في الكذب:

"تخيل! لقد تفقدت الصغير، عسى أن يكون هناك شيء. هو دائما وحده... كل ليلة!"

وهنا يعجز هو أيضاً عن الكلام، ثم يتماسك فيقول:

"حسناً، لنعد إذاً إلى السرير!"

"نعم، هذا هو الأفضل. تصبحون على خير يا أبي."

ويحدث نفسه عائداً إلى غرفته: 'في السابق كنت [كمقاتل] لأتشاجر مع ابني. المقاتل يبقى دائماً وحيداً.

إنه يبث الخوف في الآخرين فيبتعدون عنه! حتى النساء يبتعدن. كنت معهن أيضاً وحيداً، بعدما تنتهي المتعة! آه يا أورتنسيا. يحتاج المرء أكثر من ذلك كيلا يبقى وحيداً. أكثر من ذلك...'

وينتظر الشيخ قليلاً قبل أن يعود إلى الممر، ثم إلى غرفة الطفل. لم ينتبه إلى ابنه الذي يقف بباب غرفة نومه ويراقبه. عندئذٍ يبتسم ريناتو ويتجه إلى سريره شاعراً بشعور والده، محاولاً ألّا يوقظ أندريا وألا ينتقل حزنه إليها.

يهمس الشيخ للطفل :

ُولكن الآن لم أعد وحيداً . إن ساعديك الصغيرين تحيطان بعنقي، وأنت معي في داخلي . لا قتال . يهدهدك ساعداي ويضمانك إلى صدري وهذا يجعلك سعيداً ؛ أعلم ذلك . تعطيني نفسك دون شروط، يا صغيري، وأنا أستسلم لك كما علمتني أنت . هكذا لم أعد وحيداً . . .ُ

٤٩

"السيد رونكونه! تلفون!"

"مَنْ هناك يا جيوفانّا[١]؟ "، يلتفت ريناتو إلى عاملة المخبر.

"الأمر يتعلق بأبيكم. الأمر مستعجل."

يركض ريناتو إلى جهاز التلفون وهو يخمّن الأسوأ.

"رونكونه. نعم؟"

ويأتيه صوت لطيف.

"يشعر أبوكم بتعب شديد. لا شيء جدّي. لا تخافوا، ولكن سيكون الأفضل أن تأتوا."

"طبعاً، على التوّ. إلى أي مستشفى أيتها الأخت؟"

"هو في بيتي. أنا صديقة لأبيكم. اسمي ميللي[٢]، أورتنسيا، شارع بورغوبيسّو رقم (٥١)، الشقة اليسارية تحت السقف."

يتشكّرها ريناتو ويغلق السماعة وهو مندهش. يأخذ إذناً من رئيسه ويذهب إلى الكراج، ثم يزجّ بنفسه في خضم حركة السير ويحرص أن يكسب الوقت. ويُهيأ له أن الطريق لا نهاية له.

قبل أن يخرج من مصعد المبنى غير المعروف لديه، والذي يقع يا للعجب في ذات الحي الذي يقطن فيه، يُفتح باب الشقة اليسارية. تظهر امرأة لا يستطيع تمييز وجهها، إذ أن

---

١. Giovanna

٢. اسم عائلة أورتنسيا : Melli.

النور يأتي من داخل الشقة. وتأخذه هذه المرأة إلى غرفة نوم متواضعة، لكنها مريحة. وعلى سرير زوجيّة عريض يستلقي أبوه مرتدياً كامل ملابسه ومغطى حتى الصدر. على ذلك الوجه الشاحب تظهر شعيرات لحيته قاتمة اللون. عينان مغلقتان وجفنان مسدلان، ونَفَس خفيض مسموع يصدر عن شفتين نصف مفتوحتين.

ينقبض قلب ريناتو :
"متى حصل هذا؟"
"قبل ساعة من الآن"، تردّ المرأة وتشير إليه بالجلوس وتجلس قبالته.
"لقد اتصلتُ بكم فوراً. أتى في زيارة، واضُطر فجأة للذهاب إلى المرحاض أثناء تبادلنا الحديث. وبعد ذلك بقليل سمعته يقع هناك. ولحسن الحظ استطاع أن يفتح الباب من الداخل. لقد دخلت وأخرجته، ومدّدته على سريري."
"يحتاج إلى طبيب. هل لي أن أستعمل هاتفكم؟"
"لقد جاء الطبيب، فهو يقطن على مقربة. حصل لأبيكم نزيف أضعفه. وقد أعطاه الطبيب حقنة وقال إنه سيعود إلى رشده عما قريب. عندئذ تستطيعون أخذه إلى المنزل. بإمكانكم أن تنتظروا هنا، إذا لم يكن عندكم مانع."

ويوافق ريناتو، ويشكر المرأة مرّة ثانية محاولاً أن يلجم فضوله. لاحظ وجهها الناعم، وشعرها الأسود المعقوص بكل ذوق، وعينيها الصافيتَين البرّاقتَين، اللتَين تعبران عن قلق لا يقلّ عن قلقه. عنده كثير من الأسئلة! ودون أن تنتظر، تعطيه أورتنسيا المعلومات التي يريدها من ذات نفسها : اللقاء الأوّل في الحديقة، الصداقة منذ ذلك الوقت، الودّ الذي يربط الآتِيَيْن من الجنوب، زيارات الشيخ إليها بما فيه زيارة اليوم..."
"كان يتناول طعام الغداء عندكم في بعض الأحيان، أليس كذلك؟"، يسأل مرتاحاً إلى أنه يحلّ في النهاية هذا اللغز.
"نعم هو يحب أن يحضّر الأطعمة المعروفة لدينا في منطقتنا."
وتتكلم معه وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن الشيخ في غفوة عادية هادئة.

"أبي يعاني من السرطان الذي بلغ مراحل متقدّمة."
"أعلم هذا."
'وما كُنْهُ العلاقة بينهما؟'، يسأل ريناتو، ثم يقول:
"كيف علمتم بمكان عملي"
"إنه يتحدث مطولاً عنكما [ريناتو وأندريا]. قبل أن يفقد الوعي بقليل، أراني بطاقة بريدية وصلته من أخيكم في نيويورك."
آه، نعم الرسالة التي بعثتها روزيتّا من القرية وضمّنتها تلك البطاقة مع الصورة: فرانشيسكو[1] مع عائلته، مرتدين ألبسةً لم تعجب الأب: "وكأنهم مهرّجون في السيرك!" ويفكر ريناتو بأن المرأة لا بد أنها سمعت التعليق ذاته.

وتلاحظ أنه يراقبها، وتتذكر ما قال لها الشيخ فعلاً قبل أن يذهب إلى الحمام. لقد حكى لها عن كاتانوتّه وعن الفكرة التي تتعلّق بالأخير ولا يستطيع في الأيام الأخيرة منها فكاكاً، رغم صراعه ضدّها.

بادرها قائلاً: "في الليل تستولي فكرة على كياني بالكامل تجعلني منهكاً تماماً. هل تتصورين بأنني أشعر فجأة بالأسف تجاه كاتانوتّي لأن خلافاتهم ستجعل من تلك العائلة، التي لها وزن كبير في روكّاسيرا أثراً بعد عين؟ ولتذهب إلى الجحيم!"
"نعم، يمكن للمرء أن يأسف لهم."
"لا تقولي هذا يا أورتنسيا. إنه ذنبهم: جشعهم وطمعهم في كل شيء تمكنوا من الاستيلاء عليه، كبيراً كان أم صغيراً. أسف! لا لم أعد أنا نفسي."
"وما هي المشكلة. لقد تغيّرتَ."
"أنا هو أنا، برونو." ردّ عليها.

"لاشك في ذلك. ولكن برونو اليوم ينظر إلى الأمور بطريقة أخرى." ويصمت الشيخ مفكراً.

---
١. Francesco

"وهل تعلم من منح لك عيونك؟" ، ظلّت أورتنسيا تلاحقه.
"أنتِ بالتأكيد. إن النساء هن اللواتي يقلبن الرجال رأساً على عقب!"
"كم يكون هذا ظريفاً ، وكم لأكون به سعيدة. لكن برونيتينو هو من يغيرك أكثر منيّ لأنك تحبّه حباً جماً. لقد قلت لك بعض الأشياء ، هذا صحيح ، ولكنك تصدّقني بفضل ملاكك الصغير. ولم نكن ليتعرف أحدنا على الآخر لولا وجوده."

وتؤكد لها الابتسامة التي ظهرت على وجهه ، أنه يفكر على هذا المنوال بالذات. 'الطفل بالنسبة له هو "الحقيقة"' ، تقول أورتنسيا لنفسها وتستمر في تضييق الخناق عليه.

"لقد بدأ برونيتّينو بهذا قبلي ، إذ أتيت لعندي حاملاً معك النضج والرقّة."

"رقّة؟ أنا؟" ، قالها من أنفه.

ومرةً واحدة لم يعد يستطع الكلام. يضع يده على بطنه ، يعتذر ويركض خارجاً. ثم الحادثة التي وصفتْها – ملطَّفةً – لريناتو : كيف أنه هتف لها من الحمام وأتتْ من فورها لترى أنه وقع من كرسي المرحاض إلى الأرض. كيف رأت في حوض الكرسي آثار الدم وشاهدت الجسم المترهل العاري. كيف غسلت الجسم الضعيف وألبسته ورفعته وحملته إلى السرير ، بكل حنان ربة المنزل التي يسكن الخوف قلبها ويُبقيها العقل مدبِّرة صاحية.

ولما مرّت معه بمرآة الخزانة في غرفة نومها رأت فيها هذا المشهد : رأس يستند خائراً على الكتف الأنثوي ، ساعد يراوح في الهواء ، جسد ذائب بين أحضانها ، كهل ورجل وطفل. شعرتْ حينئذٍ بثقل الحمل وكانت قاب قوسين أو أدنى من الوقوع مع حملها على الأرض. لقد احتاجت بعض الوقت لترتاح من عزم تلك الصدمة القوية قبل أن تتمكن من الاتصال بالهاتف. فبعد أن وضعته في السرير وغطته ، سالت الدموع على وجنتيها.

ويجلس قبالتها الآن ابنه ريناتو ، صامتاً ومشوّشاً ، ينظر إليها بعيون مليئة بالأسئلة. تقول له بشكل مباشر :

"إنه يأتي إلى هنا كصديق : نتحدّث، نأكل، نذهب إلى المسرح معاً. أعيش وحدي منذ أن تُوفي زوجي، وهو وأنا نأتي من منطقة واحدة، من الجنوب!"

وتضيف بصوت خفيض :
"ولكنه لا يتصوّر مدى حبي له." تنظر أورتنسيا مباشرة في عيني ريناتو. "الآن تعرفون كل شيء."
نطقتْ كلماتها ببساطة دون دراماتيكية، ورأى ريناتو في عينيها المضيئَتَين السكون العميق لنبع ماء رقراق.

يحييها بكل تأثّر :
"وهذه هي حالي سنيورا!"
"أورتنسيا"، تصحح له مبتسمة.
"شكراً. أورتنسيا"
وتتعانق نظراتهما متحالفتَين. تتنهّد مبتسمةً :
"لا يسع المرء إلاّ أن يحبَّه. إنه رجل غير عادي!"، وتتّسع ابتسامتها وتردف :

"طفلي، صغيري برونو."

ولم تكد تلفظ هذه الكلمات الأخيرة حتى تبيّن لها على حين غرّة أنها تقولها للمرة الأولى. تفاجأت، ووعت بأن هذه الفكرة قد خطرت على بالها عندما نظرت في المرآة وكان الرجل بين يديها.

وتكرر بثبات :
"نعم، صغيري برونو."
كان صمت ريناتو دلالةً على تفهمه. في هذه اللحظة يتحرك الشيخ وترجع أورتنسيا إلى أرض الواقع.

"أوه، هل ترَوْن؟ إنه يعود إلى رشده. لن يكون مسروراً بمشاهدتكم إياه فاقداً الوعي. ارجعوا إلى الممر وابقوا هناك، إلى أن تظهروا وكأنكم قد أتيتم للتوّ."

يهز الابن رأسه موافقاً ويترك الغرفة من فوره.

وبعد ذلك بقليل يفتح الشيخ عينيه. يجد أورتنسيا بجانبه فيبتسم.

"هل طال بي الوقت؟"، يسأل بلسان ثقيل.

"فترة بسيطة. لقد اتصلت بابنك. يجب أن يكون قد وصل."

وحالما يتذكر، يرتسم على وجهه تعبير الرجل المهزوم:

"من رفعني من غرفة الحمام؟"

"أنا."

"أنتِ وحدك؟"

"وحدي تماماً... لقد حملتك إلى هنا"، تضيف أورتنسيا بفخر وبتواضع السيدة والخادمة.

تبحث اليد المنتفخة عن اليد الناعمة التي تستجيب لها. ويقرّب الشيخ يد أورتنسيا من شفتيه، تكاد دموعه أن تسيل من شدة التأثّر متصوراً نفسه بين ذراعيها.

وفي خضم تشتّته يرى صوراً كثيرة تتلاحق أمام عينيه: تولينو يسند جسم دافيد الممزق في تلك الليلة، دافيد – هو نفسه، ودونكا التي تصبح أورتنسيا، وألسنة اللهب التي تصعد من القطار المحترق في الوادي. كل هذه الصور متماهية في مشهد واحد، مشهدُ السيدة العذراء وهي تحضن المسيح المرتمي دون حراك.

النصر والموت يتحدان في حقيقة واحدة لا غير.

٥٠

قال ريناتو : "إن قوة احتماله لغزٌ بالنسبة لي."

ويرتاح رأس ريناتو على ذراع أندريا ناشداً المؤاساة، وتداعب رأسه بينما تحكي له عن زيارتها مع حميها إلى عيادة دالاّنوتّه وعن نتائج الفحص.

"أيضاً دالاّنوتّه مستغرب. لطالما تعرّف على حالات مماثلة، لم تكن لتقدر على النهوض مرّة ثانية كما فعل هو في حمام الـ . . . ، تلك السيدة"

"أورتنسيا. لقد تصرفتْ على أحسن ما يرام، كما قصصت عليك." وكان ريناتو قد قدّم لها تقريراً مفصّلاً عن الأحداث، بعدما عاد بأبيه إلى المنزل. "هل تعرفين أن أبي . . ."

ويتذكر ريناتو ويرى نفسه صبياً صغيراً تشرْئب رقبته ناظراً إلى أبيه الذي يجلس على ظهر الحصان الضخم. يصل أبوه من الجبال ويترجّل في الفناء، ثم يأخذ ريناتو ويرفعه بساعدَيْه إلى الأعالي التي تخطف الألباب مطلقاً ضحكته التي يُشبه هديرُها هديرَ شلاّل الماء. هذه الذكرى تمزّق قلبه. ماءُ الشلاّل قد انقطع؛ يعرف هذا منذ زمن طويل، لكن هذا لا يواسيه.

"هل وصف الطبيب أدويةً؟ على الأقل مخفّفة للألم!"

"يجب عليه أن يستمر في العلاج الهورموني. ولقد كتب له اسم دواء أقوى من الأوّل لتخفيف الألم عند الحاجة. علينا أن نفرغ زجاجة الدواء الثاني في زجاجة الأوّل، فأنت تعرف اعتزازه بتحمّل الألم أكثر من أي شخص من أهل هذه المدينة. لقد قال لي دالاّ نوتّه أيضاً إن الوقت قد تأخر عن إجراء عملية، وفي ذات الوقت عرض عليه إجراءَها ليهدّئ من روعه على ما أظن، يا إلهي! إن أباك قابل سلوك البروفسور بالغ

اللطف بسلوكه الجلْف المعتاد.»

«هل حصل شيء؟»

«في الواقع يعالج دالآنوتّه والدك بكل اهتمام... صحيح! أنا لم أحكِ لك. لن تصدق!»

وتعدّل أندريا جلستها:

«احزر من كان من معارف أبيك، وقد أنقذ حياته في الحرب؟ هل تراهن أنك لن تتخيل من؟ بيترو زامبريني[1]».

«من يكون هذا؟»

«أرجوك يا ريناتو! أنت لا تهتم بشيء خارج الكيمياء التي هي اختصاصك! زامبريني هو النائب الشيوعي/ رئيس لجنة الفنون الجميلة. يخاف الجميع منه ويتقوّلون عن حزمه. لو كنت أعلم ذلك، لكان المنصب في فيللا جوليا لا يشغله غيري. عندما سأذهب إلى روما، وسأفعل ذلك قريباً، سأحرص على لقائه وعرض أمري عليه.

أظن أن أباك سيقدمني له، ما رأيك؟ أريد أن أطلب منه شيئاً هو في الواقع من حقي!»

«بالطبع. ولكن ألا تريدين أخيراً أن تحكي لي عما حصل مع أبي ودالآنوتّه؟ لماذا قلت إن تصرف أبي كان سيّئاً؟»

«لأنه كذلك! تصَور! كان دالآنوتّه خدوماً. شرح له العملية وشجعه: عزيزي رونكونه سنخيْط قليلاً في داخل البطن لنمنع النزف، وسننتظر طبعاً بعض الوقت كي ترتاحوا مِن النزف الحالي. تصرّف كطبيب يهتم فعلاً بمرضاه، أما أبوك فكان رافضاً، ويمكن القول إنه كان متعالياً. هل تستطيع أن تشرح لي ذلك؟ لقد فقدتُ حينئذٍ صوابي.»

«لا بأس، إذاً اقتصر سلوكه على هذا.»

«انتظر، انتظر. هل تعرف ما فعل أبوك بعدها في المصعد؟ هكذا! إشارة معيبة جداً! هل تفهم؟ يا إلهي يا ريناتو، هل هذا مضحك؟»

---

١. Pietro Zambrini

لم يستطع ريناتو أن يكبح ضحكه.

"ثم بدأ يسرد أشياء فظيعة : إن دالاّنوتّه خائن. لن يستطيع أحد أن يغرر به إلى المستشفى... ما هذا الهراء! – ولم أستطع أن أسمع أكثر، سددت أذنيّ لأني كنت في قمة توتّري الذي يمكنك تصوره! لقد حاولت طيلة النهار أن أقنعه، لكنه ردّد دائماً ذات الشيء : ليخيط الطبيب في بطنه الخاصة به ما شاء له! ما هذه السوقية! أُعذرْني، ولكني أتوتَر أكثر، كلما فكرت بما حدث. وبضربة واحدة شعرت أن كل شفقتي تجاه وضعه قد تبخّرت. صدقني!"

"لا يريد أبي أية شفقة." يدمدم ريناتو.

"يا للهول. شيخ مسكين، بهذا العناد وهذا النَزَق. لقد قلت لك ذلك آلاف المرّات : إذا لم نستطع تربية أهل الجنوب، فلن تقوم لإيطالية قائمة."

يصمت ريناتو. وتهدأ أندريا، ثم – وهذا شيء طبيعي – تعود فتُحسّ بالشفقة. وبحنان تداعب شعر زوجها. وتصبح أكثر رقةً، تقرّب فمها من أذنه وتهمس :

"ريناتو؟ قل لي بكل صدق : هل أنا إنسانة سيّئة؟"

وكان جواب الساعدَيْن العزيزَيْن أن ضغطا عليها.

"ما الخطأ الذي أرتكبه يا ريناتو؟"، تُكمل غير واثقة. "لماذا لا يحبني أبوك؟"

"بلى، هو يحّبك... يكفي أنك أم برونيتّينو."

"آمل ذلك! صحيح. إنه يحبّ برونيتّينو فوق كل الحدود. لم يكن عندي في طفولتي جدّ. والصغير أيضاً يعبده. يكفي أن يراقبهما المرء وهما يلعبان!"

وأندريا الآن هي من يبحث عن المؤاساة.

"إنيّ أحب أباك، أقسم على هذا. على الأقل لأنّه يحبّ ابننا بهذه القوّة، وطبعاً لأنه أبوك. أحاول أن أتفهمه وأن أرضيه، ولكنه يصعّب علي هذه المهمة – اعترفْ بهذا!

إني، على سبيل المثال، أغلق فمي وأغض الطرف فيما يخص النبيذ الذي يخبئه، والذي يُضر بصحته"

"لن يضرَّه بعد الآن"، يضيف ريناتو حزيناً. "الآن لا تضرّه إلاّ روسكا، كما يحبّ دائماً أن يقول."

"ولهذا بالذات أتحمل كلّ شيء. وأسوأ ما في الأمر هو أنه يُفسد تربية الصغير، وهذا أكثر ما يغضبني. لا تظن أني لا أعرف. لا تقاطعْني! إنه يتسلل كلّ ليلة إلى غرفة الصغير، وبذلك لا يتعوّد برونيتينو قضاء الليل وحده. لا تنكرْ ذلك. لقد كنتَ هناك بنفسك ورأيت بعينيك: هل تظنني مغفّلة؟ علينا ألا نسمح له بهذا. ومن ناحية أخرى أقول لنفسي إن وقته نفد، وأترك الأمور على حالها. ولكن أباك يمكن أن يسهّل علينا الوضع!" يبدأ ريناتو بضمها حتى ذابت بين ساعديه. لقد بحثت فيهما عن ملجأ ووجدت الأمان. وبصوت متهدّج، ودون دموع، يقول لها:

"أندريا، حبيبتي أندريا!"

يتعانقان بحرارة، فالموت يتربصّ في نهاية الممر حيث حدود الحياة. يضم أحدهما الآخر: تُوحدهما اليوم الشفقة، كما وحّدهما في ليالٍ أخرى عالم المتعة.

٥١

في الوقت الذي كان ريناتو وأندريا متعانقَيْن يواسي أحدهما الآخر، وبعيداً عن غرفة الزوجية، يحتضن الشيخ برونيتّينو في الحصن المنيع لمقاتلي المقاومة الواقع في أعالي الجبال. (واليوم لا يكتفي بالحديث مع نفسه). يتحدّث الجدّ إلى حفيده بصوت خافت يستطيع الوصول إلى مسمع الصغير. إنه لا يطلعه على استرسالاته الضبابية، إنما يخبره بحماس المحارب. "كنتُ إلى الموت قاب قوسين أو أدنى، أيها الرفيق! لقد أصابوني وفقدت كثيراً من دمي – من المؤكد أن الأخبار قد وصلتك –، ولكني الآن في حالةٍ جيدة. لقد عدتُ إلى وطننا كي أستمر في المقاومة. لا تخفْ، لقد مررت بظروف أصعب من هذه. لن يستغرق الأمر طويلاً: إنهم يخسرون مواقعهم. سننتصر وسنحرر روكّاسيرا، وسندخلها قبل الصيف وسيكون ذلك رائعاً. سترى. عندما سنحرر حِرج الكستناء ينتهي الموضوع وتكون القرية لنا. الألمان يعرفون هذا وقد طلبوا إمدادات. لن يفيدهم ذلك ولا حتى خيانة أحدهم، وهو أفظع ما يمكن أن يحدث. كما خانني ذلك الطبيب. لقد كان هذا إذاً سبب لطفه وسبب توريطه لزامبريني تحت غطاء الصداقة. كذب! إنه خائن. حفيدُ راعٍ سابقاً، ورجل راقٍ الآن. فاشيستيٌّ مثل جميع الآخرين. عندما وصل إلى حدودٍ علومه الطبية، بدأ باستخدام ألاعيبه كي يقصيَني. نعم يا صغيري: يريدون إجلائي إلى أحد المشافي. يظنّون أنهم أذكياء، ولكني لن أتركهم يخدعونني. أعرف أنهم سيمسكون بك حالما يحملونني على خشبة الموتى. عندها سيقتحمون خطوطنا وسيعودون إلى إغلاق الباب الملعون عليك. ستقع في الفخّ أيها الرفيق وأنت تعرف ما يعني أن يُعذّب المرء من قبل الغستابو. تذكّر ما حصل للوتشيانو[١] وكيف أنهم انتزعوا أظافر أصابعه، وتذكّر

١. Luciano

جميع المساكين الذين لم يخرجوا من هناك أبداً. تذكّرْ بيترونه الذي صمد كي ينقذني وينقذ الرفاق، والذي ضربوه في الزنزانةِ الملاصقة حتى الموت. لن أنسى صرخاته، كما لن أنسى صرخاتك وراء الباب أيضاً – لقد كانت متشابهة بشكل غريب. لن أنسى صراعه مع الموت وحتى بعد مئة عام. لن أخذلك، وسأدافع عن الموقع كما وعدتك. إن برونو يفي بوعده يا بنيّ، يا ملاكي. تستطيعُ أن تعتمد عليّ!".

ويتعبه هذا الهمس، فيتوقف ليَعُبّ من الهواء.

"إنه لمؤسف ألاّ أذهب إلى المشفى، صدقني. لقد استحققت هذه العملية وأكثر، وهذا الطبيب هو الأفضل. أعرف أنني أدفع للتأمين الصحي منذ أربعين عاماً، دون أن يدفعوا من أجلي ولا ليرة واحدة. لقد كان مالاً مهدوراً، لم ينفع إلاّ لتسمين هؤلاء الموظّفين. لم أكن طوال كل هذا الوقت مريضاً، ولا بأي شيء. لم أحتج حتى لطبيب أسنان ليقتلع لي ضرساً، أو لحبة أسبيرين. فقط عندما أصابني الكاتانوتّي برصاصة – وهذا لم يكن شيئاً يخص التأمين الصحي إنما الضابطة العدلية. هنا تركت نفسي تتنعّم في المشفى: أطباء يلتفون حولي، وممرضات يرعونني. هؤلاء الممرضات كن يا بني في قمة النظافة، يلبسن جوارب نسائية بيضاء كما تلبس الفتيات في احتفال المناولة. ولكن ما هذه الأجساد؟ لقد كانت دائماً مناسبةً جميلة، عندما كنت [في زمن القتال] أزور رفيقاً جريحاً، وأجد ثلة من الممرضات تحوم حوله. شيء نادر! كن ينحنين على السرير، يعانقنه كي يجلسنه – كن طوع بنانه، صدقني. لم يُكتب علي أن أنعم بهذا، للأسف. الحرب هي الحرب يجب علينا أن نحتفظ بمواقعنا. إذا كان الألمان قد طلبوا الإمدادات فليكن، ولكن لن يأخذوني على حين غِرّة بأكاذيبهم.

سنرى ما الذي يمكن أن ينجزوه. من ناحيتنا يمكننا تقوية هذا الموقع، ويمكننا أيضاً الانسحاب التكتيكي، كما فعل أمبروزيو عبْرَ كهف ماندرانه وهرب منهم. نحتاج فقط إلى سلّم نستطيع بوساطته أن ننزل من هنا عبر النافذة. لا عليك من العلوّ. لا أُصاب بالدوار في الأعالي، ولطالما أنقذتُ في حياتي كمّاً من العنزات المتعثرات. أؤكد لك ألاّ أحد سينتزعني من هنا: لا ذلك الطبيب ولا الله شخصياً."

وهذا التحدي الحاسم يرفع من صوته.

"قلت لك ذلك تحسّباً لكل طارئ، ولكي تكون مرتاح البال. ما زلت محتفظاً بذخائري. لا انسحاب، بالعكس! سنحتفظ بمواقعنا ثم ننتقل إلى الهجوم. سنتمكن من الصمود لوحدنا، دون أية ممرضات ودون أية إناث. عندي سلاح سريّ، أتعرف ما هو؟ أنا الآن في حالةِ تبدّل وسأستطيع أن أكون لك جدّةً! تبدّلٌ في الصدر فقط، مفهوم؟ هناك في الأسفل سيبقى كل شيء على حاله. فقط في الأعلى! ألم تلاحظ ذلك؟ وحينما أضمّك، ألا تشعر بأن صدري قد أصبح أكثر ليونةً؟ قليلاً، أليس كذلك؟ ينمو لي ثديان سيصبحان كاملين في النهاية ومخصصين لك يا بنيّ. لقد حكيت للطبيب عن ذلك، وكان هذا الشيء الوحيد الذي بُحت له به (لن يستطيع أن يتفاخر أنه قد اكتشف ذلك بنفسه). قبلتُ بكل شيء، حتى بشأن الثديين اللذين في طريقهما إلى النمو – في الماضي كان هذا شيئاً فوق التصور –. وقد صدمه ذلك، ولكنه تهرّب. شيء متوقع من خائن! 'لا تشغلوا بالكم' ، قال لي قارئاً عليّ محاضرة عن الهورمونات : نحتاج إلى هورمونات [أنثوية] لتهدئة روسكا. هي في الأساس دواء نسائي، لذلك قد تطرأ تغييرات جسدية عند الرجال الذين يتناولونها... هراء! إن الثديين اللذين سينموان في صدري مخصصان لك، وهما برعماي اللذان يتفتّحان في جسدي كرجل [برعم/ خشب]. لن نحتاج إلى أحد بعد ذلك، ولن يبقى باب مغلق أمامنا في هذا العالم. سنحطم جميع الأبواب التي يقبع وراءها أطفال عزّل ومستغَلّون. سنقضي على جميع الجواسيس والخونة ونفتح روكاّسيرا منتصرين. سيكون هذا في صيف جميل بديع.

٥٢

من بلكونها تنظر أورتنسيا إلى الأسفل، إلى زاوية شارع ديللاّ سبيغا[١] حيث تتوقع ظهور برونو برفقة سيمونيتّا. لا مطر، من حسن الحظ. لقد بدأ شهر نيسان لطيفاً، جالباً هواءه الناعم. هذه هي المرة الأولى التي يخرج فيها برونو [بعد وعكته]، وهذه هي الفرصة التي ستتعرف فيها على سيمونيتّا. بفضول تترقب هذه الفتاة التي تحدث برونو على الدوام عنها بكل إعجاب.

تشعر باضطراب. لقد مرّ وقت كاف مذ اتصل ريناتو بها وأعلن عن قدوم الزّائرَيْن. قبل عدة أيام كان الابن قد دعاها بالهاتف إلى زيارة أبيه الذي منعه مرضه من مغادرة السرير.

ولكن برونو اتصل بها أيضاً – على الأغلب في غياب الأولاد – ، وطلب منها ألاّتفعل. "سأوضح لكِ فيما بعد. لا أستطيع الآن أن أتكلّم. ليس بالهاتف – فقد يكون مراقباً... لا تكوني عجولة، سأزورك قريباً. إني أترقب ذلك اليوم."

أثناء وقوفِها على الشرفة تتذكر أورتنسيا تلك الكلمات الغريبة. آه، أخيراً يظهر الثنائي من على الناصية. ويُعتصر قلبها. ما أصغر حجمه عندما نظرتْ إليه من الأعلى! إن الحياة لفي منتهى القساوة، حينما تجمعه مع هذه الفتاة الغضة! فالخطوات المتعثرة للرجل [المسن] الذي لم يشفَ تماماً بعد تزداد وضوحاً أمام خطواتها الرشيقة. ولكن ها هو قد وصل، ها هو قد وصل. وتقفز إلى المطبخ كي تفتح لهما باب البناء من عندها، ثم تنتقل إلى الممر تمشي فيه جيئة وذهاباً، منصتةً إلى صوت المصعد من خلف الباب.

الآن! تفتح أورتنسيا الباب على مصراعيه وتفاجئ الشيخ في مشهد يمكن أن يكون

---

١. Della Spiga

مأخوذاً من فيلم توقفت فجأةً صورتُه : إصبع برونو متجمّد في الهواء وهو في طريقه إلى الجرس. ويبدأ الاثنان بالضحك، الشيء الذي يمكّن أورتنسيا من إخفاء حزنها – فقد ضمر جسم الشيخ في الأيام القليلة الماضية بشكل لا يمكن تجاهله.

ولاحظتْ، عندما تبعتْه إلى غرفة الجلوس، تهدّل كتفيه ولاحظت فردتَي بنطاله ترفرفان بين ساقين لم يعد اللحم يكسوهما. وعلى الأقل بقيت مِشْية الكبرياء وبقي الرأس مرفوعاً. أين سيمونيتّا؟ إن أورتنسيا الآن مبتهجة بعدم صعود سيمونيتّا. الآن ليس الوقت المناسب لسيمونيتّا...

"رائع يا برونو، لقد أفادتك راحة السرير، إنك تبدو في صحة ممتازة!" وكأنه أراد أن يهدّئها. إذ برقت في عينيه الرغبة في الحياة.
"أنا؟ أنا أشقّ طريقي وروسكا الآن تحت سيطرتي بعد أن أخفقت في محاولتها. لا تخافي، لا أخطط لأن يغمي علي هنا مرة ثانية."
"أرجو ذلك!"، تمرح معه مازحةً، "ليس عندي مزاج أن أحمل الرجال إلى غرفة نومي!"
"أنت تريدين أن يحملك الرجال، أليس كذلك؟ لا تستفزّيني وإلاّ..."
"آه يا برونو، برونو" تهتف سعيدة. "مزاجك القتالي يعود ثانية. ما أجمل ذلك!"
"هذا لاشك فيه. لقد أصرّت أندريا أن ترافقني سيمونيتا إلى هنا، ولكني رفضت. ليأخذها الشيطان، فأنا لا أحتاج إلى مربية أطفال كي أصل إليك.
يلبث قليلاً وينظر إليها متفحصاً، إن كانت تصدق روايته. يطْمئن ويستمر في حديثه :
"هل تعلمين؟ يريدون إجراء عملية جراحية لي، ولن أسمح بذلك."
"إذا كان الطبيب يوصي بـ..."، تردّ عليه أورتنسيا دون أن تكون مقتنعة بما تقول، إذ أن ريناتو كان قد وضعها في صورة الأمور.

ويرميها الشيخ بنظرة مستصغرة، أورتنسيا أيضاً وقعت في فخ الأعداء.
"ألا تفهمين؟ لقد اشتروا الطبيب، هذا المغفّل! يريدون إجلائي ثم إعادة سجن برونيتّينو! ولكن برونو أذكى من أن يغادر موقعه الحربي."

وتوافقه أورتنسيا في الظاهر، إذ ينمو في داخلها القلقُ يوماً بعد يوم من تغريبه للواقع ومن حكاية الحراسة الليلية على وجه الخصوص.

"هل كنتَ في الليالي السابقة تزور برونيتّينو في غرفته؟"

"لم أترك ليلة واحدة!" يخبرها بكل فخر.

"أنت مجنون يا برونو. لقد وصفوا لك راحةً سريرية تامة..."

إنها تخاف من نزف جديد يحدث عند تباشير الصباح ولا يدري به أحد.

"لست مجنوناً، أو أي شيء آخر. لذلك كنت أنام في النهار، فأنا رجل مقاومة مدّرب."

"أنت مجنون وليس شيئاً آخر. كنت لأقنعك لو سُمح لي بزيارتك."

"تزورينني مريضاً في السرير؟ أبداً! لهذا اتصلت حينئذ بك."

"ألا تختارني ممرضةً لك؟"

وتلمع عيناه.

"أريدك هنا، نعم. هناك غير ممكن ... فقط أندريا وأنونزياتا. ولكن يمكنك الآن المجيء، فكلهم يودّونك. إن ريناتو يحبّك كثيراً. ستساعدينني؛ أنا أثق بك وستحيطينني علماً بما يطبخونه هناك: يجب أن أعرف، فالحرب تحتاج لمعلومات مهما كانت صغيرة."

ولمّا رأى تحفّظها، يضيف بسرعة:

"ويمكنك أن ترَيْ برونيتّينو."

برونيتّينو! هذا الاسم السحري يوجّهها إلى ضفة أخرى. يبدءان بالتهليل لأعمال الصغير البطولية ويخطفان الكلام أحدهما من الآخر. فهذا الطفل لم يعد يكتفي بجرّ الكراسي - كما صرّح الشيخ في تقريره -، إنما يصفّها الآن بكل عناية، بعضها خلف بعض، ويصرخ: "توت، توت، توت!" إنه يلعب لعبة القطار الذي شاهده على شاشة التلفزيون.

وأنونزياتا محتارة في أمرها، إذ يقلب الطفل لها الشقة رأساً على عقب، لكنه وإلى الآن لم يلفظ "نونّو" بالرغم من أن بربراته تزداد يوماً بعد يوم وهو يقترب من ذلك كثيراً.

الجو عند أورتنسيا مرحٌ، وكان لابد له من أن يقبل دعوتها إلى كأس من الشراب.

"نبيذ فقط. يجب أن أحذر الغرابّا[1] تحسّباً لأيام قادمة قد تكون سيّئة."

ويقول بعد أن يتذوق النبيذ:

"جيد، ولكن نبيذي، الذي لا يحتوي على مواد كيمياوية، أفضل. مكوناته هي ما يجب أن يكون عليه: حبات من العنب، عملٌ ووقت"

ويتلكأ قليلاً ثم يستمر:

"يجب أن تتذوّقيه هناك، في روكاّسيرا. ما هذه الحيوية التي يعطيها! تستطيعين العيش من النبيذ، الجبن وحبات الزيتون، ولا شيء غير ذلك. هل ترغبين في المجيء؟ ولكن لا تتوهمي شيئاً: إنها ضيعة صغيرة، لا يوجد فيها الهرج والمرج المتوافر هنا، إنما رائعة! يمكن للمرء أن ينظر إلى الأفق ويمكنه أن يعيش حياة هنيئة يبدأ نهارها في باكر كل يوم. هل تودّين الذهاب إلى هناك؟ قولي نعم!"

"من كل قلبي. في أية لحظة!"

"برافو. سيكون صيفاً ولا كل الأصياف! أنت وأنا وبرونيتّينو. سأعلمه المشي وقذف الأحجار، وسأعلمه ألاّ يخاف من عنزة حارنة... سأعلمه أن يصبح رجلاً! وأنتِ..."

""أنا" ماذا؟ أن يصبح امرأةً؟"، قالتها ضاحكةً من كل قلبها.

"معاذ الله! ليس هذا ما عنيته. أنا أعرف ما أقول وأنت تفهمينني..."

"هذا صحيح. أنا أفهمك. تريد مني أن أعلمه كيف تحب امرأةٌ رجلاً."، تترجم له أفكاره.

"تماماً! أو ترَيْن؟ تعلمين دائماً بالضبط ماذا أعني."

---

١. نسبة الكحول في مشروب "الغرابّا" تصل إلى أكثر من أربعة أمثال نسبته في النبيذ.

"بالرغم من أن النساء لا يردْن الاعتراف بهذا ، لأنهن يتأملن بأن يفهم الرجال ذلك من تلقاء ذاتهم. نعم، سأعلّمه كيف يقرأ الرجل ما تريد المرأة من مجرد النظر في عينيها . وبذلك سيصبح رجلاً ، رجلاً حقيقياً ."

"أورتنسيا ، أورتنسيا . لماذا لم يقدّر لي من قبل أن أكون محظوظاً بك، فتضعينني تحت حماية تمائمك؟" وأورتنسيا تتذكر شبابها بكل جوانبه.

"وقتئذ لم أكن أنا نفسي أفهم ما أفهمه الآن. لا يجب أن تشتكي يا برونو. ما كنّا مهيّأَيْن أحدنا للآخر، لو تعارفنا في ذلك الوقت. هل تعتقد أن ما نملكه الآن هو جدّ قليل؟ هذا الذي وصلنا إليه الآن لا يصل إليه إلاّ قلة قليلة في هذه الحياة، لا في الشباب ولا في الشيخوخة، وقد لا يصل المرء إليه أبداً ."

حتى ولو بدا له ما يملكه الآن قليلاً جداً [متأسفاً على ما فاته] ، فإنه يقدّر هذه الكلمة الصادقة "مهيّآن أحدهما للآخر " تقديراً عالياً – لأنها تعني له أيضاً "جنباً إلى جنب" . ليس "مقابل" المرأة كما كان مبدؤه في الحياة على الدوام، وإنما إلى جانبها . . . "الزوجان الإتروسكيان" أطلاّ فجأة ! . وتستطرد أورتنسيا .

"لم أكن لأحميك في وقت لم يكن هذا باستطاعتي. لقد أرادوا للنساء أن يبقين غبيّات، في ذلك الوقت أكثر بكثير من يومنا هذا . كنت فتاةً لا خبرة لها ، تقرأ روايات الرصيف الرخيصة في صالون الحلاقة النسائية، حيث عملتُ. كنت أذهب إلى السينما لأشاهد أبطالي الرجال – أزيار النساء . لم يكن إذاً غريباً أن أقع في فخ أول صايع اعترض طريقي – توماسّو .

وكانت صدمة الشيخ قاسية : أتقول أورتنسيا عن بحّار الجندول قوي البنية إنه "صايع"؟

"محتال. هذه هي التسمية الدقيقة. جذاب ويلعب بالكلام، هذا صحيح. لقد أحبني

وأصبح يلعب بي، وكان الأمر بتلك السهولة. في البداية كنّا في الجنّة : سطيحة[١] شقتنا في فينيسيا الذي كنت أغنّي عليها كالعصفورة، ومبنى الكامبانيله[٢] أمامي والأرخبيل. لكن هذه الجنة لم تدم طويلاً. لقد كان كسولاً ومتعجرفاً. لم يحصل على المال من عمله في الجندول، بقدر ما حصّله من [السائحات] الأمريكيات المسنّات، ليصرفه على النساء الأصغر سناً. وفيما بعد، عندما بدأت الأمور تسوء، التفت إلى الكحول. كان علي أن أصرف عليه شهوراً وسنوات. وتصور الجنون فيما سأحكيه لك : عندما أصبح عاجزاً، كانت رعايته خلاصاً لنفسي. شيء غير مفهوم، إنما هذا الذي حصل. لقد تعلّمت كثيراً في تلك الفترة. لا أفهم ذلك حتى اليوم، ولكن إحساسي يقول لي إنه شيء غريزيّ. لم أكن أستطيع أن أنقل لك هذا وأنا فتاة غرّة."

'لم تكوني لتستطيعي ذلك كفتاة ساذجة، ولكنك تفعلينه الآن وأنت تقصين علي وقائع حياتك [بكل صدق]. أنت تعلّمينني كيف يمكن أن يكون الانسان مجروراً [غصباً عنه] إلى الوحل، [وأن يخرج منه] دون أن تبقى لطخة واحدة على ثيابه.

يقول الشيخ :

"أنتِ على حق. أنتِ دائماً على حق. لقد كان حظي أحسن من حظك. لم أقع في هذا الفخ [الذي وقع فيه توماسّو] لأني تعلّمت من الحيوانات. إنها لا تعرف الغشّ مثل البشر. لكنّي لم أجدْ معلماً بقربي."

"ولا حتى دونكا؟"، تسأل أورتنسيا سؤالاً ذات مغزى.

"ولا حتى دونكا"، يجيبها جواباً يهدّئ من سرّها. "مع أن هذا كان أمراً آخر." لقد خطا الخطوة الأولى ولم تعد الذكرى شوقاً، بل فَرَجاً. لقد كانت واثقة من سماع هذه الكلمات في نهاية الأمر. الآن تتحقق أمنيتها، رغم أن الكلمات تلك تحزنها.

"كان أمراً مختلفاً لأنها كانت عازفة بيانو، ألم أقل لك ذلك؟ عازفة بيانو. لماذا؟ لا

١. رصيف عريض أو سطح عريض ممتد في الطابق الأخير من البناء : Terrasse.
٢. Campanile : اسم مبنى في مركز مدينة فينيسيا.

يصلح البيانو حتى للاشتراك في الجوقة الموسيقية الشعبية التي تعزف في الأعياد . هذه مهنتها في موطنها كرواتيا . كانت تُشير إلى الجهة الأخرى وتشير إلى الضفة الأخرى[١] التي لا نستطيع رؤيتها : هل سأرى مدينتي ريجيكا[٢] وبيتي ثانية؟ وتنخرط بالبكاء . سببُ نضالها حبُّها لوطنها ، أتفهمين؟ هنا يكمن سوء الطالع. هذا ما قالته، أما السبب الحقيقي فهو أنها امرأة تسلب الألباب، حماسية وشجاعة! لقد تشاجرنا كثيراً . كانت تدعوني حيوانًا ، "حيواني البديع" . فتاةٌ مثقّفةٌ تستعمل تلك الكلمات.

وتُكمل أورتنسيا في خيالها أشياء لا يحكي عنها الرجل لأنه حتى لم يلاحظْها رغم أنه قد شاهدَها . [هذا الرجل الذي كان] هديةً من الطبيعة إلى عازفة البيانو الرقيقة، والذي تعرّفت من خلاله على الفهد في الحب، على الذئب وعلى الحصان. وتتنهّد أورتنسيا ناظرةً إلى يدي برونو بأوعيتها الدموية النافرة، إلى العواصف الغابرة، وإلى العواطف التي مازالت تعبرّ عن نفسها حين تبادر إلى اللمس. . . "وكان غضبها شديداً ! 'أصبر عليك من أجل آلة البيانو فقط لا غير!' ، هكذا كانت تصرخ بي. كانت قد توقّفت قصراً عن العزف. أما المنزل [الذي كنا نعيش فيه] في ذلك الوقت فكان يحوي آلة بيانو من تلك الآلات الطويلة والمائلة[٣] . وكانت تعزف موسيقاها الغريبة طوال النهار . هذا يعني عندما كنت أتركها تعزف. أما حين كانت موسيقاها توتّرني، فكنت أحملها وأصعد بها كومةً واحدةً إلى الأعلى. هناك كانت غرفة نومنا التي تُطل على تيرّاس، لم تكن محاولاتها في الفِلات تجدي نفعاً أبداً ، لا الضرب بأيديها على ظهري ولا بأرجلها في الهواء ."

نعم. تفهم أورتنسيا تهديدات دونكا بأن تتركه. كانت تهديدات جدية ولو أن دونكا لم تنفّذها . لم يعجبها أن تريده. أو عكس ذلك : لقد كانت تعزف لتجبره على أن يجبرها [أن تريده] . 'كانت موسيقا باخ تثير دونكا' ، تفكر أورتنسيا ، 'وكانت الابتسامة أثناء

---

١. من البحر الأدرياتيكي.

٢. Rijeka

٣. بيانو صالون.

عزفها تخفي الشهوة المستعرة في داخلها.'

"بيانو لعين! أقسم أني كنت على وشك تكسيره إلى قطع، لو لم يكن غالي الثمن إلى ذلك الحدّ. كان هذا البيانو يناسب دافيد، ولكن دافيد ما كان يناسب دونكا التي لم تتنازل حتى أن تتمرن عليه [على دافيد]. وفي الطابق العلوي كانت دونكا الشهوانية تنسى البيانو. دافيد المسكين... أشجع الشجعان لاشك. ولكن ذكوريته كانت ناقصة. لم يتّخذ امرأة له أبداً عندما كانت الفرصة مؤاتية. لقد كان مولعاً بالقراءة، وبالذات بقراءة كتاب يهودي [عبري] معيّن. ولا غرابة في ضعف نظره.

عندما علمتْ مني بموته لم تتوقف عن البكاء. كانت تحسّ بالذنب لأنها لم تكن تشاركه مشاعره. هل يمكن أن نُجبر المرء على الحبّ؟ ثم كنت أنا من أثار غضبها، ولم توفر شيئاً لم تقذفني به على رأسي: لماذا أحببتك أنت بالذات، فلاحٌ غبيّ لا يستحمّ! وهذه واحدة من حركاتها: الاستحمام، قبل وبعد. لقد كانت تستحم في البحر ليلاً، لم يكن الماء في الظلام يخيفها. ولما كانت تذهب للحمام "قبل"، كنت أنتظرها دون نهاية. كنت حينئذ لا أستطيع صبراً فترينني أصبحت أمامها في الحمام المليء بالمرايا. 'اخرجي في الحال! ألا تريْن؟' وكانت تنظر إلى عضوي فتشير إليه بإصبعها ضاحكة. ضحك لا يتوقف وحيوية لا تنفِد. لقد كانت... لا أعرف كيف أعبّر، طاقةً نارية."

تتصور أورتنسيا الآن جسدها الخاص الفتيّ عندما كانت صبيةً، تتصوره ممدداً في البانيو ومحاطاً بالمرايا التي تعكس مشهد ذكورية الفهد المستعجل أضعافاً مضاعفة، فتزيد الانبهار بفحولته.

تنتبه بغتة إلى السكون المشحون الذي خيّم عليهما. أين يستعصي جريان الذكريات، وأي "هاوس" يجب فتحه كي تتحرر تلك الأمواج السجينة؟ وحينما يعود صوته إلى الأسماع، يرنّ ببطء وجدية:

"لقد تعافيتُ وانتهت بذلك مدة إقامتي في مدينة ريميني، وجرى تسفيري إلى الجبال

من جديد. أما دونكا فقد قَبض عليها الألمان. والظاهر أنهم أرسلوها إلى كرواتيا ليسلموها إلى الأوستاشا[1]. لم يعد أحد بعد ذلك يسمع عنها شيئاً ...»

وتحاول أورتنسيا ألّا تتخيل دونكا موجودة بين أيدي الجلادين، بل تتمسك في مخيلتها بصورة دونكا تعزف [على البيانو] بيد وتمسك بالمسدس بيد أخرى. "الطاقة النارية"، كما سمّاها. ثم تنتقل بنظرها إلى الكأس المليئة بالنبيذ حتى منتصفها فيملؤها الحزن: قبل أن يحدث له النزف، كان يُفرغ الكأس بجرعات سريعة.

وكأنه تعلّم أيضاً أن ينفذ إلى داخلها، يمسك بالكأس ويشرب النبيذ دفعةً واحدة ويبقى صامتاً.

«إذا كنت تريدين معرفتي بشكل كامل، يجب عليكِ أن تذهبي معي إلى روكّاسيرا»، يقول أخيراً.

«أشعر بنفسي هناك كما أنا! لقد وعدْتِني، سنذهب في الصيف!»

«بالتأكيد سأذهب معك، فأنا من الجنوب!»

«هه، ولكن من الناحية الأخرى، ومن بحر مختلف!»

«بحرٌ أحلى من بحرك! انتظر حتى تزور أمالفي. لن تكون حينئذ بهذا التعالي!»

ويضحكان إلى أن يتذكر الشيخ شيئاً.

«هل تعرفين السبب الذي دعى روسكا أن تعض بتلك القوة في منزلك؟ غيرةً منك. نعم، بسبب الغيرة!»

وينظر إليها ويرى ظلّه في عينيها. يقول لها وكأنه يقرأ أفكارها للمرة الثانية:

«غيورة منكِ.»

'تذهب دونكا وتأتي أورتنسيا'، تفكّر المرأة وتمسك يداها باليدين اللتَين يمدهما الشيخ إليها.

«سأتمكن الآن من تعليمكَ أشياء كثيرة. من الممكن أنّك تفهم في الحرب وفي أمور

---

١. الشرطة السرية الكرواتية المتعاملة مع الغستابو أثناء الحرب العالمية الثانية.

الرجال، ولكن هناك أشياء أخرى. اتركْني أقودُك إليها ، فالنساء تعرفها أفضل من الرجال."

"تعرفن ماذا؟" يهمس برونو.

ورغم أن المرّة الثالثة قد جاءت متأخرة قليلاً ، إلاّ أنه فهم معنى كلامها [عن الحب] ، ولا حاجة به إلى انتظار الجواب. إنه يسبح الآن [سعيداً] عالياً فوق قمم جباله.

٥٣

تهاتف أندريا أورتنسيا .

"متى يمكننا أن نلتقي؟ في الوقت الذي يناسبكم. أوّد أن أتعرّف عليكم شخصياً وأن أستطيع شكركم."

وتسمع أورتنسيا في صوت أندريا اللطيف صراحةً وانفتاحاً ، ولا تغيب عنها رغم ذلك نبرتها التعليمية .
"عليكم ألاّ تشكروني على شيء ، ولكنني أرغب أيضاً في التعرف إليكم. سيكون من الأفضل أن آتي إليكم ، وبذلك أتمكن من رؤية برونيتّينو."
"ما رأيكم ببعد ظهر اليوم؟ سيكون حميّ في حلقة البحث : إنها آخر جلسة في هذا الفصل الدراسي. سنكون وحدنا وسنفكّر معاً ماذا يمكننا أن نفعل معه." 'نيّة هذه المرأة نيّةٌ صادقة' ، فكرت أورتنسيا بذلك وهي تعيد السماعة إلى مكانها . 'إنما كنت أودّ لو أنها قالت "من أجله" ، بدلاً من "معه" . وفي الظاهر أنها تعني بالكلمتين الأمر ذاته.'

ترحب أندريا بأورتنسيا . تقبلاّن إحداهما الأخرى ، وتتبادلان العبارات المهذّبة. تدخلان إلى غرفة الجلوس. "تقيسان" إحداهما الأخرى بينما لسانهما ينطق بـ "دعوني آخذ معطفكم" و"يا لها من شقة أنيقة" . لم تتخيل الواحدة منهما الأخرى بهذه الصورة تماماً ، ولكن كلاً منهما فهمتْ أن "الأخرى" ما كانت لتكون إلاّ على هذه الشاكلة .

وبعد ذلك بقليل ظهر أمير الساحة. إنه يمشي واثق الخطى ويبربر بأصوات غير مفهومة. وتجده أورتنسيا "يأخذ العقل" بملابسه التي يرتديها : الجزمة التي اختارتْها مع برونو ، البنطال الصغير والكنزة الحمراء .

يا إلهي! ماذا شرب حتى تظهر الفقاعات من فمه؟ وترتعبان، لكنه مجرد صابون!

وتحكي أندريا أن الصغير أصبح يعتلي الكرسي الواطئ الموجود بجانب الحوض، يفتح الصنبور ويلعب بالصابون. لم يغلق الصنبور بالتأكيد!

"أيها الشيطان، شقيٌ صغير! ألم أقل لك إنه لا يصحّ فعل ذلك؟"

تهبّان إلى الحمام وتغلقان الصنبور. وتعنّف الأم ابنها الذي ينظر إليها بكل صبيانية بريئة، وكأنه يسمو فوق كل تهديداتها الرهيبة. وفي النهاية لا يسعها إلاّ الضحك وترجع الحياة بالنسبة للصغير إلى سابق عهدها.

لقد استمرّ تقييم المرأتين إحداهما للأخرى طوال الوقت: تسريحة شعر أندريا تعجب أورتنسيا لأنّها مميّزة وبسيطة وملائمة تماماً لشكل وجهها. ويعجب ثوب أورتنسيا أندريا كثيراً، فقط لو تزيل هذا الجندول الفضي من صدرها! إنه للأسف يماثل التذكارات التي يشتريها السيّاح وتنتبه أورتنسيا إليها.

"لقد أهداني إياه"، تقولها وكأنها تريد الدفاع عن نفسها. وتفهمها أندريا وتقدّر لها حصافتها. وعند مغادرتهما الحمّام عائدتَين إلى غرفة الجلوس، تتوقف أورتنسيا أمام باب مفتوح: "هذه غرفته"، تقول أندريا وتضيف معتذرة: "صدقوني. لا يدعنا نرتبها على وجه أفضل. وهذه البطانية المهترئة لابد أن تبقى مغطيةً السرير. لله في خلقه شؤون!"

وتسيّر أورتنسيا عاطفتُها لتدخل إلى الغرفة وتشمّ الرائحة التي من المؤكد أن هذه البطّانية قد ملأت الهواء بعبقها. تنحني وتلامس بأصبعها الصوف البني الذي يماثل لونُه لون قبعة برونو. تتلفّت في الغرفة: 'هنا في الأسفل مخبأ الزوّادة، وهناك في الخزانة موس الجيب، وفي العلبة الموجودة في قعر الخزانة وتحت ورق حريري تستقر صورتنا التي أخذناها في الشارع بعد حضورنا عرض المنوّعات...' كل هذا استوعبته نظراتها السريعة، قبل أن تغادر الغرفة وهي غارقةٌ في التفكير. لقد كانت هذه صومعة الراهب، الفدائي، الرجل. كم كانت تودّ أن يظل عطرها عالقاً في هذه الغرفة!

وتفهم أندريا معنى مداعبة البطانية الصوفية. 'لم يشرح لي ريناتو بشكل صحيح، أو أنه لم يفهم هذه المرأة. أليس هذا "نموذجياً" بالنسبة لرجل؟' وفي الممر تمسك بذراع أورتنسيا معبرة عن دعم أنثوي، وتضغط عليه بلطف عارضة عليها رفع الرسميات.

ويبدأ بينهما حديث [طويل] تبادر به أندريا (بينما يصفّ الصغير الكراسي بعضهما خلف بعض) محاولةً أن تشرح لأورتنسيا مبادراتها الكثيرة اليائسة على توفير الراحة لحميها:

"أتصرّف دائماً بشكل خاطئ، مهما فعلت... مع أنني قبلت بوضع شاذ يتعارض مع نصائح أفضل طبيب في كل ميلانو. إن حميّ يتسلل كل ليلة إلى غرفة الطفل!"

وتحاول أورتنسيا أن تدافع عن الشيخ:

"أنت تعلمين عاداتنا في الجنوب. إن الحياة العائلية هناك مختلفة قطعياً."

في نبرتها يسمع المرء أنها تتفهم أندريا، بالرغم من أنها ذاتها آتية من الجنوب. وفي المقابل تنصت أندريا إلى ما يقلق أورتنسيا.

"تمرّ به لحظات... لا أعرف، وكأنه يهلوس تحت وطأة الحمى. إنه يتحدث وكأننا في خضم الحرب، في العام ١٩٤٣."

"لا تقولي لي!"، تنفجر الكلمات من فم أندريا. التي مازال غريباً على أذنها أن تسمع هذه المرأة تدعو حماها "برونو".

"خذي مثالاً ما حصل البارحة من حوادث! يجب أن تعلمي أن أنونزياتا مازالت مريضة (عندها شيء ما، لكن الأطباء لا يجدونه)، وأن سيمونيتّا مشغولة بالإمتحانات. إذاً، اضطُررت أن أتصل بمكتب التشغيل الذي أرسل لي طالبة نمساوية، تريد تحسين لغتها الايطالية لتعمل في مجال المطاعم. لقد قابلتها. أعجبني سلوكُها المهذب وملبسُها المختار بعناية، وأنت تعرفين أية ثياب ترتدي بنات اليوم، وحتى سيمونيتّا أحياناً... لقد كنا نأكل في المطبخ، بينما كنت أشرح لها واجباتها. وفجأة ظهر حميّ ونظر إلى

الداخل. وما إن سمعها تتحدث حتى انبرى راجعاً. لقد استغربت حين سماع باب غرفة الطفل يُغلق، لكن لم أُعِرْ هذا أهمية. وجلسَتْ الفتاة تخلع الجزمة عن قدميها لتستبدل بها حذاءً بيتيّاً جلبته معها، ثم لبست رداء العمل. أما أنا فقد استعددت للذهاب إلى حلقة بحثي...»

وتتوقف قليلاً لتكمل حديثها الذي سيصل حالاً إلى ذروته:

«أقول لك يا أورتنسيا، إنه لحظ قوي أن المصعد كان معطلاً، وأنني بقيت منتظرةً في بيت الدرج غير عارفة بذلك. ولو كنت قد استعملت الدرج أو مخرج الخدم، لوصلنا جميعنا إلى مقسم الشرطة! إذاً، أنا أنتظر المصعد في بيت الدرج، وإذ بي أسمع عويل الفتاة طالبةً العون وأسمع حماي يصيح: خائنة، جاسوسة، سألقّنك درساً. وأخيراً أستطيع دخول الشقة وأرى الفتاة أمامي مهسترة تماماً، مرتدية فردة جزمتها وممسكة بالفردة الأخرى بيدها، وأرى حميّ يقف خلفها يزأر كالمجنون. ترتمي الفتاة عليّ وتصرخ: 'لقد كان يركض ورائي يا سينيورا بعينين جاحظتين. إنه مهووس جنسياً، مهووس جنسياً!' ويعنفني حميّ متّهماً إياي بجلب جاسوسة ألمانية إلى المنزل. لقد وضعت نفسي بينه وبينها، هي التي تبكي على كتفي وتقول: إنها المرة الثانية، كل الإيطاليين [الرجال] سواسية، لا يريدون إلاّ شيئاً واحداً. في المرّة الأولى كان الرجل على الأقل أصغر سناً!»

ولا تستطيع أورتنسيا أن تمنع الابتسامة، بينما تتوقف أندريا لتأخذ نَفَساً.

«نعم. الآن يبدو الأمر مضحكاً، أما وقتها فتحول الموضوع بالنسبة لي إلى جحيم... في النهاية اختفى حميّ في الممر، أما أنا فحاولت أن أهدِّئ الفتاة باستعمال اللغة الألمانية في حديثي معها. لبستْ فردة الجزمة الثانية. ولما غادرت الشقة — بعدما أخذت أجرة يومها غير منقوصة — قالت إنها لن تشتكي عليه عند الشرطة فقط من أجلي. رافقْتها إلى الباب وشرحت لها في الممر أن حميّ مريض، لكن هذا لم يجد نفعاً. قالَتْ في النهاية، بينما كانت تنتظر المصعد: 'إنهما ثدياي ياسينيورا، أنا أعلم

ذلك. إنهم يحبون الشابات ذوات الصدور الكبيرة، يتوحشون ويفقدون أمامها السيطرة على أنفسهم.' تصوّري يا أورتنسيا، أظن أنها من حيث المبدأ فخورة بصدرها. ما هذه الأفكار المجنونة، أليس كذلك؟ إني لا أفهم! وعندما عدت إلى الشقة وحاولت أن اقنع الجدّ [بخطأ ظنونه]، نظر إلي باحتقار وقال: "أنت لا تفهمين شيئاً [في هذا الموضوع]، أنت يا أندريا لا تلاحظين ما يجري في هذا البلد"، ثم اختفى في غرفته.

وتتنهّد أندريا، وتُشفق أورتنسيا عليها. 'كيف لهما أن تفهم إحداهما الأخرى في يوم من الأيام؟'

"وماذا حصل مع الطفل؟" [تسأل أورتنسيا]

"لن تصدقي أنه بالرغم من الصراخ والضجيج، استمر في النوم بكل هدوء"، تبتسم أندريا.

"إنه كنز ثمين." قالت أورتنسيا هذا مأخوذة بالطفل الذي تراه قد تسلّق على أحد الكراسي محاولاً فتح النافذة.

"نو! لا تقترب من النافذة!". تحظّر عليه أندريا وتنهض لتبعده عن دائرة الخطر.

"نو، نو!"، يكرر الصغير ويطلق سيلاً من المقاطع المختلفة غير المفهومة.

"إنه كنز فعلاً"، تعيد أندريا ما قالته أورتنسيا، "ولكننا جميعاً نعيش تحت رحمته."

تقول لها أورتنسيا بأن هذا من مميزات المرحلة العمرية، أندريا تهزّ رأسها موافقة وتعرض عليها فنجاناً من القهوة. تذهب الاثنتان إلى المطبخ لتناول فنجان من القهوة الطازجة، وتتحدثان كل منهما عن ماكينة قهوتها وعن مزايا تلك الماكينة. تقترح عليها أورتنسيا التبضّع من مخزن متهاود السعر يقع في ذات حيّ أندريا، فتشكرها الأخيرة ولو أنها بالطبع لن تفكرّ في الذهاب إلى هناك. ويعلق إصبع الطفل في باب بيت المؤونة حيث كان يلعب، فيأخذ في بكاء عال يقف له قلباهما. ويأخذانه إلى الحمام ويضعان إصبعه المهروس تحت الماء البارد؛ يواسيانه ويدللانه...

تفهم هاتان المرأتان المختلفتان إحداهما عن الأخرى "على الطاير"، وبال كلتيهما في هذه اللحظة مشغول بالشيخ. تفكر أندريا بحميها الذي – رغم سنه – بإمكانه أن

يصبح تهديداً جنسياً لفتاة شابة، والذي – في الوقت ذاته – يكسب عاطفة تلك المرأة الناعمة التي داعبتْ صوف بطانيته. وتفكر أورتنسيا بذات البطانية وتشعر وكأن جسمه قد فصَّلها على قدّه فصارت رفيقةً لعمره.

وعندما نزلتْ بالمصعد إلى مدخل البناء، كانت أورتنسيا ما تزال تفكر ببرونو. تذكّرت كلماته وأقرّت بما تمنّاه لنفسه :

'يا إلهي. لم لمْ أكن أنا المرأة الأولى التي قابلها؟ ولم لمْ أعش أنا معه تلك الأيام في مدينة ريميني؟ لماذا لم يَستطع بدء حياته معي أنا؟'

ولما مرّتْ من أمام الحديقة، من المكان الذي تعارفا فيه، عادت تتذكر تفاصيل تلك المصادفة.

'لم نكن لنتعارف دون برونيتّينو، ولكنّا مررنا أحدنا بالآخر مرور الكرام'، تقول هذا لنفسها وتبتسم. إنها تشكر القديس فرانسيس من كل قلبها على وجود السيارات التي لا تأبه للمارة، والتي توسخهم وتوسخ عربات أطفالهم برذاذ الماء.

٥٤

هذا الشخص الذي فكرتُ فيه يتابع الآن مناقشةً حامية الوطيس بين البروفسور بوونكونتوني وزميله بومبرغر، البروفسور الزائر القادم من مدينة ميونيخ. إن الأخير يعتبر عالم النفس مفتاحاً لفهم السلوك البشري، الروح، الحوافز، الأحكام، الذاكرة والشخصية الإنسانية. في البداية عارضه بوونكونتوني بتهذيب، لكن إصرار الألمانيّ دفعه أخيراً إلى الغضب. وفي هذا الجو من "الحرارة العالية" قال بوونكونتوني :

"انظروا دكتور. هذه المناقشة لن تفضي إلى نتيجة لأن علم النفس لا وجود له. إنه كعلم اللاهوت يحمل التناقض فِي ذاته، لأنه من اللاعقلانية أن نبرهن على وجود الله. إن مجرد المحاولة هو شطط كَنسي."

"عفواً! علم النفس لا وجود له؟"، ينفجر الألماني. "ما هذه التخيلات؟ وأنا؟ بروفسور في ماذا إذاً؟"

"إنه موجود كتركيبةٍ ذهنيةٍ، ولكن موضوعه "الروح" لا يتجاوز كونه مجرد تصوّر. وبتعبير آخر"، يستمر بوونكونتوني، إذ أن الدم قد صعد إلى رأس الألمانيّ بشكل لم يعد يسمح له بالردّ، "فإن ما يتعلق بالسلوك الإنساني إما أن يكون جسمانياً أو اجتماعياً. وما لا يستطيع علم الوراثيات ولا علم الأعضاء شرحه، يشرحه علم الاجتماع. نعم يا سيدي"، وهنا لا يترك مجالاً للآخر بالتدخل، "إن سلوكنا تابع للجينات، للأدرنالين [للهرمونات] ... إلى آخره، بالارتباط مع التربية والظروف الاجتماعية. ولا شيء غير ذلك، حتى ولو ملأ علماء النفس الكتب."

"ولكن الروح يا سيدي، الروح...!" ووصل بومبرغر إلى حد الرَجَفان، ولم يعد

قادراً على المحاجّة. "أنتم متعالون، تثيرون الأسف بغبائكم!"، ويرْدف ذلك بسيل من التعابير الألمانية، لأن الألماني الآتي من منطقة بافاريا[1] لا يتقن السباب باللغة الإيطالية. وتنتفخ العروق في رقبته، وتتشبّث الأصابع بحافة الطاولة، ويهتز الجسم البدين لشارب البيرة من الغضب. في المقابل يرفع بوونكوتوني رقبته – التي يستقر عليها رأس محاط بهالة من الشعر الأبيض المشعث تُشبه هالة القديسين – ، ويشد قامته إلى الأعلى مشابهاً ديك الرّهان.

ويفرح الشيخ لاشك برؤية الألمانيّ يتعذب. 'سيقتلون بعضهم بعضاً في الحال'، يقول في نفسه ويبلّل شفتيه بلسانه مَرَحاً. وهنا يضرب ابن ميونخ الطاولة بقبضته ويصدح بكلمة ألمانية طويلة مركّبة. ثم يغادر القاعة مستاءً ويصفق الباب وراءه بقوة.

"ماذا قال؟"، يسأل الشيخ بصوّت خفيض.

"شايساايتاليانيشيه اونيفيرسيتيت[2]"، يترجم له مساعد بوونكوتوني مبتسماً، ويضيف نفسه معجباً :

"كل هذا في كلمة واحدة!"

'ولا أحد يذهب إليه ويغلق فمه؟'، يستاء الشيخ، 'لا تتوقع شيئاً من أهل ميلانو هؤلاء!'

وفي الأساس كانت كلمات الشيخ هي مصدر النقاش. فقد حكى في البداية عن الأطفال المتروكين في الفلاة، والذين تكبرّهم العنزات – هؤلاء كان قلبهم أكبر [أرقّ حاشية] من قلب إخوانهم. وهنا بدأ الطلاب بمقارنة هذه الحكاية مع حوادث شبيهة من العصر الإغريقي، مثل حالة العنزة الشهيرة التي دعوها بـ "أماديّا[3]" – إذا لم تخنه ذاكرته.

---

١. وعاصمتها ميونخ.

٢. Scheissitalienischeuniversität : جامعة الخراء الإيطالية. والحقيقة أن هذه ليست كلمة واحدة (مركبة)، إنما كلمتان، وهذا يفي أيضاً بالغرض!

٣. Amadea

ثم حكى بعد ذلك عن الاحتفالات التي تتبع طقوس الحج في قريته، وكيف أن الناس كان يتنافسون على حمل مركب القديسة كيارا ويتخاصمون لهذا السبب. كما اهتم الطلاب بشكل خاص بلقب "قاطع البطون"[١]. ثم حدثت مناقشة حادّة حول العدوانية عند الإنسان وعند الحيوان، وفي النهاية نشب نزاع بين البروفسورَيْن بخصوص جذور السلوك الإنساني.

لكن النزاع لم يسفر عن شيء. إن أهل ميلانو أطفال لا يستطيعون التصرف كرجال. ويؤسفه ما حصل للبروفسور بوونكونتوني لأنه يجده محبباً للنفس. ولا شك أنه كان على حق، لأن الآخر لا يمكن إلاّ أن يكذب لأنه في النهاية ألمانيّ. وعدا عن ذلك فقد أقنعه رفض "الروح"، لأن الخوارنة لن يعود لهم حينئذ أي دور. لكن كون البروفسور على حق لا يعني أن "يبلع" إهانة الألمانيّ له. هذا لا يقبل به الشيخ بتاتاً، بل يخرجه عن طوره من الغضب. ولو كانت الدكتورة روسّي موجودة – لم تستطع للأسف أن تحضر هذه المناقشة –، لكان ركض شخصياً وراء الألماني وصان شرف إيطالية أمام المرأة. وليقل هذا على الأقل للحاضرين في وجههم: "أين أنفتُكم؟"، يهتف وينظر من حوله، "كيف يستطيع ألمانيّ واحد أن يخوّف هذه المجموعة من الأذكياء؟ كيف كنتم لتتصرفوا في جبهة القتال؟ طبعاً، لن يتطوع أحد منكم للذهاب إلى هناك. أوّد لو ألقي بكم في خندق ومعكم كتبكم وأوراقكم."

"أنا كنت في الجبهة."

"أنتم؟"، يسأله الشيخ ويتذكر المعلم الذي كان عضواً في مجموعته من جبال السّيلا. ينزع بوونكونتوني "فراشة"[٢] العنق، ويفتح قميصه ليريه الندْبة الطويلة الذي تمتد من الرقبة إلى الصدر.

"رجل مقاومة في منطقة فال دا آوستا[٣]. رجلاً لرجل."

---

١. السكّين.

٢. بابيونة.

٣. Val d'Aosta

"لا تؤاخذني يا رفيق. الآن اختلفتْ الأمور."

ويشرح له الجميع بأن الألماني المهان قد أخذ نصيبه أيضاً. وهنا انتهت الساعة الأخيرة من الفصل الدراسي في جوّ من الوفاق. الكل يودّع الشيخ بودّ كبير. "إلى حلقة البحث القادمة أيها الكالابريّ!"، طفقوا يكررون، لأنه أصبح الآن كالابريَّ الكلية كلِّها. وبكل فخر يصافح الشيخ الجميع فرداً فرداً.

ويرجوه البروفسور أن يأتي مع فاليريو إلى مكتبه، حيث يريهم هناك صور فدائيي "فال دا آوستا". 'لقد كانوا مثلنا. الفرق فقط في الثياب الأحسن والتسليح الأفضل. خطّ الشمال على الدوام أوفر حظاً.'

[شيء ما ينقلب في رأسه] وتأخذ عيناه تعبيراً غريباً. إن النظر إلى تلك الصور يرفع حرارته ويجعله حذراً.

"كيف وصلت إلى هنا؟ ما السبب في أن رجال الغستابو لم يُمسكوا بك؟"
"لقد كنت ألعب لعبة مزدوجة"، قالها بوونكونتوني بكل سريّة، وكان على علم من فاليريو من أن لحظات من التشويش الذهني تصيب الشيخ، "يجب على المرء يا رفيق أن يخدع الأعداء."

لقد تركتْ هذه الجملة انطباعاً قوياً، عند الشيخ حتى إنه قرر أيضاً أن يعترف لبوونكونتوني بشيء؛ شيء أطبق على صدره منذ زمن طويل ويريد أن يبوح به ويريح ضميره.

"نعم، هذا صحيح. أن يخدع العدو وليس الصديق. يجب أن أعترف .... لم أكن منصفاً يا رفيق – اعذرْني. لقد بالغتُ أحياناً في حكاياتي. يعني، قليلاً. ليس كي أكذب عليكم، لا، بل كان هذا بمثابة مزاح؛ بمثابة كأس نشربها لنهدئ عطشنا. لقد أردت أن أقول لك ذلك. لا تأخذوا جميع ما قلته لكم على محمل الجد."

وينظر إليه بوونكونتوني باحترام عميق.

"أشكرك على صدقك! ولكن لماذا اخترعت أشياء؟ ليس من أجل المال بالطبع؟"

"من أجل المال؟ أنا الذي أملك من الأراضي والحيوانات أكثر منك؟"

"دون شك، فأنا لا أملك شيئاً. ولكن لماذا فعلتَ ذلك؟"

"لقد كانت رغبتي كبيرة في أن أحكي عن الريف وعن الجبال. في ميلانو لا أحد يهتم لهذا. وقد شعرت بالراحة بينكم! أشكركم على هذا الوقت [الجميل]. وإذا أردتَ، يمكن أن أعيد لك النقود!"

"ولكن لماذا؟ لقد استحققتها بكل ذمّة! فعلاً ... انظر وأنا أريد أن أعترف لك بأنني أحياناً خمّنت وجود أخطاء أو لاحظت المبالغات. ولكن حتى مبالغاتك تدخل في شواهد علم الانسان[1] التي تساعدنا في الفهم: كيف يفكر إنسان من حقبة زمنية معينة ومن منطقة معيّنة."

و"يغصّ" الشيخ للحظة، ثم ينهض منفعلاً ويبدأ بهجوم مضاد:

"إذاً فالألمانيّ محق! جامعة! لقد تركتموني أقص عليكم كي تضحكوا في النهاية منّي؟ هل هذا عمل رفاقيّ؟ الآن أفهم لعبتك المزدوجة: أنت تلعب ضدي، أنت إذاً في صفوف الفاشِست!"

وينهض بوونكونتوني بدوره.

"اهدأ يا رفيق! إني أقسم لك إنكَ مخطئ! لقد استمعنا إليك وسنظل نستمع إليك لأننا نتعلّم منك. لا تهمنا الحكايات المعروفة بقدر ما تهمنا طريقتُك الشخصية في تقديمها. ولما كنتَ تحكي لنا عن كنز موجود في قاع النهر، كنا نربط ذلك بصناديق "الأريش[2]" التي دفنها في قعر نهر بوسينتو[3]. وهل تعرف من كان الـ "كارّومانغو[4]" في تسجيلك قبل الأخير؟ ما هو إلاّ القيصر الشهير كارل الكبير[5]. أمّا فيما يخصّ اختراعاتك

١. Anthropologie: علم تطور الإنسان.

٢. Alarich: ملك القوطيين في الغرب.

٣. Busento

٤. Carrumango

٥. شارل (شارلمان).

الشخصية، فهي [في المحصلة] تعكس ثقافتك، وهذا مهمّ بالنسبة لنا. نعم يا رفيق، عندما يتحدث رجل بوزنك، تتكلم جذور شعب بكامله."

ويُحس الشيخ بأن هذه الكلمات تحمل معاني عظيمة، ولكنه مازال يشك في ميلانو وأهلها.

"أنتم الكَتَبَة تبدعون في الخُطَب: ترا لالا لالا، شأنكم كشأن السياسيين. ولكني لا أسمح لأحد أن يهزأ بي!"

"هل أبرهن لك على تقديرنا لشهاداتك؟ انتظر! يا فيرليني! أين أرشَفْنا تساجيل رونكونه؟"

"بجانب تسجيلات توريدّو[1] من مدينة كالتشينيتّو[2]."

وهنا يُدهش الشيخ: توريّدو! الشاعر الشعبي الكالابريّ العظيم! إن أغاني وأشعار هذا الرجل معروفة في كل قرية!

"هل هذا صحيح؟"، يبتسم الشيخ معتزاً بنفسه، نصف مقتنع.

يهزّ البروفسور رأسه بالإيجاب.

"لقد كان هنا في الفصل الأول بهدف إجراء التسجيلات. وفي النهاية أيها الرفيق: من منّا يستطيع بكل ثقة أن يفرّق بين الحقيقة والخيال؟ [فيما يخصّ حكايات سلفاتوره]"

"لحظة من فضلك! هذا لا ينطبق عليّ. أنا أعرف تماماً أن أفّرق بينهما، وأشعر بذلك. ففي القرية أنظرُ إلى العربة التي يريد المرء أن يلصقها بي لأشتريها، وأنظر في عيون البائع، فأعرف فوراً إن كان يخدعني أم لا. إنكَ تحسّ بالحقيقة؛ أنا على الأقل، أحسّ بها."

بوونكونتوني ينظر إليه نظرة شك.

"هل تعتقد هذا فعلاً؟"، يسأله هازئاً، "إذاً، اذكر لي شيئاً حقيقياً مئة بالمئة! شيئاً

---

١. Turiddu

٢. Calcinetto

لا يختلف عليه اثنان!"

ويأتي الجواب كالرصاصة
"طفل!" ومرة أخرى دون أن تحمل هذه الكلمة أي ظلّ من شك. "نعم. طفل"
يفكّر بوونكونتوني هنيهة، ثم يعلن بكل استسلام هزيمته.
"عندك حق. وبما أنه ليس عندي أولاد ... أنا سعيد بأنك قلت ذلك. هذا يعني بأن الهدية التي اخترناها لك، ستلقى إعجابك بالتأكيد."

ويعطي فاليريو إشارةً، فيسلّم البروفسور الشيخ ظرفاً يحتوي على شريط مسجّل [محفوظ في غطاء بلاستيكي].

"هذه كلماتك أيها الصديق العزيز"، يشرح له البروفسور ويسلّمه الظرف. "إنه تسجيل أول يوم. هدية لحفيدك الصغير."

'من أجل برونيتّينو!'، يقول الشيخ لنفسه متأثراً. 'إنها لفرحة عظيمة...!'

بذلك ستبقى كلماته المسجلة بصوت رجل "في الخمسين" من عمره، مسموعةً إلى أن يبلغ الطفل مقام الرجال، بعدما يكون قد مضى على صمت صاحبها الراحل وقت طويل. ولكن هل سيفهم حينئذ اللهجة المحلية؟ لقد اضطُرّ أن يشرح لهؤلاء الناس في بعض الأحيان معنى جُمَلِه. آه. ولكن برونيتّينو سيتعلم الكلام في هذا الصيف هناك في روكاّسيرا وبلهجتها، قبل أن يتعلم الإيطالية الأخرى! سيعلمه بلهجته، لهجة الرجال!

ويحترم البروفسور وطالبهُ تأثّر الشيخ وصمته، الشيخ الذي يتأمل الكتابة الموجودة على الغطاء البلاستيكي للشريط: "رونكونه، سالفاتوره (روكاّسيرا)"، ثم يضع الشريط مجدداً في داخل الظرف ويقرأ عليه: "من أجل برونيتّينو، هدية من أصدقاء جدّه – أعضاء حلقة بحث البروفسور بوونكونتوني"

فرحة عظيمة! ودون كلام يعانق الشيخ عامل حدائق البلدية السابق وبحرارةٍ أيضاً فدائيَّ "فال دا آوستا"، ويدعوهما كليهما لزيارته في الصيف في روكاّ سيرا. يوصلانه

إلى المخرج في جو من المزاح مليءٍ بالكلمات الطيّبة. أما بوونكوتوني فيعطيه "بطاقته" واعداً إياه بكل دعم ممكن ويوصله مروراً بالبوابة الكبيرة ونزولاً من على درج الكلية إلى الشارع. يحسّ الشيخ بالاطراء، إذ يمنح البروفسور هذا الشرف إليه، إلى الزميل المحترم لشيخ شعراء كالابريا "توريدّو". وأما فاليريو فيفتح للكهل باب السيارة الصغيرة. يجلس الشيخ في مكانه، يعدّل من جلسته بكل هدوء ويتلمّس في جيب سترته غطاء الشريط الذي يحتفظ بكلماته. في المستقبل البعيد سترنّ هذه الكلمات هديةً دائمةً لبرونيتّينو.

إنّها "الحقيقة" مُقدَّمة للطفل [في هذا الشريط].

٥٥

خطوات خفيضة الصوت ووقع أقدام مخفّفٌ يُشبه حركة الخروف الصغير – توقظ الشيخ، الذي يهجس في نومه ظاناً نفسه في حظيرة الأغنام. يفتح عينيه فيرى في العتمة ملاكاً صغيراً يقف بالباب المقابل للسرير ويرفع ساعديه باتجاهه. يستقيم الشيخ ثم يقفز من سريره ويمشي إلى الملاك. يرفع الملاك إلى الأعلى ويضمه متحسساً له بين ذراعيه. وعندما استقر الرأس الصغير على كتفه، اعترى قلبَه حنانٌ لا يوصف. وتنغلق جفون الطفل ببطء، بينما يفكرّ الشيخ في حِمْله الحلو، في البداية واقفاً ثم جالساً على السرير.

'هذا صحيح يا رفيق، لقد فاجأْتني نائماً. لكن لا تظنّ أنني قد أهملت حراستي. إن العدو يا صغيري بدأ بالتراجع. نحن بصدد الفوز بالحرب، نعم – فإن كثيراً منهم قد استسلموا! أنت لا تصدقني؟ ألا ترى هذا بنفسك؟ إذاً، قل لي كيف استطعتَ أن تدخل إلى هنا؟ هل احتجتَ إلى الصراخ أو إلى الضرب على الباب كما كنت تفعل سابقاً؟ لا، فالباب مفتوح. هل تفهم ما أعني! هذا بالضبط يا بني، فهم لم يعودوا إلى سَجْنك! ولن يفعلوا ذلك مجدداً! لقد انتصر جدُّك على رأس مجموعة برونو. سننتصر!'

يضع الطفل جانباً للحظات، بينما يصلح البطانية ليضعها حول كتفيه وليمكنّها من الإحاطة بالاثنين معاً، ثم يحمله من جديد.

'هل تريد أن تعرف ماذا حصل؟ لقد استسلمتْ أندريا. هذا ما حصل. البارحة. لقد جاءت إليّ رافعة العلم الأبيض كي تتفاوض معي، هذا هو تقليد التفاوض. ولقد

تكلمتْ وتكلمتْ وتكلمت – أنت تعرفها. لكنها كانت لطيفةً جداً. ونتيجةً لهذه الثرثرة: الباب سيُصبح ملكاً لنا. هذا الممر بين الجبال صار في يدنا. "الكارّومانغو"[١] الذي يطلق عليه صديقي البروفسور تسمية مختلفة. لقد قالت لي من ذات نفسها: لا تحتاجون أن تذهبوا إلى هناك في الليل. ناموا مرتاحين، فنحن لن نغلق الباب بعد الآن، وليفعل الصغير ما يشاء. هذا ما قالته وها أنت طبعاً تأتي إليّ، إلى من غيري؟ تأتي إلى مجموعتك الحربية التي احتمت بهذا الموقع. أنظر فقط، كم من المناطق أصبحت تحت سيطرتنا؟ لم نعد في حالة دفاع. لقد أتيت إلى جدّك، يا ملاكي، يا أميري الصغير! متى ستقول لي "نونّو"؟ لا يوجد أفضل من هذا الشعار! إنه في غاية السهولة. هذا اللسان الصغير الأحمر يحتاج فقط إلى إعادة "نو" مرتين متلاحقتَين، ما دمت تصرخ دائماً: لا،لا،لا. هل تسمع؟ هكذا: نو–نو ... هذا سهل من جهة، وسيسعدني سماعُه أشد السعادة من جهة أخرى.

بكل تأكيد! نحن في طريقنا إلى النصر [النهائي] ... نعم. أعرف أن هذا قد يكون فخّاً، لا تحتاج أن تقول لي ذلك. لقد فكّرت ملياً، ولا يمكنني إلا أن أرى تقدّماً. لذلك نوجد الآن في هذه المنطقة الأقرب إلى الوادي. انظر. من النافذة! – (لم يعد صعباً أن ترى الفضاء من هنا، دون أن تُضطر إلى مدّ جسمك بعيداً إلى الخارج كما في السابق.) في مواجهتنا بيوت وليس صخور. نعم. الناس هناك يستطيعون أن يناموا مطمئنّين لأنهم يعرفون أن الحرب تصل إلى نهايتها. سنحررهم عما قريب. لقد قلت لك إننا سنكون في الصيف هناك في الأسفل.

ومعنا سينتقل الجو الصاحي. عدا عن ذلك سأتمكن من إجراء العملية، ما دام بابك غير موصد. سيقبضون على روسكا للأسف، ولكن هذا لا يمكن تجنّبه لأني أحتاج إلى الحيوية اللازمة من أجل القيام بهجومنا الأخير: تحرير روكاّسيرا! لن يطول الأمر، هم ينسحبون على امتداد الجبهة، صدّق ما يقوله لك رجل المقاومة. هناك ستلعب مع الخرفان وستركب معي على الحصان. الشمس والقمر سيكونان لك، والجبال

---

١. يقصد القيصر الألماني كارل الكبير سابق الذكر. وهذه أيضاً تسميته لمنطقة في جبال السّيلا.

أيضاً. نعم، الجبال قبل كل شيء بسفوحها وأحراش كستنائها. سنقطع الساحة كما يتوجب علينا : عبر دربنا الخاص بنا، وسيسأل الناس : من هذا الصبي الجميل؟ وسيقول الجميع : النساء في المخزن، العمال الذي يسوقون البغال، الزبائن الذين ينتظرون دورهم عند ألدو الحلاق، الذين يقفون أمام الكشك، الذين يتجهون إلى بار بيبّو كي يشربوا شيئاً، حتى الذين يتواجدون في الكازينو [معقل كانتانوتّي]- لأن الكانتانوتّي لم يعد لهم قيمة بعد اليوم، سيقولون كلهم : ها هو العم رونكونه يخطو مع حفيده برونيتّينو. ما هذه المشية التي كلها كبرياء. انظر إلى الصغير كيف يرفع رأسه إلى الأعلى : كجدّه تماماً! الكل سيحتفل بك. البعض لانهم أصدقائي والبعض الآخر لأنّهم يخافون مني. ستتعرف إلى أمبروزيو الذي يعني لي أكثر من أخ. سيُريك جميع الأشياء حين لن أستطيع أنا في يوم من الأيّام القادمة أن أفعل. سيكون عليك أن تسلّم على الجميع بهذه الطريقة أو بتلك. هذا ليس صعباً، سأعلّمك التحية. الأمر هنا يتعلق بالحدْس، هل فهمت؟ وعندك الكثير منه يا صغيري. إنه حدس يوجّهك إلى كيفية التعامل مع الرجال. ستتعلم كل هذا إلى جانبي.

وموضوع النساء : كيف يجب أن تتعامل معهن؟ هذا سيأتي فيما بعد لأنه موضوع أكثر تعقيداً. لقد كنت أظن أنني معلّمٌ في هذا المجال، وأنهن سَيَكنّ مكتفيات إذا استطعت أن "أبسطهن" : هذا ليس صعباً، بالعكس. ولكن ظهر فيما بعد أن الموضوع مختلف. تبيّن أنهن كن سيعطينني أكثر بكثير لو كنت أكثر وعياً! كان الأمر كذلك حتى مع دونكا، التي لن تستطيع أن تتعرّف عليها. لقد كانت عيناها العسليتان ترسلان شرارات خضراً قد يراها المرء أو لا يراها، وذلك بحسب مزاجها. لم أكن أعرفها جيداً، وهذا ما أظنه الآن. هي التي تعلم ذلك، تلك ذات العيون الصافية الزرقاء /البنفسجية التي لا تتغير [أورتنسيا]. أية ثقة تمتلك؟ كالثقة التي تمنحك إياها ذراعاي. ما هذا الأمان؟ عيون لا تثير انطباعاً عندك للوهلة الأولى، تراقبك وتنفذ إلى إعماقك إلى أن تُخرج كل ما في داخلك : فتتكلم، تعترف، تستسلم. ومَنْ يمكن أن تخلص له أكثر منها؟ هذا الأمر مع النساء هو يا صغيري أيضاً حربٌ، لكن بشكل معكوس.

هنا تشعر بالفرح عندما تكون سجيناً . إنك بعد صغير ، ولكنك في يوم من الأيام ستلتقي مع مثل هذه العيون : طعنة سكين تقطع في جسمك ببطء ، كي تشعر بها أفضل ، وتشق طريقها إلى قلبك. إني أفهم الحياة الآن ، إذ ينبت لي ثديان من أجلك. وستفهم أنت أيضاً ولكن أسرع مني. ما لم أتعرّف عليه بعد ، ستعلّمك هي إياه. إنها واثقة وحنونة. وهي قوية ، حتى إنها حملتني بين ذراعيها . في كل مرّة تخطر فيها هذه الصورة على بالي ، أتمنى لو أنني كنت ليس مغمياً عليّ وإنما بكامل إحساسي ! عندها كنت سأستقيم بجسمي وأحضنها بيديّ. بل الأفضل أن تبقى الأمور كما كانت ، وأكون قريباً إليها أكثر من أي وقت آخر. هذه المرأة ليست "موقد نار" ، إنما نبع لا ينضب. فلا يوجد عطش لا يمكنها إرواءه! ستكون معلمتك لأنها ستأتي معنا . سآخذها إلى روكّاسيرا وستصبح جدّة لك. نعم يا بني ، سترافقنا إلى روكّاسيرا التي ستصبح لك لأننا سنحررها . بوجودك هناك لن يقف شيء في طريقك.

نم مرتاحاً ، فقد انتصرنا . حتى روسكا استسلمت ولا تعضّ إلاّ فيما ندر. لن تجري الأمور الآن بعيداً عن مسارها . نم على صدر جدّك ، إنه قدّ من صخر كالجبل. نمْ وحضّر نفسك للعملية الأخيرة. وسنضرب ضربتنا حين أعود من المشفى متحرراً أخيراً من روسكا . أما في الصيف فسنكون في روكّاسيرا ! سنقوم بجولاتنا الصباحية ، وسنجلس على السطيحة في المساء ننظر إلى النجوم التي يظهر بعضها وراء بعض ، ونسمع غناءً يتردد إلينا من جهة الحقول. ستكون رائحة الهواء مفعمة برائحة الحبوب المحصودة ، وستكون الحياة حلوةً حلوةً حلوة ، تتنشّقها ونعيشها . . . '

٥٦

’ما اسم هذه الساحة؟‘ ، يتساءل الشيخ فاقداً رشده.

’أين أنا؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ لقد نزلت من حافلة ما ، ولكن من أية واحدة؟ لم أنتبه إلى الرقم، لقد كنت شارداً . . . ما هذا الذي دعاني إلى النزول فجأة؟ يجب أن يكون هناك سبب ما ، فإن فطرتي لا تخذلني أبداً . كان أحد يتبعني بالتأكيد ، ولكن الآن لا أحد ، وإلا لكنت انتبهت إلى ذلك. . .

القاعدة رقم واحد : التزام الهدوء . السؤال الأول هو في أية مدينة أنا ، فهم يرسلوننا إلى وجهات مختلفة! لا أستطيع الآن أن أسأل وإلاّ سأثير الشكوك. لا شك أنني أنفّذ مهمة ما . أو أن هذه المحطة هي محطة عابرة على طريق الهروب الذي كثيراً ما حدث. الهدوء ، وسأكتشف كل شيء ، فلقد واجهتني ظروف أشد من هذه. ياللعنة! أرجو ألاّ أكون قد أُصبت بشق في رأسي كما في منطقة أولديرا[١] عندما قفزت إلى المنحدر كي أنجو من الحصار قبل. . . قبل كم من الوقت؟ ثلاثة أشهر أو ما يقرب؟ لا أزال أشعر اليوم بالضربة.

ليست هذه المرة الأولى التي تنجو رقبتي من حبل المشنقة. كما في أولديرا ، حيث نجوت أنا فقط. لننظر إن كنت في هذا الكشك سأستطيع أن أستكشف شيئاً . هذا شيء غريب، فلا توجد أخبار عن الحرب! آه، إنها الرقابة في هذا الوقت بالذات إذ يخسرون الحرب! كانت صورهم توضع على الصفحة الأولى متباهين بنجاحاتهم وبهجومهم بالقنابل، وبأسراهم. إنهم الآن هادئون، رغم أن ذلك لن يفيدهم. آه، ماذا قال هذا الشاب لفتاته، أثناء مرورهما من أمامه؟ ”أنا لا أريد أن أترك السكن في

---

١. Oldera

روما ، إنها تعجبني"، لقد قال الشاب ذلك.

– نحن إذاً في روما . ولكن ماذا أفعل أنا في روما ؟ سأتمكن الآن من التذكّر . وسنرى إن كانت تسمية هذه الساحة تعني لي شيئاً . . .'

ويقترب شرطي من الشيخ إذ أحسّ أنه ضائع .
"هل تبحثون عن شيء؟ هل أستطيع أن أساعدكم؟"
'انتباه ! أستطيع أن أسأل دون إثارة ضجة .'
"نعم، شكراً لكم. ما اسم هذه الساحة؟"
"ساحة لودوفيتشا[1] ."

وبسبب الشرود الواضح في تعابير وجهه يسأله الشرطي :
"أين تريدون الذهاب؟"
'وهل تراني أبلهَ لهذه الدرجة؟ لن تأخذ مني أية معلومات.'
"هل أستطيع أن أخدمكم؟" ، يصرّ الشرطي ويقوّي بلطفه شعور الحذر عند الشيخ.
"لا تتعبوا أنفسكم. أستطيع التنقل في روما بكل حرية."
'روما ؟' يتعجب الشرطي وينظر إلى الشيخ بدقة أكبر. لا يبدو أنه مجرم، بالرغم من أنه لا يخلو من عدوانية. يجب أن يكون السبب كامن في عقله، إن كان يعتقد أنه موجود في روما . أيكون هارباً من المصحة؟ إن مشفى الأمراض النفسية قريب جداً من هنا ، في بولفار بورتا رومانا[2] .
"هل أنتم بخير أيها الرجل الطيّب؟ أين تقطنون؟"
"ولماذا علي أن أقول لكم ذلك؟" ، يرد عليه الشيخ بغلظة.

وللأسف فإن بعض المارة يسمعون هذا الحديث، لذلك يشعر الشرطي بنفسه تحت الضغط.

---

١. Lodovica

٢. Corso Porta Romana

إنه حديث السنّ لا يتحمل تلك الاستفزازات، ويجب عليه أن يحافظ على احترام الآخرين له.

لذلك يأتي جوابه شديداً :

"لأني أمثّل السلطة!"

'مَنْ يظن هذا الولد نفسه؟ كان عليه أن يلتحق بالجبهة'، يقول الشيخ في سريرته ويردّ هازئاً :

"سلْطة؟ سلطة أية حكومة؟"

يفقد الشرطي توازنه وتصبح نبرته أكثر إصراراً. أما دائرة الفضوليين فتتّسع. يجلب الشرطي الشيخ إلى تلفون عام يسأل منه رئيسه عما يجب في هذه الحالة فعله. ولا يحاول الشيخ الهرب لأن هذا سيفضحه، عدا عن أنه يشعر بضعف شديد، سببه إصابته الأخيرة بجراح وفقدانه للكثير من الدم.

'سألعب دور الأبله'، يقرر الشيخ بينما ينتظران سيارة الدورية. 'لن يكون هذا صعباً، فأهل روما يظنوننا نحن الفلاحين أغبياءً. نعم، أهل روما، ولو ادعى الشرطي أننا في ميلانو كي يربكني ويجعلني أعترف. لن يحصلوا مني على أية معلومات، وأنا مصمم على هذا أكثر من ذي قبل.' إنه مسرور لكونه قد أخفى الوثائق، لأنه رمى هويته في حفرة المجاري عندما كان الشرطي يتحدث بالهاتف.

لهذا السبب لم يجدوا عنده أية أوراق ثبوتية عندما رفض بعد ذلك بقليل في قسم الشرطة أن يصرّح عن اسمه، وعندما فتّشوا جزدانه. وأخيراً لم يستطع الشيخ أن يستمر في دور الغبي لأن نزقه لا يسمح له بذلك، ولأن الموظف الذي يستجوبه أثار غضبه بشكل لا يوصف نظراً لغروره وخيلائه.

"لا تحاول أن توهمني أيها الفاشستي الخائن..."، هكذا صرخ أخيراً. "نعم خائن، ولو كنت ترتدي بزة رسمية إيطالية. هيا، قل لرئيسك، الألماني الذي يختبئ هناك، بأن يظهر للعيان. لن يستطيع حتى الغستابو أن يجبرني على الكلام!"

'من الواضح أنه مختل عقلياً . أم إنه يمثّل هذا المشهد وفي نيّته إخفاء ما هو أعظم؟'

يأمر الموظف بإبعاده إلى حجرة أخرى ويستشير في هذا الموضوع مرؤوسه، فالمحقق غير موجود في الوقت الحالي. ماذا سيفعلون؟ هل سيتصلون كما هي العادة بالمصحات العقلية والمستوصفات والمشافي؟

"أيها الرئيس! أقترح أن نتصل بالبروفسور بوونكونتوني، علنا نجد من خلاله شيئاً!"، يقول مرؤوسه الذي وجد بطاقة البروفسور في جيب الشيخ. "إثنولوجيست[1]"، قد يكون هذا طبيبه المختص الذي يعالجه!"

ولحسن الحظ كان البروفسور موجوداً في البيت[2]، واستطاع بسرعة أن يتعرّف الشيخ من خلال وصفه. لا، لا هو مجرم ولا هو ممثل محتال، إنما يعاني من فقدان الذاكرة. ولا يستطيع أيضاً أن يقول أين يقطن، إنما يعرف ذلك فاليريو فرليني، ابن المحامي [المعروف]، وهاكم رقمه. وفي حال عدم التمكن من الاتصال بعائلة الموقوف، فإن البروفسور على استعداد للمجيء إلى القسم لاستلامه والاهتمام به.

وبفضل فاليريو يتسنّى للموظف أخيراً أن يحصّل ريناتو في المعمل وأن يرجوه الحضور بأسرع وقت ممكن. في هذه الأثناء يعرضون على الشيخ قهوة وبضعة قطع من البسكويت. لقد كان لاسم المحامي النجم دومينيكو فيرليني وقعاً قوياً في أقسام الشرطة، ولقد توسط ابنه بحرارة من أجل الموقوف.

'بهذه الضيافة يريدون أن يليّنوا من عزيمتي'، يفكر الشيخ عندما يرى الصينية على الطاولة ويتساءل عما إذا كانوا قد وضعوا شيئاً في القهوة. وفي النهاية يشربها. 'لن يكونوا بمثل هذا الذكاء. هذا هو الملعوب المعتاد : لباقة ثم تعذيب. الشيء الوحيد الذي يضايقني هو أنني سأقضي ليلتي هنا، لأني أعتقد أن مهمتي لها علاقة بالليل! نعم، بالتأكيد. ولكن أي ليل؟ لن أصل إلى نتيجة إذا كنت محجوزاً هنا. ألا يمكنني

---

١. مختص بعلم الشعوب.

٢. نلاحظ عدم وجود أجهزة الاتصال الحديثة (الهاتف النقّال). وزمن الرواية هو أوائل الثمانينات.

الآن يارب أن أتذكر! أظن أن أحداً قد أخبر عني، لأني لم أفعل [في الظاهر] شيئاً يثير الشك. إنه الطبيب الذي يقف وراء ذلك، وذلك لأنني رفضت إجلائي. لكن لا! الآن أعرف الجاسوس الذي أخبر عني: تماماً، إنها المخبرة الألمانية ذات الحلمات الغليظة. تلك التي تسللت تحت غطاء الاعتناء بـ... برونيتّينو!'

ويفك الاسم السحري كل التشويش وتنتظم الأشياء.

لقد كانت هذه مهمته البديهية: حماية الصغير. يجب عليه أن يغادر حالاً، فالصيفّ على الأبواب.

ينهض الشيخ ويعتمر قبعته ويطرق على الباب. ويهتف عندما لا يسمع رداً:

"افتحوا من فضلكم، لقد تذكرت الآن وسأقول لكم كل شيء! افتحوا من فضلكم: اسمي رونكونه، سالفاتوره وأقطن عند ابني في جادة بيانه ويعرفني البروفسور بوونكونتوني شخصياً! أيضاً السيناتور زامبريني. زامبريني! افتحوا الباب من فضلكم..."

وينفتح الباب ويظهر ريناتو. يعانق والده، بينما يقف الموظف على العتبة.

"هل كل شيء على ما يرام يا أبي؟"

"طبعاً! أرجو ألاّ تكون قد ارتعبت. لم يحصل لي أي شيء"، يهدر صوته متناثراً، ولكن متماسكاً. "لن يحصل لي أي شيء بهذه السرعة! إنهم هنا يرون في كل مكان أشباحاً يريدون أن يثبتوا أنفسهم أمامها. لقد كانوا سيطلقون سراحي في النهاية على كل الأحوال."

يتراجع الموظف بتكتّم. لا يعارض ريناتو أباه، ويُرجع إليه المحفظة التي استلمها توّاً. وعند خروجهما يعتذر ريناتو مجدداً إلى الشرطي. كان عليه قبل أن يسترجع أباه أن يسمع محاضرة الشرطي، الذي نبّهه إلى تقصيره مع رجل مريض نفسياً، لا يحمل معه حتى هوية شخصية. وكان اسم فيرليني [الأب] الذي ذُكر على الهامش، هو الاسم

الذي سهّل الحلّ. يخرج الاثنان إلى الشارع. أما الشرطي الذي أسند لهما الباب فقد قال لرئيسه :

"هل سمعتم ذلك يا سيدي؟ في الظاهر يعرف أيضاً السيناتور زامبريني. إن مظهره لا يوحي بمظهر صاحب نفوذ."

"لا تعتمد على المظهر الخارجي أبداً." يتمتم رئيسه.

"فاقدٌ لعقله! كان من الأحرى أن يقول إنه ابن البابا. إن النماذج التي تصل إلينا، لا يمكن الوثوق بها."

وفي السيارة لا يتحدث ريناتو إلاّ عن أمور جانبية، لأنه يحرص على عدم إزعاج والده أكثر.

ولكنه يخطئ في ظنّه : والده غير منزعج على الإطلاق، بل بالعكس. إنه يستمتع بنصره بكل حواسه، لأنه نجح مرّة أخرى في النجاة من مخفر الشرطة، دون أن يقدروا عليه. لم يستطيعوا أن يأخذوا منه كلمة واحدة. والأهم من ذلك كله هو أن الصغير في أمان، لأنه سيحرسه الليلة أيضاً من الموقع المحصن الجديد.

٥٧

كتلة الحجر المتعالية تصوّر سرّاً وتصرخ دون صوت. هما شكلان إنسانيان في طور الولادة وفي طور الموت. لم يكمل الإزميل تكوينهما، لذلك فهما يصنَعان نفسيهما بنفسيهما. الرجل العاري يحتضر والمرأة ذات الغطاء تسنده بيدين حانيتَين وبتعبير وجه تملؤه الحيرة. وعندما يعرّفها زوجها [برونو] إلى هذا العمل النحتيّ تشعر أورتنسيا أنها تتفهم هذه المرأة بكل جوارحها.

"هنا. انظري إلى محاربَيَّ!"، يهتف الشيخ. "هذه ليست شفقة[١]، أليس كذلك؟" ما أجمل هذا التمثال! وما أعظم هذا الشخص، ميكل أنجلو!"

"نعم. Pieta عنتْ لها شيئاً مختلفاً: حباً ينزف وحناناً يُعتَصَر. ورغم ذلك يفاجئُها أنها ترى في هذا التمثال تجسيداً لعلاقتها مع الشيخ. لم يكن لأي تمثال آخر أن يسبب لها مثل هذا الألم، لأنهما بهذا المعنى بالذات يشقان طريق الحياة الباقي لهما، ولأنها على هذه الصورة بالذات قد رأت نفسها في مرآة غرفة نومها عندما كانت تحمله. ينكسر قلبها من ناحية ويواسيها من ناحية أخرى هذا الحماس المليء بالعواطف الإنسانية، الذي يراه الشيخ بطولةً حربيةً أراد لزوجته أورتنسيا أن تشاهدها في هذا الخميس، الخميس الأخضر[٢]. "زوجته"، لأنها الآن كذلك. لقد أقنعها وسيتزوجان حالما تصل الأوراق."

١. Pieta تمثال ميكل أنجيلو: تعني هذه التسمية هذا التمثال بالذات (وسميَّه الموجود في الفاتيكان)، بالإضافة إلى معناها الأدبي وهو: الشفقة (أيضاً الشكران، التقوى).

٢. Gründonnerstag: في الأصل مناسبة كنسيّة (يوم الكفّارة). أصبحت جماهيرية يأكل فيها الناس الخضار، وبالأخص الملفوف الأخضر (الصغير).

"ألا يسلب هذا الألباب؟"
"لم أكن أتوقع هذا . فقد ظننت أنك تريد أن تريني الإتروسكيين ، الذين تتحدث عنهم دائماً ."
"لا يوجد إتروسكيون في مكان مثل ميلانو ! ولكن هذا يستحق أيضاً المشاهدة. إنه عبقري ، هذا المسمّى ميكل أنجلو !"
لا يجد كلمات يقولها غير تلك ، ولكنه يشد قبضتَيه ويقطّب جبينه ويركّز نظرته .
"هل يشبه هذا تمثال الإتروسكيَيْن؟ [تسأله أورتنسيا]"
"بالعكس. هنا نضال وهناك نعيم ، ولكن بنفس الإصرار الموجود هنا ."

وعندما خرجا من المتحف ، رفعا نظرهما إلى الأعلى وكان هذا بديعاً : لقد ملأتْ أعينهما سماءٌ زرقاء ، وتواترت على وجهيهما نسمة معتدلة الحرارة ، ورسمت الشمس تحت الأشجار ظلالاً متراقصة ، بينما تجثم على الأرض ظلال الابنية ساكنةً لا تتحرك . وفي الحافلة يحكي لها فرِحاً عن ملعوبه الأخير ، بينما يتناهى إلى أنفه عطرها ويشعر في يده المتعضّمة بيدها الناعمة .

"لقد أُنقذ برونيتّينو تماماً وللأبد ! لقد حكيت لك أن أندريا كانت قد استسلمت ووعدت ألا تغلق عليه الباب بعد الآن. لكنني أريد أن أتأكد من ذلك تحسّباً لجميع الظروف. على كل امرئ أن ينجو بنفسه ، وأنا لم أثق أبداً بأولئك المخلّصين أمثال موسّوليني. لذلك فقد عَلّمت برونيتّينو كيف يمكنه أن يصل إلى مسكة الباب التي لا يطولها : يسحب كرسياً إلى جانب الباب ويتسلّق عليه ثم يحرك المسكة. يا له من ملاك ! لقد نجح في ذلك من أول مرة. إنه صبي نبيه. والآن أستطيع الذهاب إلى المشفى وضميري مرتاح، فالصبي بدأ بالاعتماد على نفسه. وأنتِ موجودة [معه] أيضاً ."

وبعد فترة كانت أورتنسيا جاثية [مع برونو] في الكنيسة ، تصلي في زاوية القديس كريستوف. إنها تنظر إلى اللوحة وترى فيها الصورة الفوتوغرافية لبرونو يحمل حفيده

على يده المرفوعة[1] (التي تحتفظ بها في خزانتها، في زاوية قدس الأقداس بعيدة عن أنظار الغرباء). أما الشيخ فيرى أنه معها سيتمكن من الوصول إلى الضفة الأخرى بسهولة أكبر. ويفكر: 'نعبر أورتنسيا وأنا النهر مع برونيتّينو الذي يجلس على سواعدنا المعقودة ويلف ساعديه الصغيرين على رقبتَينا. ويكرر بعاطفية: هكذا، نعم هكذا تماماً: جنباً إلى جنب.'

وتلتفت أورتنسيا إليه.

"هل تتذكر المرة الأولى التي كنا فيها هنا معاً؟"

"طبعاً، بعدما زرنا قدّيسكِ فرانسيس. كيف لي أن أنسى ذلك؟ ولذلك فسنتزوج هنا. ولكن يجب على القسيس أن يكون عدواً للفاشية، كالدون جوسيبّه[2]، الذي خبّأني في قبة الكنيسة، عندما كان يلقي موعظة. فتى مسكين!" (نعم، كان اسمه المحترم جوسيبه. لقد تذكّر الآن ما كان قد نسيه.)

لقد أصبح [الزواج] قضية محسومة، ولو أن أورتنسيا كانت قد تكلّفت التحفظ في البداية. وعلى كل الأحوال فسيصل قريباً أمبروزيو مع الأوراق بعد أن طلب منه الشيخ ذلك. وكم يستمتع الشيخ بتصور تعبير وجه صهره، الذي لم يتوقع أن يقف أمام سيدة بيت جديدة وجهاً لوجه. وبفرح عارم يتخيل وصوله إلى القرية مع هذه السيدة الرائعة. أورتنسيا هي الأهم لأنها تعلّمه الحياة وستعلم برونيتّينو أيضاً. لا يغرنّك أنه يعتمد الآن على نفسه، فالمرأة لا غنى عنها. ولا شك أن والدَيْه سيهتمان به، لكن كيف تعلّمه أندريا شيئاً لا تشعر هي به؟ لا يجب على الصبي أن يمرّ بما مرّ به جدّه [من إخفاقات]! لا يجب أن يفوّت عليه شيئاً، ويُفترض أن يتعلم منذ البداية كيف يفهم النساء!

"هكذا ستصبحين جدّةً له تمسك بيده. إن الصبي بحاجة إليك!"، يضيف مستطرداً.

---

١. التي كان الجدّ قد طلب من ابنه أخذها في عشية الميلاد.

٢. Don Giuseppe

"وأنت؟ ألا تحتاج إليّ؟ ، تردّ عليه بغنج مصطنعة الإهانة."
"ألم تعرفي ذلك بعد؟"
"بالتأكيد أعرفه أيها المغفل، ولكني أريد أن أسمعه منك!"
"لقد قلته لك!"

وتعود أورتنسيا إلى صلاتها، ترن في إذنها الكلمات العذبة : "سنتزوج هنا". نعم، لقد قالها. أورتنسيا لا تحتاج إلى زواج – هي مسرورة كما هي. ما الذي ستغيره المراسم؟ ، لكنها متشوقة إليها. وعندما يعودان إلى الشقة التي تتلألأ غرفة جلوسها الصغيرة بضياء هذا النهار الصّاحي، يتجهان إلى المطبخ ليحضرا الباستا[١] على الطريقة الجنوبية. على أية طريقة : بحسب منطقة أمالفي أم بحسب منطقة كالابريا؟ وتبدأ مشاحناتهما المازحة : أي نبيذ يناسب هذا الطعام أكثر من الآخر، هل عليه أن ينزل ليحضر حلويات، أَمِنَ المستحسن أن ترتدي الزيّ الروكاسيري التقليدي[٢] أثناء مراسم الزفاف بالإضافة إلى الخاتم الماسي[٣] والحلق وسلسلة العنق والأساور؟

على سطح البناء المقابل تنقر بضعةٌ من عصافير الدوري [باحثة عن أكلها] ، فتلقي لهم أورتنسيا بفتات الخبز.

وبعد أن انتهيا من تناول الطعام، يسرح الشيخ بنظره في تلك الغرفة. اللوحة التي تمثل منظر أمالفي، آلة الماندولين، النباتات الجميلة الموضوعة في الأصص النظيفة. ما هذا السلْم! وكأننا نولد من جديد.

'ولكن أين [وضعتْ] صورة توماسّو؟ لقد اختفى كـ "دونكا". إن هذه المرأة تفكر بكل شيء. نعم، أصبح كدونكا في عداد الماضي.' ويشعر بعاطفة قوية تجتاح روحه. يقف ويتّجه إلى المرأة التي تنظّف المائدة.

---

١. Pasta : المعجنات المقطّعة باختلاف أنواعها.
٢. Concertu
٣. Brillocu ذو الفصّ الماسي.

"ماذا تفعل يا برونو؟"، تهتف أورتنسيا إذ تشعر بيديه تطوّقان خصرها. وتتركه يقبّلها شاعرة بأحاسيس منسية. تضحك مرحةً وتحرر نفسها منه.
"ما هذا الجنون؟ اذهب ونم قيلولتك : أنت ماجن يحتاج إلى الراحة!"
نعم : ماجن. مرّ زمن طويل على قبلة حقيقية من هذا النوع. 'ما أحلى أن يستسلم العدو الآخر أيضاً : روسكا! ولكن هذا مجرد تمنٍّ، فلاتزال ضرباتها حديثة العهد.'
"موافق. ولكن فقط إذا أتيتِ واستلقيتِ بجانبي!"

وترى نظرته الذكورية فتشعر باضطراب ذي حدَّيْن. 'ماذا أستطيع أن أقدّم إليه بعد؟'، تفكر حزينة في ما آل إليه جسدُها. ولكن الشيخ لا يقبل أعذارها.
"لا تقفي هكذا! ليست هذه المرة الأولى!"
"في ذلك اليوم كنتُ مريضة."
"ألا تثقين بي؟"، ومع هذه الكلمات تلمع في خلده لحظةُ سعادة واعدةٌ برّاقة.
[يقول:]
"لم نعد شابَّيْن. لا تتوقعي الكثير – لقد قلت لك هذا سابقاً. [يبقى] السرير المكان الأفضل الذي يجمع الرجل والمرأة."

كلام وصمت يسيطران على غرفة النوم التي تزيّن الأشكال أوراق جدرانها وتسبح في عتمة ربيعية خفيفة. نصف عاريَيْن يستلقيان تحت البطانية جنباً إلى جنب. كلماتهما نجوم تسطع في كل غروب وشرارات حمر تتناثر من [كل] نار هادئة وأسرار بين [كل] اثنَيْن. وصمتهما يقول كلّ شيء عن كامل حياتهما التي تُبعث الآن من جديد، تزدهر، تتكامل بتَوْق أحدهما إلى الآخر. كائنان يصبح وجودهما نسيجاً من الشوق والأمل. لذلك تأتي بعد كل صمت اعترافات جديدة.

"لقد كنت أغار من دونكا إلى أن تحدثنا مؤخراً بعد الظهر"، تعترف له أورتنسيا بصوت خافت، "ومازلتُ ..."
"فقط من دونكا دون الأخريات؟" يسألها الشيخ.

"أعرف أنه كانت لك أخريات. ولكنك كنت أنت لدونكا - إلى الحدّ الذي قدرت عليه."

"وأنا لكِ أنت بالكامل. إني مستسلم دون أية شروط. وغريب أنّي الآن لم أعد أشعر بالخجل من أن أكون مع امرأة دون أن أمسّها. هل ترَيْن ماذا فعلتِ بي؟ ومع دونكا كان الأمر معكوساً: لقد تمتعت أنا بها ولم أتوقع أبداً وجود أشياء أخرى!"

وتدور أورتنسيا في سريرها لتتجه صوب الشيخ متكئةً بكوعها على المخدة، وتضع في نظرتها إليه كلَّ ما تملك من قدرة على الإقناع:
"لا تشعرْ بالأسف! لقد أعطيتَها ما أرادتْ! "الحيوانَ البديع" كما عبّرتَ أنت، شيئاً لم تكن قد عرفتْه من قبل."

وتترك الشيخ هنيهة يفكر فيما قالتْه، ثم تضيف:
"لا تعذّب نفسك. لقد كان كل شيء كما كان يجب أن يكون. كانت عاطفة دافيد تجاهها حاضرةً، ولم تُرِدْها. لقد أعطيتَ كل شيء كان بحوزتك. الآن فقط تعرف أن جعبتك تتسع لأكثر من ذلك."
'نعم، الآن فقط. ولكن ماذا أفعل حالياً؟ ماذا يربطني بميلانو غير الصغير وأورتنسيا؟'
"نعم. الآن أعرف ذلك من خلالكِ."
"حبٌ واحد! لأنك أنتَ الذي تعطيه للاثنيْن."
وصمت طويل آخر.
'أأنا الذي أعطي!' إنه شيء جديد تماماً طرأ على تفكيره في الأسابيع القليلة الماضية حصراً.
وما كان يكرهه سابقاً، يعجبه الآن: وجه يتأمله من علٍ. وجه يُسعَد برؤياه كيف يرفرف فوقه، وجسد يسيطر عليه، وفتحة تظهر تدويرة الثّديَيْن العامرَيْن اللذين يرنوان إليه.

إنه مسحور بكل ما يحصل معه. وما انفك يسأل دائماً: 'ما هذه السُّلطة التي يمتلكها

جسد المرأة المكوّر والطريّ كالقمر. قمرٌ يحرك البحار؟'
"ما هذه السلطة التي يمتلكها جسد المرأة؟" لفظها الآن بصوتٍ عالٍ، دون أن يقصد.
"هي ذاتها سلطة جسد الرجل"، تهبّ أورتنسيا متهيّجة عندما يمسك بثدييها ويطلق أنّة عميقة.

وصمت ثان، فالآن تتحدث الحواس!
ومرة أخرى ذات الشكوى، مكررة وواحدة وحيدة.
"ألا تأسفين لوجود مجرد جسد ميت بجانبكِ؟"
"جسد ميت؟" تعترض برفق. "إنه على قيد الحياة، أم أنه لا يشعر كيف أداعبه: كيف أداعب الشعر الكثيف على صدرك، وكيف تحاصر أصابعي الخصلات الثائرة على رأسك؟ وتحتها القلب، قلبك أنت يقول لي: أنا حيّ."
وصمت ثالث أطوَل وأعمق يطغى على الأصوات ويغطّي اللمسات الدافئة ويبارك حبيبَيْن يتعارفان، ويبلغ ذروته بشهقة ألم تصدر عن الشيخ:
"كنت لأعطي كلّ شيء في سبيل أن أرجع كما كنت، وأستطيع أن ..."
وتترك يدُها الصدرَ المغطى بالشعر لتغلق بإصبعها الممدود الشفتَين اللتَين تطلبان ما لا طاقة لهما به.
"اهدأ! لا تكن متطلّباً في هذه الحياة!"
ويعتريها خوف تحاول أن تخفيه بأن تكرر:
"لا تكن متطلباً كيلا يفوتك الكثير!"
نعم. يجب أن يقبل المرء الأمور على حالها ويعرف كيف يشعر بقيمتها. ومازالت أورتنسيا متكئة على كوعها.

'الإتروسكيان'، يتذكر الشيخ. ليس على قاعدة مرتفعة [وإنما في السرير]! إن السرير بحرٌ هادئ تتحرك عليه أمواج المحبّين [منطلقةً بحرية]. وقمة الحرية هي العطاء. الآن وبفضل أورتنسيا تحرّر من الألم النفسي الذي كان يخيم عليه وكانت ذكرى دونكا تسجنه فيه، ومن الألم الجسدي الذي عانى منه بسبب ضربات روسكا الأخيرة

الجائزة. وبرضىً يقف قرب الباب الذي سيخرج منه قريباً ، لأنه الآن يعلم كيف ينتصر على القدر بتمسّكه بالشيء الذي لا يمكن تدميره : بالحياة التي يحياها الآن، وباللحظة الآنية الزّائلة، وبالعيش بكل جوارحه.

وفي تلك الأثناء ، تُحس بالدموع الغزيرة ، تجري في داخلها الذي يغرقُ حزناً عليه وعلى نفسها . وهمّت بأن تأخذه بين ذراعيها وتعيد مشهد ميكل أنجيلو[١] الذي شاهدتْه في مرآتها ، فإن صغيرها برونو خفيف الحِمل. وأوقفها خوفها من أن يشعر بما تفكّر به ، فتتماسك وتتماهى مع اللحظة الراهنة.

'دعها يا ربّ تستمرّ وتستمرّ!'

---

١. Pieta

٥٨

بمناورةٍ ماهرةٍ تتجنّب السيارة الصغيرة صداماً كان ليحدث مع عربة شاحنة رعناء.

"أنت تقودين بشكل ممتاز يا أندريا!"

وتلتفت السائقة إليها مبتسمةً وترد :

"وأنت تفهمين بالشّراء!"

"لقد كنت أعمل بائعةً. ولكن أولئك الفتيات العاملات في "Rinascenza"[١] لا يفقهن شيئاً في البيع. واجبهن اليوم يكمن في توجيهكِ إلى صندوق الدفع، بينما تعرفين مبلغ السعادة عند المشترية عندما تلتقي ببائعة خبيرة تساعدها في اختيارها، أو بالعكس، سعادة البائعة بمشترية تقدر فنّ البيع. وأنا شخصياً تمتّعت بعملي."

إن أندريا تصدقها تماماً لأنها استفادت بعد ظهر هذا اليوم من ذوق أورتنسيا الفطري [!] ومن مهارتها في المزج بين النوعية والسعر الزهيد. فيدها تغرق في بضاعة العرض الخاصة، كما تزجّ النوارس نفسها في مياه البحر، لتلتقط من خضمّها غنيمة حقيقية.

وبينما تركز أندريا على حركة المرور تسأل نفسها : كيف يمكن لمثل هذه المرأة الحكيمة، - رغم بساطتها [!] - أيضاً المرهفة أن تقع في حب رجل مثل حميها؟ هو بالذات؟ وأندريا لا تجادل في أن حماها يتمتع بميّزات معينة، ولكنه مثير مشاكل! كيف كان له أن يوقظ مثل هذه العاطفة عند أورتنسيا؟ والمال لا علاقة له هنا يجب أن تعترف بذلك، فلقد رفضتْ أورتنسيا أن يكون زواجها ببرونو مرتبطاً بحقها في الإرث.

---

١. يبدو أنه تسمية لمكان تسوّق في ميلانو.

هذا ما قالتهُ أورتنسيا لها عندما تحدثنا لأول مرة عن هذا الزواج.

"لا أريد ليرةً واحدة. أريد فقط أشياءه الشخصية التي رأيتها في غرفته : البطانية، موسى الجيب ..." ولم تستطع أن تكمل، لأن بكاءها خنق صوتها .

'لا. ليس السبب في المال! أما ابنتها فهي من أمها غاضبة، لأنها كانت قد طمّعت نفسها بالتركة. عجبي من هذه المرأة السوقية، المختلفة كليةً عن والدتها .'

"سأكون شاهدة زفاف إذا أصرّوا على ذلك"، هكذا قالت الابنة لأندريا بكل احتقار، عندما أصبحتا وحدهما، "يجب أن تكون أمي قد أصيبتُ بالجنون كي تتزوج شيخاً وتذهب معه لتدفن نفسها في "ثقب" ناءٍ، دون أن تحصل في المقابل، أقل ما يمكن، على فوائد مالية."

تفهم أندريا خيبة أمل الابنة. وسيكون من سوء حظ أندريا أيضاً لو أن أورتنسيا اشتركت في الإرث. وبما أن موضوع "الثقب" يتوافق تماماً مع ذكريات أندريا [في روكاّسيرا]، لا تنفك أندريا تسأل نفسها عن السبب الذي يجعل الشيخ جذاباً . من المؤكد أنه كان في شبابه رجلاً جميل الطلعة. ولكن هذا "كان ياما كان" من جهة، ومن جهة أخرى لا يمكن اعتبار الشيخ مثقفاً أو متمدناً . قد يكون السبب في حيويته : لقد أدهش في الأيام الماضية الجميع بنشاطه في إتمام الإجراءات اللازمة [للزواج]. حتى أمبروزيو العنيد، الذي وصل قبل فترة قصيرة من الجنوب ليكونَ شاهد زفاف، يعترف بما أصابه من تعب، ويمتدح الشيخ باستمرار على ملاحقته للدوائر الرسمية دون كلل أو ملل، وبالأخص على صدامه مع السلطات الكنسية. لقد أصبح القس الشاب الذي يجلس في الاستعلامات يرتعد منه خوفاً . وأيضاً دالانوتّه كان متفاجئاً عندما ذهبت أندريا لزيارته منفردةً، وطلبت رأيه فيما يخص الزواج المرتقب.

"في هذه الحالة المتقدمة لا يستطيع المريض مغادرة سريره. ولكن إصراره، ولنقل شخصيته القوية بغض النظر عما يعنيه ذلك، [مازالت] تنتصر على المرض وهي التي توقفه على رجليه. اتركوه يتزوج، اتركوه. إن الوهم هو الذي يقوده. ولكن بعد ذلك ...

ستكون النهاية بالتأكيد سريعة جداً. هذا جيد له، نعم، هذا أحسن بكثير ...“

وتتذكر أندريا جيداً نبرة صوته المتألمة، حتى الشجن، التي لفظ بها الجملة الأخيرة بعيداً تمام البعد عن اللغة العلمية. لقد تفاجأت جداً، وكأن الأمرَ يمسُّه شخصياً. ولكن لماذا؟

ومازالت أورتنسيا مستمرة في تقييمها للمتغيرات التي حصلت في عالم البيع بالمفرّق[1] حتى اقتربت السيارة الصغيرة من جادة پيافه واخترقتْ شارع ديللا سپيغا[2]، لتصل إلى زاوية شارع بورغوسبيسّو. تقول أورتنسيا الآن في دخيلتها حين مرّت السيارة من تحت بلكونها: ‘لقد تغيّرتُ أكثر [منه]. لم ألحقْ أن أرى نفسي وحيدة تماماً في هذه الشقة، حتى قرّرتُ إغلاقها والانتقال إلى الجنوب. وفوق ذلك مع رجل وحفيد وعائلة جديدة. ما هذه المفاجآت التي يمكن للحياة أن تخبّئها! قبل أسابيع قليلة لم أكن أعرف تلك المرأة التي توصلني الآن بسيارتها، ولم أكن قد التقيت بريناتو. ريناتو! إنه هدية من الله. كنت أتمنى لو يكون لي ابن مثله. كم يفهم أحدنا الآخر وكم يثقُ بي! فبعدما قصّ علي أشياء كثيرة عن أمه، شعرت بأنني كنت أعرفها معرفة أخت بأختها. آه يا برونو، ما هذه القوة التي تأخذنا بها فتنسجنا في نسيج واحد بعضنا مع بعض. من منا يستطيع أن يقف بوجهك يا صاحب الرأس السميكة؟ أنت تقتلع الجميع، وكلنا يتبعك حيث تذهب. حيث تذهب أنت ويذهب برونيتّينو خاصتك، برونيتّينو خاصتنا ... إنه يشبهك بحيويّته. لنَرَه عندما يصبح شابّاً ...!’

وتمرّان في شارع ديللاسپيغا لتصلا إلى بوابة فينسيا[3]، ثم تختصر أندريا الطريق إلى منزلها مارّة بشارع سالفيني[4]. ولما تجاوزتْ السيارة باب مخزن المواد الغذائية، تذكرت أورتنسيا اليوم الأول الذي زارت فيه هذا المخزن مع زوجها، وتذكرت النظرة الثاقبة

---

١. عكس البيع بـ "الجملة" الذي يصبح سمةً للبيع الحديث (في المخازن الكبيرة).

٢. Della Spiga

٣. Venezia

٤. Salvini : الشارع الذي يقع فيه مخزن مادالينا.

التي رمتها بها تلك السيدة الممشوقة القوام "مادالينا" . لقد كانت نظرةً تملأ معانيها كتباً . ولم تردّ عليها أورتنسيا بابتسامة من يعرف مغامرات بائعة الفواكه القادمة من تارانتو . لم تردّ عليها أيضاً بلطفها الطبيعي المعتاد ، لأنها قرأت في وجه مادالينا حسداً وتأسفاً . كانت مادالينا لتودّ أن تحصل على برونو أيضاً .

وتنسى كل هذا عندما تقتربان من المنزل، إذ تعتلي وجهَها عند دخولها البناء ابتسامةٌ عنوانها مشروع مستقبلي: صبي مثل ريناتو ولكن بحبٍ للحياة وطلّةٍ رجولية تُشبه سالفاتوره الشاب. وما إن فتحت أندريا باب الشقة حتى اندفع الصبي إلى أورتنسيا فاتحاً ذراعيه وصارخاً من الفرح.

"إنه يحبّك أكثر مني"، تقول أندريا وتُسرّ رغم ذلك بميل ابنها إلى أورتنسيا التي تتوقع منها مساعدة كبيرة في تربية الطفل.

"كيف يمكنكِ أن تقولي هذا الكلام. هذا غير صحيح على الإطلاق." تجيبها أورتنسيا حاملة الصغير. "أنا جديدة هنا ، وأنت تعلمين أنه لا مجال لاستبدال الأم. وإذا اضطُر لأن يختار ، فسيختارك على الدوام."

"من أين لي أن أعلم؟"، ردّت أندريا بجدية. "لقد ماتت أمي وأنا في الثالثة من عمري."

ونظرت إليها أورتنسيا وفهمت الكثير، ثم لفّت يدها الحرّة على خصر أندريا ، بينما كانت تشعر بالطفل [في يدها الأخرى] يتشبّث ساعداه الصغيران بعنقها .

'إن زوجي هو صغيري برونو'، تقول لنفسها باهتياجٍ، وأنتَ يا ملاكي أصبحت بالنسبة لي برونو الكبير الذي يطوّق رقبتي بساعديه. أحبكَ من أجله وأحبّه من أجلك. أتمنى أن أراك في يوم من الأيام شبهه، وأن تكون أنت من سيغلق لي عينيْ [حين مماتي].

٥٩

بسبب ارتباطاته الحزبية، يقضي زامبريني عدة أيام في ميلانو ويتفق على موعد – عن طريق دالانوتّه – مع الشيخ لتناول الغداء، وهذا في قهوة رصيف بحسب رغبة السيناتور زامبريني. وكان الأخير دائماً عدواً للفنادق الكبيرة، التي يُضطر اليوم إلى النزول فيها. ويظهر أمبروزيو في هذا الاجتماع واضعاً – كعهده – عوداً في زاوية فمه. وبعد الغداء جلس الثلاثة يتذكرون الزمن الماضي العتيد، جالسين أمام فنجان من القهوة.

يتذكرون مهماتٍ خطرةً قاموا بها، ومواقف حظ مرّوا بها، ولحظات نصر. مع زامبريني يتناقشون في موضوع الشيوعيين. ولكنهم جميعاً متفقون، بأن يومهم الحالي يسجل تراجعاً ملحوظاً مقارنةً مع الحماس الذي كان مسيطراً بين أوساط الشعب في عام ١٩٤٥. في النهاية، وكيف لا، تداولوا في موضوع الزفاف الذي لن يحضره زامبريني متأسفاً. قال أمبروزيو :

"هذا شيء خيالي –لم يحسب حسابه في القرية أحد– يتوّج نصرنا. إن الناس في روكاّسيرا لا يستطيعون الإفاقة من دهشتهم. وبسبب هذه القصة وبسبب خلافاتهم على تقسيم الأراضي، لم يبق لكانتانوتّي صديق واحد في الضيعة. لقد وضعتَهم جميعهم يا برونو في جيبك الصغير، صدق أو لا تصدق! وحتى الراهبات المريميات تظننّ أنك أخيراً ستعود إلى الطريق المسيحيّة القويمة. إني أراهنك أنهن يصلين من أجلك، وخاصة أولئك الأخوات اللواتي التهمتَهن في الحقول وهن في عمر الزهور!"

ويضحك الثلاثة.

"هل تعرف ماذا يغضبهن الآن!" يضيف أمبروزيو. "أنك لا تتزوج في روكاّسيرا!

وبهذا يفوّتن هذا الزفاف الأسطوري!"
"إذا تزوجتُ في دائرة كنسية أخرى، فسأحتاج إلى أوراق إضافية"، يعتذر الشيخ. "وعدا عن ذلك، لا أريد أن يعطيني ذلك "القس" في روكاّسيرا مباركته! أم أنك معجب بهذا القديس الأكبر؟"

أمبروزيو لا يطيقه بالطبع.

"تزوجْ كما يحلو لك!"، يتدخل زامبريني. "في النهاية هذا زفافك. ولكنك لن تستطيع الإفلات من هدية جوقة الغناء[1]!"

ويبتسم الشيخ مبتهجاً بإمكانية حدوث مثل هذا المشهد المميّز.
"سأعمّر اللوبارا [البندقية القديمة] بما هبّ ودبّ، وإن لزم الأمر بالملح، في حال أن أحدهم لن يحسن التصرف. ولا أعارض، فهذا عرفٌ وبخاصة عندما يتزوج الأرمل، وما بالكم إذا كان الزفاف خارج القرية. ولكن أريد جوقة غنائية نظامية، وليس مهزأة تمسّ زوجتي."
"لن يتوجب عليك يا برونو أن تطلق على أحد"، يؤكد له أمبروزيو. "ليس لك في القرية أعداء بعد الآن."
"أو قل إنّ أحداً لا يتجرأ على معاداتي"، يردّ عليه الشيخ بكل ثقة.
"معك حق. أو هذا."

ويهز الشيخ كتفيه لا مبالياً، ثم يتوجه إلى زامبريني بكل جدية:
"ستقول إني مجنون يا ماوريو، كوني لن أعيش إلا قليلاً. لقد روى لك دالانوتّه بكل تأكيد. وبالمناسبة، فإنه شخص لا غبار عليه."
"نعم، لقد شرح لي كل شيء. وقال لي أيضاً أنه يحسدك، لأنه هو نفسه قد استسلم. لا. لستَ مجنوناً يا برونو، إنما أنت عاقل جداً. أنا أفهمك."
"طبعاً عاقل!"، يصيح أمبروزيو مقاطعاً. "وأقول هذا، لأني قد تعرّفت إلى أورتنسيا.

---

١. كما ورد في سياق الرواية: جرت العادة أن تُغنّى الاشعار الهزلية في حق صاحب الدعوة.

ويا ليتك رأيتها يا ماوريو ... ! إنها المرأة المثالية. إذا لم تتزوجها [يا برونو] ، فسآخذها أنا !" ، ينهي أمبروزيو العازب كلامه ويُظهر حركات وجهه المضحكة التي يَشتهر بها .

"لا تَبن قصوراً في الهواء ، فهي لا تحب غيري !" "يتمنفخ" الشيخ ويلتفت مجدداً إلى زامبريني.

"أتعلم؟ سأقضي هذا الصيف في روكاّسيرا مع أورتنسيا وبرونيتّينو ، وسأعيش كل ساعة بشكل مركّز لا يقدر عليه أهل ميلانو عبر عام كامل. برونيتّينو ! سأنظم وليمة في اليوم الذي سيدعوني فيه "نونّو" . لا أطيق صبراً ! لن يستغرق هذا وقتاً طويلاً ، علماً بأن وقتي يكفيني حتى موعد جمع الكستناء ."

ويقاطع نفسه ويقول بجدية كبيرة :

"نعم. عندي وقت. وسيبدأ هناك [برونيتّينو في روكاّسيرا] بتعلم الكلام. وعدا عن ذلك وفي المستقبل ... في المستقبل، أنت تعرف ماذا أعني يا ماوريو ..." ويخفض صوته، وينحني نحو رفاقه. يبتسم بخبث، ويخبر بكل فخر عن استراتيجيته في الحياة :

"في المستقبل سيكون لبرونيتّينو - ملاكي ومتاعي في هذه الدنيا - أفضل جدّة في العالم، المرأة المناسبة لتصنع منه رجلاً حقيقياً ."

ويصمت الشيخ كي يتخيل أورتنسيا ، التي ستستبدله على نحو أفضل. نعم، يتصورها الآن موجودة في غرفته الحالية عوضاً عنه، جالسة على الأريكة التي تنقلب إلى سرير ، منتظرة الزيارة الليلية للملاك الأبيض ثم ضامّةً إيّاه في حضنها ، متحدثة عن جده برونو : كيف كان وكيف أن حبّه لهما بلغ حدّ العبادة.

٦٠

ها هو الملاك الأبيض المضيء يتوقف عند الباب المعتم ويرفع يديه إلى الأعلى. إنه مستغرب لأن هذه الليلة لا تبدو ككلّ ليلة يستطيع فيها الطيران إلى صدر الشيخ، يرغو منغماً بلغته السرية وعابراً الغرفة ببعض الخطوات ليلمس سرير جدّه.

يفتح الجدّ عينيه ويعي وجود هذه الظاهرة المتألقة فيقوم ليجلس في سريره (لماذا يشعر اليوم بنفسه متعباً بهذا الشكل؟)، ثم يرفع الملاك إليه واضعاً إياه على السرير.

"إنني ملتحق بمركز مراقبتي يا صغيري. لقد انتظرتك. تعال واركب معي لأننا نريد الانطلاق. لقد أصابت السيارة الشيخوخة قليلاً، ولكنها لا تزال تسير. لقد صادرنا هذه اللانسيا[1] من الأمير. هل تتصور هذا، في الوقت الذي كان الأمير فخوراً جداً بمركبته!

أنا متأكد أنه عندك رسالة قتالية لتوصلها. لستَ بحاجة أن تخبرني عنها أي شيء. إنني أعمل بها لأن الرسائل في الجبال تنتقل بسرعة كما دخان الأحراج، وبالذات الرسائل الجيدة. إن قواهم تتقوض وإننا لفي المقدمة يا صغيري. لقد أعطوا موسوليني ركلة على قفاه لأن السبل قد تقطعت بهم. إنهم يهربون كالفئران. الجماعة في كوسينزا[2] رموا الألمان الذين لم يعد لهم حول ولا قوة إلى البحر. وذلك لأن دافيد فجّر قطارهم المليء بالذخيرة. صاحب الحظ دافيد الذي يوجد الآن في ريميني وفي طريقه للشفاء من جروحه. إنه هناك مع حبيبته دونكا وإنهما ليستحقان هذا بجدارة. يا له من عالم

---

١. Lancia ماركة سيارات معروفة.

٢. Cosenza

رائع. انظر! أنتَ وأنا نسافر بسيارة حقيقية كالجنرالات. لن نضطر بعد الآن للمسير عبر الأحراج الشوكية. يكفينا حصار لمواقعنا، ألا تتذكر كيف كنّا محاصرين؟ لا حصار بعد الآن. لم يعد هذا وقت المشي بل الاتجاه ركوباً إلى الأمام، إلى أسفل الجبل! ولكن يجب أن نكون طبعاً متيقظين دائماً: يمكن أن يصادفنا في مكان ما قناصة منفردين من الفاشيين ما يزالون مختبئين بين الأدغال. ولكن هذا لن ينفع بعد الآن، إنهم مهزومون!" ويتقرّب الصغير متحسسا جسم جدّه، باحثاً عن الذراعين اللذين يضمّانه كل ليلة.

"يا ملاكي، أنت تندفع مثل لامبرينو! وكم أنت مقدام! بهذا العمر الغضّ تعرض علي تقريرك العسكري... ألا تشعر بالبرد؟ يجب عليك أن تأخذ حذرك من رطوبة الليل. ولكن لا عليك، سألفّك جيداً."

يأخذ الشيخ الجزء من البطانية المتجمع عند قدميه ليغطي الصغير به، في حين أن الطفل يرفض ذلك ويمانع بيديه ورجليه.

"لا، لا" يعلو صوت الطفل.

يضحك الشيخ ويضمه إليه.
"عندك حق. هنا بالقرب مني أفضل. فعندك جدّ لكي تعبث في حضنه. ولم لا؟ إنني قوي بشكل كاف ولا أشعر بالتعب، خاصة ونحن راكبان في سيارة. ولكن إذا كنا في حرب فستأتينا الرصاصات. أبقِ عيونك مفتوحة لأنه وقت الفجر. إنه الوقت الأنسب لهجوم مفاجئ. المكان مهيأ تماماً لذلك لأننا نعبر غابة الكستناء. هل تتعرف هذه الغابة؟ لقد تذكرتَ أليس كذلك؟ فلقد تحدّثت لك عنها مراراً وتكراراً! أليست جميلة؟ ولكنها أيضاً خطرة لأنها قد تخفي شخصاً ما. أو كميناً: حبل مربوط بين شجرتين ثُبِتَت عليه رمانة متفجرة لا تحس حتى بوجودها حين تلمسها. أخيراً، إنه الصباح وإننا نخرج من الغابة. وحين نتخطّى المرتفع سنرى القرية. الآن! هل تراها؟ هل ترى برج الكنيسة على يسار بيتي؟ هل ترى الشرفة؟ روكاّسيرا، روكاّسيرا

خاصتي! عاشت روكاّسيرا! ها، ها هي العلامة!"

في فناء البناء أضاء النور النافذة المقابلة. الشيخ متعب، لكنه يأخذ القوة من الشحنة العاطفية التي تعتريه وينتصب واقفاً على السرير حاملاً الطفل على ساعده.
"العلامة! إلى الأمام! إنها آلة الترومبيت، هل تسمعها؟ لنغنِّ جميعنا! هذه هي أغنية الفدائيين القديمة!"

وتبدأ الحنجرة المتقطّعة الأوصال حشرجة لحن الأغنية الكفاحية عبر هدوء الليل. وتصعد من نافذة أخرى غير مرئية إشارة ضوئية نيرانية. وها هو الشيخ ينكفئ صامتاً ثم ينفجر بالصياح الاحتفالي. "صاروخ! هذا أمبروزيو! إنه مجنون بالصواريخ! لقد سقطت روكاّسيرا بيد الثوار".

احتفالية صامتة.

أخيراً، وبضربة واحدة، يصبح الجهد المتحمّل عن طيب خاطر صعباً لا يمكن الاستمرار معه. 'كما مع القديس كريستوف'، قال الشيخ لنفسه عندما أمسك بصدره تشنجٌ عظيم متصاحباً مع ألم كبير أدى إلى تعطيل ساعده.

يسقط الشيخ الواقف على السرير على ركبتيه ويترك الصغير طليقاً. "لقد أصبت يا طفلي. إنه قنّاص فاشي برز من بين الكثبان. لا تفزع يا صغيري فبرونو عندك... برونو! وبالمناسبة فحظي دائماً جيد مع الرصاصات. لقد وصلنا وستكون أورتنسيا بانتظارنا. وبينما سأتعافى أنا ستحرص هي عليك. إنك تحبها منذ الآن، وهل عرفتَ أنها ستكون جدتك؟ أحسن جدة على وجه الأرض؟ لا تخف يا كنزي، إنها ستكون حاميتَك...".

وليحمل الألم على التوقف، يضرب على صدره ضربةً قوية بشكل ينقطع معه الخيط الحامل للكيس الصغير، لتسقط التعويذة من الكيس وتستقرّ على السرير.
"إنه هذا القناص الخنزير!"، يصرخ الجدّ، ولكن صراخه يختنق في آهة ألم. يجلس الشيخ ويلقي بظهره إلى مسند السرير ويدمدم:

" لا أستطيع أن أرى شيئاً . . . الشمس . . . إنها تبهر ناظري الآن، بالتأكيد لأنني أخرج من الظلّ . . . " .

إنه يسكن لحظة ليوفر من طاقته في حين يستمر دماغه في العمل، بينما يسحق الألم صدره ضاغطاً عليه بكمّاشة لا تعرف الرحمة . 'لا شيء، لا شيء، كم هي جميلة هذه الصواريخ ! هذا الكمّ من الشرر يضيء السماء ! هل تسمع؟ إنني أعود معك منتصراً كما أردتُ ذلك دائماً . معك يا ملاكي . '

إن هذه الليلة التي أصبحت مختلفة عن غيرها جعلت الطفل حائراً . قصد الطفل وجهة جدّه زاحفاً نحوه ببطء . لقد تمسّك بذلك الساعد الذي أصبح مشلولاً واعتمد عليه ليستقيم ويقرّب وجهه الصغير من وجه الشيخ . إنه ينتظر وينتظر . . . إلى أن تنبّه غريزته عمّا يعني زوال العالم وفراغ الظلمة . وتقهره الوحدة بضربة تنتزع منه تلك الكلمة التي سمعها كثيراً :

" جد - دو " . قالها لذلك الوجه بوضوح تام . ذلك الوجه الذي تدور عيناه دون جدوى ودون أن ترى، ولكن أذنيه تبتهجان بشكل كامل . ويعيد الطفل كلامه بصوت يشبه نداء الحيوان الوليد المتروك في البرية : "جدو، جدو، جدو . "

وأخيراً هذا الغناء السماوي !

إنها ألوان من عالم آخر وومضات من آلاف النجوم تشعل القلب الواهن وتنتزعه با تجاهها نحو الصفح والروعة . إنها الكلمة التي لا يمكن سبر قرارها : ج د و

وهكذا يهب الشيخ نفسه لهذه الكلمة إلى الأبد وتتكور شفتاه صانعتين اسم صغيره، الاسم الذي لن يتمكن من لفظه بعد الآن .

في خضمّ وحدته يبدأ الصغير بالنحيب، لكنه يهدأ عندما يشم رائحة الذراعين حاضرة في البطانية . يلف نفسه مطمئناً في ثناياها، في الرائحة التي تعطيه وجود جده من

جديد وتجعل العالم كلّه مليئاً بالحياة مرة أخرى. وبينما تلعب يداه بالتعويذة يعود مرة بعد أخرى ليكرر فخوراً بآخر مآثره: "جدّو، جدّو، جدّو... !"

وقبل أن نعي ذلك، تزدهر في وجه الشيخ المصبوغ بلون الدم ابتسامة، تتحوّل إلى ابتسامة متحجرة لونها بلون حمرة الآجر القديم.

تعرّف ريناتو الذي استيقظ فزِعاً على صوت الأغنية الكفاحية وعلى صوت الطفل. تعرّف فوراً على تلك الابتسامة؛ إنها الابتسامة الإتروسكية.

مصدر التعابير الواردة في حكايتي، المتعلقة بمنطقة كالابريا [الجغرافية الايطالية]، هو كتاب المؤلّف دومينيكو بيتِلّي Dominico Pitelli ذي العنوان 'Catanzaro d'altri tempi'، بالعربية "مدينة كاتانزارو عبر الأزمان"، المطبوع عام ١٩٨٢.

إنني إذ أهدي شكري إلى الكاتب المذكور، أُجمل أيضاً ما قدّمه لي كقارئ من متعة خالصة. فهذا الكتاب خُطّ عن علم ودُوّن بحبّ حافظاً في جنباته "بثاً حياً" لما تتركه مدينة عريقة التقاليد من انطباعات.

ولتحفظ آلهة "كالابريا" السيد [الفارس] بيتللي وتجزيه خيراً.

المؤلف

خريطة إيطالية

منطقة انتشار الحضارة الإتروسكية

خريطة إيطالية

مع أسماء الأماكن الواردة في الكتاب

هذا الكتاب ...

يقول خوسيه لويس سامبيدرو إن موضوع هذا الكتاب يتعلّق بالحب الأول والحب الأخير. يتحدث الكتاب عن سالفاتوره رونكونه المتقدم في السن، الفلاح القادم من منطقة «كالابريا» الواقعة جنوب إيطالية.

بسبب إصابته بالسرطان التي لا تبقي له وقتاً طويلاً للحياة، يتجه هذا المحارب المقدام والفدائي (السابق في الحرب العالمية الثانية) والرجل كامل الذكورة، يتجه إلى المدينة المليونية «ميلانو» حيث يقيم ابنُه.

ولكن شيئاً غريباً يحدث له في بداية رحلته وفي طريقه من بلدته عبر روما العاصمة: هناك يقضي الوقت في انتظار ابنه بزيارة متحف، ويلفت انتباهه بشدة تمثال طيني من الفترة الإتروسكية يجسّد رجلاً وامرأة تعلو وجهيهما ابتسامة ذات علامة فارقة، ابتسامة لن تغادر مخيلة سالفاتوره إلى آخر لحظة من حياته.

وإلى جانب الأحداث التي يتعرض لها مع ابنه في ميلانو تنتظر الشيخ أيضاً تجربة عاطفية جديدة وغير متوقعة على الإطلاق: حبّه لحفيده برونو ومشاعره نحو أورتنسيا، المرأة المترمّلة.

في نهاية درب الحياة يتفاجأ سالفاتوره رونكونه بأحاسيس تأسره وتعرّفه على نواح جديدة وعميقة في فهم النفس وفهم الحياة.

(الناشر الألماني)

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة
www.syrbook. gov.sy
E-mail: syrbook.dg@gmail.com
هاتف: ٢٣٢١١٦٤
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٣م

سعر النسخة ٢٩٠ ل.س أو ما يعادلها